لا شرقية و لا غربية



رواية من أدب التشويق و الخيال

د. غفار محمد

لا شرقية .. و لا غربية ..

الإهداء

إلى صديق وأخ أخذته الحرب ..

لروحك السلام يا كاسترو..

لا شرقية .. ولا غربية ..

أنت هنا في عالم الخيال، وكل تشابه مع الواقع في الأسماء وكثير من الأماكن هو محض صدفة ..

لا شرقية .. ولا غربية ..

محتوى الكتاب :

1. الجزء الأول : لا شرقية و لا غربية
2. الجزء الثاني : نهاية البداية و بداية اللانهاية
3. الجزء الثالث : لقاح الظلام **N**
4. الجزء الرابع : ميتافيرس الروح
5. الجزء الخامس : على قمة الهرم

لا شرقية .. و لا غربية ..

الجزء الأول

{ لا شرقية ولا غربية }

- أوليفر
  - ماذا لو؟
- لا قيمة لشيء في متناول اليد
  - لا شرقية ولا غربية
- ملكة القفير
  - الماضي يعيش من جديد
- في المحار تكمن الأسرار
  - شرنقة الحياة
- واستدار الكون كخاتم في إصبعها
  - أبحث عنك وأنت معي



إسبانيا / إشبيلية

كاتدرائية إشبيلية ..

أيار 2021 م ..

لم يكن المساء قد استقر تمامًا في حضن الكاتدرائية ، كان الضوء يتسلل بخجل من النوافذ الملوّنة، فيكسر نفسه إلى أطياف زرقاء وحمراء تتناثر على الجدران العتيقة، كأنها بقايا صلوات قديمة لم تُغادر بعد.

داخل غرفة الاعتراف، جلس الأسقف ساكنًا، لكنه لم يكن هادئًا.

كان في داخله شيء يتحرّك... قلقٌ قديم يعرفه، لكنه هذه المرة بدا مختلفًا، كأن الصوت الذي سمعه عبر الهاتف لم يكن مجرد صوت إنسان... بل صدى شيء آتٍ من عمقٍ مظلم.

تنحنح قليلًا، ثم قال بصوتٍ حاول أن يجعله رزينًا :

● لا أخفيك سرًا يا بني... إن اتصالك لم يكن عابرًا. لقد أثار فيّ ما هو أبعد من الفضول... شيء يشبه القلق الذي يسبق العواصف.

تعرف أنني... لا أستقبل الاعترافات بنفسي عادة.

الطقوس تُدار... والتفاصيل تُترك لمن هم دوني رتبة.

لكن كلماتك... لم تكن كلمات خاطئ يبحث عن غفران، بل بدت كأنها... حكم يُلقى.

توقّف قليلًا، ثم اقترب بصوته أكثر، كأنه يريد أن يخترق الجدار الزجاجي الفاصل :

● قلت إنك تحمل خطيئة بحق الكنيسة... خطيئة ستُزلزل هذا المكان... وتكشف أقنعة عن رجال دين فيه.

هل تدرك ما الذي تقوله؟

جاءه الصوت من الجهة الأخرى هادئًا... هدوءًا لا يُطمئن :

○ أدرك أكثر مما تتخيل، يا أبتي.

وأدرك أيضًا أن بعض الاعترافات... لا تُطلب من أجل الغفران، بل من أجل... التوثيق.

سكن الهواء لوهلة.

○ ما سأفعله اليوم... ليس فعل غضب، ولا انتقام.

إنه تصحيح.

تصحيح لمسار انحرف حتى كاد يُصبح هو الطريق ذاته.

أنا... فقط أول من سيضع الحجر في مكانه الصحيح.

لكنك تعلم... حين يُحرّك الحجر الأول، لا أحد يستطيع إيقاف بقية الأحجار.

ارتعشت أصابع الأسقف دون أن يشعر، فشبكها معًا بإحكام.

● تتحدث بلغة من يعتقد أنه يملك الحقيقة المطلقة... وهذه أولى علامات الضلال يا بني.

الحقيقة... لا يحملها فرد.

ضحكة خافتة تسللت من الطرف الآخر، لم تكن ساخرة... بل أقرب إلى الشفقة.

○ بل الحقيقة يا أبتي... لا تُحتمل إلا حين يحملها فرد.

الجماعات تُزيّفها... المؤسسات تُقنّنها... أما الفرد، فيدفع ثمنها.

ساد صمتٌ أثقل من الجدران.

ثم قال الشاب فجأة :

○ هل تعرف شخصًا يُدعى... بروفيسور ترومان؟

... وماذا عن السيد عزيز؟

في تلك اللحظة، لم يعد الصمت مجرد غياب للصوت... بل صار حضورًا كثيفًا، يكاد يُرى.

ارتفعت عينا الأسقف نحو الأعلى، كأنه يبحث في سقف الكنيسة عن مخرج، لقد وعى للتو هوية الشاب و غايته من هذا الاعتراف.

ابتلع ريقه بصعوبة، وقال بصوتٍ لم يعد ثابتًا :

● عن... ماذا تتحدث؟

من أنت؟

جاءه الرد ببطء، كأن كل كلمة تُغرس في الهواء :

○ نحن... النتيجة.

توقّف، ثم أضاف :

○ النتيجة لكل ما فعلتموه... أنت... ورفيقاك.

تنفّس الأسقف بسرعة، كأن الهواء بدأ ينفد.

● هذا جنون... إن كنت تظن ..

قاطعه الصوت، هذه المرة بلا نعومة :

○ لا... الجنون... هو ما فعلتموه حين اعتقدتم أن بإمكانكم إعادة تشكيل الإيمان... وفق أهوائكم.

حين استبدلتم الحقيقة... بنسخةٍ من الأوهام.

ثم اقترب صوته، صار أكثر حدة :

○ أخبرتك... أنا هنا لتصويب الأخطاء الكارثية التي ارتكبتموها بحق الأديان سراً .. تظنون أنكم تجددون الدين ، في حين أنكم تخرجونه من إطاره الثابت .. و مهمتنا نحن .. العودة إلى الأصل .

ولأن كل بناء فاسد... لا يسقط دفعة واحدة...

فأنت اليوم... ستكون الحجر الأول.

في تلك اللحظة، أدرك الأسقف... ليس ما سيحدث، بل أنه لا يستطيع منعه.

فهمس بصوتٍ مكسور:

● أنت واهم يا بني في تصورك .. ما الذي تريده مني كي أساعدك...؟

جاءه الجواب كحكمٍ نهائي :

○ أن تكون... البداية.

نهض الرجل من مكانه ببطء.

كان في الأربعين من عمره، لكن الزمن بدا وكأنه توقف عند نقطةٍ ما داخله.

عيناه ثابتتان، بلا تردد... بلا ارتباك... كأنهما تجاوزتا منذ زمنٍ بعيد فكرة الندم.

أخرج مسدسًا مزوّدًا بكاتم صوت.

لم يكن في حركته أي استعجال... ولا أي تردد.

نظر للحظة إلى الزجاج الفاصل بينه وبين الأسقف...

ذلك الحاجز الشفاف، الذي صُمّم ليحفظ الأسرار... لا ليشهد نهاياتها.

ثم ضغط الزناد.

صوتٌ مكتوم... كأنه فكرة تموت.

اخترقت الرصاصة الزجاج... واستقرت في رأس الأسقف.

تناثر الدم على السطح الشفاف، كلوحةٍ تجريدية رسمها العنف...

وسقط وجهه ببطء، مستندًا إلى الحاجز... كفارسٍ حفظ سره إلى النهاية.

أعاد الرجل المسدس إلى مكانه.

نظر للحظة أخيرة... لا إلى الجثة، بل إلى المكان.

إلى الكنيسة... إلى الجدران... إلى الصمت.

ثم همس بصوتٍ خافت للسماعة في أذنه :

○ سيدي المهمة أنجزت .. لقد بدأ الأمر.

وغادر... بهدوءٍ يشبه تمامًا... قدومه.

ألمانيا / ميونخ

غارميش بارتن كيرشن / بحيرة إبسي ..

تموز 2021 م ..

كان المشهد أمامه لا يشبه شيئًا مما عرفه من قبل... البحيرة استلقت هناك، كألماسة زرقاء مشعة ، محاطة بهالة من سكينة خرافية، حتى يخيل لمن يراها أن الزمن توقّف عن العدو إجلالًا لجمال اللحظة . سطح الماء لم يكن مجرد ماء، بل لوحة سماوية مرسومة بأنامل الضوء، تعكس قمم الجبال الثلجية المحيطة بشغفٍ يشبه العشق الصامت.

قوارب ناعسة تمايلت برفق على وجه البحيرة، كأنها تهمس بأسرار الطبيعة التي لم ترو. صيّادون بأصابع محترفة ورحّالة يبحثون عن الهدوء، تناثروا في مشهد هارب من لوحات الفنان عاشق الطبيعة **كلود مونييه** ؛ لا يكسر صمتهم سوى صوت المجاديف، و حفيف النسيم حين يعانق الأوراق.

في السماء، حلقت أسراب البط بحرية منحها لها قانون تحريم الصيد في المكان، تمرّ فوق المياه كما تمرّ الذكريات القديمة في الروح : هادئة، مفاجئة، مؤثرة. أما السحاب، فكان أشبه بظلال ناعمة لأفكارٍ لم تكتمل، تتزحلق فوق زرقة الأفق بلا هدف، لكنها تمنح المشهد عمقًا فلسفيا يلامس الروح و القلب.

وعلى الضفة الشرقية، حيث الأشجار الوارفة تتناوب في الحراسة على حدود الأرض والماء، جلس شاب في منتصف العمر يعزف الكمان بشغف ، و صوته يعبر الفراغ كأنينٍ شهيّ، كأن أوتاره موصولة مباشرةً بعصب الأرض. قربه، جثم رجل ستينيّ ذو ملامح حنونة يضرم نارًا صغيرة، تصاعد دخانها بخجل في الهواء الرطب، حاملا رائحة الخشب المحترق والذكريات المدفونة.

الضوء الذهبي المتسلل من بين الغيوم صبغ المشهد كله بطبقة من الحنين، وأحاط الجميع بهالة من القداسة. كل شيء هنا بدا وكأنه هارب من حلم أحد الرهبان الرومانسيين ، أو كأن الطبيعة نفسها تواطأت لتفتتح فصلًا أول من

رواية ستُروى للأجيال: رواية لا تبدأ ببطل ولا تنتهي بموت، بل تبدأ بالدهشة وتستمر بالحب.

● لا يمكن لهذا اليوم أن يصبح أجمل مما هو عليه الآن ..

قالها الشاب ، وقد مال بجسده مع نغمة الكمان، يتماهى مع الإيقاع كما لو كان يعزف على أوتار السماء نفسها .. كانت ابتسامته تطفو على وجهه كضوءٍ خافتٍ في مساءٍ غائم، لكنها لم تخفِ تلك الغمامة الرقيقة في عينيه، غمامة الحزن الجميل... الحزن الذي لا يُقال، بل يُحسّ ...

في حين كان الرجل جاثيًا أمام آلة الشواء، يراقب الجمر وهو يتوهّج تحت أنفاس الريح، وعلى وجهه تجاعيد طيّبة تشبه خريطة عمر عاشه ببساطة الحكمة، قال وهو يبتسم دون أن يرفع رأسه:

○ صدقت سيد **أوليفر**... لم أرَ **بحيرة إبسي** بهذا الصفاء طوال ستين عامًا عشتها .. كأنها اليوم تنسى نفسها وتعود جنّةً أولى ..

رفع أوليفر عينيه نحو الأفق، وامتد صوته من صدره كأنما يرافقه نسيم البحيرة:

● إنه مشهد يستحق أن يُعلّق في متحف الأرواح سيد **ماتيوس** ... هنا فقط يمكن للأعصاب المتوترة أن تحظى بفسحة سلام داخلي ..

ابتسم ماتيوس ابتسامة رضا ..

○ بلا شك ... يشعر المرء في مثل هكذا مكان أن روحه تنفض عنها غبار المدينة، وتستعيد لونها الحقيقي.

ضحك أوليفر بخفة، وخفَت عزفه للحظة، ثم قال:

● ولن تكتمل هذه اللوحة يا ماتيوس إلا ببعض السمك الطازج لغدائنا المأمول... لكنها صنارة عنيدة .. مضى نصف ساعة ولم تتحرك!

أجابه ماتيوس وهو يعيد ترتيب الفحم:

○ الصيد لا يمنحنا ما نريد إلا حين نُجيد الصبر... هو درس بسيط تُلقيه الطبيعة على من يُنصت.

أعاد أوليفر كمانه إلى موضعه، واستأنف عزف **لا فوليا** ، مقطوعة **الراهب الأحمر فيفالدي** ، تلك التي تشبه إعصارًا موسيقيًا يدور بين الجنون والدهشة... وفيما كانت أنامله تنسج اللحن كمن يحيك نسيج حلم، رمقه ماتيوس من طرف عينه بإعجابٍ خفي، وهو يفكر كم أن هذا الشاب الأربعيني بقامته متوسطة الطول و شعره الخرنوبي مع عينيه الخضراوين الداكنتين و اللحية الخفيفة ، إضافةً إلى الشامةٍ المميزة على خده الايسر ، يضج بحب الحياة و عيش اللحظات السعيدة حتى الثمالة ..

أوليفر، مواطن ألماني يقطن بلدة **غارميش بارتن كيرشن** الهادئة، التابعة لمدينة **ميونخ** في مقاطعة بافاريا جنوب **ألمانيا**. اعتاد قضاء عطلاته في أحضان الطبيعة عند بحيرة إبسي، الواقعة على بُعد ستة كيلومترات تقريبًا من بلدته، حيث يجد متعته في صيد السمك وعزف الكمان تحت ظلال الجبال الصامتة. فالموسيقى بالنسبة له ليست مجرد هواية، بل شغف نبضت به أيام شبابه، إذ درسها وأتقنها حدّ الإدمان، وأجاد إلى جانب الكمان كلاً من البيانو والغيتار.

أما ماتيوس، فهو رجل في الستين من عمره، طويل القامة، نحيل البنية، أصلع الرأس باستثناء خصلة من الشعر الأشيب تتدلّى من مؤخرة رأسه. يتحدث بلباقة تميّزه، ويشغل في حياة أوليفر أكثر من مجرد منصب مساعد شخصي. فمنذ الحادث المروّع الذي أودى بحياة والديه، **لوثر** و **فاطيما**، قبل عشر سنوات، أصبح ماتيوس ظلّه الوحيد، وامتدادًا صامتًا لطفولته الماضية. فأوليفر، الذي جاء إلى العالم عبر تقنية طفل الأنبوب نتيجة صعوبات في الإنجاب، لم يُرزق بأخوة أو أخوات، فكان ماتيوس بمثابة العائلة المتبقية، ومرآة الذاكرة التي لم تنكسر بعد.

ورث أوليفر عن والده تاجر الألماس الجنوب أفريقي، ووالدته الألمانية ذات الأصول العربية، ثروة ضخمة وحزنًا داخليًا غائرًا، لا يلطّفه إلا عزف نغمة على أوتار كمانه. وقد كرّس حياته بعد رحيلهما لإدارة تلك الثروة بجدّ وحذر ، وكأنّ بقاءها رمز لولائه لهما.

لم يتزوج أوليفر بعد؛ ليس لقلّة الفرص، بل لأنه لم يجد بعد الفتاة المناسبة. فهو لا يرى الزواج فرضًا اجتماعيًا، بل مشروعًا أبديًا لا يُخاض إلا بقناعة عميقة واستعداد نفسي وذهني طويل الأمد. في نظر البعض، هذه سمة تُحير: هل تدلّ على نضجٍ مفرط أم على ترددٍ يعوق الحياة ؟ فأوليفر مشغول دائمًا بالتحليل والتمحيص، مهووس بالوصول إلى جوهر الأشياء وكشف أصل الحكايات في كل شيء، حتى وإن كلفه ذلك الكثير من التعقيد أو سوء الفهم.

فجأة، صاح ماتيوس بنبرة مرتفعة وهو يشير إلى جانب القارب الراسي في البحيرة:

○ سيد أوليفر، انتبه ! صنارتك تتحرك !

أسرع أوليفر بوضع الكمان جانبًا، وتوجه نحو الصنارة، ثم جذبها بحماسة. فظهرت في طرف الخيط سمكة فضية، كبيرة نسبيًا، تتلوى بين يديه بينما تلمع حراشفها تحت أشعة الشمس كأنها قطعة لجين حية .. التفت إلى ماتيوس، والفرح يعلو وجهه :

● انظر يا سيد ماتيوس، أظن أن ملامح غدائنا بدأت تتضح !

أسقط السمكة في السلة الخشبية، وأعاد الطُّعم إلى الخطاف، ثم ألقى الصنارة مجددًا في مياه البحيرة الهادئة، بينما علق ماتيوس مبتسمًا:

○ ويبدو لي أنها ملامح فاتنة، لا مجرد وجبة عادية!

ساد بينهما صمت خفيف، قطعه ماتيوس بصوته الرصين:

○ وعلى سيرة الملامح، هل بدأت تتضح ملامح زيارتك القادمة إلى إيطاليا سيد أوليفر؟

توقف أوليفر عن العزف، ثم أجاب بثقة :

● بالتأكيد. لقد حسمت قراري وسأسافر في شهر آب، أي بعد أسبوع من الآن. حجزت تذكرة الطيران البارحة، مع غرفة في فندق بميلانو. لقد أرهقني ضغط العمل مؤخرًا، وحان الوقت لأمنح أعصابي استراحة أستحقها.

ثم استأنف العزف، ورفع صوته ليصل إلى مسامع ماتيوس، مضيفًا بنغمة مفعمة بالحماس:

● إيطاليا من البلدان القليلة التي لم أزرها بعد. سمعت عنها الكثير: طبيعتها الآسرة، شعبها المحبّ للحياة، ومتاحفها الزاخرة بالتاريخ، خاصة في ميلانو. وإن راق لي المقام هناك، فسأكمل الرحلة إلى روما، نابولي، فلورنسا، وفينيسيا. أنت تعرف شغفي باكتشاف الحضارات و الثقافات يا ماتيوس.

ابتسم ماتيوس، كاشفًا عن أسنان ناصعة صمدت في وجه تقلبات العمر الطويل ، وقال ممازحًا :

○ إذًا لا يزال هدفك القديم قائمًا ؟ زيارة جميع بلدان العالم ؟

ضحك أوليفر وأجاب دون تردد :

● بالطبع ! وهل في الدنيا أجمل من استكشاف أسرارها ؟ حتى الآن زرت ثلاثًا وثلاثين دولة، وسأواصل السير على هذا الطريق. لكن هذه الرحلة مختلفة... هناك أمر ما يميزها عن كل ما سبق.

قوّس ماتيوس حاجبيه بفضول :

○ وما هو هذا الأمر يا سيد أوليفر؟

أجابه أوليفر بصوتٍ خافت فيه نبرة تأمل:

● هناك شعور داخلي قوي يدفعني إلى هذه الرحلة، لا أستطيع تحديده أو تفسيره بعد ، لم أختبره في أي من أسفاري السابقة. لكنه إحساس واضح، صادق. وقد اعتدت أن أثق بحدسي، إذ لطالما أرشدني إلى أشياء عظيمة، وربما هذه المرة سيأخذني إلى حقيقة جديدة.

قال ماتيوس وهو ينهض بنشاط :

○ أرجو ذلك من كل قلبي، سيد أوليفر. سأباشر بتوضيب الحقائب حال عودتنا، فكما تعلم، الأمر يتطلب وقتًا كي لا ننسى شيئًا.

هزّ أوليفر رأسه موافقًا، ثم ابتسم وهو يرفع إصبعه مشيرًا:

● تمامًا، علينا الاستعداد جيدًا... لكن، انظر! الصنارة تهتز مجددًا! أعتقد أن غداءنا اليوم سيكون سمكًا مشويًا بلا أدنى شك!

*****

العودة إلى المنزل ...

بعد غداء مشوي شهي وسط الطبيعة، قفل أوليفر ومساعده ماتيوس عائدين إلى منزله في بلدة غارميش بارتن كيرشن. وما إن وصلا، حتى انشغل ماتيوس بترتيب قسم من حاجيات الرحلة، تاركًا لأوليفر ترتيب أغراضه الشخصية بنفسه، كما اعتاد دائماً.

في تلك الأثناء، جلس أوليفر إلى البيانو في غرفة الموسيقى، حيث راحت أنامله تنساب على مفاتيحه البيضاء والسوداء تعزف مقطوعة **ليلة موسيقية قصيرة لموزارت**، إحدى معزوفاته القريبة إلى قلبه.

كان المنزل مؤلفًا من طابقين: الطابق الأرضي يضم صالة استقبال الضيوف، المطبخ، وغرفة ماتيوس؛ أما الطابق العلوي، فيحتوي على غرفة نوم أوليفر، غرفة للمطالعة – حيث يقيم الكتاب مقام الرفيق الدائم – وغرفة الموسيقى المملوءة بآلات وأسرار، بالإضافة إلى حمّامه الخاص.

في وقتٍ لاحق من تلك الليلة، جلسا معًا على الشرفة العلوية المتصلة بغرفة المطالعة. حمل أوليفر بيده كأسًا من المتّة بالعسل، فيما فضّل ماتيوس كوبًا من البيرة الباردة. لم تكن المتّة مشروبًا شائعًا في ألمانيا، إلا أن أوليفر تعرف إليها في زيارة سابقة إلى الأرجنتين من خلال صديق، فوقع في حبها، وأصبحت طقسه الشخصي.

كان يقول عنها دومًا:

(المتّة كالحياة، تبدأ مُرّة، ثم تلين وتحلو بالصبر)

أمسك أوليفر كتابًا يتناول مقارنة الأديان، وراح يتصفحه بشغف. كلما صادف فكرة لافتة، قرأها بصوتٍ عالٍ على ماتيوس، لينفتح بينهما نقاش هادئ وعميق.

كان أوليفر أكثر انفتاحًا وتسامحًا في مقاربته للحقائق الدينية، ربما لأن دمه يحمل مزيجًا من أعراق متعددة، ولأنه ينحدر من عائلة هجينة الانتماء، فيها المسلم والمسيحي واليهودي. أما ماتيوس، فقد كان أكثر تحفظًا، متمسكًا بما يعتبره "ثوابت" لا تقبل النقاش.

هكذا، جلسا في حضرة الليل، بين نغمات البيانو، ورشفات المشروب، وصفحات الفكر، كأنهما يفتشان معًا عن حقيقةٍ تائهة، تتسلل إليهما شيئًا فشيئًا بين الكلمات.

*****

مرّت الأيام التالية كأنها في سباق، تتدافع بشغف نحو لحظة الرحيل. وما إن بزغ فجر اليوم الموعود حتى بدا كل شيء مهيّئًا للسفر إلى ميلانو.

○ رافقتك السلامة، سيد أوليفر..

قال ماتيوس مبتسمًا وهو يضع الحقيبة الأخيرة في السيارة.

● شكرًا لك، سيد ماتيوس..

أجابه أوليفر بنبرة دافئة ..

● بلغ تحياتي لزوجتك.

○ سأفعل ..

ردّ ماتيوس وهو يربت على كتفه..

○ استمتع برحلتك حتى أقصاها... جسدك وذهنك يستحقان استراحة بعد كل ما بذلته من جهد خلال الأشهر المنصرمة.

ابتسم أوليفر، ثم استقلّ سيارته وانطلق نحو مطار ميونخ. كانت الساعة تشير إلى الثامنة صباحًا، ورحلته المجدولة ستُقلع عند العاشرة، أي أن الوقت مناسب تمامًا للوصول دون عجلة.

على الطريق السريع، راحت السيارة تلتهم المسافات في هدوء، بينما كان أوليفر غارقًا في أفكاره. لا يزال ذلك الإحساس الغريب يراوده ، شعور قوي بأن أمرًا استثنائيًا سيحدث في هذه الرحلة.

لكنه لم يعرف ما هو بالضبط...

لقد تعوّد أوليفر أن يؤمن بأن السماء لا تصمت أبدًا، بل تكلّم الإنسان بلغات شتّى: عبر وجه يمرّ، أو صدفة تقع، أو صفحة تُفتح. كان يقول دومًا:

(حين تشعر أن شيئًا ما يحاول أن يخاطبك، أنصت بكلّك... فقد تختبئ الإجابة خلف زاوية، أو داخل جملة، أو في لحظة عابرة تغير مسار حياتك للأبد.)

وصل إلى ميونخ، ومن هناك إلى المطار. جلس في قاعة الانتظار وفتح هاتفه، يقرأ بشغف عن وجهته : **ميلانو**.

عرف أنها عاصمة **إقليم لومبارديا** ، القلب الصناعي والتجاري لإيطاليا، وعاصمة عالمية للموضة. مدينة لا تنام، انضمت إلى الدولة الإيطالية الحديثة في عام **1859**، وتحوي بين أزقتها العريقة معالم مدهشة، على رأسها كاتدرائية ميلانو، والتي ستكون بلا شك أول ما سيزوره.

أُعلِن أخيرًا عن بدء صعود الركّاب. جلس أوليفر في مقعده بجوار النافذة، وأغمض عينيه. كانت الرحلة تستغرق ساعة تقريبًا، والنوم بدا فكرة ممتازة، خاصة بعد سهرة طويلة قضاها البارحة مع كتاب مثير بعنوان:

(**تاريخ الكون وأصل الحياة**)

كان الكتاب زاخرًا بالأفكار، لكن، عند انتهائه، شعر أن هناك ثغرة خفية لم يستطع أن يضع إصبعه عليها. فكرة ناقصة، أو حلقة مفقودة لم تُكتشف بعد.

ظل يتقلب بين تلك الخواطر حتى غلبه النعاس و استغرق في نوم عميق،

كمن يستعد دون أن يدري لحدث سيقلب حياته رأسًا على عقب.

*****

إيطاليا / ميلانو ...

استفاق أوليفر على اهتزاز العجلات وهي تعانق مدرج الهبوط في مطار ميلانو، كأن الطائرة همست له أن الرحلة قد بدأت حقًا الآن. خرج من الطائرة بخطى هادئة، واستلم حقائبه بيدٍ تعرف جيدًا ما تحمله من خطط، ثم استقل سيارة أجرة أقلته نحو الفندق الذي اختار له مكانًا مرتفعًا، كأنما أراد أن يبدأ زيارته من قمة الحلم.

غرفته كانت قابعة في الطابق السادس عشر، تُطلّ بشموخ على مدينة ميلانو التي بدت من شرفتها كلوحة نابضة: أبنية عتيقة تتعانق مع ناطحات سحاب، طرق تتقاطع كالأفكار، وألوان الحياة تتناثر في الأفق بلا ترتيب. وقف أمام المشهد مأخوذًا، ثم بدأ بترتيب أغراضه بدقة متناهية، يرافقه غناؤه المتقطع بلغةٍ لا تنتمي لمكان، بل تنتمي لحالة فرحٍ داخليٍ نادر.

لمّا انتهى من ترتيب مقتنياته، نظر في ساعته. لا يزال الوقت مبكرًا على موعد الغداء في الفندق، فما كان منه إلا أن ارتدى سترته وغادر الغرفة، مدفوعًا برغبة فطرية في اكتشاف نبض المدينة.

سار أوليفر على الرصيف مثل طفلٍ في أول نزهة، يتلفّت حوله باندهاش، يتشمّم الهواء كأنه يحاول تذوق المدينة عبر حواسه جميعها. ميلانو كانت تعج بالحياة: ضجيج السيارات، وجوه متباينة الملامح، لغاتٌ تُقال وتُنسى، ومحلات أنيقة تقف على جانبي الطريق كأنها عروض مسرحية تُغريه بالدخول.

ورغم أنه يتقن العربية، الألمانية، الإنجليزية، الفرنسية، والإسبانية، بقيت الإيطالية عصية عليه، لغة غريبة تتراقص حوله دون أن تعانقه. لحسن الحظ، كان كثير من الإيطاليين يجيدون الإنجليزية، اللغة التي صارت جواز مرور عالمي.

كان قد قرأ قبل رحيله عن معالم ميلانو البارزة: **الكاتدرائية العريقة، كنيسة ماريا ديليه غراتسيه، دار أوبرا لاسكالا**، و **قلعة سفورزيسكو**... لكن الوقت الآن لا يسمح بشيء من ذلك. قرر أن يؤجل الزيارة الجادة إلى ما بعد الغداء، وسيبدأ – بلا شك – من كاتدرائية ميلانو، تلك الجوهرة الحجرية التي تهمس بها الصور في ذاكرته منذ الطفولة.

وفي الوقت الراهن، اكتفى بأن يضيع قليلًا بين الأزقة، فبعض المدن لا تُكتشف بالخريطة، بل بخطواتٍ عفوية وحواس مفتوحة.

عند تمام الثالثة بعد الظهيرة، جلس أوليفر في بهو الفندق يتناول غداءه المتواضع: سمكة مشوية تنبعث منها رائحة البحر والذكريات. لمّا امتزج طعمها بلحظة السكون، تدفق إلى ذاكرته مشهد بحيرة إبسي قرب ميونخ قبل أسبوعين، حين شارك صيده مع مساعده الوفي، ماتيوس. تمتم في نفسه مبتسمًا : (لا سمك بعد سمك الوطن، لا نكهة تضاهي ثمر التعب و دفء الرفقة.)

بعد الوجبة، عاد إلى غرفته واستلقى فوق الفراش ساعةً أخرى، يقلب المحطات دون اكتراث، وكأنه يبحث في الشاشة عما يُنظم الأفكار المتناثرة في رأسه. هناك، في صمت التلفاز وضوء النهار الخافت، ولدت خطة ما بعد الظهيرة.

مع اقتراب الظلال من قلب المدينة، غادر الفندق بعزم هادئ، قاصدًا أولى وجهاته السياحية : كاتدرائية ميلانو.

لم يكد يخرج من الباب حتى لمح سيارة أجرة تنتظره كأنها تعرف غايته. ركبها، وفي نحو ربع ساعة، توقفت به أمام صرح يلامس السحاب بحجارته البيضاء. ترجل من السيارة ووقف مشدوهًا، متأملاً هذا الهيكل المعماري الفاتن، ثالث أكبر كاتدرائية في أوروبا. لم يكن ذلك المشهد غريبًا تمامًا عليه، فقد أعاد إليه ذاكرة كاتدرائية نوتردام، تلك التي زارها ذات يوم خلال مهمة عمل، وكأن الكاتدرائيات الكبرى تتآخى في روعة البناء وهيبة الحضور.

ولج من الباب الضخم ودخل بخطى بطيئة، وما إن استقر في الداخل حتى ابتلعته العظمة. كانت الجدران تنبض بأعمال فنية لأسماء خالدة، والتماثيل تنتصب بفخامة مهيبة هنا وهناك، تراقب الزائرين بصمت أبدي.

إلى اليمين، لفت نظره صف من التوابيت الزجاجية، احتوت أجساد أساقفة مضوا، كأن الزمن أبى أن يدفنهم تحت التراب، فأبقاهم في حضرة الضوء والدهشة. لكن ما أسَر قلبه أكثر من كل شيء كان ذلك البيانو الفخم في الزاوية، محفورًا بنقوش دقيقة كأنها وشم على جسد الزمن. وقف أمامه وقد تملّكه شوق عارم أن يعزف عليه، فالموسيقى كانت دومًا نقطة ضعفه... وربما، خلاصه الأبدي.

استغرق تجواله في الكاتدرائية المهيبة ساعتين من السكون المبجَّل، كان خلالها كمن يمشي في دهاليز الزمن، يقرأ الحجر كأنه كتاب صلاة. ثم خرج، تاركًا خلفه رهبة الأعمدة وظلال القديسين، إلى شوارع ميلانو التي بدأت تتلو صلاتها الأخيرة للشمس، وقد اصطبغ الأفق بلون قرنفليّ حالم، كأن المدينة كلها توشحت بأحلام الغروب.

عند نهاية أحد الأزقة، فوجئ بميدان صغير تتوسطه نافورة ماء، تتراقص في قلبها تماثيل صامتة تروي قصصًا لا تُروى .. وانسابت إلى مسامعه موسيقى ناعمة، تنبعث من أحد المقاهي المطلة على الساحة، فهدهدته كما تفعل يد أمّ على جبين ابنها النائم .. شعر كأنّ لحنًا خفيًا جذبه كمغناطيس، فانساق إليه دون مقاومة.

اختار طاولة خارجية على حافة الميدان، وطلب فنجان كابتشينو بنكهة إيطالية أصيلة، بدأ يرتشفه ببطء، وكأن كل رشفة تحاول القبض على لحظة من الجمال المتسرب بين ضوء النافورة، ودفء الحاضرين، وتنهيدات العشاق.

وفجأة، اقتحمت شروده ابتسامة سيدة أنيقة في سن الحكمة، تجلس إلى الطاولة المجاورة .. كانت ابتسامتها ناعمة كخيط شمسٍ في يوم شتائي .. حيته فردّ عليها بأدب .. دعته للجلوس معها .. استغرب الدعوة، لكنها كانت صادقة ببساطتها، فقبلها.

عرّفت عن نفسها :

● جوفانا، خمسة وستون عامًا من الذاكرة والنسيان .. أدير دار أزياء بمساعدة بناتي الثلاث، وأرتاد هذا المقهى منذ كنت في العشرين، يوم التقيت هنا للمرة الأولى بجيوفاني، زوجي الراحل. .

نظرت إلى أوليفر بتأمل، وقالت:

● في ملامحك شجن يشبهه، ونظراتك تعيدني إليه... ولهذا دعوتك، دون أن أعي يقيناً لماذا..

أخبرها أوليفر بأنه سائح غريب عن المدينة، فابتسمت بحنو وسألته عن بلده الأم ، وعن سبب قدومه إلى ميلانو. تسارعت الكلمات بينهما، وامتدت الأحاديث من تفاصيل المدينة إلى حكايات العمر، من الأزياء إلى الفن، من الحب إلى الحنين، حتى تلاشت الساعات في غفلة من الزمن.

حين نظر إلى ساعته، وجد عقاربها تشير إلى الحادية عشرة ليلاً .. اعتذر برقة، وشكرها على اللقاء الذي بدا له وكأنه عثور مفاجئ على صفحة من رواية لم يكن يظن أنه سيقرأها.

قبل أن يغادر، أمسكَت يده بعطف وأوصته:

● غدًا، قبل أن ترى أي شيء، اذهب إلى كنيسة سانتا ماريا ديلي غراتسيه... ستفهم هناك شيئًا لا يُقال بالكلمات. أرجوك، لا تتجاهل هذا ، فلهذه الكنيسة قدسية خاصة ..

أومأ مترددًا و مندهشاً، وقفل عائدًا إلى الفندق، هامساً في نفسه بذهول :

أيمكن أن تكون السماء قد بدأت بالكلام بالفعل ؟

*****

ماذا لو ؟

إيطاليا / ميلانو ..

الساعة السادسة صباحاً...

مضى اليوم الأول لأوليفر في ميلانو كما لو أنه فصل مثالي من كتاب سفر، ابتدأ بزيارة كاتدرائيتها الآسرة، واختُتم بأمسية دافئة برفقة السيدة جوفانا، تلك الروح الشابة التي هزمت تقادم السنين بابتسامتها. لذلك، ما إن بزغ فجر اليوم التالي حتى استيقظ مفعمًا بالحيوية، تسبقه همّته العالية لاستكشاف المزيد من كنوز المدينة.

اغتسل سريعًا ثم جلس في شرفة الفندق يحتسي كأس المتّة، طقسه الصباحي المعتاد، بينما عيناه تتأملان مدينة ميلانو من علٍ وهي تستفيق على مهل؛ الشوارع تفتح عيونها، والمقاهي تدب فيها الحياة، والسيارات تبدأ عزفها المألوف. أما ذهنه، فكان يغزل خيوط الخطوات القادمة في رحلته، بين شغفٍ بميلانو وفضولٍ لمدن إيطاليا الأخرى.

كان مخططه لليوم يتجه نحو قلعة سفورزيسكو، لكن حديث الأمس مع السيدة جوفانا ونصيحتها المتحمسة بزيارة **كنيسة سانتا ماريا ديليه غراتسيه** جعله يعيد رسم خط سيره. فنهض من مكانه، ارتدى ملابسه، ثم اتجه إلى الطابق السفلي لتناول الإفطار، قبل أن يخرج من الفندق مستوقفًا أول سيارة أجرة.

بابتسامة مقتضبة قال للسائق:

- ماريا ديليه غراتسيه كييزا.

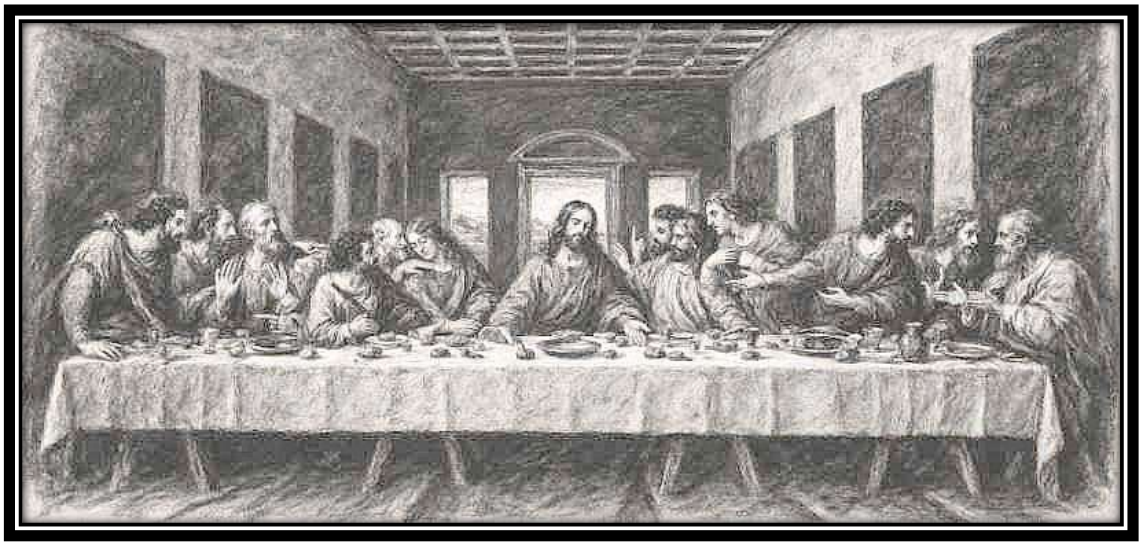
أومأ السائق موافقًا، وانطلقت السيارة في هدوء. لم تمضِ دقائق حتى توقفت أمام الكنيسة، فأشار إليها السائق بإصبعه، ودفع أوليفر الأجرة شاكرًا:

- غراتسي.

ترجل من السيارة وتوقف أمام المبنى يتأمله. لم تكن الكنيسة تشع بهيبة الكاتدرائية التي زارها في اليوم السابق، بل بدت بسيطة، هادئة، مغمورة بجو من التواضع يشبه حياة المسيح نفسها. همس لنفسه وهو يبتسم:

(المظاهر خدّاعة أحيانًا... فكما تخفي المحارات الجافة أثمن اللآلئ، ربما تحمل هذه الكنيسة في أحشائها كنوزًا فنية خالدة.)

دخل أوليفر إلى الكنيسة وسأل عن أبرز معالمها، فوجد نفسه محقًا ومخطئًا في آن معًا. فكما بدا مظهرها الخارجي بسيطًا، كانت من الداخل متقشفة أيضًا، إلا أن جدارية واحدة قلبت الموازين: **العشاء الأخير لليوناردو دافنشي**، متربعة على أحد الجدران كأنها قلب الكنيسة النابض.



لقد رآها مرارًا من قبل على صفحات الإنترنت، لكن مشاهدتها على الطبيعة شيء مختلف كليًا. هنا، على الجدار الحجري، تنبض اللوحة بروح عبقرية لا يمكن للصورة الرقمية أن تنقلها.

وقف أوليفر أمام الجدارية كمن اكتشف لتوه ثقبًا في الزمن، يتأمل ضربات الفرشاة وكأنها نبضات قلبٍ معلّقة بين الأبدية والعدم. عيناه تنزلقان على كل تفصيلة، كأنّه يبحث عن شيء لا اسم له.

○ تحفة مذهلة، أليس كذلك ؟

جاءه الصوت كنسمة حادة، قطعت خيط تأمله بخفة مفاجئة. التفت ببطء، ليقع نظره على رجل مسنّ، متقوّس القامة قليلاً، أبيض الشعر كضوءٍ انطفأ ولم يندثر. وجهه ساكن، لكن عينيه... عينيه تشعّان بدهشة من يعرف أكثر مما يقول.

○ كيف حالك؟ أنا السيد عزيز.

● أهلاً بك... أوليفر.

ارتفع حاجبا الرجل كمن اصطدم باسم من أسطورة قديمة.

○ أوليفر... اسم مميز، وله وقعٌ خاص. أرجو أن لا أكون قد قطعت عليك لحظة تأمل، لكن طريقة نظرك إلى اللوحة لفتتني. كأنك تنصت لما لا يُقال.

ابتسم أوليفر ..

● لديّ شغف بالفن، لكن ليوناردو دافنشي يأسرني بشكل خاص. ليس فقط لدقته، بل لأنه يرسم الغموض كما لو كان حقيقة.

○ وماذا ترى هنا ؟

● أكثر مما يجب، وأقل مما يكفي... أعرف ما يُشاع : أن الشخص الجالس بجانب المسيح ليس يوحنا، بل **مريم المجدلية**. لكني لا أتبنّى ذلك. فهو لا يتسق مع ما نعرفه عن حياة المسيح.

أطلق السيد عزيز ضحكة قصيرة، كأنها نفخة من زمن آخر.

○ وما الذي نعرفه فعلاً يا أوليفر؟ أقصد... ما نعرفه نحن، لا ما كُتب لنا ؟

● أقصد الحقائق، طبعًا.

○ وهنا تكمن الخدعة: ما يُسمّى حقائق هو غالبًا ما صمد أمام الوقت، لا ما صمد أمام العقل. العقل وحده من يحق له تسمية الأشياء بأسمائها.

سكت لثانية، ثم أضاف وهو يراقب اللوحة:

○ أنت تتحدث عن الخطيئة، عن ماضي مريم المجدلية... لكن يسوع نفسه – كما يُروى – لم يرجمها، بل قال: **من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها**. هل يوجد بيننا من لم يخطئ ؟

● لا، لكن القرب منه، من المسيح ذاته ؟! المجدلية أنثى بالنهاية !!

○ وما العيب في القرب ؟ أليس الغفران بوابة إلى النور؟ لماذا نخاف النقاء إن جاء من رماد ؟ و لماذا كل هذا الإجحاف بحق المرأة ؟

ابتسم أوليفر، وقد بدأ يشعر أن هذا الرجل لا يتحدث من سطح الأشياء.

● هل أفهم أنك من أنصار المرأة ؟

○ لست من أنصارها فحسب ، بل من العارفين بسرّها.

أنا ابنُ حضاراتٍ كانت ترى في الأنثى سرَّ البداية، ومرآةَ الخلق الأولى، حين كان الكونُ يُقرأ من عينيها، وتُفهمُ الفصولُ من أنفاسها.

رأيتُها في تماثيل الإغريق آلهةً للجمال، لا يُقاس الحُسن إلا بها، ولا يُعرَف الاتزان إلا من ملامحها.

ورأيتها في أرض النيل أمًّا للوجود، تُمسك مفاتيح الخصب، وتبارك انبثاق الحياة من الطين والماء.

وفي بلاد الرافدين، كانت هي الحكاية الأولى، واللغة التي نطق بها القمح حين اخضرّ، والنهر حين فاض.

أما في الهند، فكانت الحكمة ذاتها، روحًا تتجلّى في هيئة أنثى، تُعلّم البشر كيف يُبصرون ما وراء الظاهر.

كانت المرأة آنذاك ليست نصف العالم، بل العالم كلّه حين يُفهم على حقيقته.

كانت المعبد والسرّ، البداية والنهاية، النور الذي لا يحتاج إلى تعريف.

وكان الرجل يقف أمامها لا سيّدًا، بل سائلًا، يتعلّم كيف يكون إنسانًا.

تنهد السيد عزيز بحزن و تابع :

○ ثم تبدّلت الأزمنة، وانحرفت المرايا، وصار الخوفُ يُفسَّر على أنه نظام.

جاءت عصورٌ أُلبِس فيها الصمتُ ثوبَ القداسة، وقُيِّدت فيها الأصوات التي كانت تُنبت المعنى.

تراجعت الأنثى من مقام الإلهة إلى ظلٍّ باهت، ومن مركز الدائرة إلى هامشها البارد.

رأيتُ كيف صيغت الحكايات من جديد، لا لتُخلِّدها، بل لتُقصيها برفقٍ خادع.

كيف أصبح الرجلُ راويًا وحيدًا، يختار من الذاكرة ما يُناسب سلطته، ويُسقط ما يُذكّره بضعفه الأول.

وكيف تحوّلت الحكمة إلى أوامر، والحب إلى امتلاك، والخصب إلى وظيفة بلا روح.

نظر إلى جدارية العشاء الأخير أمامهما و ابتسم :

○ لكنني، وأنا أنظر في أعماق التاريخ، أسمع همسًا لا يزال حيًّا. همسًا يقول إن ما قُزِّم لم يمت، وما هُمِّش لم يُمحَ، بل ينتظر لحظةَ تذكّر.

فالأنثى لم تكن يومًا تفصيلًا في قصة الوجود، بل كانت النصّ ذاته. وحين يعود الإنسان لقراءة ذاته بصدق، سيكتشف أنه لم يخسر المرأة فقط،بل خسر الطريق إلى المعنى،وخسر القدرة على أن يرى العالم كاملًا، لا نصفه فقط.

ثم أكمل، وصوته يزداد عمقًا:

○ في بلادي مصر، يقولون: مصر أم الدنيا. ويقولون أيضًا: الدنيا أم. وكل ما هو جوهري ومانح للحياة يوصَف بالأم. حتى السماء حين تعطي، تغدق بالأمطار. كل شيء في هذا الكون، سيد أوليفر، يبدأ بأنثى.

● لكن ألا ترى أن السماء اختارت الأنبياء رجالًا ؟ أليس هذا دليلاً على تفرّد الذكر ؟

ابتسم السيد عزيز كمن انتظر هذا السؤال طويلاً.

○ سؤال وجيه. لكن أخبرني سيد أوليفر ، من أين جاء كل نبي ؟ من أين خرج كل رجل ؟ أليس من رحم أنثى ؟ أليس الرحم هو أول معبد دُخِل في التاريخ ؟

أطرق أوليفر لحظة، قبل أن يهمس:

● هذا... غريب فعلاً.. لم يسبق لي أن نظرت للموضوع من هذه الزاوية .. فطغيان الرجال في الحياة يعمي البصيرة عن ذلك ..

○ إنها البديهة يا عزيزي، التي نُسيت تحت غبار المعتقدات والسلطات. إنّ النظر إلى لوحة الحياة مقتصرةً على الذكر بمفرده ناقصة على نحو خطير و مشوّه .. انظر إلى كل شيء في هذا الكون سيد أوليفر ، أليس مكوناً من ذكر و أنثى مجتمعين أو متفرقين، فكما أنه لا يمكن للتيار الكهربائي أن يتولد بدون قطبين سالب وموجب، لا يمكن لتيار الحياة أن يتشكل دون جود قطبي الذكر والأنثى و هذا ما يعيدنا مجدداً إلى مكانة الأنثى الهامة و المغيبة بإجحاف في الحياة ..لكنّ الحقيقة الثابتة التي ينضح بها العقل و لا تقبل الشك أن الأنثى بشكل مؤكد تمثل نصف المجتمع، و الأهم من ذلك أنها تلد كلي النصفين في نفس الوقت ، مما يعني تفوقها على الذكر في درجة المهام الموكلة إليها في الحياة ..

● تريد أن تقول أنّ وراء كل نبي عظيم امرأة سيد عزيز..!

ابتسم السيد عزيز معجباً بتلميح أوليفر الذي يختصر كلامه ..

○ بالضبط سيد أوليفر، و للأسف في أغلب الأحيان تقبع هذه المرأة في الظل ، لكنّ عدم معرفتنا بوجودها لا ينفي حقيقة تأثيرها و دورها المحوري في الحياة .. فالحقيقة أنه وراء كل أنا ذكرية سيدة عظيمة تعمل بكدّ و بصمت

● كلام بليغ و عميق !

○ و خطير أيضاً سيد أوليفر .. إن استئثار الذكور بالسلطة والقيادة غالباً لا يحجب مكانة الأنثى وإمكانياتها الفذة للقيام بذلك ... و سأضرب لك مثلاً من وحي وجودنا في إيطاليا الآن حيث يوجد **الفاتيكان** و البابا المرجعية الدينية لقسم كبير من الناس هنا وحول العالم، لكن هل سألت نفسك يوماً لماذا لا توجد كثير من المناصب الدينية للإناث في جميع الأديان ؟ للأسف نحن نذكر الأب دوماً، نمجده ونمنحه السلطة والصلاحية المطلقة، لكن ماذا لو أن هنالك أنثى في الظل تعمل بصمت و نجهل وجودها ؟ أليس من واجبنا إظهارها للعلن ومنحها حقها الضائع ومكانتها المفقودة أو المهمشة ظلماً و إجحافاً ؟ و ربما كانت هذه هي حقيقة الكون بحد ذاته سيد أوليفر؟ فما أدرانا **قد يكون**

خلف هذا الكون العظيم أنثى عظيمة تعمل بجهد و صبر ؟ ماذا لو كان ذلك صحيحاً ؟ **ماذا لو؟**

ساد الصمت بعد الجملة الأخيرة. نظر السيد عزيز في ساعته وقال بنبرة ودودة :

O للأسف، عليّ الرحيل الآن. لديّ موعد مسبق مع صديق. فلتكن العذراء أم النور حارستك، سيد أوليفر. لقد سررت بلقائك وبنقاشنا العميق وتبادل أفكارنا .علنا نتابع الحديث في فرصة أخرى ، فموضوعنا معقد و شائك و ينطوي على جبل من الأسرار الغامضة ..

● الشعور متبادل يا سيد عزيز. كان لي الشرف كذلك.

استدار السيد عزيز وغادر القاعة، تاركًا أوليفر وسط زوبعة من الأفكار تتلاطم كأمواج عاتية في رأسه.

لا تزال كلمتا ماذا لو ؟ تدوران في ذهنه كحَلقة مفرغة.

ما الذي كان يعنيه ال سيد عزيز بكلامه الأخير؟ **عن أي ظل و أي أنثى تحدّث ؟**

لقد جذبه ذلك الإحساس الداخلي منذ أسابيع، قاده بلا هوادة نحو هذه الرحلة، حتى جاءت نصيحة السيدة جوفانا، بعناد غريب، لتدفعه نحو هذه الكنيسة.

ثم جاء اللقاء بالسيد عزيز، في هذا اليوم، وهذه اللحظة تحديدًا... ليس صدفة.

إنها السماء تتكلّم، بلا ريب.

لكن السيد عزيز، كمن قاده إلى منتصف البئر ثم قطع الحبل، تركه في هوّةٍ نفسية لا قرار لها.

ولا يبدو أن أحدًا قادر على انتشاله منها... سوى السيد عزيز نفسه.

إن شغفه الجارف لحل الألغاز وكشف الحقائق ينهش عقله كبعوضة لا تنام و هو نائم .

وهو على يقين أنّ ما خُفي من الحوار أهم مما قيل ، و أن هذا الرجل

الغريب، بثقافته المتبحّرة وسِنّه الوقور، يخفي من الأسرار أكثر مما باح به.

فما العمل ؟

هل يتابع جولته في الكنيسة كما كان مخططاً ا؟

أم يلحق بالسيد عزيز، عساه يحظى بلقاءٍ آخر يكشف فيه النقاب عن مزيد من الغموض؟

غلبه فضوله، كعادته، فأنصت إلى حدسه الذي لطالما أنقذه.

شدّ على عزيمته، وانطلق مهرولاً إلى خارج الكنيسة.

وعندما لمحه عند البوابة، ناداه بصوت مخنوق:

○ سيد عزيز... سيد عزيز، انتظر!

توقف الرجل، واستدار مبتسمًا، وكأنّه كان يتوقّع هذا التصرف.

● أرى أن نهمك للحقيقة تغلّب على شغفك بالفن والسياحة، سيد أوليفر.

○ محقٌ تمامًا، سيد عزيز. أريد أن نتابع حديثنا، متى شئت، إن لم يكن في ذلك إزعاج.

صمت السيد عزيز لحظة يفكّر، ثم قال :

● في الحقيقة... أنا أمانع، ولا أمانع في آن معًا.

تطلع إليه أوليفر بدهشة.

● أمانع في التوقيت... ولا أمانع في النقاش. دعني أفكر قليلاً...

ثم سأل وهو يوازن بين الاحتمالات :

● هل لديك ما يشغلك الآن ؟ أم أن بإمكاننا احتساء شيءٍ ما في أحد مقاهي ميلانو ؟

أجاب أوليفر بسرعة، دون تفكير:

○ بالطبع ! فلنذهب.

غادرا الكنيسة معًا إلى شوارع ميلانو النابضة، التي بدت كصورةٍ خارجية للفوضى الذهنية التي تعصف في رأس أوليفر.

● أعرف مقهى قريبًا من هنا، أحب الجلوس فيه... سيكون مكانًا مناسبًا لإتمام حديثنا.

○ يبدو خياراً مناسباً ...

● لكن قبل كل شيء، دعني أعتذر من صديقي...

أخرج هاتفه، وأجرى مكالمة قصيرة، أخبر فيها صديقه أنه سيتأخر.

في هذه الأثناء، كان أوليفر يسير إلى جانبه كمن يسير في حلم.

تملّكه شعور غريب :

إنه يعرف هذا الرجل منذ أقل من ساعة... لكنه يشعر وكأنه يعرفه منذ دهر.

كأنّ السيد عزيز قد ألقى عليه تعويذة، أو شدّه إلى مداره المغناطيسي.

والمثير في الأمر... أنّه لا يمانع ذلك على الإطلاق.

فحدسه يخبره :

أن شيئًا عظيمًا على وشك أن يُكشف.

أن هذا اللقاء ليس عابرًا.

وأن هذه الرحلة تستحق أن تُعاش، حتى آخر قطرة من معناها.

لاحظ أوليفر بعينه الخبيرة، تلك التي اعتادت التفرقة بين الألماس النقي والمزيف، أن السيد عزيز يلتفت بين الحين والآخر كما لو أنه يُطارد بنظرة خفية، كأنما ظِلٌّ ما يتعقّبه. تجاهل الأمر عمدًا، مركزًا على ما ظنّه جوهر

اللقاء، حتى وصلا إلى مقهى صغير يطل على إحدى ساحات ميلانو الصاخبة، حيث اختار السيد عزيز طاولة ملاصقة لزجاج عريض ينفتح على العالم كعين يقظة.

أتى نادل شاب في مقتبل العمر، أنيق في سلوكه، فطلب السيد عزيز فنجان قهوة مرة ، بينما اكتفى أوليفر بكابتشينو معتاد. أخرج السيد عزيز بايبًا فخمًا، أشعله ببطء، ونفث سحابة دخان رمادية حملت معها صمتًا مهيبًا، قبل أن يحدّق في أوليفر بعينين كأنهما تقرآن ما وراء الجفون، وقال :

○ أفهم من لهفتك وحدّة أسئلتك في الكنيسة أنك تطارد شيئًا أعمق من مجرد معلومة، أنت تبحث عن الحقيقة، أليس كذلك ؟

● أجل... أبحث عنها كما يبحث الغريق عن اليابسة، وكأنها الهواء الوحيد الذي يملأ رئتيّ.

ابتسم السيد عزيز بتلك الطريقة الغامضة التي لا تُخبرك نيتها ..

○ قبل أن نتوغّل أكثر، اسمح لي بسؤالين... أولهما : لماذا تظن أنني أملك الحقيقة دون سواي سيد أوليفر ؟

تردد أوليفر، وبدت على وجهه دهشة غير مصطنعة. إنه لا يعرف هذا الرجل إلا منذ دقائق معدودة ، فلماذا إذًا يثق به بهذا الشكل؟ لعلّها هيئته، هيبة صوته، أو ذاك الحضور الواثق الذي لا يُشترى. وربما، وربما فقط، لأن حديثه في الكنيسة لامس ثغرة داخله لم يستطع أن يملأها لا الدين، ولا العلم، ولا حتى الفلسفة.

● سؤال محيّر... لكنّ حديثك في الكنيسة أيقظ شيئًا خفيًا في داخلي، كأنك لمست وترًا مشدودًا منذ الطفولة... ولهذا تبعتك.

○ لم تجبني بشكل مباشر ، لكنني أتفهم أسبابك... أما السؤال الثاني، فهو الأهم : ما الثمن الذي أنت مستعدّ لدفعه مقابل الحقيقة ؟

بدت الصدمة جلية في عيني أوليفر، فقد تخيّل كل شيء عدا هذا. ظنّ أن الأمر نقاش فكري، لا صفقة. تفرّس في الرجل الذي أمامه، متأملاً بايبه

الفاخر، وساعته السويسرية، وبدلته التي تفوح منها رائحة الأناقة.

● إن كان الأمر مالًا، فاعلم أنني أملك من تجارة الألماس ما يكفي لشراء قصور من المعرفة... إن أردت ثروة، فهي لك.

قطّب عزيز حاجبيه في انزعاج صامت، وقال بهدوء قاطع :

○ وهل أبدو لك بحاجة للمال، سيد أوليفر؟ الحقيقة لا تُباع، لكنها تتطلب مقابلًا من نوع آخر... مقابلًا معنويًا، روحيًا... قلبك، مخاوفك، أو ربما... نفسك.

سكت لحظة، ثم تابع :

○ لكن قبل كل ذلك، علينا أن نتعرّف حقًا... فكيف نغوص في أسرار الكون، ونحن لا نعرف سوى أسمائنا ؟

ابتسم أوليفر لأول مرة منذ بدء الحديث، وقال:

● معك حق... فلنبدأ من هناك.

○ اسمي الكامل **عزيز اليقين** ، من مدينة **الإسكندرية** في **مصر**. بلغت الثالثة والسبعين، وقلبي ما زال شابًا بفضل الأسئلة التي لا تهدأ. تزوجت من مكسيكية اسمها **ماري روز**، لكنها رحلت قبل سنوات وتركتني أعيش على أطيافها ، لا أبناء لدي لأن زوجتي كانت مصابة بداء الذئبة الذي تسبب بإجهاضات متكررة. أحب القراءة، الرسم، والتبغ ، رغم أني لا أدخّن إلا في المناسبات التي تستحق. وهذه — صدّقني — إحدى أندرها.

توقف فجأة، نظر نحو طرف الساحة بقلق ، ثم تدارك الأمر واستأنف بنبرة أقل صلابة :

○ كنت، كحالك، مهووسًا بالحقيقة. دفعت ثمنًا باهظًا بسببها .. أموالي، عزلتي، وحتى يقيني الأول. أملك اليوم ثروة لا تهمني، وأنفقها على أسفاري وأبحاثي، وعلى من يلهثون خلف الضوء.. ماذا عنك ؟

● اسمي **أوليفر جون**، من غارميش بارتن كيرشن، ألمانيا. في الأربعين

من عمري. نشأت يتيمًا بعد أن فقدت والديّ في حادث سير ، وورثت عن أبي تجارة الألماس، وعن أمي عشق الموسيقى. أعزب، وأعيش بين الكمنجات والخرائط ، أبحث و أنقب عن الحقائق ... كأنني سأجد قطعة ناقصة من نفسي في مكان ما من هذا الكوكب.

○ تحب الموسيقى، إذن ؟

● أكثر من أي شيء آخر . إنها اللغة الوحيدة التي لم تخذلني.

هزّ عزيز رأسه بتفهم وقال:

○ هنالك مقطع شعري للشاعر السوري **نزار قباني** تم تحويله لأغنية أيضاً يقول بالعربية :

(قد تغدو امرأة يا ولدي يهواها القلب هي الدنيا)

ومعنى ذلك..
قاطعه أوليفر بابتسامة ..

● أنا أجيد اللغة العربية سيد عزيز، فوالدتي عربية تعود أصولها إلى المغرب، وإن كنت في الحقيقة أسمع هذا الشعر للمرة الأولى في حياتي منك لكنني فهمت مضمونه على كل حال..

قالها أوليفر بشكل واضح و إن كانت بلكنة أجنبية .. فابتسم السيد عزيز متابعاً كلامه بالعربية هذه المرة ..

○ هذا يسهل عليّ توضيح الكثير من الأمور سيد أوليفر.. بالفعل كما يخبرنا هذا المقطع الشعري، قد يعشق الإنسان امرأةً بحجم الدنيا، سيدةً متمرسةً، متمردةً، عظيمةً، ملكةً **كزنوبيا** في تدمر، وقائدةً **كديهيا** عند الأمازيغ... حسناء **كنفرتيتي** في مصر، عذبة الصوت **كفيروز** لبنان، مليئةً بالحب **كفينوس** أثينا وبالحنان **كالأم تيريزا**، نقيةً نقاء الثلج **كمريم العذراء**، كعطر مزيج من جميع عطور العالم ..

أوليفر بدهشة ..

● وما ارتباط ذلك كله بالحقيقة التي كنا نتحدث عنها سيد عزيز؟

○ كل الارتباط سيد أوليفر، لا تنس أن نقاشنا برمته بدأ في الكنيسة بالحديث عن الأنثى و مكانتها ، كما أنّ الحقيقة بحد ذاتها هي أنثى .. لقد أخبرتني أنك أعزب حتى اللحظة اليس كذلك ؟

● بلى ..

○ لن يكتمل فهمك للحقيقة حتى تعثر على نصفك الثاني المكمل لك في الكون، فإن كان الزواج في ديني الإسلامي نصف الدين كما يقال فإن الحب هو نصف الحقيقة بشكل مؤكد...

● والنصف الآخر منها ؟

○ النصف الآخر مرتبط بالثمن الذي أنت مستعدّ لدفعه في سبيل معرفة هذه الحقيقة سيد أوليفر..

*****

لا قيمة لشيء

في متناول اليد

● إذن أنت مستعد لدفع الثمن من أجل الوصول إلى الحقيقة، سيد أوليفر؟

○ بكل تأكيد، أنا مستعد تمامًا.

صمت السيد عزيز للحظة ، ثم فاجأ أوليفر بطلب غير متوقع :

● الثمن الذي ستدفعه، سيد أوليفر، ليس مالًا ... بل وقتك. ستقضي فترة من الزمن في أماكن مختلفة حول العالم، تعيش تجارب متنوعة، وتلتقي بأشخاص جدد. وبما أنك أخبرتني عن حبك للترحال وثرائك، وأكثر من ذلك، شغفك اللا محدود بالبحث عن الحقيقة، فلا أعتقد أن الأمر سيكون عبئًا عليك، أليس كذلك؟

أومأ أوليفر برأسه وهو يفكر: السيد عزيز يبسط الأمر كثيراً، لكنه يعلم أن هذا الثمن غريب و وراء الأكمة ما وراءها. مع ذلك، هو لا يرى في ذلك خسارة، بل مغامرة تروق له سيزور فيها دولاً جديدة كما يحب ، فماذا يخسر؟ بل قد يربح حقائق تغير حياته كلها..

○ طلب غريب لا أخفيك سراً .. لكنني مستعد لتلبيته في سبيل الحقيقة ..

● ستفهم لاحقاً خلال رحلاتك و مغامراتك غاية هذا الطلب .. على كل حال حقائق الكون الكبرى لا تمنح على طبق من ذهب ، بل تنتزع و تستحق بالتعب .. فلا تتوقع مني الآن أن أبوح لك بكل معرفتي و أسراري .. هذا لمصلحتك من جهة و احتراماً لقداسة الأسرار الكونية الكبرى من جهة أخرى ..

○ أتفهمك .. وجهة نظر منطقية بلا شك ..

● لكن قبل أن نشرع في هذه الرحلة، عليّ أن أطرح عليك سؤالًا، ثم أقص عليك قصة، وأخيرًا أقدم لك نصيحة.

○ تفضل، أنا مستعد لسماع كل ما لديك ..

أشعل السيد عزيز غليونه مجددًا، وبدأ في الحديث بجدية :

● السؤال بسيط : هل تعلم، سيد أوليفر، أن الأرض كروية وليست مسطحة

؟ وأنها ليست مركز المجموعة الشمسية، بل الشمس هي المركز؟

نظر أوليفر إليه بحدّة وبتعجرف، قائلاً:

○ بالطبع أعلم ذلك، هل هذه من الحقائق التي ستكشفها لي سيد عزيز ؟

رمقه السيد عزيز بنظرة فيها كثير من اللوم :

● لقد أخطأت في ثلاثة أمور في إجابتك هذه، سيد أوليفر.

شعر أوليفر بالدهشة والارتباك :

○ وما هي هذه الأخطاء ؟ أخبرني، من فضلك !

نفث السيد عزيز دخان غليونه بهدوء، ثم قال:

● **أولًا**: لاستقبال المعرفة، يجب أن تتحلى بالتواضع. تمامًا كما تجمع السهول المنخفضة مياه الأمطار، عليك أن تتواضع كي تتسع روحك لاستقبال حقائق الكون الكبرى.

ثانيًا: تعجلك في الإجابة دليل على قلة صبر، وهذا هو المفتاح الذي ستحتاجه كثيرًا في تجاربك القادمة، بل عليك أن تتحلى بصبر النبي أيوب لتواجه ما ينتظرك.

ثالثًا: استهتارك بتعب الآخرين وجهودهم طوال حياتهم، هو ظلم. ربما نسيت أن هذه الحقائق البسيطة لم تكن دومًا كذلك، بل جاءت نتيجة سنوات طويلة من البحث والعمل، وتحملت من أجلها كفاءات كثيرة رفض المجتمع لها، بل دفع بعضهم حياتهم ثمنًا لذلك.. خذ مثلًا **جوردانو برونو**، عالم الفلك الذي تحدى المسلمات الخاطئة في زمنه، فاتهمته الكنيسة بالهرطقة، وجرّته عارياً في شوارع روما، ثم أحرقته حياً في ميدان النار. هل تعتقد أن تلك الحقائق التي كافح هذا الرجل من أجلها بسيطة وغير مهمة ؟

عمت حالة من الخجل والاحترام قلب أوليفر، واعترف بصراحة :

○ أعتذر، سيد عزيز، أنت على حق، لقد كنت متعجلاً ومغرورًا في تقديري، وأهملت جهد من سبقوني في اكتشاف أسرار الكون.

ابتسم السيد عزيز وقال:

● اعتذارك نقطة قوة في شخصيتك، وستخدمك كثيرًا. الآن، هل ترغب بسماع القصة التي وعدتك بها ؟

اعتدل أوليفر في جلسته، ونطق بتواضع هذه المرة :

○ بالطبع يا سيدي، تفضل بالحديث...

ابتسم السيد عزيز، وأعاد إشعال بايبه بهدوء ثانيةً ، بينما ارتفعت أنفاس أوليفر معلنة استعداده التام لسماع القصة.

● يحكى أن فلاحًا من **ساحل العاج** كان يحرث أرضه، وبينما كان يحرث، اصطدم فأسه بحجر غريب الشكل. نزعه الفلاح ورماه جانبًا، فقد كان يعوق تقدمه ولم يعطه أي اهتمام. تابع الحراثة دون اكتراث.

مرت الأيام، ومر رجل آخر بالقرب من الحقل، فلاحظ الحجر الغريب وأعجبه شكله. أخذه معه إلى محل زينة، حيث منحه للبائع مقابل خمسة فلوس فقط.

وفي صدفة غير متوقعة، مر تاجر أحجار كريمة بدكان البائع. لحظة وقوفه أمام الحجر، أدرك فورًا قيمته الثمينة والنادرة، فاشترى الحجر بخمسة وعشرين فلسًا.

وباعه التاجر في النهاية بثمن باهظ بلغ مئات آلاف الفلوس...

هل فهمت مغزى القصة، سيد أوليفر؟

نظر أوليفر بتأمل وأجاب :

○ أظنني فهمت، كل شخص تعامل مع الحجر حسب معرفته بقيمته. الفلاح لم يقدر قيمته، لذا رماه بعيدًا، البائع باعه بثمن زهيد، أما التاجر المختص فاستغل الفرصة وحقق ثروة.

ابتسم السيد عزيز:

● بالضبط، وهكذا هي الحقيقة التي تبحث عنها، لن تكون ذات قيمة إذا لم تدرك أهميتها بنفسك...

ساد صمت عميق للحظات بعد انتهاء القصة، لكن فضول أوليفر ازداد.

○ ماذا عن النصيحة يا سيد عزيز؟ أنا مستعد لها...

أجاب السيد عزيز وهو ينفث الدخان بهدوء:

● النصيحة، يا أوليفر، تلخص كل ما سبق، وهي موجودة في كل الأديان : **الصيام**. لكنني أتحدث هنا عن الصيام الفكري...

نظر أوليفر متسائلًا:

○ لم أفهم، ماذا تقصد بالصيام الفكري ؟

أوضح السيد عزيز:

● الصيام، سواء عن الطعام أو المتع بشكل عام ، يجعلنا نقدر ما نمتنع عنه أكثر. كذلك التعب والسعي وراء شيء ما يمنحه قيمة أعظم في أعيننا. هكذا هو الأمر مع الحقيقة، عندما تتعب للوصول إليها، ستقدرها وتحافظ عليها.

ابتسم أوليفر وقال :

○ فهمت الآن، لهذا السبب لن تعطيني الحقيقة جاهزة، بل تريدني أن أعمل

وأتعب لأصل إليها... كي لا أستهتر بها و أسيء تقديرها و استخدامها ..

● بالضبط. الآن أنت جاهز للانطلاق في رحلة البحث عن أسرار الكون و الحياة التي قضيت أنا عقودًا في سبيلها. قد تحصل عليها خلال أسابيع أو أشهر، إذا تحليت بالصبر و الانتباه و التفكير المنطقي .

سأل أوليفر بحماس:

○ وماذا أفعل الآن ؟ كيف أبدأ ؟

● لا تتعجل، كما نصحتك سابقًا. استمتع بسياحتك في ميلانو وإيطاليا، وعندما تعود إلى ألمانيا سأخبرك بأولى الخطوات عبر الهاتف. أما الآن، فقد تأخرت على موعدي ساعة كاملة، وهذا أمر غير لائق ...

تناول السيد عزيز ورقة وطلب من أوليفر كتابة رقم هاتفه عليها.

● سأتواصل معك قريبًا، سيد أوليفر. تشرفت بلقائك، واستمتعت بحوارنا. متأكد أن لقاءنا القادم سيكون أكثر إثارة. لقد تأخرت عن موعد صديقي كثيراً و هذت غير لائق البتة ..

رد أوليفر مودعًا :

○ شعور متبادل سيد عزيز، بانتظار مكالمتك ...

وقف السيد عزيز، وضع قبعته، لكنه قبل أن يغادر، نظر إليه بعينيه الحادتين كنصل سيف ساموراي وقال:

● تذكر سيد أوليفر، كل القصة بدأت **بالزيتونة**... الزيتونة، لا تنسَ ذلك .

خرج من المقهى، التفت حوله بقلق واضح، ثم استدار بسرعة نحو اليمين، واختفى في زقاق ضيق، تاركًا أوليفر في حيرة من أمره، بلا فرصة للرد أو حتى للتفكير بهدوء...

بقي أوليفر جالسًا في مقعده، عيناه تحدقان عبر زجاج المقهى نحو الشوارع

المزدحمة والمارة، لكن عقله كان يحلق في فضاءات أخرى بعيدة تمامًا. هل كان لقاءه مع السيد عزيز مجرد صدفة ؟ أم كان حلماً يطارد ذكرياته ؟ رغم أن حديثهما لم يدم أكثر من ساعة، إلا أن تفاصيل تلك اللحظات كانت تثقل روحه كما لو مرت دهور.

ترددت في ذهنه كلمة **الزيتونة** ، ذلك الرمز الغامض الذي كرره السيد عزيز أكثر من مرة، وكأنه مفتاح سرّي يخفي وراءه حقائق لم يُكشف عنها بعد.

لكن الأهم الآن، ما هي الخطوة التالية ؟ هل عليه أن يستمر في رحلته السياحية أم ينطلق نحو مغامرة أعمق ؟

مشاغل السياحة والفنون بدت كأنها نسمة عابرة أمام ضجيج أفكاره المتدفقة. دفع الحساب وخرج، وقدماه تقودانه دون تفكير، وكأنه جسد يسير وحسب، وروحه مندمجة في عالم خفي من الأسئلة والشكوك.

بعد مسير طويل، وجد نفسه أمام مدخل الفندق. صعد إلى غرفته، أعد لنفسه كأسًا من المتة، وجلس على الشرفة يتأمل ميلانو تعج بالحياة تحت شمس الظهيرة الحارقة. كانت الصورة واضحة في عقله : مشروع زيارة روما، نابولي، فلورنسا وفينيسيا، ذاب كسراب في صحراء أفكاره. شيء ما في أعماقه قد تغير، فقد تحول حبه للسياحة من مجرد مشاهدة معالم فنية إلى رغبة شغوفة باقتناص حقائق و أسرار الحياة.

رحلته إلى إيطاليا انتهت رسميًا في تلك اللحظة. لم يعد يطيق انتظار العودة إلى ألمانيا، حيث تنتظره المغامرة الحقيقية التي تحدث عنها السيد عزيز.

و بعد تفكير عميق، اتخذ قرارًا حاسمًا ببتر رحلته والعودة إلى منزله في اليوم التالي.

نزل لتناول الغداء، ثم عاد ليستريح ساعة أخرى، قبل أن ينطلق في جولة وداع في شوارع ميلانو. مر بجوار المقهى الذي التقى فيه بالسيدة جوفانا بالأمس، وشعر بغرابة الزمن وكأنه مرت سنوات منذ ذلك اللقاء، هو يعلم أنها تزور المقهى يوميًا بعد غروب الشمس فقط.

واصل طريقه حتى وصل إلى **قلعة سفورزيسكو**، حيث أخرج هاتفه الخلوي

ليلتقط بعض الصور مع القلعة، لكنه لم يرغب بدخولها. تأمل في تأثير أفكاره عليه، فحبه القديم للفن والسياحة كان قد أذعن لصوت جديد في داخله، صوت يناديه نحو رحلة أعمق، غامضة، لا تفسرها معادلات السياحة المعتادة.

لا شرقية ولا

غربية..

العودة إلى ألمانيا ...

لم تكن عودة أوليفر المباغتة إلى منزله في ميونخ إلا صدمة هادئة لمساعده الوفيّ ماتيوس. فقبل يومين فقط، كان قد أخبره أن رحلته ستطول لأسبوعين على الأقل. وها هو الآن يقف عند عتبة الباب، كمن طوته الأيام واختزلها في رمشة عين.

ماتيوس، بدهشة مكتومة :

○ سيد أوليفر! مرحبًا بعودتك...

أجابه أوليفر، بصوت خافت :

● أهلًا، سيد ماتيوس.

ماتيوس، وقد علت نبرته بقلق مهذّب :

○ لم يمضِ على رحيلك سوى يومين ! هل طرأ أمرٌ ما ؟

ردّ أوليفر، وهو يتجاوز العتبة :

● لا شيء يُذكر... التزامات مفاجئة في العمل استدعت عودتي.

لكن تلك الكلمات لم تخدع ماتيوس، فقد اعتاد أن يقرأ تعبيرات وجه سيده كما يقرأ المرء كتابًا مألوف الصفحات. ومع ذلك، ظل صامتًا، يحترم خطوط الخصوصية التي طالما رسمت بوضوح بينهما.

○ الغداء جاهز يا سيدي، هل تحب أن تتناول شيئًا ؟

أوليفر، وهو يتوجه إلى السلالم :

● لاحقًا سيد ماتيوس، أحتاج إلى بعض الراحة... فقد أنهكني السفر .

وما إن أغلق باب غرفته خلفه، حتى ألقى بنفسه على السرير. طاف في ذهنه وجه السيد عزيز وكلماته التي لا تزال تطنّ في ذاكرته كجرس في كنيسة مهجورة. جلس، فتح حاسوبه، وراح يفتش في دهاليز الإنترنت عن ذلك الغريب ـ **عزيز اليقين** ـ لكنه لم يجد سوى أسماء عابرة، حسابات لا تمت بصلة، ووجوه لا تشبهه. لا عنوان، لا رقم هاتف، لا حضور رقمي يُذكر. كأنه لم يكن أكثر من طيف، لمحته الحياة للحظة ثم اختفى، تاركًا خلفه أثرًا من الحيرة.

عاد إلى الشاشة، واستأنف بحثه عن الزيتونة ، الكلمة التي شدّد عليها السيد عزيز كأنها مفتاح كل شيء. ظهرت له صور الأشجار، ثمارها، شعارات العلامات التجارية. وبينما هو يقلّب الصفحات، توقّف فجأة عند اسمه : **Oliver** و هو أوليف أو زيتونة بالإنجليزية، مع حرف (ر**r**) في النهاية.

تساءل بدهشة :

● هل لاحظ عزيز هذا التشابه ؟ أكان يقصدني ؟ وهل عندما قال : (أوليفر... اسم مميز للغاية) ، كان يلمّح إلى ما هو أعمق من المجاملة ؟

كان التفكير يعصف برأسه، يبعثره صداع لزج لا يُحتمل، لكنه قاومه. و قبل أن يطفئ الحاسوب، تذكّر فجأة أنه لم يجرّب البحث بالعربية، لغة عزيز الأم. كتب كلمة زيتونة، وإذا بمحرك البحث يعجّ مجددًا بالصور ذاتها... إلى أن ظهرت له، وسط الزحام، آية قرآنية فتحت داخله بابًا آخر:

((الله نور السموات والأرض * مثل نوره كمشكاة فيها مصباح * المصباح في زجاجة * الزجاجة كأنها كوكب دريٌّ يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية و لا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار * نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء))

لم يفهم الكثير، لكنه شعر بتيار كهربائي خفيف يمرّ بجسده. إحساس غريب

بأن هذه الآية تحديدًا هي ما كان يشير إليه عزيز. الزيتونة... ليست شجرة وحسب، بل شيء أكبر. شيء نوراني، خفي، جوهري.

غمره يقين غامض: ما يواجهه ليس سوى بداية شبكة من الرموز والألغاز المحكمة، تتقاطع فيها المعاني الدينية والفلسفية والكونية. وأن رحلته لم تنتهِ، بل بدأت للتو... فكل عقدة سيحلّها ستقوده إلى أخرى، حتى يبلغ تلك الحقيقة الكبرى التي تهمس له من وراء الحُجب.

ورغم صداعه المُنهك، اجتاحه شعور متوهّج بالحماسة، كالذي يصيب المستكشف لحظة العثور على أول خيط يقوده إلى الأرض الجديدة .

مرت الأيام التالية على أوليفر ببطء زاحف، كسلحفاة عجوز تخطو على زجاج مهشم، ترجو بلوغ النهاية دون أن تُجرح.

كان ينتظر اتصالًا أو رسالةً من السيد عزيز، أيّ إشارة، أي خيط جديد يمسك به ليتابع رحلته نحو الحقيقة الغامضة. منذ لقاء ميلانو، لم يعد في العالم ما يشغله سوى كلماته، خصوصًا تلك التي تدور حول الزيتونة ، و ما رافقها من إشارات قرآنية بقيت تتردد في ذهنه كسيمفونية كونية غير مفهومة.

*****

مضت عشرة أيام على عودته دون أي أثر من السيد عزيز، فتسلل الشك من شقوق الصبر، وراح اليأس يمد جذوره في قلبه رويدًا رويدًا.

أمعن التفكير: ربما أضاع السيد عزيز تلك الورقة الصغيرة التي قيّد عليها رقمه... وربما لم يكن جادًا من الأساس... أو ربما لديه حياةٌ أخرى، مشاغل أخرى، وأنا ؟ أنا فقط رقم في هامش قصته الكبرى ؟

حاول التمسك بنصيحته حول الصبر، تلك التي تقول بأن الأشياء لا تُمنح قيمتها إلا بعد عناء الانتظار... لكنه في النهاية، رفع الراية.

كفَّ عن التفكير، وعاد مضطرًا إلى نظام حياته القديم : يتابع عمله، يخرج مع أصدقائه إلى المقاهي، يصطاد السمك في بحيرة إبسي بصحبة ماتيوس، مساعده الوفي.

لكن لا شيء عاد كما كان.

الصيد فقد نكهته، الأصدقاء صاروا مرايا باهتة، العمل أضاع جوهره.

منذ أن قرأ تلك الآيات، منذ أن تسللت إليه الكلمة : زيتونة ، أحس كأن حياته انقلبت رأسًا على عقب.

بدا لقاؤه بعزيز كأنه لعنة مقدّسة، بعثت فيه الوعي وتركته حبيسًا في قعر بئر نفسي لا يرى ضوءًا، ولا يسمع صدى.

لاحظ ماتيوس هذا التحول الحاد في شخصيته، كمن يرى الوردة تذبل أمامه دون أن يستطيع سقيها، وكاد يواجهه بالأمر، لولا أن الفجر بزغ فجأة من أعتم لحظات الليل.

ففي الخامس من أيلول/سبتمبر، وبعد شهر كامل من الصمت، وصله ما كان ينتظره: رسالة على هاتفه، من عزيز اليقين، سطران فقط باللغة العربية:

لا شرقية ولا غربية، في المنتصف تماماً، تقود الملكة جيشها ألف خطوة إلى الأمام.

عزيز اليقين

وقف أوليفر مذهولًا.

إنه لم ينسَني... إنه جاد فعلًا... لقد بدأت الرحلة حقًا !

اجتاحت كيانه عاصفة من الحماسة ، كأن الحياة عادت لتنبض في عروقه من جديد.

قرأ الرسالة مرة، مرتين، عشر مرات. كل سطر فيها كان لغزًا، وكل كلمة فيها خيطًا يلمع في الظلام.

العبارة الأولى (لا شرقية ولا غربية) أعادته فورًا إلى تلك الآية من القرآن، إلى شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، فابتسم برهبةٍ امتزجت بالإعجاب :

كان يتوقّع أن أبحث، أن أقرأ، أن ألاحظ... وكان يراقبني دون أن يراني.

لكن ماذا عن الملكة ؟ عن الجيش ؟ عن الألف خطوة ؟

حاول الاتصال برقم المرسل، لكنّه كان محجوبًا.

أدرك أن عزيز يقوده بأسلوبه، أن عليه أن يتعلّم فكّ الرموز، أن يبذل الجهد كما وعد، ليشعر بقيمة الحقيقة عندما يلمسها بيده.

ليكن.

هو الآن في صلب الرحلة، واللعبة بدأت وفق قوانين تختلف عمّا ألفه.

ما يهم أن السيد عزيز لم يكن عبثيًا، لم يكن حلمًا عابرًا، بل مفتاحًا واقعياً لباب الحقيقة الكبرى.

ابتسم أخيرًا، وكأن أول شعاع من الفجر اخترق شقوق نفسه.

رحلتي بدأت.

*****

لم يترك أوليفر وسيلةً ممكنةً لتفسير الرسالة إلا وطرق بابها عبثًا. فقد كانت الأحجية عصيّة على فهمه، كأنها جاءت من لُغةٍ لا يتقنها البشر. وفي مساء اليوم الخامس من البحث، جلس يحتسي المتّة بالعسل في حديقة منزله الرحبة، بجوار مسبحه الخاص، تحت شجرة كافورٍ ضخمة، طالما أحب

ظلّها ورائحتها المنسية. النسيم كان يداعب سطح المياه بخفّة، فيما شرد ذهنه في عمق المسألة، يحاول بلا جدوى أن يفكّ طلاسم تلك الكلمات القليلة.

في المقعد المجاور، جلس مساعده الشخصي ماتيوس، يرشف من بيرته الألمانية المفضلة، محدّقًا بسيده بعين الخبير بأحواله؛ فهو لم يكن مجرد مساعد، بل رفيق الطفولة، وراعي سنواته الأولى، ومن يعرف عن وجه أوليفر ما لا تبوح به حتى المرايا.

● أراك مشغول البال، سيد أوليفر... هل هناك ما يمكنني المساعدة به ؟

نظر إليه أوليفر بشرود، فرأى في عينيه قلقًا صادقًا، وحزنًا مكتومًا كأنه من والدٍ خائف على ابنه. لطالما اعتبره ماتيوس الابن الذي لم تنجبه له الحياة، فقد رزقه القدر بابنتين، ولم يمنحه أبناءً ذكورًا.

○ في الحقيقة، هناك أمر يشغلني يا سيد ماتيوس، ولا أظن أن بإمكانك مساعدتي فيه ...

● جرّب، سيد أوليفر. فالكلام في حد ذاته يريح القلب، وإن لم أفدك، على الأقل أشاركك الحِمل.

فكّر أوليفر لبرهة. لم يرَ ضيرًا في مشاركته ببعض ما يدور في خلده ، دون التطرّق لموضوع السيد عزيز. فأخذ نفسًا عميقًا، ثم قال:

○ بماذا توحي لك جملة (لا شرقية ولا غربية، بل بالمنتصف) ؟

أطرق ماتيوس رأسه، وهو يقلب المعنى في ذهنه، ثم أجاب دون تردد:

● بجدار برلين، سيد أوليفر... فقد كان بين ألمانيا الشرقية والغربية. لا شرقي ولا غربي، بل في منتصف البلاد.

تجمّدت ملامح أوليفر، ثم ارتفعت حاجباه دهشة. الجواب كان بسيطًا، ولكنه كُتب كالوحي في قلبه. وقفز من كرسيه بحماسة :

○ وجدتها! وجدتها! أنت يا سيد ماتيوس... وليس أنا !

ثم تابع بلهجة عربيةٍ خالصة، كأنما يخاطب من أرسل الرسالة :

○ إن السماء بدأت تتكلم مجددًا... يا لعبقريتك يا سيد عزيز!!

أمّا ماتيوس، فحدّق فيه مشدوهاً، وقد خُيّل إليه لوهلةٍ أنّ سيده فقد صوابه...

لم ينم أوليفر تلك الليلة. ظل يقلب الفكرة كما تُقلّب يدٌ خبيرة حجرًا كريمًا نادرًا. هل يمكن أن يكون جدار برلين — الذي شطر البلاد نصفين — هو المفتاح ؟ وهل الزيتونة التي وصفها النص القرآني بأنها لا شرقية ولا غربية... كانت تشير إلى شيء من هذا القبيل ؟ ذلك النبات الذي ينمو في نورٍ خالص، لا يحجبه حائط ولا يحده اتجاه.

ومع بزوغ قلق جديد، عاد يتذكّر الشق الآخر من الرسالة : (تقود الملكة جيشها ألف خطوة إلى الأمام.)

من هي هذه الملكة ؟ وما علاقتها بالجدار ؟

قام من فراشه مسكونًا بالحيرة، وفتح حاسوبه المحمول. أخذ يبحث عن كل ملكة عبر التاريخ الألماني، من اللوحات التاريخية إلى الأساطير الجرمانية، ومن الملكة لويز إلى بطلات الميثولوجيا النوردية. لكن لا شيء. لا طيف يظهر، ولا أثر يُطمئن قلبه.

أغلق الحاسوب بخيبة هادئة، وخرج إلى شرفة غرفته. الهواء الليلي كان عليلًا، يذكّره بطفولته حين كان يسرح ببصره نحو جبال الألب من نافذة غرفته القديمة. هناك، في البعيد، بدت له صورة حجريّة، بوابة... ظلّت واقفة في وجه العواصف والتحوّلات، معلمٌ لا يزال يشهد على زمنٍ شُطرت فيه البلاد والقلوب.

نعم... **بوابة براندنبورغ.**

تقع على امتداد جدار برلين التاريخي، في المنتصف تمامًا.

ولا معلم آخر يُذكّر بالجدار مثلها.

إنها فكرة بسيطة لكنها تليق بالأحجية كما لو أنها فصلت عليها بيد ترزي خبير بالمقاس !!

وهكذا، ومع تنفسه العميق الأخير لتلك الليلة، ترسّخ القرار في ذهنه :

(سأبدأ من هناك... من حيث وقفت الملكات والجنود والقصائد. حيث صمدت ألمانيا في منتصف كل شيء.. بكل الأحوال لا خيار آخر منطقي بين يدي !)

*****

الطريق إلى برلين

مع خيوط الفجر الأولى، شرع أوليفر في تجهيز أمتعته مرة أخرى بمساعدة ماتيوس. أخبره بأن هناك عملًا طارئًا في برلين يستدعي سفره الفوري. و مثل كل مرة، لم يقتنع ماتيوس بالكلام، لكنه أنهى تجهيز الحقيبة بصمت، ثم حملها إلى السيارة ووضَعها في الخلف. ودّع سيده بحرارة، متمنيًا له رحلة آمنة.

انطلق أوليفر نحو العاصمة برلين، ويداه تغمرهما العزيمة والحماسة . المسافة بين ميونخ وبرلين تقارب **600** كيلومتر، وخمس إلى ست ساعات هي مدة الرحلة بالسيارة التي فضّلها على الطائرة؛ فقد كان بحاجة إلى وقت كافٍ للتفكير بهدوء، بالإضافة إلى عشقه للترحال على الطرقات.

في السيارة، كان صوت المحرك يندمج مع تدفق أفكاره المتشابكة؛ استرجع كل ما مر به منذ وصوله إلى ميلانو: الكاتدرائية، السيدة جوفانا، كنيسة ماريا ديليه غراتسيه، والسيد عزيز. توقف طويلاً عند كلمات الأخير عن الزيتونة، وارتباطها بألمانيا المنقسمة إلى شرقية وغربية. كان يشعر بشبكة متشابكة من الروابط تحيط بكل هذه التفاصيل، لكنه لم يصل بعد إلى تفسير واضح.

بعد خمس ساعات ونصف، دخل برلين، ثم توجه مباشرة نحو بوابة

براندنبورغ. بحث عن مرآب قريب، ركن سيارته فيه، ثم خرج ماشياً نحو البوابة الشهيرة. كان مرتبكًا بعض الشيء، فهو لا يعرف بالضبط ما يبحث عنه، بل يتبع مجرد افتراضات غير مدعومة بأدلة.

وقف أمام البوابة يتأملها، وأولى ما جذب انتباهه كان **تمثال الكوادريغا** فوقها : عربة تقودها امرأة مجنحة، تجرها أربعة خيول متجهة شرقًا نحو قلب المدينة. تذكر في الحال جملة الرسالة : (**ملكة تقود جيشها**) ؛ كان التمثال يشي بذلك بالفعل. هل هذه إشارة السيد عزيز؟

راجع سريعًا ما قرأه عن البوابة بالأمس : ستة أعمدة في كل جانب، وعارضة أفقية طويلة تحمل البوابة. بُنيت عام **1793**، لم تحظ باهتمام كبير حتى دخل نابليون برلين عبرها منتصرًا عام **1806**، وأخذ تمثال الكوادريغا إلى باريس كغنيمة. كان الألمانيون حريصين على استعادته، وتم استرجاعه عام **1814**، فأصبحت البوابة رمزًا لألمانيا، رغم أن الانقسام بين الشرق والغرب بعد الحرب العالمية الثانية أعاد لها طابعًا مختلفًا. بعد سقوط جدار برلين عام **1989**، استعادت مكانتها كرمز للوحدة.

لكن هذه الحكايات لم تقدم له أي حل جديد. عاد إلى نقطة البداية، متسائلًا : ما هي الخطوة التالية ؟

تخطى البوابة، متبعًا اتجاه العربة نحو الشرق، متذكرًا آخر مقطع من الرسالة :

(تقود الملكة جيشها ألف خطوة إلى الأمام.)

لم يتردد. بدأ العد : خطوة بعد أخرى، يمضي ببطء لكنه بثقة. عبر الشارع الرئيسي حتى وصل إلى مقهى يطل عليه، ارتجف قلبه حين قرأ اسم المقهى :

(أوليفيا).

كان ذلك تأكيدًا داخليًا أنه على المسار الصحيح.

لم يتردد ، دخل المقهى، وجلس إلى طاولة قابعة تحت اللوحة الوحيدة على

الجدران، كانت تصور الشمس والقمر بطريقة غريبة ، كذكر و أنثى يتعانقان . انهمرت الأفكار في ذهنه، مستذكرًا كلام السيد عزيز عن توازن الحياة بين الذكر والأنثى، وأن وراء كل رجل عظيم امرأة، ..



لفت انتباهه توقيع صغير أسفل اللوحة باسم عزيز. تذكر شغف السيد عزيز بالرسم، فاستقر في نفسه يقين أنها من رسم يده و أنه على الطريق الصحيح . لكن لماذا هذه اللوحة هنا ؟ وما العلاقة بين عزيز وهذا المقهى ؟ وما السر الخفي وراء هذه الصورة ؟

أسئلة كثيرة بقيت بلا إجابات، لكن ثمة يقين واحد : لقد حل شفرة الأحجية ووصل إلى المكان المناسب بلا أدنى شك ..

أخرج هاتفه المحمول، التقط صورة للّوحة المُعلّقة على الجدار كأنّه يسعى لتجميد لحظة لا يريد لها أن تفلت. لم تمر سوى لحظات حتى اقترب منه شاب في ريعان الشباب، يحمل ملامح مَن اعتاد الإنصات أكثر من الكلام.

○ ماذا تود أن تطلب سيدي ؟!

● فنجان قهوة من فضلك... وأودّ أن أطرح عليك سؤالًا..

○ تفضل، سيدي.

● من يملك هذا المقهى ؟

○ السيد إيليا، سيدي...

أجاب وأشار برأسه نحو الزاوية.

في تلك الزاوية البعيدة، جلس رجل ستيني، شعره أبيض كثلج الشتاء، ولحيته تفيض وقارًا. كان غارقًا في مجلة، كأنّ العالم لا يعنيه إلا ما بين الصفحات.

● أحضر قهوتي إذًا إلى طاولة السيد إيليا.

أومأ الشاب برأسه وقد لمعت في عينيه دهشة، بينما اتجه أوليفر بخطى واثقة نحو صاحب المقهى. ألقى التحية، فجاءه الردّ بنبرة دافئة.

● هل أتشرف بالجلوس والتحدث معك قليلًا ؟

○ بالطبع، تفضل...

قالها إيليا، وفي عينيه ظلّ من الدهشة.

● اسمي أوليفر... لقد أسرني هذا المكان، خاصّة تلك اللوحة.

وضع إيليا نظّاراته جانبًا، تطلّع إلى أوليفر بفضول صامت.

○ إنها جميلة رغم بساطتها، أهداها لي صديق قديم، الأستاذ عزيز اليقين، في ذكرى زواجي من السيدة أوليفيا. كان يرى في حبّنا شيئًا أسطوريًا...

رفع أوليفر حاجبيه و قد صدق تحليله بشأن اللوحة :

● أسطوري ؟

○ نعم، فقد ولدنا في اليوم ذاته، من العام ذاته، عام **1961**، العام الذي شُيّد فيه جدار برلين. فرقنا الجدار، إذ أصبحت عائلتي غربية، وعائلتها شرقية. لكننا أحببنا بعضنا بالمراسلة، وانتظرنا ثلاثين عامًا حتى سقط الحاجز بيننا... في **1989**، التقينا أخيرًا، عند بوابة براندنبورغ، وتزوجنا بعدها.

صمت أوليفر، يبتسم بدهشة.

● إنها فعلًا حكاية تُروى. صدق من قال الواقع دومًا أعجب من الخيال.

لكن وراء إعجابه، كان يحمل هدفًا أبعد فأردف قائلاً :

● لقد أعجبت بأسلوب الأستاذ عزيز في الرسم. هل لي بطريقة للتواصل معه بغية عمل فني ؟

تنهد إيليا، كمن يعرف الجواب مسبقًا :

○ للأسف، لا. لقد طلب مني مسبقاً عدم منح أحد معلوماته الخاصة. كما أنه لا يبيع فنه، ولا يرسم إلا لنفسه. رجل ثري، غامض، ويخشى على أمنه الشخصي.

تذكر أوليفر فورًا لقاء ميلانو، تلك النظرات المتلفّتة من السيد عزيز، وتلك العبارة : (تذكّر الزيتونة، فكل شيء مرتبط بها) تذكّر أيضًا زوجة هذا الشخص أوليفيا، واسمها الذي ينبثق من الشجرة ذاتها... ما هذه الدوائر التي تتقاطع في ما يبدو مصادفة، لكنها ليست كذلك ؟

أنهى فنجان قهوته، شكر السيد إيليا، ثم غادر المقهى بينما ظلال من

الأسئلة تتراكم في ذهنه. في الشارع، كانت برلين تبدو له كمسرح يتقن إخفاء ألغازه تحت جمال السطح.

توجه إلى سيارته. جلس خلف المقود، أدار المحرّك، وانطلق عائدًا إلى ميونخ. كان يحمل في ذاكرته ثلاث إشارات متداخلة : **لوحة الشمس والقمر، حكاية إيليا وأوليفيا ، ونصيحة السيد عزيز عن الزيتونة** .

هل قصد السيد عزيز من الأحجية أن يعثر على اللوحة في ذلك المقهى .. لكن إلام ترمز اللوحة بالأساس ؟ هل يشير من خلالها إلى ايليا و اوليفيا بوصفهما الشمس و القمر ؟ و ما معنى ذلك ؟

إنّ الشموس والأقمار أجرام سماوية تملأ الكون و القاسم المشترك بينها هو النور.. تذكر هنا على الفور الآيات القرآنية من سورة النور فقد كانت تنص على : (**نور على نور**)، فهل في ذلك إشارة إلى الله النور ككيان واحد بلا انفصام يجمع الشمس و القمر معاً كما أن روح الله تتغلغل في أجساد البشر جميعاً ذكوراً و إناث على اختلاف أعراقهم و مللهم ..

تملكته مشاعر من الحيرة و الدهشة و الإعجاب.. فهو بدأ يشعر بوجود جوهر مشترك خفي يجمع كلام السيد عزيز كله ، أشبه ما يكون بلوحة معبرة ممزقة إلى أجزاء كثيرة مبعثرة و عليه كما يبدو أن يجمعها و يرتبها بشكل صحيح في رحلاته القادمة ..

لكن ثمة شيء غريب وسط كل ذلك ، كطيف يداعب عقله، ويقربه من الحقيقة، ثم يبتعد مجدداً دون أن يتمكن من إمساكه أو رؤية محتوى اللوحة الكاملة عن بعد حتى اللحظة ..

وصل بيته منهكًا. ألقى التحية على ماتيوس، واعتذر عن العشاء. صعد إلى غرفته، استحم سريعًا، ثم تمدد في سريره، عيناه نصف مفتوحتين على عالم غامض لم يكتمل بعد.

ورغم معدته الخاوية، وعقله المتخم، غفا كطفلٍ أرهقه الحلم قبل أن يكتمل..

ملكة الفقير

ألمانيا / ميونخ ..

غارميش بارتن كيرشن ..

استفاق أوليفر في الصباحِ التالي، كأن الفجر قد تنفّس على وجهه دفعةً أولى من حيوية العالم .. كان جائعًا، لا جوع المعدة وحدها، بل جوع من قضى ليلته يطارد ظل حلمٍ هارب، ومن أجهده الركض في دروب الوعي واللاوعي .. مع ذلك، شعر في عروقه بطراوة نادرة، كأن الجسد قد شحنته يدٌ خفية بطاقة دفّاقة لا تعرف الفتور، لا تعرف الكسل، ولا تستأذن لتبدأ نهارها.

تقدّم نحو مائدة الفطور بخفة العارف أن هذا الصباح ليس عاديًا، وأن النهار أمامه مشحون بلحظات تأمل وتقصٍ، لا بد أن يستقبله بكامل الجسد والذهن .. أكل بنهم مَن يعرف أن المعرفة تحتاج إلى وقود، وأن الفكر لا يشتعل على معدة خاوية .. ثم صعد، بخطى المشتاق، إلى غرفة المطالعة؛ تلك الغرفة التي تشبه محرابًا من نور، حيث الكتب على الرفوف كأصدقاء قدامى ينتظرون مجرد نظرة كي ينفجروا بالحكايات.

وهناك، تحت ضوء شمسٍ خجولة تتسلل عبر الزجاج مثل أسرارٍ لا تُقال، جلس .. أمامه كأس متّة ممزوج بالعسل، يتصاعد منه بخار خفيف كأنه يحرّض ذاكرته كي تنهض من سباتها، وتجيب على أسئلة الليل الماضية.

راح يعيد ترتيب الصور في ذهنه، تلك الصور التي لم تُلتقط بعدسة، بل تسرّبت إليه من كلماتٍ سمعها هنا وهناك : من السيدة جوفانا، بنظراتها المترعة بشيءٍ لا يُقال؛ من السيد عزيز، الذي كلّ جملة عنده تنفتح كصندوق كنز قديم أو كصندوق باندورا الأسطوري؛ من ماتيوس، الذي لم يكن يقول كثيرًا، لكن صمته نفسه كان يختزن معنى؛ ومن إيليا، الرجل الغامض الذي تمشي معه حكاية الحب العجيبة كظلّ لا يرحل.

مدّ ورقةً بيضاء أمامه، كأنها مرآة تنتظر تجليات الغيب، وراح يكتب ببطء، كل كلمة كأنها حجر أساس في بناء معبدٍ داخلي :

الرحم... ظل الرجل... قيمة الأشياء... الزيتونة... ثنائية الشمس والقمر...

وكان، مع كل كلمة يخطّها، يشعر بشيءٍ خفيّ يُنسج بين النقاط، كأن خيوطًا غير مرئية تشدّها من أطراف الكون لتلتقي في منتصف الورقة .. لم يكن بعد قد فهم، لكن شيئًا بداخله كان على وشك النطق، كأن الوعي يلهث على العتبة، والطيف يدور حوله دون أن يتجسّد تمامًا.

بدت له الصور كلوحةٍ ممزقة، متناثرة الأجزاء، كل قطعة تحمل وعدًا بالجمال، لكنها ترفض الاكتمال .. أو كمقطوعة موسيقية تئن تحت الغبار، تنتظر أنامل العازف الأخير ليوقظها من نومها .. هنا، اجتاحه حنين جارح، حنينٌ من نوعٍ خاص : حنين للموسيقى، لا كمجرّد لحن، بل كمفتاحٍ لفهم العالم.

ترك القلم بهدوء عقب تعب فكري مضني ، ومضى إلى غرفة الموسيقى كما يمضي العابد إلى معبده .. أمسك غيتاره بلطف العاشق حين يلمس وجه حبيبته لأول مرة بعد غياب، وأغمض عينيه، ثم بدأت أصابعه تعزف مقطوعته الإسبانية الأيقونية **ذكريات قصر الحمراء** ، كانت الأنغام تنساب منه، لكنها تعود إليه أيضًا، تتسلل إلى خلاياه، تحمله كما تحمل الموجة زورقًا صغيرًا لا يعرف إلى أي شاطئ يُقذف.

وبين نغمة وأخرى، تفتّحت داخله البصيرة .. أدرك أن رحلته هذه لا تختلف كثيرًا عن مقطوعة موسيقية : كل نغمة فيها لبنة، كل وقفة صمتٍ نذور ترجو التجلي ، كل اهتزاز وتر هو ارتعاشة قلب.

كان أوليفر هو العازف، نعم، لكنّه كان أيضًا جزءًا من اللحن .. كان في آنٍ واحدٍ اليد التي تعزف، والصدى الذي يرتجّ.

*****

مضت الأيام التالية على أوليفر كقطرات ماء تتساقط ببطءٍ فوق صخر الانتظار .. ليست أيامًا بالمعنى المعتاد، بل ومضات زمنية متشابهة، رتيبة، لا صوت فيها سوى صدى الأفكار، ولا حركة سوى دوران الخيال حول ذاته .. كأن الزمن قد قرر أن يتوقف عن التدفق، واكتفى بالتنقيط المتواصل على قلبه، تنقيطٌ لا يُحدث شقوقًا ظاهرة، لكنه ينهك الأعماق.

كان يمضي نهاراته في إدارة شؤون عمله، و لياليه في الإصغاء إلى صمتٍ مثقل، كأن الليل نفسه ينتظر معه شيئًا، دون أن يعرفا تمامًا ماهيته.

ورغم هذا الركود الظاهري، كانت في الجوّ رعشة خفية، كمقدمة عاصفة لا تزال تتردّد في اتخاذ القرار .. شيءٌ ما كان على وشك الحدوث .. وهو، بحسّه الذي اعتاد على الإنصات لما لا يُقال، كان يعرف أن هذا الصمت ليس فراغًا، بل امتلاءً متحفزًا، كصدرٍ يمتلئ قبل الصرخة.

ثم، في اليوم السابع — واليوم السابع له في ذاكرته نغمةٌ خاصة، كأنه رقمٌ وُلد وفي أحشائه وعدٌ دفين — رنّ هاتفه فجأة بإشعار رسالة .. صوت الرنين كان كصرخة في كاتدرائية، يقتحم السكون كمن يفتح نافذة للنور في غرفة مليئة بالغبار.

تردّد لحظة قبل أن يفتح، كما لو أن قلبه أراد أن يتهيّأ لمفاجأة كان يتوق لها ويخشاها في آن.

وحين نظر، رأى الاسم : السيد عزيز.

رسالة جديدة .. أطول من سابقتها .. محمّلة هذه المرة بشيءٍ مختلف.

فتحها.

ما إن بدأت عينه تجول في سطورها، حتى شعر بشيءٍ كالحبر الساخن ينسكب في صدره .. الكلمات لم تكن عادية، بل مصوغة بروحٍ شعرية عميقة، كأنها نُحتت في ليلٍ طويل تحت قمرٍ غريب .. كانت الكلمات تنزف رموزًا داكنة، معجونة بما يشبه النبوءة، أو الاعتراف، أو كِلاهما معًا ..

كان نصها كالتالي :

من مكان التقاء الأحباء ..

استبدل الألف بالباء ...

وفي مدينة السماء جلست ملكةٌ عذراء ..

متربعةً على عرش القفير ..

عاليةً فوق الجميع بكثير ...

وبجوارها ذكرٌ فقير ..

أصبح الأمير

عزيز اليقين

دهش أوليفر للغاية من مضمون الرسالة إذ أحسّ بنفسه يقرأ بالهيروغليفية، فأعاد قراءتها مرات ومرات، لكن دون جدوى ..

ما هو مكان التقاء الأحباء ؟ ماذا يقصد بالألف والباء ؟ و ما هي مدينة السماء و الملكة العذراء؟ كذلك من الأمير المقصود بالذكر الفقير ؟ إنها مجموعة أحاجي متداخلة أغرب من بعضها البعض ...!! يبدو أن كل أحجية يرسلها السيد عزيز ستكون أصعب من سابقتها..

استجمع همته و أفكاره و قرر أن يحاول فك شفرة الأحجية قطعة قطعة فذلك أنسب للعقل والمنطق، ثم يحاول ربط الأجزاء ببعضها لاحقاً .. بدأ بمكان التقاء الأحباء الذي ذكّره على الفور بقصة السيد إيليا مع زوجته أوليفيا والتقائهما عند بوابة براندن بورغ يعد سقوط جدار برلين ، فهل يقصد السيد عزيز أن يبدأ الخطوة الثانية من حيث انتهت الخطوة الأولى؟ ربما ! في هذه الحالة هو يقصد مقهى أوليفيا في برلين حيث شاهد لوحة اجتماع الشمس و القمر (مكان التقاء الأحباء) ، بالفعل إن اسم المقهى هو (أوليفيا)

الذي يبدأ بحرف الألف و في حال استبداله بحرف الباء يصبح **بوليفيا** وهي دولة معروفة في أمريكا الجنوبية **!!** تملكته سعادة غامرة تكاد تنضح من مسامات جلده فقد بدأ يفكر بالاتجاه الصحيح و بدأت ملامح وجهته القادمة تتضح رويداً رويداً ..

انتقل إلى الجزء التالي ، ما المقصود بمدينة السماء؟

فتح حاسوبه على الفور و بحث عن علاقة تربط بوليفيا بمدينة السماء، فظهرت النتيجة مباشرةً أمام عينيه، إنها **لاباز** عاصمة بوليفيا وتدعى **عاصمة السماء** لأنها أعلى عاصمة في العالم فهي تقع فوق سطح البحر بحوالي **3600** متر.. ابتسم بإعجاب ، يا لعبقريتك سيد عزيز **!!**

انتقل إلى الجزء التالي و هو (ملكة القفير) ، لم يفهم معنى كلمة قفير باللغة العربية، فبحث مجددا عنها على الحاسوب، ليكتشف أنها تعني خلية النحل، إذا فهو يقصد ملكة النحل بلا شك ..

الجزء الذي يليه، ماذا يقصد السيد عزيز بالعذراء؟ بحث مرة أخرى عن ارتباط الملكة العذراء ببوليفيا أو لاباز.. ليذهل بأن مؤسس مدينة لاباز **ألونسو دي مندوزا** أطلق عليها هذا الاسم نسبةً إلى السيدة **مريم العذراء..** مدهش **!!**

بقي جزء أخير من الأحجية و هو(الذكر الفقير الذي أصبح الأمير) ، أعطاه محرك البحث نتيجة منطقية للغاية تشير إلى حقيقة علمية بأنّ ذكراً وحيداً من خلية النحل ينجح في سباق تلقيح الملكة فيحظى بهذا الشرف العظيم ليصبح كما لمّح السيد عزيز أمير النحل و الخلية .. تسلسل عبقري للمعلومات بلا شك .. لكن من هو هذا الذكر على أرض الواقع **؟!**

كم هذا مذهل **؟!** لقد تمكن من حل قسم كبير من الأحجية بسرعة قياسية كقطع دومينو تتساقط متتاليةً بفعل بعضها البعض، في حين كانت تبدو في البداية كقطعة من الفضاء الخارجي **!!**

لكن السؤال الذي راح يقرع جدران عقله بإلحاحٍ لا يهدأ كان : ما هي الخطوة التالية ؟

لقد انقشع الضباب عن وجهة الرحلة ، لاباز عاصمة بوليفيا، تلك المدينة

الجبلية التي تبدو معلّقة بين السماء والأرض، مثل فكرةٍ عالقة بين الوعي والحلم .. لكن إن وصل إلى هناك ... من سيلتقي ؟ وأين بالتحديد عليه أن يذهب ؟

رسالة السيد عزيز، برغم طابعها الشعري العميق، لم تحمل تسلسلاً زمنيًا، ولا موقعًا جغرافيًا، ولا حتى تلميحًا لأشخاص يمكن التوجه إليهم .. كانت شذرات من لغزٍ أكبر، يُلقي بطيفه دون أن يمنح مفاتيحه.

وحده موضوع النحل بدا كخيط محتمل في هذا النسيج الغامض.

النحل... ذلك الكائن الصغير الذي عَبَدَته الحضارات القديمة، واعتبرته بعض الثقافات وسيطًا بين العوالم، حاملًا لأسرار الخلق والنظام والخلود.

ربما لم يكن الحديث عن النحل مجرد استعارة.

هكذا، قاده الحدس – ذلك المعلم الصامت – إلى فكرة وحيدة بدت معقولة في خضم اللايقين : أن يسأل عن أي شخص معروف بتربية النحل في لاباز .. قد يكون شخصا غريب الأطوار، أو شيخًا منعزلًا، أو امرأةً تسكن عند حافة الغابات... لكنه، أيًا يكن، الرابط الوحيد بين الرسالة و الغد.

استقرّ تفكيره على هذه الفرضية كما يستقرّ النحل على زهرة، ثم نهض بحيوية المفكر حين يجد بصيص من المنطق في قلب الفوضى .. جلس إلى حاسوبه، أجرى بضعة اتصالات و خلال دقائق كانت تذكرة الطيران قد حُجزت، ومعها غرفة صغيرة في أحد فنادق إل ألتو، المدينة المرتفعة المجاورة للعاصمة لاباز، حيث يستقرّ المطار الدولي على علوٍ يقارب السماء.

ثم، كما يفعل الممثل قبل صعوده إلى المسرح، بدأ أوليفر يجهّز حاجياته. حقيبته الجلدية، دفتره الأزرق، كتابه المفضل ، وعدسة الكاميرا التي لا تفارق رحلاته.

كان يُغني بصوتٍ خافت، نغمةً إسبانية قديمة لا يعرف إن كانت من تأليفه أو ذاكرةٍ استعارت صوته.. بدا كطفلٍ على وشك اكتشاف كهفٍ مفقود، وكأن الرحلة المقبلة لا تقوده إلى بلدٍ جديد فحسب، بل إلى طبقةٍ أعمق من الحكاية

التي تتشكل أمامه فصلًا بعد فصل.

بوليفيا بلد لم تطأه قدماه من قبل و هذا بحد ذاته تحقيق لقطعة من حلمه بزيارة كل دول العالم .. و هو يقترب خطوةً أخرى من جوهر الحقيقة الكبرى، تلك التي راوغته طيلة حياته كمقطوعة لم تكتمل، أو حلمٍ يتكرّر دون أن يُفهم .. فكيف لا يكون سعيداً ؟!

*****

الطريق إلى بوليفيا

الهدف (لاباز / إل ألتو) ..

صعد أوليفر إلى متن الطائرة المتجهة من ميونخ إلى لاباز، مدركًا أنها رحلة طويلة تمتد لأربع عشرة ساعة متواصلة .. لم يكن ذلك يثنيه عن قراره، بل زاد من استعداده لها؛ فقد حمل معه كتابه المفضل **تاريخ الكون وأصل الحياة** ، والذي ينوي قراءته للمرة الخامسة .. لم يكن الكتاب الذي يحمله بين يديه مجرد وسيلة لتمضية الوقت خلال الرحلة الطويلة، بل نافذة مشرعة على اتساع الغموض الكوني .. كان يغوص بين صفحاته وكأنه يُبحر في محيط من الأسئلة لا قاع له، يكتشف أبعادًا جديدة لم تُطرَق في وعيه من قبل، وأسئلةً أعمق، كأن سطور الكتاب لا تنضب من الأسرار، بل تلد كل صفحةٍ لغزًا جديدًا.

ولأنه يعرف جسده كرفيقٍ قديم في السفر، تعمّد أن يبيت ليلته السابقة دون نوم كافٍ .. أراد لإرهاقه أن يكون جسراً إلى نومٍ هادئ أثناء التحليق، هربًا من وعيٍ أثقلته الاحتمالات.

جلس في مقعده قرب النافذة، مائلًا قليلاً كمن يطلب عزلة متعمّدة، والكتاب بين يديه ينهل منه بعينَين متسعتَين كأنهما تلتهمان الكون كله : الانفجار العظيم، نشأة الحياة، أسرار التطور... كان ذهنه يحلّق أبعد من الحروف، كأنما كل سطر هو نغمة، وكل معلومة ظلّ لمعنى أكبر لم يُكشف بعد.

راح يتأمل الكلمات وما خلفها، ثم ما خلف خلفها، في ارتحالٍ داخلي لا يقل

عمقًا عن رحلته في الجو .. استعرض شريط الذكريات منذ تلقّى رسالة السيد عزيز الأولى ، وتساءل عمّا ينتظره هناك، خلف السحب، على تخوم المرتفعات البوليفية.

وبعد ثلاث ساعات ونصف من الطيران، أنهى الكتاب بإحساسٍ مألوف طالما زاره بعد نهاية كل قراءةٍ له :

هنالك ثغرة.

ليست في النص، بل في نسيج الكون ذاته.

خلل ما، فجوة خفية، لا تُقال ولا تُفهم، لكنها تُشعر.

كأن المعرفة نفسها تُخفي حياءً ما، كأن الحقيقة تخشى أن تظهر دفعةً واحدة.

نظر من النافذة فرأى المحيط الأطلسي ممتدًا كصمتٍ أزرق، بلا نهاية، فاستعاد تركيزه على الغاية.

لاباز.

تلك المدينة التي بدت في ذهنه كمشهدٍ من حلمٍ قديم.

سيبدأ من سؤال بسيط، مباشر كضربة أولى على باب مغلق : هل يوجد شخص مشهور بتربية النحل في لاباز؟

ربما، خلف أزيز الأجنحة، و أسرار القفير، يكمن خيط الحقيقة الذي ألقاه السيد عزيز كتحدٍ مستتر.

أغمض عينيه قليلًا، لكنه لم يشعر بالنوم يزحف بل بانزلاق الزمن .. وما هي إلا لحظات حتى غلبه النعاس، واختفى خلف ستارٍ خفيف من الأحلام، حتى أيقظه ارتطام الطائرة بالأرض، ارتطام لم يكن خشنًا، لكنه بدا له كهمسةٍ قوية تقول : لقد وصلت.

فتح عينيه بصعوبة، وثقلٌ غريب يجثم على صدره .. الهواء بدا خفيفًا، غريبًا، وكأن جسده يرفض هذا العلو المفاجئ .. لقد هبط في **مطار إل ألتو،**

أعلى مطارات العالم، على ارتفاع أربعة آلاف مترٍ عن سطح البحر.

لا تمنح هذه المدينة زائرها ترحيبًا ناعمًا، بل تفاجئه بدوخة ثقيلة بسبب نقص الأوكسجين، كأنها تختبر صدقه منذ اللحظة الأولى.

دخل أوليفر الفندق في حالة من الإرهاق الممزوج بالتيقظ .. كان متعبًا، نعم، لكن شيئًا داخله ظل مستيقظًا، طاقة خفية تشدّه نحو الأمام، كما لو أن مغناطيسًا من عالم آخر يُملي عليه خطواته.

اغتسل، رتّب أمتعته، تنفّس بعمق ليروض جسده على هذا الهواء الجديد، ثم خرج من غرفته النظيفة والبسيطة وتوجّه مباشرة إلى موظفة الاستقبال، تلك التي سلّمته المفاتيح بابتسامةٍ رتيبة.

لكنه لم يكن يطلب مفتاحًا هذه المرة.

كان يبحث عن كلمة... اسم... إشارة.

ألقى عليها التحية بالإسبانية ثم سألها..

● آنسة **إيلينا**، هل هنالك جهة أو أحد في مدينة إل إلتو أو لاباز بشكل عام مشهور بتربية النحل ؟

○ أجل سيد أوليفر ، هنالك السيد **خوسيه خيمينيز** في ضواحي مدينة إل إلتو معروف على نطاق واسع بهذه المهنة ، أما في العاصمة لاباز فليست لدي معلومات دقيقة ..

● و كيف يمكنني معرفة عنوانه بدقة ؟

○ هذا أمر يسير سيد أوليفر، امنحني لحظات من فضلك ..

أجرت إيلينا مكالمة سريعة، و كتبت شيئاً ما على ورقة ثم أغلقت السماعة و مدت يدها بالورقة إلى أوليفر..

● تفضل سيد أوليفر ، هذا هو العنوان..

○ أشكرك جزيل الشكر على تعاونك آنسة إيلينا ..

● يسعدني تقديم الفائدة لك سيد أوليفر .. أهلاً بك في بوليفيا..

لم يتردد أوليفر لحظة .. غادر الفندق كمن يتبع نداءً داخليًا لا يُقاوَم، نداءً

لم يكن صادرًا من خارجه، بل من تلك الأعماق التي لا تُفصح إلا لمن أرهقه الانتظار .. استقل أول سيارة أجرة كأنها كانت بانتظاره، وناول السائق ورقة كُتب عليها العنوانُ الغامض ، دون أن ينبس بكلمة .. عيناه تشردان خلف زجاج النافذة، حيث تنزلق المشاهد مثل حلمٍ لم يتبلور بعد.

بعد نحو نصف ساعة، توقفت السيارة أمام منزل ريفي يلوذ بالصمت. الأشجار الكثيفة تحيط به من الجهات الأربع، كأن الطبيعة قررت أن تعانقه لا حبًّا، بل لتحجبه عن أعين المتطفلين .. ترجل أوليفر ببطء، وتقدم نحو الباب بخطى يعتريها التردد؛ لم يكن متيقنًا مما جاء يطلبه، لكنه كان متأكدًا من ضرورة أن يطرق هذا الباب.

طرق الباب ثلاث طرقات متباعدة .. لحظة صمت تخللها صوت خفيف لتحريك ستارة من الداخل، ثم جاءه صوت نسائي ناعم، بالإسبانية، بدا فيه مزيج من الحذر والترحاب:

● أنا آتية...

انفتح الباب بانسيابية مهيبة، وظهرت امرأة في أواسط العمر، طويلة القامة، أنيقة بطريقة خفية، لها ملامح جميلة للغاية كساها الزمن بدهشةٍ دائمة، كأنها تترقّب من خلف ابتسامتها نصف الحقيقية شيئًا لا يأتي.

● هل أستطيع مساعدتك سيدي ؟

○ مرحباً سيدتي، أدعى أوليفر، و أبحث هنا عن السيد خوسيه خيمينيز؟

● أهلاً بك سيد أوليفر، إنه زوجي.. و ماذا تريد منه ؟

○ سؤال بسيط إن لم يكن لديك مانع ..

● تفضل بالدخول ..

قادته إلى صالة دافئة، لم تكن فاخرة، لكنها أنيقة بطريقة كلاسيكية، كل تفصيلة فيها تحمل توقيع روح صادقة .. الصور العائلية على الجدران، السجادة المزركشة بألوان ترابية، والمصباح ذو الغطاء الحريري، كلها توحي بماضٍ له جذور.

جلس أوليفر على طرف الأريكة كما يجلس من لا ينوي الإقامة طويلاً .. لم

تمضِ سوى دقائق حتى دخل رجل في أواخر الخمسين، قصير القامة، لكن حضوره يُشعّ بسلطة لا تُرى .. ملامحه صارمة، تُعززها لحية كثيفة وشعر فاحم .. عيناه السوداوان لم تُبحرا في وجه أوليفر، بل ثبتتا فيه كمن يحاول قراءة جملة مطمورة في كتابٍ قديم.

تبادل الرجلان النظرات دون كلمات، حتى قال خوسيه بصوت منخفض يشبه المدى قبل العاصفة :

● أهلاً سيد أوليفر، أخبرتني زوجتي **ماريا** أنك تريد لقائي .. !

ارتبك أوليفر مجدداً و هو ينتقي كلماته بدقة ..

○ أهلاً سيد خوسيه.. في الحقيقة هنالك سؤال بسيط جداً أريد سؤالك عنه.

● تفضل ..!

○ هل تعرف رجلاً مصرياً يدعى السيد عزيز اليقين؟

ابتسم السيد خوسيه عن أسنان ذهبية في معظمها ..

● السيد عزيز، بالطبع أعرفه فهو صديق قديم للعائلة ، لماذا تسأل عنه ؟

أحس أوليفر براحة نفسية هائلة بعد هذا الجواب، لقد كان محقاً في ظنونه و هو على الطريق الصحيح مجدداً ..

○ إنه صديق لي أيضاً، أخبرته أنني سأزور بوليفيا كسائح، فذكر اسمك كصديق مقرب، وأشاد بك للغاية ، لذا قررت زيارتك بنفسي و التعرف عليك مع إرسال تحياته القلبية إليكما ..

● أهلاً وسهلاً، أصدقاء السيد عزيز أصدقاؤنا ...

صمت خوسيه للحظات ثم قال شارداً ..

● لقد عدت بي في الحقيقة **10** سنوات إلى الوراء، حين التقيت بالسيد عزيز لأول مرّة عن طريق الصدفة قرب **بحيرة تيتي كاكا**، حيث أملك هنالك عدد كبير من خلايا النحل يحرسها عدد من الموظفين .. كنت أنا وزوجتي ماريا في نزهة على شاطئ البحيرة عندما التقينا به، و كان يصطاد السمك

منها برفقة صديق بوليفي، ثم دخلنا في حوار شيق سوياً و من كلمة إلى أخرى عرف أنني أعمل في مجال تربية النحل و جمع العسل، فاشترى مني كمية لا بأس بها، كما أتى لزيارتي هنا في هذا المنزل بعد عدة أيام و أصبحنا أصدقاء ..

صمت السيد خوسيه مجدداً ثم ابتسم ..

● أتذكر ذلك اليوم كأنه بالأمس .. و لا تزال دهشته الكبيرة تلوح في مخيلتي حتى اللحظة عندما سمع بقصتي أنا و زوجتي ماريا و التي دفعته لوصفها بملكة النحل ..

تأكد أوليفر بعد هذه الجملة أن تحليلاته كلها صائبة .. و اجتاحه فضول قويّ لمعرفة تلك القصة أكثر ..

○ ملكة النحل ؟

● أجل، فزوجتي ماريا من أجمل فتيات إل إلتو وأكثرهم ثراءً، والدها تاجر عقارات مشهور و غني للغاية، عمل بتربية النحل كهواية، و كنت مساعده الشخصي في ذلك .. على مدار سنين تقدم للزواج منها عدد كبير من شبان إل إلتو وحتى لاباز، لكنّها رفضت الزواج بهم لأنها كانت مرتبطةً بقصة حب عظيمة معي.. و رغم أنني لست ذلك الشاب الوسيم علاوةً على كوني من بيئة فقيرة مادياً، لكن الحب بيننا كان أقوى من كل تلك العوائق لتتوج قصة عشقنا بالزواج لاحقاً .. و بعد وفاة والدها **خوان كارلوس** ورث إخوتها الذكور تجارة العقارات ، في حين كلفوني أنا بأعمال النحل، فاجتهدت في هذا المجال وتوسعت فيه حتى بات يدرّ علينا دخلاً لا بأس به، لذا فلقد شبهنا السيد عزيز بملكة النحل التي تزوجت من ذكر فقير عامل في الخلية وهذه هي الحقيقة على كل حال ..

ابتسم أوليفر بذهول وهو يفكر بينه وبين نفسه، إذا فالذكر الفقير الذي أصبح أميراً هو السيد خوسيه خيمينيز بنفسه **!!**

كان وقت الغداء قد حلّ ، فأصرّ خوسيه وماريا أن يتناول أوليفر الطعام معهما .. لم تكن الدعوة مجاملة، بل بدت وكأنها امتداد لطقس غير مكتوب،

طقس من يشعر أن الضيف ليس غريبًا بل عائدًا من غياب طويل ، حين دخلوا غرفة الطعام، وقعت عين أوليفر على لوحة ضخمة فوق المدفأة : ملكة النحل بوجه سيدة حسناء متوجة بتاج ذهبي، تحوم فوق زهرة لوتس نصف مفتوحة، ووراءها سبعة دوائر متداخلة تشبه هندسة كونية.



اقترب منها كمن يتفحّص إشارات لا يعرف كيف يقرؤها بعد .. تأمل التوقيع بأسفل اللوحة : عزيز ..

○ لوحة جميلة سيد خوسيه هل يمكنني التقاط صورة لها؟

● بالطبع تصرف كأنك في منزلك .. إنها أيضاً هدية من السيد عزيز ومرسومة بيده.

قالها خوسيه بنبرة غريبة، كأن اللوحة لم تُعلق لتزيّن الجدار، بل لتنتظر هذا اللقاء بالذات.

التقط أوليفر عدة صور، منها واحدة ضمّنها في هاتفه كمفضّلة، ثم تناول مع مضيفيه طعامًا بوليفيًا شهيًا، طغى عليه مذاق الكينوا المدخّنة وعطر الأعشاب الجبلية.

بعد الغداء ودع أوليفر خوسيه و ماريا لكنّ السيد خوسيه اعتذر للحظات و غادر غرفة الطعام ثم عاد ثانيةً و في يده وعاء مليء بالعسل محكم الإغلاق

● هذا تذكار متواضع من منزلنا و بلدنا بوليفيا ، أرجو أن تقبله مني سيد أوليفر قبل مغادرتك ..

○ بكل سرور ، هذه لفتة نبيلة من جانبك سيد خوسيه .. أشكركما جزيل الشكر على لطافتكما وحسن الضيافة، سعدت بالتعرف عليكما للغاية ، السيد عزيز محق تماماً بإعجابه بكما ..

● أهلاً وسهلاً بك، سعدنا بالتعرف عليك بدورنا، ابلغ السيد عزيز تحياتنا القلبية ..

○ بكل تأكيد .. إلى اللقاء ..

● إلى اللقاء ..

******

في المساء، جلس أوليفر في غرفته .. كانت النافذة مفتوحة على ضوءٍ برتقالي ينكسر فوق الجبال .. أعد كأسًا من المتة، وأضاف إليها ملعقة من عسل السيد خوسيه .. تذوّقه ببطء، كأنما يتذوّق ذاكرة لا تخصه.

ثم تمتم وهو يحدق في سقف الغرفة :

(ملكة النحل ؟ الأنثى الحاكمة... هل هي رمز ؟ هل أراد عزيز أن يريني شيئًا أبعد من مجرد قصة حب ؟ **هل الأنثى، في فلسفته، تمثل مركز الكون** ؟ النحلة، الزيتونة، الشمس و القمر... مزيج مقدّس ؟ يبدو أنّ لوحة الحقيقة بدأت تتخذ ملامحها .. لكن ماذا بعد ؟)

كان السؤال الأهم الآن كالعادة، ما هي خطوته التالية ؟

لقد انتهت مهمته مبكراً جداً، فهل يعود الى ألمانيا مباشرةً، هذا غير منطقي، فرغم حماسه المفرط وتأهبه للخطوة التالية من الرحلة.. ليس من المنطق على الإطلاق أن يقطع كل هذه المسافة من أجل يوم واحد فقط .. لذا بعد تفكير مطوّل استقر رأيه أخيراً على الذهاب إلى لاباز غداً صباحاً ورؤية معالمها السياحية الكثيرة و الفريدة كما قرأ في الشبكة العنكبوتية..

في اليوم التالي، حين انقشع الصباح عن ضبابه الرقيق .. اغتسل .. أفطر .. ثم ركب حافلة صغيرة إلى قلب المدينة المعلّقة بين الأرض والسماء .. كانت الشمس تنزلق خلف جبال الأنديز، والريح تحمل رائحة القهوة والذرة والحديد.

في أحد الميادين، أوقفه تمثال فني مذهل لتشي غيفارا، مصنوع بالكامل من قطع معدنية ميكانيكية مترابطة .. بدا التمثال كأنه آلة تنفست الثورة، لا تموت بل تعيد تشكيل نفسها مع كل زمن.

اقترب، التقط له صورًا، لكن عينه بقيتا عالقتين عند القلب الحديدي المفتوح، الذي بدا كأنه ينقصه تروس صغيرة ... أو نحلة.

تابع سيره إلى سوق إل ألتو، الذي ينبض بالحياة كل خميس وأحد كطقس شعبي عتيق .. تأمل الوجوه، الألوان، الأصوات، ودواليب الحظ .. كل تفصيل صغير أوحى له أن بوليفيا تخبئ أسرارًا لا تُقال، بل تُرى لمن يملك العين المناسبة.

وفي زاوية من السوق، عند بائعة أعشاب مسنّة، لمح تميمة منقوشة على

خشب الأبنوس، تتوسطها نحلة وتحيطها سبع دوائر .. حين سأل عنها، ابتسمت المرأة وقالت بنبرة غامضة :

- هذا رمز مقدس عند أجدادنا الإنكا .. و منه يبدأ كل شيء ..

الماضي يولد

من جديد

استفاق أوليفر على همسة الضوء تتسلّل من خلف الستائر، كأن الشمس تطرق بلطف باب روحه، لا نافذته فقط. لم تكن شمس اليوم كأي صباح مضى؛ بدت كأنها تنهض معه، أو من أجله، تفتح عينيها في الأفق وتدعوه للخروج من شرنقة النوم إلى يوم يحمل شيئًا غامضًا ومبهرًا في آنٍ معًا.

نهض ببطء، لكن داخله كان يقفز، كطفل يعرف أن مفاجأة ما تنتظره خلف الباب. في عينيه بريق نادر، لا يشبه الترقّب بل يشبه الوحي. فقد كان اليوم موعده مع **بوّابة الشمس في تيواناكو** ، تلك الشاهدة الحجرية على مجدٍ غابر، وتلك الفجوة الزمنية التي لا تقف عند حدود الجغرافيا، بل تعبرها نحو أسئلة الوجود.

كان قد خطّ بالأمس، بدقة المسافر الحالم، مخططًا كاملاً لزيارته؛ لا كسائح، بل كمريدٍ يقف على عتبة معبد. قرأ عن النقوش التي تشبه التعاويذ، عن الأعمدة التي تهمس أسرار تقاويم ما قبل الزمان، وعن إله الشمس **آه كين** الذي يتوسّط البوابة كأنّه يرقب العالم منذ الأزل و يحمي صحبة إلهة القمر **أكنا** البشر من قوى الظلام . لم يكن يريد أن يرى البوابة فقط، بل أن يُحدّق فيها حتى يرى ذاته من خلالها، أو يرى شيئًا نسيه منذ زمن فيعبر منها إلى الحقيقة .

لكن قبل أن يمدّ يده نحو قميصه المعلّق بعناية، تردّد صوت خافت من هاتفه على الطاولة الخشبية ، طنين لم يكن صارخًا، بل كأنّه يأتي من بُعدٍ سحيق، من طبقة أخرى من الوجود.

نظر إلى الشاشة .. إشعار برسالة جديدة على أحد تطبيقات التواصل.

فتح التطبيق، متوقعًا شيئًا عابرًا، إعلانًا ترويجياً، أو مجاملة من صديق أو إخبار عن عمله .

لكن الاسم الذي ظهر على الشاشة جَمّده في مكانه :

السيد عزيز.

لم يكن ذلك متوقّعًا البتة ..

فهذا الاسم تحديدًا، في هذا التوقيت، ليس مجرّد رسالة... بل بوابة إلى لغز جديد و مغامرة قادمة.

ضغط على الرسالة، وعيناه تسيران بين الكلمات كما يسير المرء داخل نفق قديم محفور في ذاكرة لم يعشها بالكامل...

إلهة المعبد فوق التلّة..

تداوي ما في القلوب من علّة..

تسابق إليها كثيرون..

لكن وصل إليها قلّة

عزيز اليقين

جمد أوليفر في مكانه للحظات غارقاً في التفكير ، كيف عرف السيد عزيز أنه أنهى مهمته الثانية ؟ هل يراقبه ؟ أم أنه تواصل مع السيد خوسيه خيمينيز؟

التفسير الأخير أقرب إلى المنطق !

و لماذا أرسل له الرسالة الجديدة مباشرةً دون أن ينتظر عودته إلى ميونخ كحال المرات السابقة ؟ ! لا جواب على ما يبدو ..

من جهة أخرى ما حكاية هذه الأحجية الجديدة أيضاً .. إنها عبارة عن كلام موزون لكن بلا معنى واضح على الإطلاق ..

عليه ألا يقع في خطئه السابق وأن يحاول فك الأحجية جزءاً يتلو الآخر ..

أعد كأساً من المتة بالعسل البوليفي ثم جلس يفكر في هدوء بالأحجية.. أولاً هنالك إلهة معبد على تلة، فتح هاتفه الخلوي وبحث بهذا الخصوص ..

كانت هنالك نتائج كثيرة لكنه توقف عند إحداها فقد أثارت اهتمامه بشدّة كونها تتناول **أثينا عاصمة اليونان**، و هذا مناسب بشكل مثالي، إذ أنّ اليونان شهيرة بتعدد الآلهة في تاريخها الإغريقي القديم ، و أكد إحساسه قراءته عن **تلة الأكروبولوس** في أثينا حيث يقبع فوقها **معبد البارثينون** الشهير مكان اجتماع الآلهة قديماً و هذا يتماشى مع الأحجية الجديدة (إلهة المعبد فوق التلة) ...

انتقل إلى الشق الثاني (تداوي القلوب) .. فالسيد عزيز يقصد هنا آلهة الشفاء أو الصحة على الأرجح ، عاد إلى هاتفه الخلوي وبحث عن هذه النقطة ، فوجد أن إله الشفاء عند الإغريق هو **أسيكليبيوس** المشهور ببناته الآلهة الخمسة :

هيجيا (إلهة الصحة العامة والنظافة)، **آياسو** (إلهة التعافي من المرض) ، **أسيسو** (إلهة عملية الشفاء)، **آجليا** (إلهة الصحة الجيدة)، و أخيراً **باناسيا** (إلهة الدواء والعلاج)، فمن هي المقصودة بينهن ؟ المنطق يشير إلى الإلهة الأخيرة باناسيا بحسب الأحجية فهي تداوي القلوب بالفعل كما ذكر ، و مما عزز تفكيره هذا أنّ اسم باناسيا يبدو مألوفاً بالنسبة له على نحوٍ غريب ، نعم لقد سمعه من قبل عدة مرات لكنه يعجز عن تذكر أين بالضبط **!!**

بقي الشق الأخير (تسابق إليها كثيرون) والذي ذكّره على الفور بالأحجية السابقة .. ملكة النحل وصراع الذكور من أجلها، لكن ما تفسير ذلك هذه المرة **؟!**

بحث في هاتفه الخلوي مجدداً لكنه لم يعثر على نتيجة مرجوة بخصوص هذا المقطع ..

شعر بعقله يدور وسط زوبعة من الحيرة، فبعد بحث مطول لم يصل إلى نتيجة واضحة ليتخذ قرارات حاسمة على أساسها، أغلب الظن أن السيد عزيز يقصد **اليونان** وعاصمتها أثينا، لكن لا أكثر من ذلك، ليس هنالك من دليل على مكان محدد أو شخص معيّن، رغم قناعته التامة بأن اسم باناسيا

ذكر أمامه مرات عديدةً لكنه لا يتذكر أبداً أين أو بخصوص ماذا ؟

ماذا يفعل الآن ؟

كيف له أن يشدّ الرحال إلى اليونان، أن يعبر نصف قارات العالم مدفوعًا بشيء يشبه الظن، لا الدليل ؟

وقف أوليفر في المنتصف بين حيرتين : أن يسافر وراء فراغٍ مقنّع بالأمل، أو أن يبقى في أرضٍ فقدت معناها. رسالة السيد عزيز قلبت جدول رحلته رأسًا على عقب، وأطفأت فجأة جذوة رغبته بالسياحة أكثر في بوليفيا، كأن شيئًا ما في الكلمات جعل الأماكن تفقد ألوانها، والطرق تفقد اتّجاهها.

راح يذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا، خطواته كأنها تدور داخل متاهة كريت عقلية لا نهاية لها. أمضى ساعات في تحليل الرسالة، يقرأها مرة تلو الأخرى، محاولًا انتزاع ومضة خفية أو رمز صغير قد يكون فاته و يشير الى عنوان أو شخص .. لكن الرسالة بقيت صمّاء، جدارًا لا يُخترق.

وفي لحظة تعب ووضوح ممزوجين، قرر.

لن يبقى هنا أكثر. لا فائدة تُرجى من التسكّع بين أطلال الأسئلة، ولا متعة في النظر إلى معالم لم تعد تناديه.

أمسك بهاتفه، ودون تردّد حجز رحلة عودة إلى ميونخ عند منتصف الليل.

نظر إلى ساعته ، كانت عقاربها تشير إلى الرابعة بعد الظهر.

هدأ داخله فجأة، كما لو أن القرار أعطى لجسده الإذن بالتنفس من جديد. جمع أغراضه بصمت، كل قطعة يطويها كانت تشيعه، كأنها تعرف أنه لن يعود قريبًا.

ثم خرج إلى قلب مدينة إل ألتو.

لم يكن يبحث عن أسرار جديدة ، بل عن لحظة وداع بسيطة.

جلس في مطعم شعبي عند زاوية بلا اسم، تناول غداءً متأخرًا دون أن يعي

مذاقه. ذهنه لا يزال غارقًا في تلافيف الأحجية الجديدة، يطارد خيطًا لا يُرى.

وبعدها، خرج يتمشّى في الشوارع الضيقة، يمرّ بعينيه على الوجوه، على الواجهات الملوّنة، على العربات الصغيرة التي تبيع الفاكهة والكلمات.

كان يودّع المدينة بهدوء، لا بحزن، بل بشيء يشبه الحنين .

حتى الشمس، في رحلتها نحو المغيب، بدت وكأنها تودّعه على طريقتها، تغوص ببطء خلف الأفق اللازوردي الواسع، وتترك السماء بلونٍ بين البرتقالي والحلم.

*****

ألمانيا / ميونخ ...

بعد رحلة طويلة، مثقلة بالتفكير المرهق والتحليل العقيم، عاد أوليفر إلى منزله مع تباشير الفجر الأولى، منهكًا جسديًا ونفسيًا، كأن ساعات الطيران لم تكن سوى امتدادٍ للدوامة التي تدور في رأسه منذ استلام رسالة السيد عزيز. لم يغمض له جفن طوال الطريق، وظلّ يحدّق في العدم، يحاور الصمت، ويقلّب الوجوه الغامضة للكلمات التي لم تفكّ طلاسمها بعد.

كان المنزل ساكنًا ككنيسة بعد منتصف الليل. مساعده ماتيوس لم يكن موجودًا، إذ اعتاد أن يعود إلى منزله في فترات غياب أوليفر الطويلة .

خلع معطفه بصمت، واتجه مباشرة إلى الحمام. ماءٌ فاتر ينهال على جسده المتعب، كأنّه يحاول غسيل التوتر، أو على الأقل تعليقه مؤقتًا على رفّ اللحظة.

ثم إلى السرير.

وبمجرّد أن لامست وسادته وجهه، سقط في نومٍ عميق، ثقيل، أشبه بالغيبوبة منه بالراحة.

استيقظ مع غروب الشمس، مفكك المفاصل، مثقل الجسد، وصداع حادّ يعتصر رأسه ككماشة من حديد. لا شك أن اختلاف التوقيت والتفكير المتواصل تركا أثرًا واضحًا عليه. تناول حبة مسكّن بصمت، ثم أعدّ كأسًا من المتة المحلاة بعسل بوليفيا — طقسه الشخصي في مثل هذه اللحظات — وخرج إلى الحديقة.

جلس تحت شجرة الكافور الوارفة، حيث كان الهواء يحمل رائحة الأرض، وحفيف الأوراق يُغني وحده عن كل موسيقى.

ألقى برأسه إلى الخلف، ناظرًا نحو السماء.

النجوم تناثرت مثل وشم قديم على جسد الليل، والقمر كان مكتملًا، مشرقًا بشكل يكاد يُربك العين. كان المنظر مهيبًا، مشبعًا بنوع غامض من القداسة، كأن شيئًا ما فوقه يراقب، يترقّب، أو حتى يتواطأ مع قدره.

أعاد تفكيره بأحجية السيد عزيز، مرّة أخرى. بلا جدوى.

ظلّ اسم باناسيا يرنّ في رأسه بإصرار، كنغمة غامضة لا يعرف كيف يعزفها. كان متأكدًا تمامًا أنه سمع هذا الاسم من قبل ، وهنا، في منزله تحديدًا. بل يكاد يجزم أن الحل يبدأ منه، لكن كيف ؟ وبأي آلية ؟ لا جواب.

أخرج هاتفه الخلوي، واتصل بماتيوس. لم يطل الحديث، فقط أبلغه أنه عاد. كان صوته هادئًا لكن في طياته رغبةٌ في العودة إلى ما تركاه خلفهما دون إدراك : الماضي الواقعي .

مع أول خيوط شمس الصباح التالية، توجّه أوليفر إلى غرفة المطالعة ، حرمُه الخاص.

كانت تحوي مكتبة ضخمة، جدرانها مغطاة برفوف خشب البلوط الصلد تتوسّطها خريطة العالم العتيقة، ومكتبًا من الأبنوس متينًا وواسعًا ، وخلفه نافذة تطلّ على الحديقة التي تنبعث منها أصوات الطيور.

جلس إلى مكتبه، المتة بالعسل إلى يمينه، وشرع في إعداد قائمة :

كيف يبدأ البحث عن اسم باناسيا ؟

أولاً : الشبكة العنكبوتية (الانترنت) .

لكن ما وجدَه لم يضف شيئًا يذكر ، مجرد تعريف تقليدي : إلهة الدواء والشفاء في الأساطير الإغريقية، ابنة أسكليبيوس.

ثانيًا : ماتيوس.

وعندما سأله، صُدم بإجابته :

(الاسم مألوف لي أيضًا... لكن لا أذكر أين سمعته.)

تجمّد أوليفر لوهلة.

هذا وحده كان كافيًا لتأكيد شعوره الداخلي ، الاسم ليس طارئًا، ليس من عالم الرسائل فحسب، بل جزء من حياته. من ذاكرته. من ذاكرة منزلِه.

وتسللت ذكرى باهتة، كرائحة عطر قديم عادت فجأة :

(الاسم مرتبط بوالديه.)

لكن كيف؟

وأين؟

ومتى؟

قرر أوليفر، مدفوعًا بحدسه الذي لم يخنه يومًا، أن يعود إلى ألبومات الطفولة... تلك الكتب الصامتة التي ترقد على الرفوف كسجلاتٍ لزمنٍ لا يُستعاد، علّ بين طيّاتها تكمن إشارةٌ تنير له هذا النفق المعتم الذي انحدر إليه بعد أحجية السيد عزيز. جلب الألبومات واحدًا تلو الآخر، وجلس على

الأرض تحت ضوء خافت، وأخذ يقلب الصور كمن ينبش الذاكرة من رمادها. ارتسمت على وجهه تعابير من الحنين العميق، وكأنّ طفولته البعيدة عادت تزوره بأنفاس أبويه الراحلين.

كانت الصور مرتبة ترتيبًا زمنيًا دقيقًا، وتحت كل واحدة سطرٌ صغير بخط يد أنيق يدوّن تاريخها ومكانها أو تعليقًا وجدانيًا موجزًا. مضت الدقائق، بل الساعات، إلى أن بلغ الألبوم السابع... وهناك، كمن يفتح بابًا سرّيًا في جدار عمره، عثر على الصورة المنشودة.

في تلك الصورة، وقف والداه إلى جانب امرأة ترتدي معطفًا أبيض، تنبع من عينيها نظرة علمٍ ورحمة. كانت الصورة مأخوذة في غرفة تشبه عيادة طبية. وتحتها كُتب:

(نحن والطبيبة باناسيا قبل عملية الزرع / نورفولك – فيرجينيا)

ارتجف قلب أوليفر لحظة قراءة الاسم. اندفعت الذكريات دفعة واحدة كما لو أن سدًّا انفتح في رأسه... باناسيا! نعم، تذكر الآن. كانت طبيبة يونانية، زميلة والدته في المجال الطبي، تعمل في مركز الإخصاب المساعد بمدينة نورفولك بالولايات المتحدة. هي ذاتها التي قامت بزرع البويضة الملقحة في رحم والدته، معلنةً بذلك بداية وجوده في هذا العالم.

لقد سمع الاسم مرارًا في طفولته، لكنه كان آنذاك محض تفصيل طبي لا يعني له شيئًا... أما الآن، فصار مفتاح لغزٍ غامض يربطه بماضيه، وربما بمصيره. رغم الغصّة التي خنقته وهو يتأمل وجهَي والديه في الصورة، فقد شعر بشيء من الدفء يسري في أوصاله؛ لقد وجد أول خيطٍ يقوده في رحلة البحث الجديدة.

ولكن، ما لبث الدفء أن توارى، وحلّ محله سؤال غريب، مقلق، ومقلق جدًا :

كيف عرف السيد عزيز بالطبيبة باناسيا ؟

هل كان على صلة بها ؟ أم بوالديه ؟ وهل لقاء كنيسة ميلانو كان فعلًا محض صدفة... أم أنه كان مخططًا من البداية ؟ كان هذا الاحتمال أشبه بغزة في القلب، حادة وغامضة، جعلته يهز رأسه ببطء كما لو يحاول إبعاد الضباب عن فكرة مرعبة.

على أي حال، باتت الخطوة التالية واضحة :

الاتصال بالطبيبة باناسيا.

لكن هذه الخطوة، رغم بساطتها النظرية، تطرح تحديًا جديدًا... مضى على الصورة أكثر من أربعين عامًا، وباناسيا – التي كانت في الثلاثين من عمرها وقتها – يفترض أن تكون الآن في السبعين على الأقل... هذا إن كانت لا تزال على قيد الحياة أصلًا.

استغرقت أفكار أوليفر ساعات من التردد والتقليب بين الخيارات، حتى استقر قرارٌ واحد صارم في ذهنه: أن يبدأ رحلة البحث من مصدرها، عبر التواصل مع المشفى في نورفولك، السؤال عن الطبيبة باناسيا، ذلك الاسم الذي صار لغزًا يتعالى صدى ذكراه في ذهنه. كان هذا هو الخيار الوحيد المتاح، رغم شبكة الغموض التي تحيط به.

لم تكن مهمة الحصول على رقم استقبال المشفى عسيرة، فما إن أجرى الاتصال حتى استقبله صوت موظفة ودودة، تذكرت فورًا اسم الطبيبة باناسيا، بفضل ندرة الاسم وخصوصيته. لكن الأخبار التي وصلت إلى أوليفر جاءت كصفعة باردة؛ الطبيبة **باناسيا أيتوس** قد أنهت مسيرتها المهنية في المركز الطبي عند بلوغها الخامسة والستين، وعادت إلى مسقط رأسها في **جزيرة كريت باليونان**، حيث فارقت الحياة منذ خمس سنوات.

أنهى المكالمة بهدوء خارجيٍّ، لكن قلبه كان يغلي بحسرة عميقة. ماذا تبقى له الآن ؟ هل لفظ البحث أنفاسه هنا ؟ لم يجد أدلة جديدة، ولا خيوطًا تتبعها، لا لوحة، ولا قصة كما كان يتوقع. خطرت له فكرة السفر إلى نورفولك

شخصيًا، لكن الفكرة بدت ثقيلة؛ رحلة طويلة مرهقة بعد ما عاناه في بوليفيا، وبلا وجهة واضحة، أو من يدله على الطريق.

في لحظة يأس، عاد إلى شاشة حاسوبه، استعاد أمله بلمسة من فضول المتشبث. بحث مجددًا عن اسم الطبيبة باناسيا أيتوس في نورفولك، فكانت المفاجأة حين وجد موقعًا يكرّم إسهاماتها البارزة في مجال الإخصاب المساعد، وكُتب هناك أن ابنتها، الطبيبة **كاسيا أروغانوس**، سارَت على خطى والدتها وتعمل حاليًا في ذات المجال في مدينة فرانكفورت الألمانية

نبض في مهجته شعور بالأمل والانتصار، إذ أصبح بإمكانه الآن مقابلة ابنتها كاسيا في مدينته فرانكفورت هنا ، وسؤالها عن أسرار والدتها التي بقيت طيّ الزمن. بدأ يحزم حقيبته مرة أخرى، وهو يعاني تداخل مشاعر متضاربة : بين توديع عالم المال والأعمال، وانطلاقه في حياة الترحال التي تشبه سراب البداوة في الصحراء متنقلا من بلد إلى آخر و من مدينة إلى قرية . لكنه كان واثقًا أن حماسه لشق طريق الحقيقة سيذيب تعب الرحلات، ويدفعه قدماً نحو المجهول، حيث تنتظره أجوبة لم تُقل بعد.

*****

في صباح اليوم التالي ...

الانطلاق نحو فرانكفورت ...

انطلق أوليفر بسيارته وسط دهشة واضحة وامتعاض مكبوت من مساعده ماتيوس، الذي بدا متوترًا من وتيرة السفر المتلاحقة التي باتت تثقل كاهل جسد أوليفر وذهنه بلا شك. لكن أوليفر ابتسم له بهدوء مطمئن، وقال :

○ لا تقلق يا سيد ماتيوس، أنا معتاد على هذا الأسلوب، إنها رحلة عمل لا مفر منها كما اعتدت .. ألقاك على خير.

ودّعه ماتيوس و قد اختلط في عينيه الحزن بالقلق، فقد كان يعي أن كثرة السفر منذ عودة أوليفر من ميلانو ليست مجرد تنقلات عادية، بل تعكس وجود أمرٍ غامض، و ربما خطير، يحيط به .

كانت فرانكفورت تبعد حوالي أربعمائة كيلومتر شمال غرب ميونخ، وكانت الطريق تستغرق نحو أربع ساعات بالسيارة. مرّ أوليفر بها مرات عدة في مناسبات مهنية سابقة، لكنه هذه المرة لم ينتبه لجمال الطبيعة الخلابة على جانبي الطريق، إذ غرق في محيط أفكاره و دوامة الأحاجي، متأملاً الهدف الحقيقي من رحلته ومضمون الرسالة الغامضة التي تلقاها.

حين اقتربت حدود المدينة، لاحت أمامه معالمها الشهيرة، يتصدرها **برج أوروبا** المميز، شامخًا فوق بقية المباني، رمز من رموز المدينة وأحد أطول الأبراج في ألمانيا، بعد **برج برلين** الشهير. وعلى الجانب الآخر، تزين أفق المدينة بناطحات سحاب حديثة، تلامس السماء كأنها تتحدى الجاذبية.

توجه أوليفر مباشرة إلى مركز المدينة حيث تتركز الفنادق، فركن سيارته في مرآب خاص، ثم شق طريقه نحو الفندق الذي اعتاد الإقامة فيه. لحسن حظه وجد غرفة شاغرة في الطابق الأعلى، رغم زحمة الموسم السياحي المكتظ.

رقد على سرير غرفته، يريح ظهره المثقل بالتعب، وتسللت أفكاره بعمق في دوامة السؤال والانتظار. لم يكن يعلم حتى الآن ما الذي يبحث عنه بالضبط في مركز الإخصاب المساعد، أو كيف سيبدأ الحديث مع الطبيبة كاسيا عن والدتها الراحلة.

لكن ثقة أوليفر بالسيد عزيز كانت قد تعاظمت مع كل خطوة في رحلته، إذ أصبح مقتنعًا أن المسار الذي يمشي فيه هو الصحيح، وأن الإجابات ستنكشف له شيئًا فشيئًا طالما يفكر بشكل منطقي، كأنها حبال متشابكة تنفك تدريجيًا، و هذا سر عبقرية السيد عزيز في صياغة أحاجيه.

على كل حال، كان ما بوسعه فعله الآن هو البحث عن معلومات دقيقة عن

ماضي السيدة باناسيا، حياتها الشخصية و المهنية، ربما يحمل أحد تفاصيلها نورًا يكشف اللغز الغامض الذي يلاحقه.

غادر الفندق بعد غداء هادئ، متجهًا نحو شوارع فرانكفورت التي تعج بحركة الناس في ذاك الخريف المنعش، حيث ينسجم الهواء البارد مع ألوان الأوراق المتساقطة. سار بلا هدف واضح، عيناه تائهتان بين بريق المدينة وصخبها المتعادل مع سكون روحه. وصل إلى **نهر الماين**، ذلك الشريان المائي الذي يخترق قلب المدينة، فوقف على جسر عالٍ يطل على المياه المتلألئة، حيث الزوارق تبحر بهدوء، وتنسج خطوطها في صفحة النهر كلوحات حية تتراقص مع نسيم الخريف.

بعد قليل، واصل السير عابرًا إلى الجهة الأخرى من المدينة، حتى وصل إلى **برج أيشنهايم**، ذاك الصرح العتيق الذي يتوسط المدينة كحارس صامت، رمزًا لتاريخ فرانكفورت العريق وتحصيناتها في العصور الوسطى. التف حول المدينة، يستكشف شوارعها وأزقتها، حتى عاد إلى الفندق بعد ساعتين ونصف من المشي، أو كما كان يفضل تسميتها : الرياضة التي تنظف الروح قبل الجسد.

كانت الشمس تغرب برونق قرمزي يغلف الأفق، كأنها تغلف العالم في تابوت من النيران، لتختفي تاركة المجال لعتمة الليل التي بدأت تزحف بهدوء. استحم بسرعة، وتعشى على مهل، ثم أعد كأس المتة الذي بات رفيقه الدائم في رحلاته، وجلس في شرفة غرفته يتأمل المدينة التي بدأت تتحول إلى لوحة مضيئة بألوان الأنوار المتناثرة هنا وهناك، بين الأبنية والشوارع التي تنبض بالحياة الليلية.

لقد مضى على رحلته هذه قرابة الشهر، وفي هذا الوقت الغامض، تغير كثيرًا. كان في السابق رجلاً ثريًا، يعيش على رفاهية مادية مترفة، يستمتع بماله ويهوى اكتشاف الحقائق السطحية. أما الآن، فقد تحول إلى شخص مختلف، يمتهن الترحال مهووسًا باكتشاف أعماق الحقيقة، و منقادًا كالأعمى نحو نور خفي يأمل أن يبصره في نهاية النفق ليولد من جديد.

فتح تطبيق المفكرة على هاتفه، حيث كان يدون المواعيد والأفكار التي يجب أن تظل حية في ذاكرته، حيث أنشأ ملفًا مستقلًا أسماه **الزيتونة** ، احتوى

على أهم النقاط التي جمعها من رحلاته الماضية : **الرحم، سيدة الظل، الزيتونة، الشمس والقمر، ملكة القفير**. و لم يكن يستبعد إضافة عنصر جديد إليها في صباح الغد، إذا ما حالفه الحظ وفتحت له الأبواب مجددًا نحو أسرار جديدة.

*****

نحو مركز الإخصاب ..

استيقظ أوليفر قبل بزوغ الشمس، حين كانت المدينة لا تزال تغط في هدوء عميق، وكأن العالم كله ينتظر نفحة ضوء تبشر بيوم جديد. اغتسل ببطء، وبدأ صباحه بتمارين رياضية متأنية استمرت نحو ساعة، يستعيد فيها طاقته ويهيئ نفسه لمواجهة ما ينتظره من تحديات. بعد ذلك، استحم بمياه باردة وانتقل إلى شرفته الصغيرة حيث جلس يتأمل بانوراما فرانكفورت التي تستقبل إشراقة النهار، يتخلل تفكيره القلق تجاه حيثيات اليوم القادم في مركز الإخصاب.

أنهى فطوره بهدوء، ثم خرج من الفندق، متجهاً إلى المركز الذي حدده تطبيق الـ **GPS** على بُعد مسافة مشي لا تتجاوز الثلاثين دقيقة. كان الطريق أمامه هادئاً نسبيًا، وأعجبته التفاصيل الصغيرة لمدينة فرانكفورت في ساعات الصباح الأولى، حيث تختلط أصوات الخطوات مع همسات الرياح.

وصل إلى باب المركز، دفعه ببطء وداخل قلبه فضول مشوب ببعض التوتر. اتجه مباشرة نحو موظفة الاستقبال، ألقى تحية لطيفة قبل أن يشرح سبب زيارته.

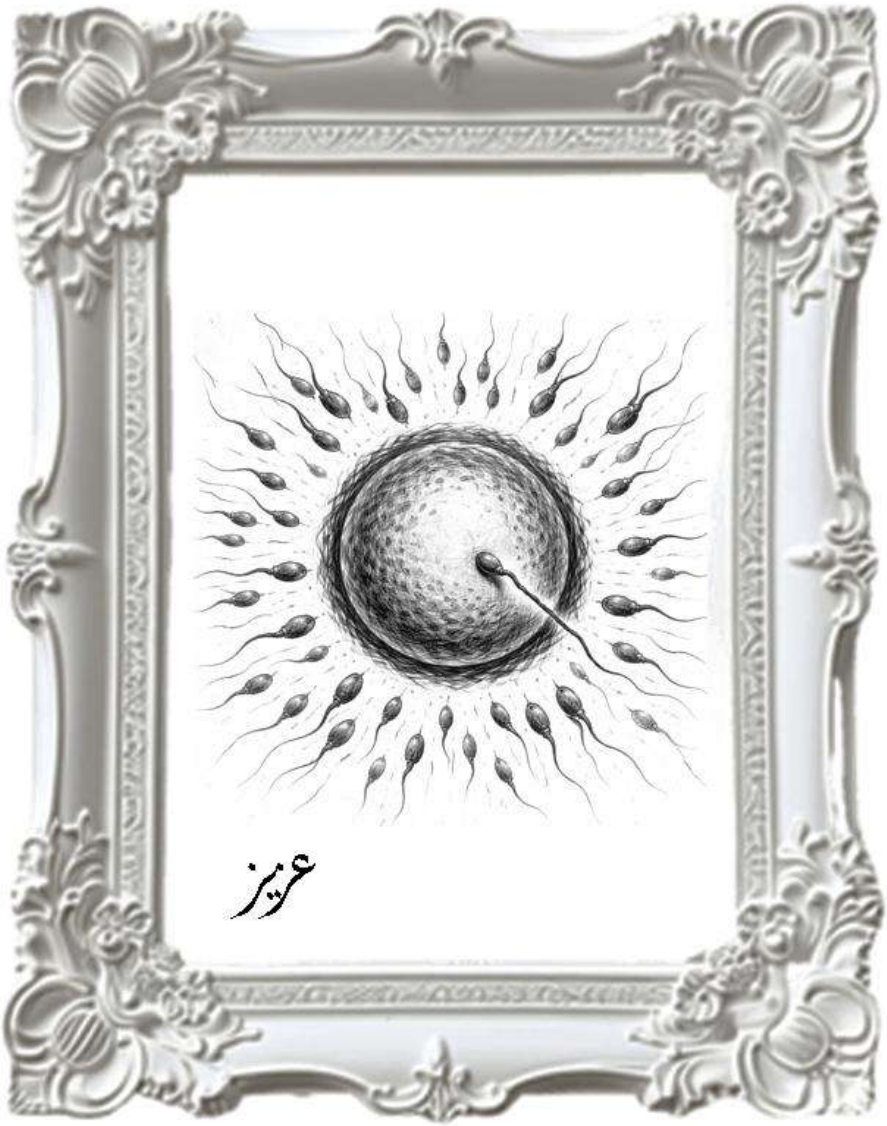
- إنني أبحث عن طبيبة هنا تدعى كاسيا أروغانوس ؟
  - أهلاً بك ، الطبيبة كاسيا موجودة في قسم الزرع في الطابق الرابع ..
- أشكرك جزيل الشكر...

توجه صوب المصعد، مرتقياً بهدوء نحو الطابق المخصص. وما إن خرج

حتى جذب انتباهه لوحة كبيرة معلقة على الجدار في منتصف الرواق الرئيسي. اقترب منها بفضول وأمعن النظر.

كانت اللوحة تحمل رسماً بسيطاً لكنه دقيق للغاية : بويضة أنثوية محاطة بمجموعة من النطاف تتسابق نحوها، حيث تتسرب واحدة فقط من بينها لتخصبها.

استعاد أوليفر فوراً في ذهنه الشطر الأخير من الأحجية التي كان يحاول فك رموزها : **تسابق إليها كثيرون، لكن وصل إليها قلة** . الآن تبدو هذه اللوحة توضيحًا بليغًا لذلك المفهوم. البويضة التي تتشابه مع ملكة النحل فتحظى بشرف التلقيح من نطفة واحدة فقط، في صراع مثير لا يتسنى إلا للأقوى الفوز فيه.



نظر إلى التوقيع في أسفل اللوحة، وابتسم بخفة. كان الاسم معروفًا له جيدًا : عزيز . تساءل في نفسه كيف وصل السيد عزيز إلى هذا المركز أيضاً، وما علاقته بكل هذه الرموز والألغاز التي تتشابك حول رحلة البحث.

أخرج هاتفه، والتقط عدة صور للوحة كعادته..

ثم وجه نظره إلى الزاوية المعاكسة من الطابق حيث جلست موظفة استقبال أخرى خلف منصة خشبية . اقترب منها بابتسامة خفيفة وسألها مجدداً عن الطبيبة كاسيا.

● الطبيبة كاسيا هنا ، وهي في الداخل ..

أشارت إلى غرفة مكتوب عليها (قسم الزرع).

○ هذا جيد، و هل في إمكاني التكلم معها قليلاً ؟

● انتظر لحظة ..

أجرت مكالمة هاتفية قصيرة ثم سألته ..

● الطبيبة كاسيا مشغولة الآن للغاية، تسأل إن كان الموضوع ملحاً و طارئاً ؟

○ لا ليس كذلك، إنه مجرد استفسار بسيط.

عادت الموظفة إلى الهاتف قليلاً ثم أغلقت السماعة.

● الطبيبة كاسيا تقول إنها لن تفرغ من العمل قبل ثلاث ساعات، بإمكانك الانتظار أو العودة لاحقاً، هذه بطاقتها أيضاً و يمكنك الاتصال معها إن أردت..

○ شكرا جزيلاً لتعاونك، سأكلمها لاحقاً، لدي سؤال أخير غريب قليلاً ..

● تفضل سيدي ..

○ هل تعرفين مصدر هذه اللوحة على الجدار؟

وأشار الى لوحة البويضة ..

● طبعاً سيدي، إنها تقدمة من السيد عزيز اليقين أحد الممولين الكبار لهذا المركز ..

هزَّ أوليفر رأسه بدهشة متحيرة، ثم غادر مركز الإخصاب بخطى متثاقلة وهو يشق طريقه عائدًا نحو الفندق. أفكاره كانت في حالة فوضى عارمة، أسئلة تتهاطل عليه كسونامي هادر، تُغرق عقله بكل ما هو مجهول وقلق. بدأ الخوف يتسلل إلى أعماقه، وهو شعور لم يكن معتادًا عليه من قبل تجاه شخصية السيد عزيز التي يكتنفها غموض غامر.

من هو هذا الرجل بحق ؟

وكيف يستطيع أن يقرأ أفكاره بهذه الدقة المتناهية ؟

وكيف يحركه من مكان إلى آخر وكأنه مجرد دمية تحت سيطرته، ممسكًا بجهاز تحكم لا يرى ؟

أخرج هاتفه المحمول، وفتح تطبيق المفكرة بحذر، ثم دخل إلى ملف الزيتونة الذي جمع فيه كل ما استطاع الوصول إليه من أدلة ونقاط محورية خلال رحلاته الغامضة. أضاف إليه عنصرًا جديدًا أثار فيه دهشة وفضولًا : **البويضة**.

(إنّ اللمسة الأنثوية تخترق لوحة الحقيقة الكبرى أكثر فأكثر...)

تمتم في نفسه، وهو يتأمل تلك الفكرة التي باتت تزداد وضوحًا في مخيلته.

*****

بينما كان أفق المساء مغمورا باللون الأحمر الوردي، تغلفه أشعة الشمس الغاربة التي تبتلعها الأرض بهدوء، اتصل أوليفر بالطبيبة كاسيا. قدم نفسه باعتباره ابن صديق والدتها الراحلة باناسيا، وأوضح أنه يرغب في طرح

بعض الأسئلة حول والدتها ، من أجل إعداد السيرة الذاتية التي يكتبها عن والده الراحل. اتفقا على اللقاء في مقهى مشهور يقع في قلب فرانكفورت، في تمام الساعة الثامنة مساءً.

قبل الموعد بنصف ساعة، وصل أوليفر إلى المقهى، اختار طاولة معزولة تقع بجانب نافذة كبيرة تطل على شجيرات ورد صغيرة تتمايل برقة مع نسمات المساء اللامبالية . جلس منتظرًا، يتأمل الضوء الخافت في الداخل وتلك الوجوه العابرة.

ثم، مع دقات الساعة الثامنة، دخلت باب المقهى الزجاجي سيدة في عمره تقريبًا. وقفت للحظة تتفحص المكان بأعين حائرة، تبحث عن وجه مألوف وسط الحشود. نهض أوليفر بابتسامة ودودة، فردت الابتسامة عليه وبدت عليها علامات الارتياح، فتقدمت بثقة نحو طولته .

● السيد أوليفر ..

○ أجل حضرة الطبيبة كاسيا، تفضلي بالجلوس ..

● أنا متفاجئة من هيئتك، تخيلتك رجلاً متقدماً بالعمر عندما أخبرتني بمعرفتك بوالدتي...

ابتسم أوليفر..

○ كما قلت لك والدي الراحل هو من يعرف والدتك ، و في الحقيقة أنا بشكل أو بآخر موجود هنا أمامك بفضلها ..

بدت علامات الدهشة و الحيرة على وجهها، فشرع أوليفر يروي لها عن علاقة والدتها باناسيا بوالديه وكيف قامت بنفسها بزرعه هو عندما كان بويضة ملقحة في رحم والدته، في الحقيقة شعر أوليفر نفسه بالغرابة وهو يروي تلك القصة ، ثم برّر أخيراً لقاءه بها بأنه يكتب سيرة ذاتية لوالده و يتواصل مع كل شخص له تأثير على حياته..

● أجل لقد تذكرت والدتك سيد أوليفر السيدة فاطيما، لقد كانت طبيبةً أيضاً

أليس كذلك ؟ ما أخبارها ؟

○ بلى كانت كذلك، لكنها توفيت مع والدي في حادث سير في فرنسا منذ **10** سنوات...

ارتبكت الطبيبة كاسيا و بدا التأثر واضحاً عليها ..

● آسفة جداً لخسارتك الكبيرة هذه ..

○ أشكرك، الحياة تستمر بكل الأحوال ..

● بلى إنها كذلك، ماذا تحب أن تعرف عن والدتي من أجل سيرتك الذاتية ؟

○ أي قصص مميزة عنها؟

● سأخبرك قصة عائلتي باختصار وأنت اسأل ما شئت بعدها ...

○ يبدو ذلك مناسباً ..

● نحن عائلة يونانية الأصل ، جدي والد أمي كان طبيباً معروفاً في **جزيرة كريت**.. رزق بخمس فتيات ولم يرزق بذكور...و كانت أمي الفتاة الخامسة و الأخيرة بين أخواتها ، لذلك عند ولادتها أطلق أصدقاء جدي عليه اسم أسيكلييبوس نسبة إلى إله الشفاء عند اليونان والذي كانت لديه **5** فتيات ألهة أيضاً ، و جراء ذلك أطلق جدي على والدتي اسم باناسيا نسبة إلى إلهة العلاج الدواء ابنة أسيكلييبوس ..

مشت أمي على خطى جدي ودرست الطب، أرادت التخصص في مجال الإخصاب المساعد و طفل الأنبوب، لكنه كان اختصاصاً حديث العهد وقتها..

ابتسم أوليفر وهو يتذكر كل ما قرأه عن الإخصاب المساعد قبيل زيارته للمركز من باب الاستعداد و الحيطة ، حيث نجح كل من **باتريك ستبتو و روبرت ادواردز** في إتمام أول عملية إخصاب مساعد في التاريخ ، انتهت بولادة طفلة تدعى **لويز براون** عام **1978**، في **مستشفى أولدهام** العام في المملكة المتحدة..

تابعت كاسيا قصتها التي لا تقل غرابة عن سابقاتها و ترسم الرتوش الأخيرة لحل الأحجية بالكامل ..

● انتهزت والدتي فرصة مميزة للعمل في الولايات المتحدة الأمريكية وانتقلت إليها مع والدي، أنا الابنة الوحيدة لهما.. ولدتُ في فيرجينيا ومشيتُ على خطى والدتي وجدي في مجال الطب وطفل الأنبوب على وجه التحديد كوالدتي .. انتقلت إلى ألمانيا منذ سنوات لأعمل في هذا المركز بسبب ظروف خاصة وتزوجت من شاب ألماني ذي أصول **غانيّة** ولدينا طفلان الآن ..

انغمس أوليفر في ساعة من الحديث العذب مع الطبيبة كاسيا، حيث تلاقت أرواحهما في فضاء مليء بالأسئلة والإجابات المبهرة، كما لو أن الزمان نفسه تراجع ليتسع لحوارات تنسج خيوط الغموض والدهشة.

عند وداعهما، ارتسم على شفتيه ابتسامة امتنان عميقة، شكرها على حسن الاستقبال وكرم الصداقة التي أبدتها، ثم افترقا وكل منهما محمّل بذخيرة من الأفكار التي تلتهب داخل صدره.

عاد أوليفر إلى الفندق، حيث أتمّ إجراءات المغادرة بنظام هادئ لا يشي بما يعتمل في أعماقه، ثم توجه إلى المرآب حيث تمكث سيارته، رفيق الطرقات في رحلاته المحفوفة بالألغاز. انطلقت العجلات على الطريق الممتد نحو ميونخ، بينما يزداد زخم الأسئلة في ذهنه، كعاصفة تتلاطم بين دفتي عقله. كان يحمل في قلبه ثلاث قطع من الفسيفساء الكبرى : اجتماع **الشمس و القمر في كيان واحد ، رقصة ملكة النحل والذكر الأمير، وأخيراً تزاوج البويضة اليتيمة مع النطفة المنتصرة**. لم يكن قد كشف بعد الوجه الكامل للحقيقة، لكن كل رمز، كل لوحة رآها ، كانت تتكلم بلغة فريدة، تروي قصة خاصة بها، لكنها في الوقت نفسه كانت قطعًا من فسيفساء كونية، تنتظر دمجها لتكشف اللوحة الكبرى التي تحوي سر الحياة وعمق الوجود. هذه المعرفة، أو هكذا شعر، كان مثل شعاع ضوء يسطع في ظلمة مجهولة، يدعوه للمضي قدماً، للسير على خطى مجهولة في رحلة بحث لا تعرف نهاية.

إنّ يقينه بات أشدّ ثباتاً بأن السيد عزيز، ذلك الرجل الغامض، يملك مفاتيح هذه الأحجية المدفونة في زوايا الكون ، و الموضوع مسألة و قت لا أكثر قبل أن تتجلى اللوحة الكبرى أمام عينيه .

وصل إلى ميونخ مع فجر جديد، حيث كانت المدينة تستيقظ ببطء تحت وطأة لحظات هادئة، استحم ببطء فغسل عن نفسه كل متاعب الطريق، تناول عشاءً خفيفاً، ثم استسلم لنوم عميق كما لو أن عينيه لم تغمضا منذ دهور، تاركاً خلفه أعباء النهار، ليحلم برحلة الغد التي تنتظره على أعتاب أحاج جديدة.

*****

في المحار
تكمن الأسرار

البرازيل / ريو دي جانيرو ...

وصل الشاب الأربعيني، ضخم الجثة، إلى قمرة الرئاسة، كأن خطواته تُثقل الأرض بما تحمله من أسرار. لم يكن الممر المؤدي إليها مجرد مساحة فاصلة بين بابين، بل بدا كأنه ممرٌ بين عالمين: عالم الظاهر، حيث تُقال الأشياء كما هي، وعالم الخفاء، حيث تتوارى النوايا خلف ظلال اللغة.

توقف أمام الباب لحظةً، لا ليتردد، بل ليُعيد ترتيب صمته. ثم طرق طرقات خفيفة، كأنها لا تريد أن تُوقظ ما في الداخل بقدر ما تستأذنه.

● ادخل.

جاءه الصوت الأجش، مشبعًا ببرودةٍ لا تخلو من سلطةٍ اعتادت أن تُطاع.

دفع الباب ببطء، وانزلق إلى الداخل كما تنزلق فكرةٌ ثقيلة في عقلٍ مرهق. كانت ملامحه أكثر جدية من المعتاد، أو لعل الجدية هنا لم تكن تعبيرًا، بل قناعًا يخفي وراءه حساباتٍ معقدة.

● ما نتائج المراقبة يا تياجو ؟

لم يكن السؤال مجرد طلبٍ للمعلومة، بل اختبارًا لمدى تماسك الخيوط في شبكةٍ لا تحتمل الانقطاع.

○ شخص جديد دخل إلى الدائرة.

ساد الصمت لثوانٍ، ليس فراغًا، بل امتلاءً بالاحتمالات.

● جديد؟!

الكلمة خرجت مشوبة بدهشةٍ محسوبة، كأن المفاجآت في هذا العالم لا تُفاجئ، بل تُقلق.

○ أجل... شاب، تاجر ألماس، يُدعى أوليفر جونز. التقى به السيد عزيز في ميلانو منذ أسابيع... وتحركاته منذ تلك اللحظة غريبة.

لم تكن "غريبة" وصفًا، بل حكمًا أوليًا في محكمةٍ لا تُعلن جلساتها. ففي عالمٍ كهذا، لا يُقاس الإنسان بما يفعل، بل بما يُحتمل أن يفعله.

اقترب الرجل الجالس خلف المكتب قليلًا، كأن الظل الذي كان يحتمي به لم يعد كافيًا.

● استمروا بمراقبته... فربما يعمل أوليفر هذا مع الأخوية في السر.

ثم صمت، لا ليفكر، بل ليترك للفكرة أن تتمدد في فضاء الغرفة.

● على كل حال، ملف السيد عزيز مؤجل... ريثما ننتهي من صديقه البروفيسور ترومان .

هنا تغيّر الإيقاع. لم يعد الحديث عن أشخاص، بل عن خطرٍ يتسلل عبر الكلمات.

● الأخير... أصبح تلميحه في محاضراته عن علم الرموز أقرب إلى تصريحٍ خطير. الكلمات يا تياجو، حين تفقد حياءها، تُصبح خناجر. وإن لم نوقفه، فربما تتحول أسرار الأخوية إلى معرفةٍ مشاعة... ومعرفة العامة، كما تعلم، ليست دائمًا نورًا... بل فوضى.

توقف لحظة، كأنما يُنصت لشيءٍ لا يُسمع.

● وهذا... هو سبب نشوء منظمتنا. ليس حبًا في السلطة، كما يظن السذّج، بل خوفًا من الحقيقة حين تُقال بلا سياق. القضاء على الاجتهادات العبثية... والعودة إلى الأصل... إلى السلف الصالح... حيث كانت المعاني تُفهم، لا تُستنزف. و يبدو أن مصير البروفيسور بات قريباً من صديقه الأسقف جيمزا.

رفع نظره أخيرًا، وثبّته في عيني تياجو، نظرةً لا تُطلب منها الإجابة، بل الولاء.

● انصرف... وسأتكفل أنا بوضع المعلم في صورة آخر المستجدات.

استدار تياجو بهدوء، لكن شيئًا في داخله لم يكن هادئًا. ففي عالمٍ يُبنى على السر، لا يكون الخطر في من يجهل... بل في من يبدأ بالفهم.

أُغلق الباب خلفه، وعادت الغرفة إلى صمتها... صمتٍ لا يعني السكون، بل امتلاءً بحقائق لم يُكتب لها أن تُقال... بعد.

ألمانيا / ميونخ ...

خلال الأيام التالية، أمضى أوليفر وقته بين التأمل والترتيب، وكأن ذاكرته تحتاج هي الأخرى إلى أرشفة لما مضى. طبع الصور التي التقطها للّوحات خلال رحلاته، ثم اختار بعناية أرقى أنواع الورق، وكبّرها بدرجات دقيقة دون أن يفسد وضوحها أو جودتها. وبعد أن اقتنى إطارات خشبية بلون الجوز المحروق، علّق كل لوحة بعناية على جدار غرفة المطالعة، ذلك الجدار الذي بات أشبه بمذبح صغير للغموض والمعرفة، تتناثر عليه شظايا من الحقيقة كقطع فسيفساء تنتظر أن تكتمل.

وقف أمامها طويلاً، يتنقل ببصره من لوحة إلى أخرى، كأنها خريطة نجوم تُقرأ من الأرض، أو لحن صامت لا يُفك إلا بالتدبر العميق. كان في كل منها سرٌّ موارب، ونبضٌ داخليّ لا يُدركه إلا من استمع إليه بروح مشدودة كوتر كمان.

وفي صباح اليوم الخامس من عودته من فرانكفورت، وبينما كان يراقب بخار قهوته يتصاعد برشاقة من فنجانه، وردته رسالة جديدة من السيد عزيز. لم تكن طويلة، بل كانت أقرب إلى مقطع شعري، مختصر ومكثّف. تأملها أوليفر طويلاً... كانت الكلمات موارية كعادتها، متشابكة كأغصان زيتون في مهب الريح، تحمل في طيّاتها نغمة أحجية جديدة، كأنها باب آخر يُفتح على عالم مجهول :

الدر المكنون ظلماً مسجون في بلد الزيتون ..

قاد الهلال جيشاً من الأفيال..

ليحرر النجمة من الظلم والعتمة

وعند جذع الزيتونة .. لمع اسم في الظلال

عاشق المسجونة .. القائد الهلال

عزيز اليقين

جلس أوليفر خلف مكتبه الأبنوسي يفكر بالأحجية الجديدة .. إنها لا تقل غرابة عن سابقاتها ..!!

فهنالك بلد وصفه السيد عزيز ببلد الزيتون، إنها الزيتونة تعود إلى واجهة الحديث من جديد، لقد ذكر له في ميلانو أن كل شيء مرتبط بالزيتونة و هذا ما بدأ يستشعره كلما مضى قدماً في رحلاته ..

هنالك أيضاُ شخص هو الهلال وآخر هو الدر المكنون الذي سُجِنَ ظلماً، ثم خرج إلى الحرية و الأرجح أنها كنايات عن أشخاص ربما سيلتقيهم في رحلته القادمة ..

لكن ما قصة جيش الأفيال ؟

أخرجَ حاسوبه و شرع بعملية البحث عن أجزاء الأحجية واحداً تلو الآخر .. فبحث أولاً عن بلد الزيتون، و كانت النتيجة أن أكبر منتج للزيتون في العالم هي **إسبانيا**، فهل هي المقصودة ؟ ربما !

بحث مجدداَ عن جيش الأفيال، فعثر على نتائج عديدة أخبرته بأنّ أول استخدام للفيلة في القتال كان في القرن **4** قبل الميلاد من قبل ملوك الهند ومنها انتشر إلى بلاد فارس .. ثم كانت أول مواجهة بين الأوروبيين وفيلة الحرب الفارسية في **معركة غوغميلا** بقيادة الإسكندر الأكبر الذي أعجب للغاية بفكرة الاستفادة من قوة الأفيال في الحرب ، لذا بعد انتصاره في تلك المعركة، ضمّ الأفيال بدوره الى جيشه...

شعر أوليفر بأنه يمشي في طريق خاطئ، و بأنه خرج عن سياق التفكير المنطقي المتسلسل .. فبدأ من جديد و حاول البحث عن ثنائيات هذه المرة .

وضع في محرك البحث: ثنائية : بلد الزيتون وجيش الأفيال.. فعثر مباشرةً على ضالته ! إذ كانت إحدى النتائج المنطقية للغاية تشير إلى دولة **تونس** التي تعد إحدى أكثر البلدان إنتاجاً للزيتون في العالم حيث تكرس **30** % من أراضيها لزراعة الزيتون .. علاوةً على ذلك فقد عاش فيها **حنبعل** القائد العسكري القرطاجي الذي استخدم الفيلة في القتال...

ابتسم بثقة وهو يرى علم دولة تونس الذي يمثل النجمة والهلال. كما ورد

في الأحجية تماماً . إنه على الطريق الصحيح بلا أدنى شك ..

بقي إذاً تفسير الدر المكنون المسجون ظلماً..

ربما يرمز لشخص ما كما خطر بباله منذ قليل ، لكن من هو ؟

إن الدرة تكون مسجونةً في المحارة، و الصياد يتكفل بتحريرها و

استخراجها منها .. ربما هذا ما قصده السيد عزيز.. !!

بحث في الحاسوب مجدداً عن هذه الفكرة لكنه لم يعثر على نتيجة منطقية..

لم يتذمر من ذلك ، فهو على كل حال و بخلاف الأحاجي السابقة يملك كميةً لا بأس بها من المعلومات، فالبلد معروف و جميل.. تونس الخضراء.. و المدينة في الأغلب هي قرطاج الكائنة في العاصمة بحسب ذكر جيش الفيلة و القائد القرطاجي حنبعل .. هنالك أيضاً قضية سجن ظلماً .. و كل ما يحتاجه الآن هو فقط أسماء ليبدأ منها..

إن الأحجية توحي برجل وامرأة، فهل اسم الرجل هلال ؟

ذلك مستبعد فهو يبدو كتشبيه له أكثر من كونه اسم، والمرأة قد تكون درة أو لؤلؤة .. ممكن جداً ...

تابع القراءة عن ميزات دولة تونس عله يعثر على دليل يلقي الضوء على أسماء الشخصيات الحقيقية...

إحدى مميزات تونس هي **القفزة النوعية في تكريم المرأة ومنحها مزيداً من الحقوق المسلوبة** ، فهناك مكانة هامة للمرأة في المجتمع التونسي خصوصاً، حيث تم إلغاء تعدد الزوجات، و تحديد إجراءات قضائية للطلاق، مع اشتراط رضا الزوجين لإتمام الزواج... و العديد من كبار علماء وشيوخ تونس من **جامع (الزيتونة)** شاركوا في صياغة هذه القوانين الداعمة للمرأة...

تذكر السيد عزيز و كلامه عن الأنثى في ميلانو مع تحيزه الكامل لها بسبب دورها المغيب في المجتمع في بقاع كثيرة من العالم و رغبته في إخراج سيدة الظل إلى العلن، إضافةً إلى تكريم الرحم واهب الحياة.. إن كل هذا

يتماشى بتناسق مذهل مع تاريخ تونس مجدداً !!

هنالك أيضاً جامع الزيتونة في تونس ! ما قصته ؟ لقد أثار الاسم انتباهه فهو يعيد الزيتونة التي ذكرها السيد عزيز و ركّز على أهميتها و بأنّ كل شيء مرتبط بها إلى واجهة الحديث ..

هل الحل يكمن هناك؟

هذا يبدو منطقياً من تعبير (عند جذع الزيتونة) ، فهل يقصد به بناء الجامع ؟

ربما ، فقد يكون القصد هو باب الجامع مثلاً أو مدخله، حيث يلمع اسم الرجل كما ذكرت الأحجية ، هل هو مقهى كما حصل معه في الخطوة الأولى عند بوابة براندن بورغ في برلين ؟ منطقي للغاية ..

لم يكن هنالك في الرسالة أو معلومات محرك البحث ما يشير إلى أسماء محددة ، لذا فالخيار الوحيد الأنسب هو البدء من جامع الزيتونة فكل شيء مرتبط بها كما أكد السيد عزيز و حل الأحجية يكمن على الأرجح هناك .. بعدها ينتظر تيسيرات السماء...

قام بإجراءاته المعتادة وخلال دقائق كان قد حجز تذكرة سفر إلى تونس في الساعة **11** من صباح اليوم التالي مع غرفة في أحد فنادق قرطاج ..

في مساء ذلك اليوم أعد أوليفر كأساً من مشروبه المفضل المتة بالعسل، فتح حاسوبه وأخذ يقرأ أكثر عن قرطاج التي تقع في العاصمة تونس فعليه أن يكون على دراية تامة بأشهر معالمها و أحداثها التاريخية كي يتوجه أكثر خلال بحثه هناك ..

يعود تأسيس قرطاج إلى الفترة الفينيقية قبل الميلاد، على يد **عليسة** المعروفة أيضاً باسم **أليسار**... و هي ابنة **ملك صور** في لبنان التي عرفت بدهائها وحسن تدبيرها، فأسست قرطاج و حكمتها بمنتهى الكفاءة و الاقتدار حتى جعلت منها حضارة معروفة بتجارتها الواسعة وسيطرتها على بحار المتوسط ..

قرأ أيضاً عن **كاتدرائية سان لويس** في قرطاج .. أقدم كنيسة في شمال

أفريقيا حيث تم بناؤها عام **1884**...

يوجد في قرطاج أيضاً موقع أثري زاخر بالمعالم حيث يضم مجموعة من الآثار التي يتجاوز عمرها **2000** عام مثل **حمامات أنطونيوس** ، **الفيلات الرومانية و المسرح الروماني** الذي يتسع لقرابة **9** آلاف متفرج و تقام عليه مهرجانات فنية سنوية ...

استمر بالقراءة عن قرطاج وتونس في صفحات الشبكة العنكبوتية بشغف هائل حتى غلبه النعاس فاستسلم للنوم..

*****

الطريق إلى تونس / قرطاج ...

جلس أوليفر في مقعده الوثير بجوار النافذة، كعادته في كل الرحلات التي لا يعرف على وجه اليقين ما إن كانت ستقوده إلى ضوء الحقيقة أم إلى مزيدٍ من الغموض. تطلّع إلى جناح الطائرة وهو يقطع الغيوم بثقة، بينما كان ذهنه يسرح أبعد من طبقات السماء، يسرح في أروقة جامع الزيتونة التي لم يرَها بعد، لكنه يشعر بها منذ أيام كهندسة تاريخية تتردد في تلافيف عقله بإلحاح غامض.

كانت الرحلة إلى تونس تستغرق قرابة ثلاث ساعات، ومع أن فارق التوقيت مع ميونخ غير موجود، إلا أن فارق الإحساس بين المدينتين بدا له كأنه يمتد لقرون. هناك في أوروبا بدا كل شيء عقلانيًا حد الجفاف، أما هنا، في الأرض التي كانت مهدًا لقرطاج وحنبعل والأساطير الفينيقية، فكل شيء يوحي أن العقل لا يكفي.

استعرض ذهنه بخفة كل الخطوات التي قادته إلى هذه النقطة، كأنها مشاهد في فيلم ملحمي : لقاءه الأول بالسيد عزيز في ميلانو، أول نداء في برلين، تعامل كاسيا اللطيف في فرانكفورت، هواء لاباز المثقل بالحقيقة المختبئة... كلها علامات على درب غير مرئي، يُرسم بإتقان من يد لا تُخطئ. فهل

قرطاج هي العلامة التالية ؟ أم انعطافة تحمل اختلالًا في المعادلة ؟

هبطت الطائرة بسلاسة على مدرج مطار قرطاج الدولي، كأنها تعرف طريقها دون تردد، واستلم أوليفر حقائبه بهدوء دون استعجال، ثم استقل سيارة أجرة انطلقت به في شوارع المدينة. كانت الأشجار تتمايل على جانبي الطريق كمن يرحّب بعائدٍ قديم. عند وصوله إلى الفندق، صعد إلى غرفته في الطابق الثامن، يرافقه شاب يحمل حقائبه بصمت مؤدب. الغرفة كانت بسيطة، لكنها أنيقة، تطل على لمحة من البحر البعيد، ومئذنة تقف ثابتة كسبابة تشير إلى السماء.

اغتسل ، ثم وقف أمام النافذة يتأمل المدينة التي تبدو نائمة رغم وهج الشمس. الساعة تشير إلى الثالثة عصرًا، ومع ذلك كانت المدينة تتنفس بهدوء. سأل نفسه ما إذا كان من الأفضل أن يبدأ مغامرته فورًا ويتوجه إلى جامع الزيتونة، أم يترك زيارته الأولى لهذا الصرح الصامت إلى الصباح حين يكون عقله أنقى وقلبه أكثر استعدادًا للدهشة. وبعد تحليل داخلي طويل، قرر تأجيل الزيارة، فالمكان لا يستحق الاقتحام المتعجّل بل الاستئذان الهادئ.

خرج يتمشى في شوارع قرطاج، يبحث عن الميناء القديم. سأل أحد المارة بلطف، فأجابه التونسي بلكنة محببة وإشارة دقيقة نحو الطريق، ثم ختمها بابتسامة خفيفة كأنها جزء من هوية المكان. شكره أوليفر ومضى يسير نحو الميناء، حيث كان البحر يلوح له من بعيد كوجهٍ مألوف لم يلتقه منذ زمن.

وصل بعد نصف ساعة إلى ذلك الخط الساحلي الذي يفصل المدينة عن أفق أزرق لا ينتهي. جلس على صخرة مقابلة للمياه، واستسلم لصوت الموج، لرائحة الملح، لنسيم المساء المشبع بحكايات البحّارة. كانت القوارب منتشرة كنجوم صغيرة نزلت لتلامس الماء، و أسراب النورس تحلّق في دوائر واهنة فوق المشهد، كأنها ترسم طلاسم سرية في الهواء.

تذكّر معلومة طريفة قرأها ذات يوم : (**يضع التونسيون حسك السمك في أساسات منازلهم ليجلبوا الحظ**) .. ابتسم في داخله، ثم تساءل مازحًا : (وماذا عساي أضع في أساس رحلتي هذه كي يصادفني الحظ ؟)

استمر في المشي لساعات، جسده يتحرك فوق الرمال، لكن عقله ظل يسبح في كلمة واحدة، تطنّ في أذنه كترنيمة قديمة :

الزيتونة... الزيتونة... الزيتونة...

كأنها مفتاحٌ لكل الأقفال، أو لعنةٌ لا خلاص منها.

*****

استيقظ أوليفر في صباح اليوم التالي مفعمًا بنشاط غير مألوف، وكأنما طاقة غامضة قد تسلّلت إلى أوصاله أثناء نومه، فأيقظت فيه حواسًا خامدة. تناول فطوره بهدوء واستمتاع في فناء الفندق المشمس، يتأمل زرقة السماء التي لا يعكرها شيء، كأنها تمهّد له يومًا محمّلًا بالإجابات أو على الأقل بالأدلة القريبة منها.

بعد قليل، غادر الفندق قاصدًا جامع الزيتونة الشهير في قلب المدينة العتيقة بتونس العاصمة، والتي تبعد عن قرطاج قرابة العشرين كيلومترًا. كانت الرحلة في سيارة الأجرة كأنها عبور من زمنٍ إلى آخر، من حداثة قرطاج إلى عبق التاريخ الراسخ في شوارع تونس القديمة.

حين بلغ المكان، ترجل من السيارة عند بداية الزقاق الحجري المفضي إلى الجامع، ثم بدأ السير ببطء، كمن يطأ الأرض بدراية ووجل معًا. الأزقة ضيقة ومبلطة، تتعانق جدرانها العتيقة في انحناءات خجولة تحت نوافذ خشبية مزركشة، ومن فوقها تتدلى حبال الغسيل كأعلام بيضاء في هدنة معلنة مع الزمن.

أمام البوابة الضخمة لجامع الزيتونة وقف أوليفر مأخوذًا بخشوعٍ لا يعرف سببه تمامًا. تأمل تفاصيلها المحفورة بدقة، الأخشاب المورقة بنقوشٍ هندسية، وقوسها الأندلسي الشامخ، لكنه لم يعثر على أي دليل مرئي يقوده مباشرة كما أوحت الأحجية : **عند جذع الزيتونة** ..

نظر حوله، فلم يجد مقاهي أو مكتبات كما كان يأمل، بل أبنية سكنية صامتة

تواجه الجامع كحرّاس زمنيين لا ينطقون. انتابه حدس حاد، أشبه بوخز بوصلة خفية، فانطلق نحو تلك الأبنية بخطى موزونة.

ها هو يقف الآن أمام جدار تتراص عليه لافتات كثيرة، بألوان متباينة وأسماء شتى : أطباء، محامون، مراكز علاج طبيعي، وحتى إعلانات دورات تجميل. لكن عينه التي تعودت أن تنقب عن الأسرار كما يُنقَّب عن الألماس، توقفت فجأة. لافتتان متجاورتان، إحداهما باسم: **حنبعل سعيد عبد النور** – محامٍ، والأخرى باسم : **حازم حنبعل عبد النور** – محامٍ أيضًا.

كأن صاعقة من الدهشة ضربت ذهنه. الاسم ليس مجرد اسم... حنبعل، القائد القرطاجي العظيم، وجيش الأفيال الذي تحدى به روما، و مهنة المحامي التي تتولى قضايا الدفاع كما ورد في الأحجية الأخيرة . لقد بدأت قطع اللغز تتشابك على سطح وعيه.

هل هو الشخص الذي تشير إليه الرموز؟

استمع إلى حدسه. كان يصرخ بصمت داخلي : **نعم، إنه هو** ..

وقف مترددًا للحظة، ثم قرر أن يلج اللعبة بذريعة يعرف أنها فعالة : سيستخدم مجددًا اسم السيد عزيز كجواز عبور.

استجمع أفكاره ورتّب جملته الأولى في ذهنه، ثم صعد درجات البناء بثبات. وصل إلى الطابق الثالث، وهناك كان الباب مفتوحًا. تردد للحظة، ثم خطى إلى الداخل.

كان المكتب أنيقًا على نحو مدهش، تغمره إضاءة ناعمة، وجدرانه تكسوها شهادات قانونية وصور لمدن قديمة. خلف مكتب خشبي أنيق جلست سكرتيرة أربعينية المظهر، أنيقة الملبس، منشغلة بتقليب ملفات.

رفعت رأسها نحوه بابتسامة خفيفة، فبادرها بالقول :

● مرحباً سيدتي ، أنا أوليفر..

○ أهلاً سيد أوليفر .. كيف يمكنني خدمتك ؟

● أرغب بلقاء السيد حنبعل ؟

أجابته السكرتيرة بدهشة لم تتمكن من تقنيعها بابتسامتها ..

○ السيد حنبعل توفي منذ سنوات سيد أوليفر ، يوجد الآن ابنه السيد حازم هل تود لقاءه ؟

● نعم، إن أمكن..

دخلت إلى غرفة جانبية للحظات ثم عادت مجدداً مع ابتسامة ..

○ تفضل السيد حازم بانتظارك ..

دخل أوليفر إلى الغرفة ليجد أمامه رجلاً بين الستين والسبعين من العمر يجلس وراء مكتب ضخم و في يده سيجارة مشتعلة ..

● مرحباً سيد حازم أنا أوليفر..

○ أهلاً سيد أوليفر .. تفضل بالجلوس ..

صمت للحظات يفكر بهذا الضيف الغريب ، باسمه الأجنبي و لكنته الظاهرة .. هل هو عميل جديد يحمل إليه قضية جنائية ؟!

○ كيف يمكنني خدمتك ؟

● لقد أرسلني إليك السيد المصري عزيز اليقين، هل تعرفه ؟

قالها وقلبه يخفق بشدة، فقد تكون تحليلاته خاطئة و يقع في موقف لا يحسد عليه ...

○ السيد عزيز!! بالطبع أعرفه فهو صديق قديم، عزيز عليّ وعلى والدي المرحوم حنبعل .. لم نتواصل منذ فترة طويلة .. ما أخباره ؟

انحسرت دقات قلب أوليفر على الفور بعد هذا الجواب و شعر بالاسترخاء و الحبور ، فهو على الطريق الصحيح مجدداً ..

● أخباره جيدة بالعموم ، لقد تعرفت عليه منذ فترة قصيرة في ميلانو، أخبرته بأنني سأزور تونس للسياحة، فنصحني بزيارتك و التعرّف عليك .. كما يرسل إليكم تحياته القلبية ...

ابتسم السيد حازم عن أسنان ناصعة البياض كطوق من اللؤلؤ كحال غالبية شعوب إفريقيا ..

O إن السيد عزيز رجل رائع، غامض بعض الشيء لكنه محب للحياة و لديه موهبة فطرية في اكتساب الأصدقاء... لقد زار هذه المنطقة منذ عقود و كنت شاباً حينها، فقد كان يعشق أشجار الزيتون و يهوى السير عبر بساتينها و رسم لوحات لها... بهذه الطريقة التقيت به مصادفة في منزل والدي في ضواحي العاصمة حيث نملك بساتين واسعةً من الزيتون.. فقد كان كعادته يتمشى هنالك و دار بيننا حوار طويل أصبحنا في ختامه أصدقاء

كان أوليفر يصغي لرواية السيد حازم وعيناه تجولان الغرفة بحثاً عن لوحة مميزة متيقن بوجودها.. وبالفعل في الجزء الثاني من الغرفة شاهد واحدة كبيرة تمثل كما بدا له **محارة و في داخلها لؤلؤة غريبة سوداء** .. لم يشك لحظةً واحدةً أنها من رسم السيد عزيز ...



● بالفعل السيد عزيز ذو (كاريزما) هائلة، و هل تلك اللوحة من رسمه ؟

أشار بأصبعه إلى اللوحة وسط دهشة السيد حازم ..
○ إنها كذلك بالفعل ! كيف عرفت ؟

● لقد رأيت بعض لوحاته من قبل وهذا أسلوبه في الرسم، بسيط لكن دقيق ومعبر ..

استأذن منه أوليفر أن يلتقط لها صورة عبر هاتفه الخلوي ..
○ تفضل لا مانع طبعاً، إنها تدعى اللؤلؤة و قد رسمها السيد عزيز إشارةً إلى والدتي الراحلة **لؤلؤة كريم** فهو من أشد المعجبين بها وبكفاحها.. و كما تلاحظ فاللؤلؤة فيها سوداء على عكس الطبيعة كحال والدتي بشعرها الأسود الفاحم و عينيها السوداوين بدورهما ..

استنفر أوليفر عقب نلك الجملة ، لقد كان محقاً تماماً في تحليلاته فالأنثى المذكورة في الأحجية تدعى لؤلؤة بالفعل !!..

● كفاحها ؟

○ أجل إن والدتي لؤلؤة من الشخصيات المؤثرة في تاريخ تونس ، فرغم أنها غير مشهورة كثيراً، لكنّ كفاحها يعتبر لبنةً هامة من لبنات صنع قرارات **مجلة الأحوال الشخصية** التي أعادت للمرأة مزيداً من حقوقها المسلوبة ..

● وكيف ذلك؟

ضغط السيد حازم على زر على مكتبه، فسمع أوليفر صوت جرس في غرفة الانتظار، دخلت السكريتيرة بعد ثوانٍ ..

○ آنسة **جورية** أحضري للسيد أوليفر فنجان قهوة من فضلك ..

ثم تابع رواية قصة والدته الراحلة ..

○ أين كنا؟ نعم والدتي لؤلؤة، كانت عميقة التفكير، فقد قام والداها بتربيتها

على التمرد ضد الظلم و المطالبة بالحقوق... و بسبب ذلك دخلت السجن في شبابها **بتهمة الإساءة إلى الدين و السلطة** علماً أنها لم تفعل ذلك أبداً **!** عندها تولى قضيتها والدي حنبعل عبد النور و كان لا يزال محامياً ناشئاً فدافع عنها بشراسة حتى حصل لها على البراءة في النهاية ، ثم تعرف عليها أكثر، فأحب شخصيتها القوية ، إصرارها و قلبها الكبير المتفاني في خدمة إناث المجتمع و الدفاع عنهنّ .. تقدم للزواج منها لاحقاً و وافقت إذ كانت تبادله الحب و الإعجاب ، لتستمر بعدها بالكفاح من أجل المرأة ..

● قصة غريبة مفعمة بالنضال و العبر **!**

○ بلى هي كذلك .. لم يوفر والدي جهداً بدعمها الحقوقي والقانوني طوال سنوات كفاحها، لتجرؤ على رفع صوتها بثقة أكبر ضد القمع والاستعباد تجاه الأنثى .. وكما قال السيد عزيز بعد سماعه قصتها، والدتي اسم على مسمى، فهي كلؤلؤة محبوسة في محارة ، جاهدت بإصرار لتخرج منها و تتنفس الحرية كي يرى العالم إمكانياتها، و ذلك كله بدعم من والديها أولاً ومن والدي لاحقاً ...

مع فنجان قهوة عربية بعبق الذكريات و التاريخ استمع أوليفر لقصص شيقة ومعبرة عن السيد حنبعل و زوجته السيدة لؤلؤة ، إضافةً إلى ذكريات السيد عزيز مع السيد حازم ابنهما... و بعد ساعة من الحديث، اعتذر لاضطراره المغادرة بسبب ارتباطه بعمل هام ، فشكر المحامي حازم جزيل الشكر على لطافته، و وقته...

○ لقد شرفتني بزيارتك سيد أوليفر، أبلغ السيد عزيز تحياتي الحارة ...

● الشرف لي سيد حازم، لقد كان السيد عزيز محقاً في نصيحته لي بزيارتك فأنتم عائلة مدعاة للفخر و الاعتزاز .. أراك بخير ...

*****

خرج أوليفر من المبنى إلى طرقات المدينة التي كانت لا تزال تنبض بالحياة، حيث تعانقت الأصوات والوجوه والظلال في سيمفونية يومية لا تهدأ. كان وجهه يعلوه بريق خافت من السعادة؛ تلك السعادة التي لا تأتي من متعة عابرة، بل من انتصار صغير في سباق طويل نحو المعنى. لقد نجح في فكّ

شفرة جديدة من شفرات السيّد عزيز، وهذه المرّة، مسرحها كان تونس، وخلاصتها لوحة رمزية جديدة : المحارة و الدرة، تحمل في طياتها حكاية عن نضال امرأة لامعة كحبة لؤلؤ، امرأة قاتلت من أجل كرامة المرأة و حقوقها، فصارت رمزًا آخر يُضاف إلى سجل الزيتونة المرمّز بالأسرار.

هو لا يدري لمَ، لكن شيئًا ما في قلبه كان يخبره أن الرحلة تزداد وضوحًا، أن اللوحة الكبرى تقترب من الاكتمال. **شمس و قمر ، ملكة نحل، بويضة، لؤلؤة...** كلها رموز تحمل بصمات أنثوية طاغية، كما لو أن الحقيقة التي يبحث عنها كانت أنثى تتخفى في أقنعة الطبيعة والرمز.

توقف أمام بوابة جامع الزيتونة، وكأن نداءً خفياً يشده للدخول. كان الباب مفتوحًا كما لو أنه ينتظره، فخطا إلى الداخل، عابرًا العتبة التي فصلت الصخب الخارجي عن صمت الهيبة الداخلي.

دخل إلى الساحة الداخلية، ورفع بصره نحو السماء التي بدت له وكأنها

مقبّبة بعين إلهية ترمقه. في تلك اللحظة، أحسّ برعشة تسري في جسده، ليست رعشة برد، بل رجفة يقين. لقد عبرت رحلته الطويلة - من ميلانو إلى برلين، ومن لاباز إلى فرانكفورت، وها هو الآن في قرطاج - حدود الجغرافيا لتضرب جذورها في عمق الزمان والمكان.

وقف في قلب الساحة، كأنّه نقطة الالتقاء بين الماضي والحاضر، بين السؤال والجواب. لبرهةٍ شعر أنّ العالم كله يتوقف ليراقبه، كأنّه في المكان الصحيح، في اللحظة المصيرية التي لا تعوّض.

(هل كانت هذه هي الزيتونة التي تحدث عنها عزيز ؟ أم أن الزيتونة كانت رمزًا أعمق بكثير، متغلغلاً في جوهر الكون برمته ؟)

تساءل في سره، وهو يتأمل تفاصيل المكان : أقواس حجرية كأنها تعاريج ذاكرة، أعمدة تهمس له بحكايات من زمن الأندلس، وسكون عميق يهمس في قلبه أكثر مما يسمعه بأذنه.

ولأول مرة منذ بدأ رحلته، لم يكن في عجلة من أمره. وقف هناك صامتًا، تاركًا للزيتونة أن تنقش أثرها في روحه كما تشاء.

*****

شرنقة الحياة

ألمانيا / ميونخ ...

وصل أوليفر مجدداً إلى منزله في غارميش بارتن كيرشن مع ختام رحلته المشوقة إلى تونس المتوجة كسابقاتها بلوحة فريدة مع حكاية معبرة مرتبطة بها ، كانت نسائم المغيب الباردة قد أجهزت على الأنفاس الأخيرة من شمس الظهيرة .. فاستحم ثم أعد وجبةً خفيفةً للغداء، إذ لم يكن ماتيوس موجوداً كالعادة ...

بعد الغداء تسلّح بكأس المتة المعتاد مع العسل لمعركته القادمة بالتفكير العميق خلف مكتبه الأبنوسي في غرفة المطالعة و استرسل بأفكاره ..

لقد مضى حوالي شهر و نيف من الأحاجي ، الرحلات و الحكايات منذ لقائه بالسيد عزيز في ميلانو ، و بدأ يشعر بالفعل بأنه على أعتاب الحقيقة بوجهها الأنثوي الجميل الذي توحي به جميع اللوحات التي صادفها حتى الآن (**الشمس و القمر** ، **ملكة النحل** ، **البويضة** ، **اللؤلؤة**) و المعلقة ضمن إطارات عتيقة على الجدار أمامه كقطع زجاجية ملونة بجوار بعضها أوشكت أن تشكل لوحة فسيفسائية مذهلة .. كذلك الأمر فإنّ إحساساً غريباً مبهماً بات يخيم على مقاربته للحياة .. فقد بدأت نظرته للأمور تتغير جذرياً ، من حياة مادية بحتة رسخ لها عمله في دنيا المال و التجارة لأعوام يقيّم فيها إنجازاته بمقدار الصفقات الألماسية التي يعقدها وضخامتها .. إلى رؤية الحياة من زوايا مختلفة تشرح له معاناة الآخرين على دروبها ، بأن لكل إنسان في هذا العالم قصته الخاصة المميزة المعجونة بالألم الشخصي مع ما انبثق عنه من وعي.. كحال السيد **إيليا** و زوجته **أوليفيا** اللذين عانيا من التفرقة لعقود بسبب جدار برلين الذي مزق وحدة بلدهما فحرمهما من رؤية بعضهما لكنه عجز عن تفريق قلبيهما أبداً.. إلى السيد **خوسيه** الذي عانى الفقر و الحاجة في بدايات حياته مع زوجته **ماريا** التي انتصر الحب في قلبها على المال فاختارت العيش مع من تحب تحت أي ظرف كان .. ثم الطبيبة **باناسيا** و ابنتها **كاسيا** اللتان قاسيتا الغربة و سخرتا حياتيهما للعلم و مساعدة من عانى مرارة العقم على الإنجاب مجدداً ، إضافةً إلى زواج كاسيا من شاب إفريقي مختلف بلونه عنها ضاربةً بالعنصرية عرض الحائط في بلد قاده هتلر ذات يوم لاحتقار الأفارقة و معاملتهم بدونية .. و أخيراً السيدة

لؤلؤة كريم التي أفنت سنين حياتها تكافح من أجل حقوق المرأة في كل مكان بدعم من زوجها الحكيم و السند **حنبعل** .. و الخلاصة التي توصل إليها من كل ذلك **أن حياتك لا تقيم بتاتاً بالثروة التي جمعتها خلالها بل بمعاناتك على دروبها و ما نتج عن هذه المعاناة من حكمة و وعي** .. في الواقع أمست لديه قناعة تامة بأنه لو لم يتوصل من رحلاته هذه سوى لهذه الحقيقة الألماسية لكان ذلك كفاية بالنسبة له و أثمن من كل الألماس الذي تعامل معه في مهنته لسنوات طوال .. لقد تغير كل شيء فيه الآن و لن يعود إلى الشخص الذي كان عليه منذ شهر على الإطلاق .. إذ أنّه أبصر النور بعد عقودٍ عاشها كفيفاً دون أن يدري ..

اجتاحه على حين غرّة حنين جارف لكمانه، فذهب إلى غرفة الموسيقى، أمسك كمانه الحزين كعينيه ، و شرع يعزف عليه مقطوعة حزينة يحبها، و هي السمفونية السادسة الشهيرة **لتشايكوفيسكي** المعروفة باسم (**الحزينة**) كحال لحنها بالضبط، و من دون أن يشعر غصّت عيناه بالدموع ... إنه عندما يعزف على الكمان، بالتحديد و بالأخص هذه المقطوعة يشعر بنفسه يصلي فعلياً، يجول الكون وأجرامه، و يلف أقطاب كوكب الأرض من مكانه مستشعراً إبداع الخالق وعظمة الكون.. كما ذكرته تلك المقطوعة الحزينة بجامع الزيتونة و أعادته للحظات إلى ساحته الهادئة المفعمة بالخشوع و الرهبة ..

إن الموسيقى صلاة بحدّ ذاتها ، فهي تنقي القلب والروح في آنٍ معاً، كما أنها علاج نفسي بنفس الوقت، إذ تفضفض ما في النفس من ضغوط و تنقي ما فيها من رواسب...

*****

في صباح اليوم الثالث بعد عودته من تونس، و فيما كان أوليفر لا يزال غارقًا في هدوء غرفته يتملكه ذلك الإحساس الغريب بين الراحة والحنين إلى الرحلات التي مضت. فجأة، اهتزت شاشة هاتفه برقة، معلنة وصول رسالة جديدة من السيد عزيز، ذلك الرجل الغامض الذي بات بالنسبة له مرشداً لا ينفكّ يربط بين خيوط الأحاجي المتشابكة.

فتح الرسالة بيدين ترتجفان قليلاً من مزيج الترقب والفضول، فإذا بها تسقط بين يديه مثل قصيدة تخرج من عمق الزمن، أحجية شعرية تشبه أخواتها السابقات، لكنها هذه المرة تحمل عبقًا مختلفًا، كأنها نسمة رقيقة تمر من نافذة روحه، تحمل في طياتها أسرارًا دفينة تهمس له بلغة لا يفهمها سوى القلب والعقل معًا.

في أرض الأحرار والحرية تربعت بحكمة تصلّي.

. من شرنقة كونية.. كان في البدء أصلي..

و في قلب البلاد كان الميعاد

بين إنسان و ملاك

أشارت بإصبعها إلى مصنعها

ما كنت لأوجد لولاك

عزيز اليقين

لم يضع أوليفر هذه المرة أي وقت في التكهنات العشوائية واستفاد من تجاربه السابقة في حل أحاجي السيد عزيز التي بات متمرساً بها .. فتح حاسوبه وبحث أولاً عن أرض الأحرار والحرية فظهرت له نتائج كثيرة لم يتوجه منها لشيء هام...

لم يتذمر و انتقل على الفور إلى الجزء الثاني (تربعت بحكمة تصلي)، ذكره هذا الجزء ببوذا الحكيم الشهير بصلاته متربعاً، فبحث عن ثنائية بوذا وأرض الحرية، و سرعان ما حصل على نتيجة منطقية على نحوٍ مثالي ..

إنها **تايلند** التي تدعى **بلد الأحرار** كونها البلاد الوحيدة في جنوب آسيا التي لم تتعرض للاحتلال .. و الشهيرة بتماثيل بوذا الحكيم الكثيرة المنتشرة فيها ... هذا مناسب بالمقاس على الأحجية ..

تابع إلى الشق التالي و كان واضحاً في ظاهره فهو يتكلم عن الفراشة، وإن كان لها بالتأكيد معنى خفياً بالنسبة للسيد عزيز خاصة من التعبير المصاحب

لها (شرنقة كونية) !

لم يفكر أكثر في هذا المصطلح إذ أدرك على الفور أنه لن يصل إلى نتيجة حالياً .. فلجأ إلى حل الشق الثاني مع مصطلح (قلب البلاد)، على الأرجح السيد عزيز يقصد به عاصمة البلد أي **بانكوك**، بحث عن معلومات أكثر بخصوصها ، ليفاجأ بأن اسمها باللغة المحلية يعني **مدينة الملائكة**، إذا فهو على الطريق الصحيح بحسب الأحجية التي تشير إلى الملاك في قلب البلاد

بقي الشق الأخير الذي ذكره على الفور بأحجية برلين وتونس فالسيد عزيز يقصد على الأغلب أن من جلس يصلي متربعاً يشير بإصبعه إلى شيءٍ آخر كمكان مثلاً ، فهل هو تمثال لبوذا يحدد وجهته التالية ؟ ربما..!! بحث في حاسوبه مجدداً عن أشهر تماثيل بوذا في تايلاند و خاصة في العاصمة بانكوك، فعثر على ضالته مباشرةً، إذ كان هناك ثمة **تمثال ذهبي جديد ضخم للغاية لبوذا** شيّد حديثاً منذ سنوات قليلة في قلب العاصمة بانكوك، فهل هو المقصود ؟ إحساسه الذي لا يخذله عادةً يخبره أنه كذلك..

انتهى بذلك من تشريح جسد الأحجية الجديدة كجراح مخضرم و كانت النتائج مرضية إلى حد بعيد .. فقد حدد المكان و هو بانكوك عاصمة تايلند ، كما حدد الوجهة الأخيرة التي يشير إليها إصبع تمثال بوذا الأشهر في البلاد إن لم يخنه التحليل .. بقي فقط الشخص الذي سيلقاه هناك .. لم يكن في الأحجية إشارة إلى اسم محدد ، لكن لا باس من ذلك فهو على الأرجح سيعثر عليه في وجهته الأخيرة ..

شعر بفيضان من الحماس و العزيمة يجتاح جسده و يكاد يخرج من مسامات جلده ، و رغم أسفاره المنهكة المتتالية مؤخراً التي حولته إلى رحالة بدوي يسعى خلف ينابيع الحقيقة .. فقد قرر السفر في صباح اليوم التالي دون مماطلة أو تأجيل ، لذا قام بالحجوزات الضرورية مباشرةً

بقيت الخطوة الأخيرة كالعادة و هي جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن وجهته القادمة كي يكون على دراية تامة بما يجري من حوله هناك ناهيك عن كون أي معلومة جديدة قد تمكنه من تفسير الأحجية بشكل أكثر دقة ..

لذا فتح حاسوبه و شرع يطالع بمنتهى الشغف عن حقائق و أسرار تايلند ذلك البلد الآسيوي الساحر ..

أول معلومة فاجأته هي أن اسم البلاد الرسمي التاريخي هو **سيام**، و لم يتحول إلى تايلاند حتى تاريخ حديث نسبياً .. و أن اسم تايلاند باللغة المحلية مركب من كلمتين تعنيان **أرض الأحرار** لأن تايلاند هيَ الدولة الوحيدة التي لم تتعرض للاستعمار في منطقة جنوب آسيا كما قرأ منذ قليل

تذكر على الفور مصطلح **التوأم السيامي** الشهير فهل له ارتباط بهذه البلاد ؟ بحث أكثر عن هذه الفكرة ، و بالفعل تبين أن هذ المصطلح مشتق من اسم مملكة سيام و أصل المصطلح يعود إلى الزوج الأكثر شهرة من التوائم الملتصقة و هما **تاشنغ و بنكر** في تايلند ، لذا وُضع مصطلح التوأم السيامي نسبةً إليهما و بقي منذ ذاك الحين مرادفاً للتوأم الملتصقين.

قرأ أيضاً أنّ **90** % من سكان تايلند بوذيون مما يفسر الانتشار المهول لتماثيل بوذا في البلاد ..

قضى أوليفر بقية اليوم يطالع في صفحات الشبكة العنكبوتية عن هذه البلاد الغريبة و الفريدة و تاريخها الساحر الغني حتى بلغ مستوى كافٍ أشبع فضوله و هدفه ... ثم سهر لاحقاً مع ماتيوس حتى ساعة متأخرة من الليل ، فالرحلة إلى بانكوك تستغرق حوالي **13** ساعة، و يفضل أن يقضيها نائماً في الطائرة تجنباً للملل .. و في السهرة قصّ على ماتيوس ما توصل إليه من معلومات عن تايلند ذلك البلد الذي لم يزره من قبل .. ممهداً الطريق لنفسه كي يخبره بسفره غداً ممتصاً امتعاضه و قلقه من ترحاله الدائم قدر الإمكان ، و متذرّعاً بأن صفقة شراء ألماس ضخمة للغاية تستدعي ذلك لإتمامها مع عدة عملاء حول العالم .. و في الحقيقة لم يكن يكذب ابداً .. فرحلاته هذه ستوصله لكنز معرفي ضخم يبدو ألماس الأرض بمجموعه أمامه مجرد حصى صغيرة ..

*****

تايلاند / بانكوك ...

في ربوع بانكوك الساحرة و مع أولى أنفاس النهار ، استيقظ أوليفر متجدّدًا من نومه العميق الذي طال حوالي **13** ساعة في الطائرة ، كما خطط مسبقا بالضبط ، ليصل إلى المدينة في أوج نشاطه و نشاطها. خرج من فندقِه الهادئ الذي يحتضن روح الشرق وغموضه، تنفس عبق المدينة التي تلاحقها أسرار الزمن، وتخطو بأقدام لا تعرف الكلل في شوارعها الحافلة بالحياة والصخب.

توجه بخطى واثقة نحو قلب المدينة، حيث قاده فضوله إلى **حديقة لومبيني**، تلك الجوهرة الخضراء التي تلوح كواحة غناء في صحراء من الإسمنت والخرسانة. هناك، احتضنته الطبيعة بنفحاتها الاستوائية، وأشجارها الكثيفة التي تتلوى كأغصان الزمن العتيق، تحرس بحيرة صافية تشبه مرآة السماء، تتراقص على سطحها طيور البط بلحن سلامٍ هادئ، وكأنها تهمس للحياة أن تستمر رغم كل ما يعتريها من ضجيج وعناء.

جلس على مقعد خشبي عتيق، وغاص في تأمل هذه اللوحة الحية التي تلملم بين ألوانها بهجة الطبيعة وهدوء الأرواح. تذكر بحيرة إبسي في غارميش بارتن كيرشن، مسقط رأسه، وكيف كانت ملاذه في أيام الشتاء القارس و الصيف الملتهب و ما بينهما . شعوره هناك كان وكأنه يحمل بين يديه قصص آلاف القلوب التي تنبض بصمت بعيدًا عن صخب المدن الكبرى.

نهض، وألقى نظرة على ساعته، شعر بشغف متجدد يحثه على الاستمرار رغم رهبة ما ينتظره. توجه بخطى متسارعة إلى ميدان المدينة الواسع حيث يقف **تمثال بوذا الكبير**، ذلك العملاق الرزين الذي بدت هيبته تُغيّر مقاييس الزمان والمكان. وقف و عيناه مشدوهة أمام جلال التمثال الذي يعلو فوق الميدان بوقار يفوق الوصف حتى بدا أوليفر أمامه ككوكب صغير في فضاء الكون الشاسع، و شعر بأن صمود التمثال هو رسالة سلام للعالم كله.

يد التمثال الضخمة، كانت ممدودة بإصبع السبابة، و تشير بهدوء نحو مبنى

بعيد، كأنها تهمس لأوليفر بسر مدفون في عمق ذلك الأفق. ضربات قلبه تزايدت، وأحسّ بنبض المغامرة يدعوه للمضي قدمًا في ذلك الاتجاه.

عندما وصل إلى المبنى، اكتشف أن الطابق الأرضي منه عبارة عن مركز فني، كما كان مكتوبًا على واجهته. يحتضن في رحابه أعمالاً فنية متنوعة من هواة وشباب صاعدين، إلى محترفين على حد سواء، خاصة اللوحات. تذكر فورًا السيد عزيز وعشقه الشديد للرسم، وشعر بأنه على الطريق الصحيح، وأن أحاجيه لا زالت تقوده نحو هدفه بدقة متناهية كالعادة ..

لم يتردد لحظة، ودخل إلى المركز، ليجد نفسه في قاعة واسعة، منظمة بشكل مثير للإعجاب، ومكتظة بالزوار المنتشرين في زواياها المختلفة، حيث يقفون أمام اللوحات والمنحوتات، يحاولون تفسير معانيها، يقيمون جودتها، أو يمرون عليها بسرعة دون تعليق إن لم تشبع ميولهم الفنية أو تصبغ سقف توقعاتهم.

تجوّل أوليفر بين اللوحات واحدة تلو الأخرى، باحثًا عن أي علامة أو دليل مرتبط بالأحجية التي أرسلها له السيد عزيز، دون أن يلفت انتباهه شيء مميز حتى وصل إلى زاوية هادئة في المركز.

هناك، وقفت أمامه لوحة استحوذت على اهتمامه بشدة، لم يشك للحظة أنها المقصودة، وأنها من رسم السيد عزيز. كانت تمثل خروج الفراشة من شرنقتها، كما ورد في الأحجية تمامًا. نظر فورًا إلى التوقيع في أسفل اللوحة، ووجد اسم عزيز مكتوبًا بخط واضح وأنيق.

كانت اللوحة نموذجية لأسلوب السيد عزيز : بسيطة، دقيقة، معبرة، متناظرة في نصفين، أحدهما يمثل أزهارًا هي معشوقة الفراشات، والآخر أحد جناحي الفراشة. أما في المنتصف، فتم تصوير الشرنقة نفسها، التي تخرج منها الفراشة رويدًا رويدًا، في حركة دلالية تعبّر عن التحول والولادة.

أخرج هاتفه الذكي وقام بتصوير اللوحة بدقة، متأكدًا أنه أمام مفتاح جديد لفهم أحاجي السيد عزيز.



تلفت من حوله، متفحّصًا وجوه الحاضرين في الصالة، بحثًا عن الشخص الذي يفترض أن السيد عزيز يريده أن يلتقي به، كما حدث في رحلاته السابقة.

لاحظ رجلاً بين الخمسين والستين من العمر، من السكان المحليين بملامحه المتجعدة و عينيه الضيقتين ، كان يتحدث مع الزوار بنبرة ودودة و يشرح

لهم ماهية الأعمال الفنية المعروضة، فبدا كأنه مالك المركز أو مديره. اقترب منه أوليفر مباشرة وألقى عليه التحية :

● مرحباً سيدي.. أنا أوليفر، هل حضرتك مسؤول عن المركز؟

○ أهلاً سيد أوليفر، أجل أنا المسؤول وأدعى **سوم ساك**..

● أهنئك على التنظيم الفريد والانتقاء المميز للوحات ...

○ شكراً، أصبح لدي بعض الخبرة في هذا المجال فأنا أقيم المعرض سنوياً، و أصبح ذي شهرة واسعة في البلاد ، يشارك فيه العديد من الفنانين الهواة والمحترفين.. أختار له عنواناً كل عام بحسب اللوحة الأجمل و هو هذا العام بعنوان (**الشرنقة**) نسبة إلى لوحة الشرنقة و الفراشة...

● لوحة السيد عزيز اليقين ؟

○ بالفعل !! .. هل تعرفه ؟

● أجل، إنه صديق لي، وهو من اقترح عليّ زيارة المعرض والتعرف عليك فقد أشاد بك بشدّة .. لكن كيف تعرفت أنت على السيد عزيز؟

○ إنها حكاية طويلة لا مجال لأن أقصها الآن، إذ يتوجب عليّ كما ترى أن أناقش الزوار و أشرح لهم عن اللوحات، لكن إذا أحببت يمكننا أن نلتقي مساءً لمتابعة الحديث .. فالسيد عزيز.. عزيز عليّ للغاية ..و هذا يشمل أصدقاءه بالطبع .. و أود التعرف على آخر مستجدات حياته ..

● يبدو ذلك مناسباً، هل يناسبك اللقاء على الساعة السابعة عند القصر الكبير؟

○ مناسب تماماً ، ألقاك هناك إذاً ...

ودعه أوليفر و قفل عائداً إلى الفندق مع ابتسامة انتصار و رضا منقوشة على وجهه تنافس ابتسامة **وينستون تشرشل** عقب انتصاره بالحرب العالمية الثانية ، فقد كانت تحليلاته كلها بخصوص الأحجية صائبة و قادته بنجاح إلى لوحة جديدة و شخص آخر يحمل لديه في المساء حكاية شيقة بدورها كعادة السيد عزيز...

*****

موعد عند القصر الكبير ..

على تمام الساعة السادسة و النصف وصل أوليفر إلى بوابة القصر الكبير، وقد بدا في عينيه مزيج غريب من النشوة والتوق، كمن يقترب شيئًا فشيئًا من لبّ نبوءة لم يفهمها بعد، لكنه يشعر بقوتها تتسلل إليه من تحت جلده. كانت الشمس تتهيأ للغياب، ترشُّ على القباب المزينة بورق الذهب وأطراف الأسطح المزخرفة نورًا أخيرًا بلون العنبر، فيخلق الظلالَ طويلةً هادئة، كما لو أن الزمن نفسه يهمس له بالتريّث... القصر الكبير بناءً على المعلومات التي جمعها من الشبكة العنكبوتية يتألف من مجموعة مباني متلاصقة ، و يعتبر **قصر ملوك تايلاند التاريخي** من القرن **17** .. لقد تعمد المجيء مبكراً كي يتسنى له بعض الوقت لزيارة معالم هذا القصر المذهل كحال معبده الشهير و تمثال بوذا المقدس ذي اللون الزمرّدي فيه و الذي يعود إلى القرن **14** ..

على تمام السابعة تماماً وصل السيد سوم ساك إلى القصر و كان أوليفر بانتظاره عند بوابته فألقى عليه التحية مبتسماً ..

● ما رأيك سيد أوليفر أن نتمشى و نتكلم .. ؟

○ هذا يبدو جيداً، تفضل...

مع السير بين مباني القصر مختلفة الاشكال و الأحجام و الألوان كجواهر نفيسة متلألئة في طوق، أخذ السيد سوم ساك يقص على أوليفر حكايته الغريبة و المفعمة بالإنسانية و العبر ..

● تعرفت على السيد عزيز وللمصادفة في هذا القصر بالضبط منذ **7** سنوات، كنت بصحبة زوجتي **أرانيا** التي كانت حزينةً ويائسةً في تلك الآونة لدرجة فطرت قلبي ، فقد تعافت للتو من **مرض نفسي مزمن** عانت منه لسنوات.. أدخلت بسببه إلى مصحة للأمراض النفسية، و عندما خرجت منها لم تكن سعيدةً على الإطلاق، فهي لا تعرف ماذا تفعل في حياتها التي عطلها المرض لسنوات ثمينة من شبابها .. لذا كانت تشعر **بفراغ نفسي هائل**...

رآها السيد عزيز وهي تصلي عند تمثال بوذا الزمردي و ترجو السماء باكيةً أن تنتشلها من حياتها العبثية الراهنة .. فدخل في حديث معنا لمعرفة سبب بكائها بمنتهى النبل و الإنسانية ، فهم قصتها و تعاطف معها للغاية ، ثم نصحها **بممارسة الفن و الرسم خصوصاً فهو يعدل نفسية الإنسان، يرممها ويجعل للحياة معنى و غاية ...**

فحسب فلسفة السيد عزيز **الرسم شكل من أشكال الخلق، كالإنجاب تماماً حيث أنك تصنع من العدم شيئاً مع كل لوحة جديدة، وذلك يمنح الإنسان شعوراً بالوجود و التأثير و الفاعلية..**

و بالفعل أصغت أرانيا لنصيحته كأمل أخير ينقذها من واقعها المؤلم و فراغ وقتها القاتل .. فبدأت بالرسم، و خلال أشهر قليلة أصبحت متقنةً له ، إذا تبين أنها تملك موهبة دفينة منقطعة النظير أحياها السيد عزيز فيها.. فتغيرت نفسيتها **180** درجة بعدها ! و عادت من جديد تشعر بالسعادة و الرضا و الإنجاز بعد سنوات من العيش كئيبة في المصح فعوضها الله عن حرماننا من الأطفال بعشرات الأبناء من لوحاتها المتقنة و المذهلة ..

و إيماناً منها بأهمية الفن و تأثيره الهائل على نفسية الإنسان ونظرته لنفسه وللحياة إضافةً إلى انتشاله لها من قاع ذلك المستنقع الذي غرقت فيه لسنوات ، فقد قررت مشاركة تجربتها مع الآخرين وإفساح المجال للمواهب الجديدة في الفن أن تعرض أعمالها أمام الآخرين لتحظى بفرصة تبني موهبتهم و الشهرة ، فأنشأت هذا المركز ليقام سنوياً ، و لا تصدق سيد أوليفر عدد الفانين الموهوبين الذين خرجوا من باب هذا المركز إلى عالم الشهرة فتغيرت حياتهم جذرياً ..

○ قصة مذهلة مفعمة بالمشاعر الإنسانية و العبر .. لكن لماذا لم تتواجد زوجتك في المركز رغم كونها صاحبة الفكرة بتأسيسه ؟

● لأنها حالياً في جولة بين **سنغافورة، روسيا و الهند،** تشارك في معارض دوليةً للرسم ...

○ رائع .. ما هذه النقلة النوعية في حياتها .. من التقوقع على ذاتها دون تأثير فيمن حولها إلى زيارة أشهر بلدان العالم و عرض موهبتها الجديدة الفذة على الجميع !!

● بالفعل .. و الفضل في ذلك بعد الله هو للسيد عزيز بالطبع .. لقد تواصل معنا هذا العام و سرً أيما سرور بتجاورها محنتها، فأطلق عليها اسم الفراشة، لكونها **خرجت من أيام المصح الكئيبة و المظلمة كالشرنقة إلى الحياة الواسعة ونشرت البهجة كالفراشة بين الناس من حولها**، ثم شارك بلوحته (**الشرنقة**) في هذه السنة كما رأيتها بنفسك في المعرض ..

واصل أوليفر وسوم ساك نزهتهما الليلية بين جدران القصر، يتجاذبان أطراف الحديث كما يتبادل البحّارة خرائط النجوم. كان الوقت يمرّ بخفة النسيم فوق النهر، لكن محتوى الحوار يثقل الروح برصانة التجارب، بعمق الحكمة، وبلمحات من الإنسانية المتعبة. وحين اقتربت عقارب الساعة من نهايتها الخفية، صافحه أوليفر بحرارة، وابتسم قائلاً بلغة الامتنان :

O لقد كنتَ مرآة صادقة في ممرات هذا القصر سيد سوم ساك... أرسل تحياتي لأرانيا و تهاني بخروجها من شرنقتها و وقوفها مجددا على قدميها ، وأخبرها أن زوجها رجل عظيم يعرف كيف يُنصت و كيف يكون السند عندما تنهار جدران الحياة .

ثم انفصلا كما تنفصل أوراق الشجر في نهاية الصيف، بهدوء، دون ضجيج.

عاد أوليفر إلى الفندق وفي داخله طمأنينة تشبه ما بعد العاصفة... شعورٌ بالنضج، بالتقدّم نحو شيء لا يرى بعد، لكنه يشعر به يقترب. تناول عشاءه بشهية الطفل، وأعدّ كأسًا من المتّة كما يفعل كلّما أراد أن يستدعي أطياف التأمل. ثم خرج إلى شرفة غرفته العليا، حيث بانكوك لا تنام، بل تبرق وتنبض كأنها قلبُ العالم نفسه.

بدت له الأضواء تحت قدميه كأنها نجوم سقطت من المجرة، فراحت تتلألأ بين الشوارع والمعابد والناس، تشبه صندوق كنزٍ تكسّر فوق المدينة، فتناثرت جواهره بلا ترتيب.

جلس وأخرج هاتفه ببطء، كأنما يفتح ممرًا سريًا بين الحاضر والماضي، وفتح ملف الزيتونة بإجلال. أضاف إليه العنصر الجديد :

الشرنقة والفراشة

إنها الأنثى مجددًا، تفرض وجودها في كل رمز : **الشمس و القمر ، الملكة، البويضة، اللؤلؤة**... والآن جناحٌ ملوّن يخرج من شرنقته ليعيد تعريف معنى الحياة.

رفع نظره إلى السماء وتساءل :

يا تُرى... أي صورة ستكتمل على هذه اللوحة حين أضع آخر قطعة من هذا الفسيفساء ؟ هل سأفهم ؟ أم سيعاد تشكيلُ فهمي ؟

لكن قبل أن تنطفئ تلك الأسئلة في ذهنه، وقبل أن يتسلل إليه النعاس، رنّ هاتفه فجأة... كانت الساعة الثالثة فجرًا.

رسالة جديدة... من السيد عزيز **!!!**

جمُد أوليفر في مكانه، كأن العالم كله توقف ليستمع لصدى تلك اللحظة.

الثالثة فجرًا ؟

لماذا الآن ؟

كيف عرف السيد عزيز أنه أنهى مهمته ؟

بل... كيف عرف أنه مستيقظ الآن تحديدًا ؟

أيُّ رجلٍ هذا الذي لا يُخطئ التوقيت ولا الوجهة ولا الكلمات **؟!**

كان السيد عزيز في تلك اللحظة يبدو له أشبه بمخرجٍ من وراء الستار، لا يراه أحد لكنه يضبط كل شيء: توقيت الدخول، زاوية الإضاءة، الموسيقى المرافقة، وحتى التعبيرات على وجوه الممثلين.

إنه ليس مجرد مرسل ألغاز... إنه صانع مصائر.

فتح الرسالة، وكانت كعادتها... أحجية شعرية مقتضبة.

في أرض بعيدة ولد توأمان..

هي قصة جديدة من عمر الزمان..

الفارس الوسيم باسمه

ذو سر عظيم برسمه ..

و مفتاح الحلول

تطور العقول

عزيز اليقين

هذه المرة، أحسّ أنها لا تشير فقط إلى وجهته القادمة، بل...
ربما تشير إلى جوهر الرحلة برمتها .. الزيتونة ..

*****

و استدار الكون كخاتم

في إصبعها

شرع أوليفر بمحاولة فك رموز الأحجية الجديدة مباشرةً ، فلا شك أن السيد عزيز أرسلها له الآن لغاية في نفسه ..

بدأ من المقطع الأول الذي يتحدث عن أرض بعيدة في المكان وجديدة في الزمان .. أغلب الظن أنه يشير إلى بلاد مكتشفة مؤخراً فالعالم الجديد موجود بالفعل في أقاصي الأرض و حديث الاكتشاف نسبياً ، هذا يعني أنه يتحدث عن **القارتين الأمريكيتين أو أستراليا** ؟ و باعتباره سبق و أن سافر إلى بوليفيا في أمريكا الجنوبية وراء أحجية ملكة النحل و احتك بالولايات المتحدة الأمريكية في أحجية البويضة ، فعلى الأرجح استراليا هي المقصودة بهذه الأحجية أو ربما الجزر المحيطة بها ؟

هنالك قصة التوأمين أيضاً ما الذي يقصده بهما ؟ ، فتح حاسوبه و بحث عن خريطة القارة الأوقيانوسية ، فسقط بصره مباشرة على **جزيرة نيوزيلاندا** المكونة من قسمين منفصلين شمالي وجنوبي كتوأمين بالفعل و صاح إحساسه الداخلي من أعماقه : إنها المقصودة بالأحجية .. و عزّز إحساسه عدم وجود أي بقع جغرافية أخرى على خارطة العالم الجديد قاطبة توحي بمصطلح التوأمين الذين تم ذكرهما باستثنائها ..

انتقل إلى الشق الثاني (الفارس الوسيم باسمه) ، هنالك اسم إذاً، أغلب الظن أنه وسيم، قد يكون الاسم وسيم فارس أو فارس وسيم ، منطقي !

تحرّى عن الاسم في محرك البحث و علاقته بنيوزيلندا أو أي بلاد أخرى من العالم الجديد لكنه لم يعثر على نتيجة مطابقة أو هامة.. لم يتذمر أو يساوره الشك و قرر البحث مجدداً لكن باللغة الإنجليزية باعتبارها اللغة الرسمية في نيوزيلاندا ، فقد يكون الاسم بالإنكليزية و ليس بالعربية، ربما كان مثلاً (كيفن) التي تعني الوسيم و الكنية (نايت) بمعنى فارس .. ربما ! فليحاول ..

بحث مجدداً في الشبكة العنكبوتية عن ثنائية نيوزيلاندا وكيفن نايت ، و هنا ظهرت له نتيجة مطابقة على الفور، كان ثمة موقع يتحدث عن جامعة ويلينغتون وإسهام **البروفيسور كيفين نايت** الكبير في مجال دراسة التطور و الانتخاب الطبيعي .. تسارعت أنفاسه و خفق قلبه بشدة ، إذ اقترب من الحل ، فهذا يفسر الشق الأخير من الرسالة على نحوٍ مثالي (مفتاح الحلول

.. تطور العقول) .. تذكر العالم **تشارلز داروين** و دراساته العميقة عن **نظرية التطور** و التي شكل العالم الجديد كنيوزيلاندا مسرح أحداثها و براهينها .. يا لعبقريتك سيد عزيز !

بقي إذاً جزء و حيد من الأحجية القائل (ذو سرعظيمٍ برسمه)، إن ذلك يشير بوضوح إلى وجود لوحة أخرى للسيد عزيز مرتبطة بالبروفيسور كيفن نايت..

ابتسم بانتصار ، لقد فك شفرة الأحجية بالكامل و هو على الطريق الصحيح مجدداً ..

بات يعلم الآن لماذا أرسل له السيد عزيز الرسالة هنا في تايلاند و لم ينتظر عودته إلى ميونخ، لأنها أقرب إلى نيوزيلاندا، فهو لا يريد إرهاقه بأسفار عبثية لا ضرورة لها ، و هذا تصرف نبيل منه يكشف جانباً آخر من شخصيته .. كما يطرح كثيراً من التساؤلات عن نفوذه .. و عن الآلية التي يراقب تحركاته بها .. ليعرف توقيت انتهائه من المهمة الجديدة و مكانه الحالي ناهيك عن سهره المتأخر هذه الليلة ..

من هو هذا الرجل بحق السماء ؟

ربما سيحصل على أجوبة شافية عن هذه الأسئلة عند لقائه مجدداً بالسيد عزيز بعد انتهاء رحلاته و مغامراته بالكامل .. أما ما يهم الآن فهو ترتيب الحجوزات نحو وجهته القادمة (نيوزيلندا) .. انتهى منها خلال دقائق ثم استغرق في نوم عميق فالشمس بدأت تصحو هنا في تايلاند بينما لم يغمض له جفن طوال الليل ..

استيقظ عصراً بصداع خفيف ، فتناول طعام العشاء ثم انتهى من حزم حقائبه .. أعد كأساً من المتة ليجلس بعدها على الشرفة و ينهمك بجمع المعلومات عن نيوزيلاندا كضرورة ملحة قبل كل رحلة أقرب ما تكون إلى بوصلة معرفية توجهه كغريب في بلد جديد عليه ..

عاصمة نيوزيلندا هي ولينغتون التي تتمتع بطبيعة ساحرة ومناظر طبيعية خلابة إذ تقع على **مضيق كوك** البحري وتحيط بها الغابات من كل الجهات

، أما أبرز معالمها السياحية فتشمل على **تل كيلبورن لوكوت** الذي يمكن الوصول إليه من خلال التلفريك ... **متحف نيوزيلاندا** الذي يعد أفضل متاحف البلاد و يسلط الضوء على ثقافة **شعب الماوري** و هم السكان الأصليون للبلاد .. كما يحتوي على **معرض الزلزال التفاعلي** الذي يحاكي تجربة الزلزال ..

لكنّ المبنى الأكثر شهرة في ولينغتون بحسب الصفحات الإلكترونية هو **خلية النحل** الذي يحتضن **البرلمان النيوزلندي** ..

ابتسم و قد عاودته ذكريات ملكة القفير و رحلة بوليفيا حيث التقى بالسيد خوسيه تاجر العسل ..

تابع القراءة بشغف عن هذه البلاد المذهلة الجديدة القديمة في آنٍ معاً حتى وصلت عقارب الساعة في سباقها إلى العاشرة ليلاً، فارتدى ملابسه و استقل سيارة أجرة إلى مطار بانكوك الدولي ..

*****

الطريق إلى نيوزيلندا / ولينغتون ..

غرق أوليفر في مقعد الطائرة الوثير كما غرق في أفكاره، تلك التي كانت تتشابك وتتمدد في ذهنه كخيوط نسيج قديم و غامض يُعاد ترميمه.

أمامه رحلة طويلة، إحدى عشرة ساعة بين الأرض والسماء، تسبح الطائرة في غلالات الغيم وهو يطفو معها في مدارات الفكر.

وبما أنه قد نال قسطًا وافرًا من النوم في الفندق، لم يكن يعوّل على غفوةٍ أخرى تُقصّر له زمن الرحلة.

لذا، لم يجد سبيلاً لمقاومة رتابة الوقت سوى أن يسحب من حقيبته كتابه المفضل : **تاريخ الكون وأصل الحياة** ..

كم من مرة قرأ هذا الكتاب ، لكن كل مرة كانت تترك في داخله فجوةً أوسع، كأن الكتاب كلما أضاء زاويةً من الظلمة، كشف له هوّةً خلفها.

غير أن هذه القراءة تختلف عن سابقاتها...

فهو على وشك لقاء عالم مختص في علم التطوّر، فرصة ذهبية لتفكيك عقدةٍ فكرية طالما حاصرته من الداخل.

ربما، وربما فقط، يتمكن هذا البروفيسور من الإجابة عن السؤال الكبير الذي يسكنه : ما الذي فاته عند قراءة الكتاب ؟

كان يشعر أن بين صفحات الكتاب صمتًا ما، غيابًا متعمّدًا، وكأنه نصٌ يخفي أكثر مما يُظهر.

في قلبه كان الحماس يتصاعد ببطءٍ جميل، كالنار تحت رماد الهدوء.

كل البلدان التي زارها مؤخرًا لم تطأها قدماه من قبل. وكل وجهةٍ جديدة تقرّبه أكثر من حُلمه الطفولي: أن يطأ أرض كل بلدٍ على هذا الكوكب.

ومع هذه الرحلة، لم تكن الغاية مكانًا فحسب، بل فكرة...

هو لا يسافر إلى ويلينغتون، بل إلى لبّ سؤالٍ قديم، إلى قمة جبلٍ ذهنيٍ شاهق ينتظره عند ذروته كنز فكري ، لا يلمع بل ينير.

ساعات الرحلة مرّت كما تمرّ الأصوات في الحلم، قراءةً وتأملًا، استغراقًا واسترجاعًا، إلى أن باغته عند الهبوط بردٌ قارس تسلّل كطيفٍ غير متوقع، نخر عظامه بثيابه الخفيفة التي خانته في لحظة الانتقال من دفء الطائرة إلى برودة الحقيقة.

نسي تمامًا أن فصول الأرض معكوسة بين نصفي الكوكب الشمالي و الجنوبي، فبينما تنعم أوروبا بدفء محبب هذه الأيام ، تلسع نيوزيلندا بسياط برد قارس لا يرحم ..

لحسن حظه، هناك في حقيبته سترة صوفية احتياطية، وضعت تحسبا لمثل هكذا حالات غير متوقعة.

وصل إلى الفندق، رتّب حاجياته بإيقاعٍ مدرّب، ثم اندفع إلى الحمّام يغتسل بالماء الساخن وكأنه يخلع عنه آثار المناخ والدهشة معًا.

ارتدى ملابسه الصوفية، ثم جلس على طرف السرير يحتسي كأسًا من المتة، شرابه المفضل في لحظات التأمل، دافئًا كحضن الأم، مرًّا كالحقيقة التي يسعى خلفها.

ثم بدأ يُخطط ليومه الآتي...

بخلاف رحلاته السابقة التي كانت تسير بحدسٍ غامض وإشارات متناثرة، فإن طريقه الآن يبدو واضحًا تمامًا :

جامعة ويلينغتون، حيث يلقي البروفيسور كيفن نايت محاضراته الأسبوعية.

عليه فقط أن يسأل عنه غدًا، ويبدأ فصلًا جديدًا من رحلته...

فتح ملف الزيتونة على هاتفه، وأخذ يتأمل عناصره التي راحت تقترب شيئًا فشيئًا من الاكتمال، وكأنها تنسج في الظل لوحة لا يراها إلا قلبه... وبينما عيناه تحدّقان في الشاشة، راوده شعور مباغت، عارم، أشبه بنبوءة :

السيد عزيز لا يشير إلى رموز عابرة و لا كنايات بلا غاية ... بل إلى امرأةٍ بعينها.

تلك الأنثى التي تتسلل خيوطها في كل الأحاجي، تحتلّ مفردات الملف، وتفرض حضورها كقوة فلسفية روحية من دنيا الرؤى و الأحلام ، لا تُرى، ولكنها تُحسّ بكل جوارح الروح.

إنها ليست أنثى عادية، بل كيان خارج التصنيف، خارقٌ للتكرار، متفرّد الحضور.

فمن توصف بالشمس لا يمكن أن تكون مجرد كائن، بل مركز للجاذبية.. و بالقمر لا يمكن أن ترضى بأقل من آلهة جمال ..

ومن تُشَبَّه بملكة النحل فهي معبودة التوازن، سيدة الحياة، وجوهر الخصوبة.

ومن تُلقَّب بالبويضة الأولى فهي أصل اللعبة، وسبب اندلاع صراع الذكور.

ومن تخرج من شرنقة الحياة لتصبح فراشة حرّة، لا بد أن تكون تمردًا ناعمًا على كل قيد.

تذكر أوليفر كلمات السيد عزيز في كنيسة ميلانو قبل شهرين... ذلك الانحياز الصريح للأنثى، بل ذلك الإيمان اللامحدود بها.

وتذكر أيضًا بيت الشعر العربي القديم الذي ألقاه عليه ذات مساء :

قد تغدو امرأة يا ولدي... يهواها القلب، هي الدنيا.

لكن من تكون هذه الدنيا ؟ وأين تقيم ؟ وكيف لم يسمع بها من قبل ؟

ولماذا يشعر بأنها أقرب إليه من بعض أفكاره ؟

والسؤال الأهم :

ما علاقتها بالحقيقة الكونية الكبرى التي يطاردها من قارة إلى أخرى ؟

عاد إلى أحجية تايلاند الأخيرة، حيث استُخدم مصطلح الشرنقة الكونية :

من شرنقةٍ كونيةٍ... كان في البدء أصلي ..

توقف عند العبارة طويلًا.

فكتاب تاريخ الكون وأصل الحياة، الذي أعاد قراءته للمرة السادسة في الطائرة، يعيد التلميح مرارًا إلى أن الكون كله خرج من نقطة واحدة، كتلة مكثّفة خانقة، ثم انفجر منها كل شيء... تمامًا كفراشة خرجت من شرنقة.

هل المقصود أن تلك الأنثى الاستثنائية هي صورة رمزية للكون ذاته ؟ أو أنها المفتاح العاطفي لفهمه ؟

هل تمثّل لحظة الانفجار الأولى ؟

أم أنها الفراشة الأخيرة التي ستحلّق في نهايته ؟

بدأ يشعر، للمرة الأولى ، بهذا الوضوح، أنّ هناك نسيجًا واحدًا يربط كل شيء بكل شيء :

الكون، الدول، الأحاجي، الكتب، الشخصيات، الحكايات واللوحات...

كلها تنتمي إلى شبكة سرّية واحدة... وكأنه داخل مصفوفة كونية، تُسلمه من لغز إلى آخر، ومن قلب إلى قلب، ومن لوحة إلى لوحة.

الطيف ذاته يعاوده... ذلك الطيف الذي يداعب تلافيف دماغه ثم يختفي قبل أن يلتقطه الوعي.

شيء بداخله يهمس :

اللوحة القادمة... التي بحوزة البروفيسور كيفن نايت...

ستفك آخر عقدة من هذا اللغز العظيم.

*****

في صباح اليوم التالي ..

اقتحم أوليفر حرم جامعة ويلينغتون تغمره أمواج متلاطمة من الحماس والرهبة والفضول. استدلّ إلى القسم المخصص لعلم التطور والانتخاب الطبيعي وسلك طريقه إليه بخطى ثابتة تواري اضطرابه الداخلي.

في بهو القسم، كان جمعٌ من الطلاب يتبادلون الأحاديث والكتب، فسألهم عن مكتب البروفيسور كيفن نايت. أشار أحدهم إلى ممرٍ طويل ينتهي بباب خشبي إلى اليمين. مضى أوليفر بخطى متسارعة نحو الباب المقصود، وقد تعاظم خفق قلبه مع كل خطوة.

توقف أمام الباب لحظات، يراجع في ذهنه الخطة التي رتّبها بالأمس: أن يتظاهر بأنه يؤلف كتابًا مبسّطًا عن تطوّر الكون والحياة، ويطلب الدعم العلمي من البروفيسور.

لقد تخلّى عن فكرة استخدام اسم السيد عزيز كوسيلة تعريف، فالجامعة ليست مسرحًا للغموض، وأي خطأ في التقدير قد يجرّ عليه مواقف مربكة لا حاجة لها الآن.

حسم أمره وطرق الباب.

جاءه صوت عميق وواثق من الداخل :

● تفضل.

أدار المقبض ببطء، ودخل الغرفة...

لكن المفاجأة باغتته : خلف المكتب لم يكن هناك رجلٌ مسن بل شاب في مثل عمره تقريبًا، ذو ملامح هادئة و عيون ذكية، كأنما يعرفه منذ زمن ،

يبتسم له بود ...

لقد رسم في مخيلته صورة تقليدية لبروفيسور عجوز، أصلع، بلحية بيضاء كثيفة على هيئة تشارلز داروين مثلا ، لكن الحقيقة جاءت على النقيض تمامًا.

تمالك أوليفر نفسه بسرعة، وبادله الابتسامة.

○ مرحباً بروفيسور نايت، أنا أوليفر، هل بإمكاني أن آخذ من وقتك دقائق؟

● بالطبع سيد أوليفر، **تفضل لقد كنت بانتظارك** ...

كانت هذه الجملة ثاني مفاجآت اللقاء ، جعلت أوليفر يجمد في مكانه كتمثال حجري و قد تملكته الدهشة من أخمص قدميه إلى قمة رأسه على نحوٍ لم يخفَ عن عين البروفيسور الذي تابع كلامه بهدوء ..

● اجلس سيد أوليفر لقد أخبرني السيد عزيز بمجيئك وترك لك أمانة عندي

اختار أوليفر كرسيًّا أمام المكتب وجلس عليه، لا يزال الذهول مشدودًا إلى ملامحه، فيما تحرّك البروفيسور بخطى واثقة نحو مكتبة ضخمة تحتل صدر الغرفة. راقبه أوليفر بصمتٍ متوجس، وكأن الهواء من حوله انكمش فجأةً، يترقب لحظة الكشف.

فتح البروفيسور بابًا خشبيًّا مغلقًا بعناية، ثم مدّ يده داخله وأخرج قطعة مربعة كبيرة مغلّفة بورق سميك ومثبتة بحزام جلدي. ما إن وقعت عينا أوليفر عليها حتى تسارعت دقات قلبه... لم يكن بحاجة لأن يُقال له شيء، فقد عرف فورًا — كأن جسده بأكمله ارتجف اعترافًا — أنها إحدى لوحات السيد عزيز.

كأن يد القدر سلّمته هذه المرّة اللوحة مباشرة، بلا وسطاء، بلا محطّات رمزية... فقط هو واللوحة، في لقاء حميم مكشوف بين الباحث ومرآته. لم يشك لحظة بأنها اللوحة المفصلية، الحجر الأخير في الفسيفساء الكبرى، التي ستعيد ترتيب المعنى وتفسّر فوضى الرؤى التي تراكمت في قلبه منذ الرحلة الأولى.

● هاك الأمانة، لقد وصلت في الوقت المناسب تماماً، فمحاضرتي بعد ربع

ساعة.. و أنا مضطر للانصراف الآن .. بلّغ السيد عزيز تحياتي القلبية ولعلنا نلتقي مجدداً في مكانٍ أنسب و ظروف أفضل، هذه بطاقتي إن أحببت الحديث لاحقاً أو الاستفسار عن أي شيء ..

O تشرفت بمعرفتك بروفيسور وشكراً على الاحتفاظ بالأمانة و تسليمها بأمانة ، سأتصل معك لاحقاً بالطبع فالنقاش مع بروفيسور بمنزلتك لا يفوّت و لا يعوّض ..

خرج البروفيسور بهدوء من الغرفة، وأغلق الباب خلفه بمفتاحه كما لو كان يحفظ سرًا ثمينًا، متجهاً إلى قاعة المحاضرات. أما أوليفر، فظل واقفًا للحظة في الرواق ، ثم توجه بخطى متثاقلة ، يغمره خليط من الحماس والرهبة، قبل أن يصعد إلى سيارة الأجرة التي أخذت تلتهم شوارع المدينة، عائدة به إلى الفندق.

كانت أفكار أوليفر تتلاطم في رأسه بلا هوادة، كأوراق الخريف التي تراقصها رياح عاصفة في ليلة ظلماء. لقد جاءت الظروف هذه المرة لتفتح له أبوابًا لم يكن يحلم بها : لقاء مباشر مع البروفيسور، ولوحة نادرة تخص السيد عزيز بين يديه، خلافًا لكل ما مضى من تجارب و رحلات. ومع ذلك، كان ثمة فراغ يتسع في داخله، فراغٌ من الأسئلة التي لم تجد جوابًا، خصوصًا تلك المتعلقة بأصل الكون وتطور الحياة، والثغرة الغامضة التي تنهش عقله بلا رحمة. قرر أن يحاول مساءً الاتصال بالبروفيسور، لعله يمده بخيط يقوده في ظلمات السؤال، فقد باتت بطاقته بين يديه كدعوة مفتوحة.

وصل الفندق أخيرًا، واندفع إلى غرفته كأن قلبه يحاول أن يسبق خطواته .. اللهفة تلهب صدره، والفضول يحترق في عروقه. أغلق الباب خلفه، ومباشرة مزق الغلاف الذي يلف اللوحة كأنها أمانة مقدسة.

ما رأته عيناه فاق كل توقعاته؛ لوحة ليست ككل اللوحات ليست بسيطة كعادة السيد عزيز بل معقدة و أكثر نضوجا و كمالا فنيا ، تحمل في طياتها لغزًا عميقًا وجمالًا أخاذا . توقف في مكانه، يتأملها كما يتأمل العابد تمثاله المقدس في محراب قديم، روحٌ تلاقت مع قطعة فنية خالدة. اللوحة تمثل أنثى تولد من تراب الأرض، جذورها تمتد عميقًا في الأرض وتتشعب إلى الأعلى كشجرة الزيتون الخالدة، رمز الحياة والصلابة والبراءة. بلا شك تلك الأنثى

هي التي تحدّث عنها السيد عزيز في ميلانو، و رمز لها بالشمس و القمر و ملكة النحل و البويضة و اللؤلؤة و الفراشة ..



استعاد استنتاجاته التي كانت تتراكم داخل ذهنه كقطع أحجية، وأيقن أن هذه الأنثى ليست سوى رسالة ، بل رسالة داخل رسالة.

غاص في تفاصيل اللوحة، يتأمل كيف ولدت تلك الأنثى من تراب بلا أب ولا أم، كأنها تجسد فكرة الذات المستقلة التي تبني نفسها بنفسها داخل رحم الكون ، تنمو وتترعرع كما تنمو شجرة الزيتون، التي ختم بها السيد عزيز كلماته الحاسمة: **تذكر الزيتونة، فكل شيء مرتبط بها** .. تدافعت الأسئلة

على عقله كالسيل الجارف، كل سؤال يفتح بابًا لآخر، كأنما الكون كله يهمس له بصوت خافت لكنه ملح : من هي ؟ من أين أتت ؟ لماذا لم يعرفها أحد قبله ؟ وكيف يمكن للوحة أن تكون مفتاحًا لهذا اللغز العتيق ؟

حاول أن يستجمع كل أجزائه الذهنية، لكنه وجد نفسه غارقًا في بحر جديد من التساؤلات التي ولدت من رحم اللوحة نفسها، كأنها شرارة تفتت الظلام المحيط بها.

وأخيرًا، قلب اللوحة بهدوء، ليجد على ظهرها كتابة خفية، كلمات يعانقها الغموض وتنبض بالوعود. ارتجف قلبه، فقد يكون هذا النص هو المفتاح الذي يكسر الصمت ويجيب عن أسئلته العميقة.

كانت الكلمات تشير إلى سلسلة من الأحداث... بداية رحلة أخرى، على أعتاب أسرار أعمق وأكبر.

في البدء كان الانفجار ..

ثم كانت الكيمياء ..

ثم تنفست الكيمياء فكانت الخلية ..

ثم تطورت الخلية فأصبحت كائناً ..

ثم تطور العقل فوجد الوعي و ولدت المشاعر و الزمن ..

ثم تطور العقل اكثر فبدأ يكتشف الكون ..

ثم تطور العقل اكثر فأكثر حتى اكتشف كامل الكون

و روّضه كحصان بريّ ..

ثم استدار الكون كخاتم في إصبعها ..

و اليوم نحن نمشي على خطاها ..

كانت السلسلة تسرد رحلة تطور الحياة، كأنها خيط متعرج ينسج قصةً من مهدها وحتى كفنها المحتوم ، لكنّ السؤال الكبير ظل يلوح في الأفق : من هي تلك السيدة التي أشارت إليها النهاية ؟ هل هي تلك الأنثى المتجلية في اللوحة التي أمامه ؟ المنطق والعقل يقودانه إلى هذا الافتراض، لكن الإجابة الحقيقية ما زالت تخفيها الألغاز، من هي حقاً ؟ وما الذي قصده السيد عزيز حين قال إننا نمشي على خطاها ؟

أول ما يتردد في ذهنه هو فكرة تكرار التجربة، السير مجدداً في ذات الدرب، ذاك الدرب الذي يمتد من جزيء صغير، عبر خلية معقدة، ليصل أخيراً إلى كائن مكتمل يحمل مفاتيح أسرار الكون الخفية.. لكن كيف يمكن أن يتم هذا ؟ وكيف تنفك خيوط هذا اللغز المتشابك ؟

شعر بأنه بحاجة إلى ترتيب أفكاره، إلى استعادة هدوءه ليُعيد قراءة كل هذه الأحاجي المتداخلة .. رغم ثقلها وضخامة ما تحمل، إلا أن هناك يقيناً بدا يزحف نحو روحه : إنه على بعد خطوة واحدة، أو أقل، من كشف الحقيقة التي طالما بحث عنها. لقد اقتحم أخيراً قلب الحكاية، وأصبح الحديث صريحاً الآن، عن تلك الأنثى الغامضة التي روى عنها السيد عزيز في ميلانو، والتي رموزها تكررت في الرحلات والأحاجي السابقة.

نسي البروفيسور كيفن تماماً وقراره برؤيته مساءً، لقد غيرت اللوحة كل شيء فقلبت الموازين و غيرت خارطة المعادلات و القرارات جذرياً ... فالآن لم يعد هنالك من مبرر للبقاء في نيوزيلاندا، لقد حصل على لوحة خاصة به هذه المرة مع حكاية مكتوبة عليها، وأفضل خطوة تالية هي العودة إلى منزله والتفكير هنالك بهدوء وعمق ...

*****

العودة إلى ميونخ ..

على تمام الساعة السادسة مساءً، بينما كانت الطائرة تودع مطار ويلينغتون الدولي وتعلو ببطء نحو السماء، جلس أوليفر بجوار النافذة متأملاً العاصمة تتلاشى رويداً رويداً، تتقلص أمام عينيه حتى غابت تماماً عن الأنظار، لتحل محلها لوحة متسعة من المحيط الأزرق الممتد بلا نهاية.

أمامه رحلة طويلة تمتد لنحو سبع وعشرين ساعة، أطول رحلة خاضها حتى الآن، لكن ذلك لم يكن ليزعجه. بالعكس، شعر بأن هذه الساعات الممتدة فرصة ثمينة يحتاجها بشدة : للنوم العميق، ولترتيب أفكاره المشتتة، ولغزل خيوط الحقيقة التي بدأ يراها ببطء، وسط بحر من الأسئلة التي لم تعد تتركه في سلام.

بقي نظره معلّقاً على الأفق البعيد لدقائق، حيث تلتقي السماء بالبحر، كأنه يبحث في ذلك المزيج الأزرق عن إجابة تخفف من ثقل الغموض الذي يلفّ مغامراته ..

أغمض عينيه و بدأ يفكر بالحقائق الجديدة بترتيب منطقي :

❁ **أولاً**، هنالك أنثى استثنائية يشير إليها السيد عزيز و يحاول كشف النقاب عنها (الملكة) ..

❁ **ثانياً** ، الأنثى خاضت تجربةً خاصةً بها تشبه تجربة التطور (الشرنقة الكونية) ..

❁ **ثالثاً** ، هو لا يعرف من هي ؟ ولا أين توجد ؟ و لا طبيعة عملها ؟

❁ **رابعاً**، السيد عزيز يعرف من تكون بشكل واضح، وهذا جليّ بعد كل هذه الرحلات و الأحاجي ..

❁ **خامساً** ، هو بحاجة لدليل إضافي أخير يجيب عن هذه الأسئلة، فهل هنالك أحجية أخرى أم أن رحلاته انتهت على هذه النتيجة !؟

إحساسه ينبئه برحلة أخيرة تنتظره ، إذ ثمة شيء مفقود حتى الآن ...

أبحث عنك

وأنت معي

ألمانيا / ميونخ ...

غارميش بارتن كيرشن ...

جلس أوليفر في ظل شجرة الكافور الوارفة يتقي شمس ظهيرة تشرين التي تحمل جينات الصيف في أشعتها ، و مستغرقاً بتفكير عميق حول هذه الرحلات الغريبة المفاجئة التي لم يتوقعها يوماً و لو في أقصى خيالاته .. لقد أنهكه بالفعل السفر المتلاحق والتفكير المكثف لأسابيع طوال .. و حالته الآن أشبه ما تكون ببيت شعر عربي قرأه ذات مرة على موقع التواصل الاجتماعي يتحدث عن شخص لف العالم من شرقه إلى غربه .. من شماله إلى جنوبه حتى بات جسده يرتجف تعباً و عظامه تُعتصر ألماً ، ويقول :

تعبت من السفر الطويل حقائبي

و تعبت من خيلي و من غزواتي

فهل تستحق النتائج التي وصل إليها كل هذا العناء ؟

في الحقيقة و منذ رؤيته للوحة الأخيرة في نيوزيلندا مع سيدتها الغامضة التي تشق طريقها عبر التراب لتنبثق شجرةً نحو السماء و شعور غريب يجتاح كيانه، **شعور بالانتماء والأمان يجهل سببه، إحساس جميل كبلسم يلطف جراحات عمره و عناءات سفره .. و يجيبه بطريقة ما عن الثغرة التي طالما شعر بها عند قراءته كتابه المفضل عن الكون و الحياة ...** هو على يقين تام بأنه ما يزال هنالك أحجية أخرى على الأقل، المنطلق بصحبة إحساسه الداخلي ينبئانه بذلك، الحلقة الأخيرة المفقودة من سلسلة مغامراته ..

القطعة الزجاجية الأخيرة في وسط اللوحة الفسيفسائية التي متى ما وضعت في مكانها سيصبح كل شيء واضحاً و مفسّراً ..

تذكر مجدداً كلام السيد عزيز في ميلانو عن التعب قبل الحصول على الشيء

كي نشعر بقيمته، **إنه متعب بالفعل، لكنه على أهبة الاستعداد للخطوة القادمة كما أنّ قيمة الحقيقة في عينيه بعد كل هذا السفر و العناء أمست لا تضاهى ...**

خلال الأيام التالية قام أوليفر بطباعة صور عن لوحات لؤلؤة تونس و فراشة تايلند ثم علقها مع لوحة سيدة التراب الأخيرة كما أطلق عليها ، بعد أن أحاطها جميعاً بإطارات أنيقة بجانب اللوحات السابقة على جدار غرفة المطالعة و جلس يتأملها بإعجاب من عبقرية السيد عزيز كيف تشكل معاً (**الشمس و القمر ، ملكة النحل، البويضة ، اللؤلؤة ، الفراشة ، سيدة التراب**...) ما يشبه لوحة واحدة كبرى و قد بدأت ملامح الأنثى الاستثنائية تتوضح فيها تماماً ، مع السؤال الأخير الذي يلح عليه بإصرار: **من هي** ؟

لم يخذله المنطق و لا إحساسه الداخلي كعادته ، ففي اليوم العاشر بعد عودته من نيوزيلندا وصلته الرسالة المرتقبة من السيد عزيز كأحجية شعرية أخيرة.

ثلاثة أشقاء نزلوا من السماء..

تجمعهم روح الأرواح رغم كل الجراح

الرجل الحكيم في الصخرة داره وبانتظارك أسراره

فالحلقة المفقودة عنده موجودة

عزيز اليقين

لم تكن هنالك معلومات كثيرة في الأحجية لكن الواضح، المثير للدهشة والمخيف بنفس الوقت هو أن السيد عزيز يقرأ أفكاره تماماً وبمنتهى الدقة كعادته ، فقد كان يتساءل خلال الأيام الماضية عن الحلقة المفقودة في الحكاية وها هو اليوم يجيبه عنها بشكل صريح عبر الأحجية !

يا إلهي من هو هذا الرجل المتمكن الغامض الذي استطاع عبر مجموعة أحاجٍ لا غير أن يرسله من بلدٍ لآخر كرجل آلي و بنجاح تام كي يجمع تلك اللوحات كقطع زجاجية رتبها بجوار بعضها على حائطه لتروي قصة اللوحة الفسيفسائية الكبرى (الأنثى الاستثنائية) ؟

لم يضع أي ثانية في أسئلة و تكهنات يعلم جيداً أنه لا يملك جواباً عليها ..لذا شرع بمحاولة تفسير الأحجية على الفور، فبدأ من **الشق الأول** الذي يتضمن (ثلاثة أشقاء هبطوا من السماء) ، إنه يذكره بشكل جليّ بالأديان السماوية الثلاثة، فهل هي المقصودة .. لكن من هي الروح التي تجمعهم في هذه الحالة ؟

بحث على حاسوبه عن ثنائية الأديان السماوية والروح، لكنه للأسف لم يعثر على نتيجة مطابقة منطقية .. لم يتذمر و انتقل بإصرار إلى **الشق الثاني** عله يجيبه أكثر عن هذه الأسئلة ، وكان يشتمل على صخرة ما و رجل يسكن فيها و تنتظره الأسرار و حلها عنده .. كلام غريب للغاية **!!**

بحث مجدداً عن ذلك لكن دون نتيجة مرة أخرى ، فبدأ هنا يشعر بعض الضيق ، إذ أوشكت الأحجية على الانتهاء دون أن يتقدم خطوة واحدة نحو الحل ، يبدو أنّ هذه الأحجية الأخيرة أصعب من سابقاتها عمداً كما يبدو ..

استغرق يوماً كاملاً في التفكير والبحث غير المثمرين حتى شعر مساءً بالجوع فهو لم يتناول الطعام لساعات طويلة...

نزل إلى الطابق السفلي، ليجد ماتيوس يرتب بعض الأغراض في غرفة الجلوس، منهمكاً في تعديل لوحة السيد المسيح مع أمه مريم العذراء المسماة (العذراء أم النور) فقد كانت مائلة قليلاً ..

جمد أوليفر في مكانه على السلالم و الأفكار في عقله تهرول بسرعة الضوء كحال **اسحق نيوتن** عندما هبطت التفاحة على رأسه عند جذع الشجرة ، بسم الآب و الابن و الروح القدس **!** إنها المقصودة، هذا ما عناه السيد عزيز بالروح، الروح القدس.. إنها مدينة **القدس** ، أشهر مدينة في العالم تحتضن الديانات السماوية الثلاثة معاً في خليط ساحر مقدس ..

نسي أمر الطعام تماماً وعاود الصعود إلى غرفة المطالعة كالمحموم فبحث على الفور في حاسوبه عن ثنائية القدس والصخرة فعثر على ضالته مباشرةً و ابتسم بانتصار .. كانت هنالك نتيجة وحيدة مطابقة على نحوٍ مثالي، إنه **مسجد قبة الصخرة** في قلب القدس، لكن ما الذي يعنيه السيد عزيز بقوله أنّ الصخرة هي دار الرجل الحكيم ؟

بحث أكثر عن معلومات تخص جامع قبة الصخرة علّ إحداها تلقي بصيصاً من النور على هذا الشق من الأحجية ..

مسجد قبة الصخرة عبارة عن بناء مثمن الأضلاع، له أربعة أبواب، و في داخله تثمينة أخرى، تتوسطها دائرة تقبع في مركزها (**الصخرة المشرفة**) ، وتعلو الصخرة في قمة المسجد قبة دائرية مطلية من الخارج بألواح الذهب...
أما المعلومة الأهم التي فسرت كل شيء فهي وجود كهف أسفل الصخرة به محراب قديم يطلق عليه **مصلّى الأنبياء**.

إذاً هذا ما يقصده السيد عزيز، المحراب و منه سيبدأ البحث فعلى الأرجح سيعثر على ذلك الرجل الحكيم هناك..

بالتالي فإنّ الرحلة القادمة و الأخيرة في سلسلة مغامراته الشيقة و المذهلة كما يبدو من الأحجية هي السفر إلى القدس و بالتحديد مسجد قبة الصخرة فيها .. اجتاحه حماس طاغٍ صحبة خليط من المشاعر الروحانية والرهبة فهو مقبل على زيارة عاصمة الأديان السماوية و أقدس مدينة على وجه الأرض رغم الإشكالات العقائدية و السياسية التي تعتصرها كما لمحت الأحجية بالضبط (رغم كل الجراح) ..

و في الحقيقة هنالك إحساس قوي يتملكه تجاه هذه الرحلة، ذكره بإحساسه قبل السفر إلى ميلانو ، لكنه أكبر منه بكثير هذه المرة و إحساسه الداخلي لم يخذله أبداً حتى الآن ...

في المرة الأولى قاده إلى ميلانو و كنيسة ماريا ديليه غراتسيه حيث التقى

بالسيد عزيز ففتح ذلك له أبواب كثيرة، **زار بلدان عديدة لأول مرة، التقى بأناس كثيرين شاركهم ذكرياتهم و تجاربهم، تعلم دروساً و تلقى نصائحاً ، كما جمع لوحات فريدة خلف كلٍّ منها حكاية مميزة ذات أبعاد مختلفة.**

و ربما هو الآن على بعد خطوة يتيمة من امتلاك حقيقة كبرى .. فما الذي يخبئه له إحساسه هذه المرة و قد شارفت رحلاته الملحمية على الختام ، كيف ستنتهي ؟

حجز على الفور تذكرة سفر عصر الغد مع غرفةً في أقرب فندق من مسجد قبة الصخرة ..

*****

فلسطين / القدس

منتصف الليل ...

جلس أوليفر في شرفة الفندق المطلّة على إحدى زوايا القدس العتيقة، يحدّق في الشوارع التي لا تهدأ، حيث الناس يغدون ويروحون وكأن المدينة تنبض نبضًا خاصًا بها، لا يشبه أي مدينة أخرى. كانت الأضواء المتناثرة تنعكس على حجارة الأزقة القديمة فتغدو كالنجوم في ليل أرضي، تنسج حول المكان هالة من السحر الحالم والرهبة الهادئة. شعر أوليفر وكأن الزمن هنا قد تخلّى عن عجَلته، وانثنى يستريح على أعتاب المعنى.

وخزه في هذه اللحظة تذكّرٌ مفاجئ لمقال قرأه الليلة الماضية على حاسوبه عن **متلازمة القدس**، تلك الحالة النفسية العجيبة التي تصيب الزائرين بما يشبه اليقظة الروحية الحادة أو الهذيان النبوي، كما لو أن جدران المدينة تشع شيئًا خفيًا يحرك في الداخل ما لم يكن معروفًا من قبل. لم يكن مصابًا بها، لكنه فهم الآن لماذا قد يُصاب بها البعض.

عاد بذهنه إلى جوهر زيارته، فرتّب خطاه القادمة بعناية. غدًا، عند أول الفجر، سيشدّ الرحال إلى مسجد قبة الصخرة، وتحديدًا إلى مصلّى الأنبياء

أسفل الصخرة الشريفة، حيث يظن أن من يبحث عنه قد يكون هناك... ثم، يترك للسماء أن تملي ما بعدها من فصول.

مع أنفاس النهار الأولى، بدأ أوليفر رحلته مشيًا على قدميه من الفندق إلى الحرم القدسي، والمسافة لم تكن بعيدة. كانت شوارع البلدة القديمة ما تزال تتثاءب في صمت، وأزقتها تضجّ بأثر الأرواح التي عبرت هنا منذ آلاف السنين. ما إن بلغ باحة المسجد، حتى رفع بصره بدهشة صافية: القبة الذهبية كانت تلمع تحت قبلة الشمس الأولى، وكأنها تاج نازل من السماء فوق جبهة الأرض.

أمام القبة انتصبت أربعة أعمدة مقببة، يتخللها ثلاث بوابات، تقودك درجاتها إلى ساحة المسجد العليا. صعد أوليفر تلك الدرجات بخطى هادئة مثقلة بالتوقع، وبعينين تحملان سؤالًا لا يعرف جوابه: ما الذي ينتظره في الداخل ؟

ولج من إحدى البوابات، فوجد نفسه تحت القبة التي طالما رآها في الصور، لكن لا صورة تُقارن بالرهبة التي تسكن المرء حين يرى بأمّ عينيه. دون تردد، اتجه إلى مركز المسجد حيث تقبع الصخرة المقدّسة، وهناك وجد درجًا حلزونيًا يهبط إلى ما تحته. أدرك على الفور أنه يقوده إلى مصلى الأنبياء، فنزل الدرجات في صمت يشبه خشوع من دخل محراب قلبه لأول مرة.

كان المكان كأنه كهف حجري صغير، تسكنه هالة سكينة عتيقة. كان هناك شابان يصلّيان في الزاوية، ورجل مسنّ بلحية بيضاء يرتّب بعض الكتب على رف حجري، ويمسحها بقطعة قماش وكأنه ينظّف أثر الزمن لا الغبار.

خلع أوليفر حذاءه وجلس بهدوء على الأرض، يراقب بعينيه كل تفصيلة، بينما شيء في داخله يُحلّق... كان السلام يلفّه دفعة واحدة، كما لم يشعر به من قبل إلا مرةً واحدة، وسط ساحة جامع الزيتونة في تونس، حيث تسرب إليه نفس الشعور: وكأن الأرض نفسها تصلي.

بعد دقائق، أنهى الشابان صلاتهما، ألقيا السلام على الشيخ وخرجا في هدوء. أما الشيخ، فقد تقدّم من أوليفر بخطى وئيدة، وعلى وجهه ابتسامة تقطر وقارًا و خيرا ، وقال له بصوت مبلّل بخشوع الأزمان :

● أهلاً بك أيها السيد.. كيف أخدمك ؟!

○ أهلاً سيدي، أدعى أوليفر، أنا هنا كسائح من ألمانيا أتعرف على المكان

بدت بعض علامات الدهشة على محيا الشيخ فهو لم يعتد على زيارة غرباء لهذا المسجد !! ..

● أهلا بك مجدداً، أدعى **الشيخ نبيل**، لغتك العربية جيدة، فأين تعلمتها ؟

○ جدي والد أمي عربي مغربي، وتعلمتها من والدتي..

● تفضل.. هذا هو المحراب كما ترى ويدعى مصلى الأنبياء أيضاً ، و على تلك الرفوف توجد كتب دينية وقرآن لمن يود المطالعة والتلاوة، أنا أعمل هنا في خدمة المكان والمصلين .. كما ترى فالمكان بسيط للغاية لكن قيمته تكمن في كونه بيتاً للرب في مدينة الرب حيث يمكنك مناجاته مع الدعاء و التقرب منه بالصلاة ..

قضى أوليفر ساعة من الوقت تحت صخرة المسجد يستمع إلى الشيخ نبيل ورواياته المذهلة و المؤلمة في كثيرٍ من جزئياتها عن المدينة و المسجد و تاريخهما ، كما أعجب الشيخ به كثيراً لأسئلته وفضوله لمعرفة جذر الأمور وأصل الأشياء ...

الشيخ نبيل **77** سنة.. أرمل، توفيت زوجته **يسرى** منذ زمن، لم تنجب، ولم يفكر بالزواج ثانية، فقد كان يحب زوجته كثيراً و مقتنع بالقسمة الإلهية بمنتهى الإيمان و التسليم .. كتعويض لذلك و بعد وفاة زوجته كفل طفلة من دار أيتام تدعى **شام** و تابع أمورها حتى كبرت وأنهت دراسة **الكيمياء**، هي الآن تحضر لنيل درجة الدكتوراة ..

● إنك تذكرني بفضولك بشام فهي كذلك ذات نزعة لمعرفة كل شيء، حتى من أين أتت البيضة ؟

وضحك الشيخ ...

○ البيضة ؟

● نعم، هذا مثل عربي يشير إلى التساؤل المطروح **من أين أتت أول دجاجة أي البيضة ما مصدرها ؟**

ابتسم أوليفر متذكراً سيدة التراب والشرنقة الكونية، إنها كالبيضة التي تحيط بها فمن أين أتت بالفعل ؟

○ فتاة ذكية كوالدها...

● تفضل مساءً لزيارتي، ستزورني شام اليوم.. وستعد عشاءً مميزاً .. يمكنكما التعرف على بعضكما و سيدهشك التشابه الكبير بينكما في الطباع و طريقة التفكير !!

○ هذه دعوة تشرفني سيد نبيل و أقبلها بمنتهى السرور ، أي وقت يناسبكم ؟

● في تمام الساعة السابعة إن شئت ..

○ مناسب تماماً .. سأكون هناك في الموعد ..

أعطاه الشيخ عنوان منزله، ثم ودّعه أوليفر وغادر المسجد عائدًا إلى الفندق، على أن يسأله عن السيد عزيز مساءً.

كانت خطواته تتهادى على طرقات القدس العتيقة كما لو كان يكتب فصلاً جديدًا من رحلته بحبرٍ من التأمل والضوء، بينما كانت حجارة الأزقة تمتصّ بصماته في صمتٍ مقدّس، كما لو أنها تحفظها للأبد. كان عقله لا يزال غارقًا في صورة الشيخ نبيل، ذلك الوجه المضيء بطمأنينة عميقة، تشبه سكينة الأنبياء حين يهمسون للحقيقة دون ضجيج. أحبه من اللحظة الأولى، ولم يكن السبب فقط حكمته أو صوته الذي يقطر سكينةً، بل تلك الإنسانية الطافحة من كل حركة فيه، وقد تجلّت بأبهى صورها حين تحدث عن شام ، تلك اليتيمة التي احتضنها كأنها من دمه، وربما كانت أقرب.

أوليفر أحسّ بشيءٍ أيقظ فيه ذاكرة الطفولة. إنه يعرف هذا الألم... ألم الفقد، الشعور بالتيه في عالم لا يمنح أحدًا دليلاً حين يغيب والداه. شعر بأن شام تشبهه بشكل أو بآخر، في الضياع، في الفضول، وربما في التوق إلى إجابةٍ تغير كل شيء. فهل ستكون فعلاً مرآةً لذاته كما لمح الشيخ؟ وهل سيكون لقاؤها نقطة تحوّل جديدة في هذه الرحلة الغامضة؟

عاد إلى الفندق متعب الفكر، متشابك الخيال، فتناول طعام الغداء بشهية باهتة، ثم صعد إلى غرفته بخطواتٍ متباطئة، كأن روحه تسبق جسده. أعدّ كأسًا من المتة، وخرج إلى الشرفة المطلّة على المدينة. هناك، انفتح الليل شيئًا فشيئًا على مدينة لا تنام. أضواءها المتلألئة تتراقص بين الحجارة الذهبية ..

ارتشف جرعة دافئة من كأسه، ثم أطلق بصره إلى الأفق حيث تختلط قباب المساجد بأجراس الكنائس بهيبة الكنيس ، وتذوب الأساطير في الهواء كالبخور، فهبت عليه موجة من التأملات والأسئلة :

هل يعرف الشيخ نبيل السيد عزيز ؟

المنطق يقول نعم، تبعًا لما ورد في الأحجية: **بانتظارك أسراره و الحلقة المفقودة عنده موجودة** ... لكن ملامح الشيخ كانت ساكنة، لم توحِ بشيء، لم تشر كما فعل البروفيسور كيفن نايت في نيوزيلندا، لا ارتباك، لا اعتراف، لا حتى غمزة خفية.

ومع ذلك، أوليفر لم يشأ أن يسرف في التحليل الآن. لقد تعلم من رحلته الطويلة أن بعض الأجوبة لا تُستخرج بالمجهر، بل تُمنح حين تنضج اللحظة.

فقال في نفسه وهو يستنشق عبير الليل المقدسيّ :

(كفى يا عقل، دع القلب يمشي قليلاً.. فالمساء سيحمل ما كُتب له أن يُكشف.)

*****

في تمام السابعة مساءً ...

وصل أوليفر إلى منزل الشيخ نبيل، فتوقف أمام الباب يتأمل ذلك المكان الذي ينبض بسحر الزمن العتيق. كان من طابقين و مشيد على الطراز العربي ، وجدرانه قد غُلفت بأذرع النباتات المتسلقة، مزهرةً بألوان الحياة كأنها أكاليل ورود تتلوى في صمت لتتوسل السماء، تعانقها برقة وحنان.

تقدم أوليفر ببطء نحو الباب وطرق برقة، ثم انتظر صدى لحظةٍ تحلق بين صدى طرقاته وهمس الجدران. بعد لحظات، انفتح الباب ليكشف له عن وجه فتاة في ربيع العمر، ابتسامتها رقيقة، تشع دفـءً عميقًا، وكأن عينيها المضيئتين تضحكان مع شفتيها ..

شعرها، بني اللون، يتوسط بين الطول والقصر، يعانق وجهها الناعم بلطف، وعيناها خضراوان كغابة داكنة تتنفس، و على وجنتين من ماء الورد مكثت غمازتان تضفيان على ملامحها براءة وسحرًا لا يقاوم. لم تكن نحيلةً، ولا ممتلئة، بل كانت توازنًا دقيقًا بين أناقة الجسد وروح الذكاء التي تتألق في نظراتها.

ترتدي فستانًا أبيض بسيطًا، يحاكي نقاء نور الصباح، ينسدل برقة حتى كاحلها، لكن في بساطته تلك، كان يحمل توقيع الأناقة الصامتة.

حينما تحدثت، استيقظ في ذهن أوليفر شريط ذكرياته، وظهر له كمانه الحزين، ذاك الصوت الذي كان له ملاذًا وسرًّا عميقًا في روحه.

- سيد أوليفر أليس كذلك ؟

- بلى ..

قالها وابتسامة كبيرة من القلب أضاءت وجهه ..

- أنا شام، أهلاً بك في بلدنا ، عاصمتنا و منزلنا .. تفضل نحن بانتظارك...

استمر اللقاء قرابة ساعتين، احتفت الدقائق خلالها بأحاديث غنية تشع غموضًا، تحمل بين طياتها معلومات غريبة عن الأرض والسماء، عن المدينة القديمة وروحها الخفية، وعن حياة الشيخ نبيل وابنته شام، تلك التي بدت أقرب إلى زهرة نادرة تتفتح في صمت بين أروقة الزمن. وبعد عشاء شهي نفحاته الشرقية نسجت جواً من الألفة والدفء، ودّع أوليفر المضيفين برقة، ثم شرع في شق أزقة المدينة الضيقة، حيث الأحجار القديمة تحكي تاريخ الأجيال، وأصوات الماضي تتردد في أروقة الحاضر.

للأسف تبين أن الشيخ نبيل لا يعرف السيد عزيز مطلقاً، ولم يفده خلال الحديث كثيراً فيما يتعلق بملف الزيتونة، على خلاف ما ورد في الأحجية (و بانتظارك أسراره) ، و خاب أمله بعض الشيء ، فالحلقة المفقودة لا تزال مفقودة رغم الآمال التي رسمتها الأحجية في قلبه ..

أما شام فهي حكاية أخرى تماماً، لطيفة كنسمة، عذبة الحديث، فضولية بالفعل كما وصفها الشيخ نبيل لكن بأدب، تعشق **الموسيقى** مثله إضافة إلى حب كبير **للشعر**، و مغرمة **بأسرار الفضاء و الكون الشاسع** .. قوية الشخصية وطموحة ...

ولو استطاع لبقي يحدثها حتى الصباح، فقد شعر وهو يكلمها أنه يفكر بينه وبين نفسه..

في كل الأحوال هذه الزيارة ليست النهاية بكل تأكيد .. فهو سيكلمها لاحقاً كما قرر، ليدعوها إلى فنجان قهوة مثلاً، إذ أنه يريد أن يتعرف عليها أكثر، كونه للمرة الأولى في حياته يلتقي بشخص يشبهه إلى هذه الدرجة، إنهما كتوأم سيامي لكن من ذكر وأنثى و منفصل !

*****

خلال اليومين التاليين بعد لقاء الشيخ نبيل و شام ..

أصبحت شام الشغل الشاغل لأوليفر و أفكاره ، لقد تأثر كثيراً بحياتها التي عانت فيها الكثير تبعاً للروايات التي قصتها عليه في زيارة العشاء، و أجمل ما في ذلك كله أنها رغم عمرها الصغير تتكلم كعجوز محنكة بالحياة ..

إنّها أشبه ما تكون بألماسة نفيسة تكونت تحت ضغوط الحياة لتلمع حكمةً و شغفاً و عزيمة ، كفراشة رقيقة خرجت من شرنقة الميتم المظلمة لتنشر البهجة في حياة من حولها ..

إنه يريد بشدّة أن يكلمها مجدداً، و لكن كيف ؟

نسي الأحاجي وتناسى السيد عزيز و هدفه الأساسي من وجوده في القدس ، حتى بلغ شوقه للقاء شام ثانيةً ذروته في اليوم الثالث فحزم أمره بشكل نهائي و اتصل بها..

● مرحباً آنسة شام ، أنا أوليفر .. ما أخبارك و الشيخ نبيل ؟

○ أهلاً سيد أوليفر، أخبارنا جيدة، وأنت ؟

● نشكر الله ، هل يمكنني رؤيتك اليوم ؟ أحب ان نكمل نقاشنا، فله تتمة كما اتفقنا...

○ نعم ، لم لا ؟ هذا يسعدني...

● إذاً أنا أدعوك إلى فنجان قهوة في أحد مقاهي القدس ؟

○ دعك من المقاهي، إنها جامدة بشكل ممل، أنا أفضل الحركة، ما رأيك أن نتمشى ونتحدث ؟

● هذا يبدو أفضل بكثير ، إذاً موعدنا أمام شجرة الزيتون العجوز قرب مسجد قبة الصخرة في السادسة مساءً، مناسب ؟

○ اتفقنا ..

في الموعد المحدد التقيا من جديد... فابتسمت له شام ابتسامتها الطفولية

المنقوشة بالرقة و المخاطة بالبراءة ..

O تعال معي سآخذك إلى عالمي السحري ..

دهش من كلامها قليلاً لكنه ابتسم و مشى إلى جانبها مستسلماً بالكامل.. مشيا لأكثر من ساعة وهما يتحدثان لبعضهما عن حياتهما.. حتى بلغا تخوم مدينة القدس و بدأت بساتين الزيتون الخضراء بالامتداد على جانبي الطريق كجناحي عنقاء ...

O هذا هو مكاني السحري سيد أوليفر، فأنا اعشق بساتين الزيتون منذ طفولتي.. أمشي بينها لساعات دون ملل حيث أصفي ذهني ، أرتب أفكاري و أخطط لحياتي ..

صمتت للحظات ثم تابعت ضاحكة ..

O ومن شدة محبتي لها أطلقوا عليّ في الميتم اسم زيتونة..

جمد أوليفر في مكانه مذهولاً، لقد أنساه لقاؤه بشام الأحاجي كلها و غاية الرحلة لكنها الآن تعود لتذكره بها بأغرب طريقة .. تذكر السيد عزيز و كلامه عن الزيتونة بأن كل شيء مرتبط بها ..!! كيف تعرّف السيد عزيز على الشيخ نبيل و شام .. و من أين له أن يعلم هذه المعلومات الدقيقة عنهما و هما لم يلتقيا به من قبل .. يا إلهي .. !! من أنت بحق السماء سيد عزيز ؟!

*****

كانت هنالك كيمياء خاصة بين أوليفر و شام، دفعتهما للقاء يومياً طوال أسبوع ، و يوماً بعد يوم أحس أوليفر أن حياته تغيرت.. نظرته إلى الأشياء تغيرت.. لقد نسي الرحلة والأحاجي و اللوحات فسيطرت شام على كامل تفكيره و وعيه .. إذ بات يشعر الآن بأنه إنسان آخر، في حالة من الاستقرار والصفاء النفسي لم يعهدها طوال سنين حياته التي **أصبحت أخيراً ذات**

معنى.. والحياة كلها ذات معنى ..

لقد قضى شبابه يسافر من بلد لآخر وهو في اللاوعي يبحث عن شيء ما ينقصه بشدة و لا معنى لحياته من دونه ، لكن سفينته رست أخيراً في ميناء شام و كأنه وجد ضالته ، **الحلقة المفقودة** من سلسلة حياته كآخر قطعة ناقصة في اللوحة الفسيفسائية التي تكشفت معها أنثى استثنائية بالفعل ، في نظره على أقل تقدير .. و كأنها خلقت من أجله كما يقال في الحكايات .. فهل هذا ما يسمى الحب ؟

تذكر كلام السيد عزيز في ميلانو (الحب هو نصف الحقيقة) ، لم يفهم ذلك حينها لكنه الآن يفهم قصده جيداً و يدرك أنه محق تماماً، ليس ذلك فحسب ، بل حتى النصف الثاني من الحقيقة يبدو أكثر وضوحاً عندما نحب ..

و تأثير الحب الهائل على حياتنا رغم تعقيده في ظاهره، بسيط للغاية في جوهره :

كي تشعر بالحياة عليك أن تكون سعيداً ..

و تكون سعيداً عندما تملك قلب طفل ..

و حتى تملك قلب طفل عليك أن تحب ..

وللأنثى إن أحبت موهبة فطرية في منحك ذاك القلب إذ تبعث السكينة و السعادة في قلبك و حياتك ..

فقد كانت شام تركض بين بساتين الزيتون وتضحك كطفلة في الخامسة من عمرها، تنسى أيامها الصعبة في الميتم، وتجبره لا إرادياً على محاكاتها، فيعود بدوره طفلاً سعيداً ...

و هذا بالضبط ما يفسر سبب شعورنا بالسعادة عندما نلعب مع الأطفال الصغار، لأنهم بكل بساطة يجبروننا على محاكاتهم، فنعود أطفالاً من جديد و نشعر بالسعادة، إنها حلقة مفرغة إيجابية ...مما يذكرنا بمقولة الإسلام الماسية (الزواج نصف الدين) ، لأنه يضرب عصفورين بحجر واحد،

<u>الأول</u> عودتك طفلاً على يد الأنثى التي تتزوجها، و <u>الثاني</u> عودتك طفلاً على يد أطفالك، ومن ثم أحفادك بعدها فتحافظ على قلب الطفل على امتداد حياتك التي أتيتها طفلاً فتغادرها طفلاً نقياً كالثلج مجدداً ..

و هذا يفسر نفسياً لماذا أقدم الشيخ نبيل على كفالة شام بعد وفاة زوجته، لأنه خسر العامل الأول فبحث بكل بساطة عن الثاني ..

إن رحلاته المتلاحقة عبر أصقاع العالم قادته في نهاية المطاف كما توقع هو و وعده السيد عزيز إلى كنز حقيقي لا يقدر بثمن بل مترفع عن المقارنة بأي شيء مادي.. إلى ألماسة نفيسة لم يرى مثلها قطّ خلال سنين حياته الطوال في التعامل مع الماس ، بل يبدو أمامها ألماس العالم قاطبةً مجرد حصى بلا قيمة .. إلى فتاة تمثل الآن كل الدنيا في عينيه لتنتهي رحلاته من حيث بدأت بالضبط في ميلانو :

(**قد تغدو امرأةٌ يا ولدي يهواها القلب هي الدنيا**)

ليكتشف في محصلة هذه الرحلات أن السيد عزيز كان على حق في نصيحته الأخيرة له :

((تذكر سيد أوليفر، إن الموضوع برمته حول **الزيتونة**.. الزيتونة لا تنسَ ذلك ..))

فأمام ضحكة عيني شام (الزيتونة اليتيمة) تداعت كل الاعتبارات الخاصة الصارمة بخصوص الزواج التي وضعها أوليفر سابقاً، إنه الآن يريد أن يقضي كل ثانية من حياته معها...

الحب زلزال يقلب جميع الموازيين .. و ملف الزيتونة أصبح أخيراً ذا معنى : **الشمس**، **ملكة النحل**، **البويضة**، **اللؤلؤة و الفراشة** ..

كلها أثواب لا معنى لها، لكن عندما ارتدتها شام أصبحت تنطق كلها بنصف الحقيقة (الحب) ..

إن لقاءه بشام كشف النقاب أخيراً عن هوية سيدة التراب الغامضة كغموض السيد عزيز تماماً .. الزيتونة المذكورة في الآيات القرآنية التي قرأها في مستهل رحلاته .. زيتونة الإله .. إنها حقيقة كونية كبرى تشعر بها لكن

عليك ألا تنطقها :

من (نور على نور) تنبثق ملايين الأنوار ...

في تلك اللحظة وصلت على جواله رسالة من السيد عزيز، ربما فيها أحجية جديدة .. !!

قرأها و ابتسم .. يبدو أنه على موعد آخر معه ..

لمس شامته على خده الأيسر و هو يفكر، قد تكون الحقيقة أحياناً أمامنا طول الوقت ولا نرها ...

نظر إلى سيدة التراب في السماء، ثم إلى سيدة قلبه شام على الأرض .. و ابتسم لهما، **أجمل الحقائق ما بقي محتجباً ...**

*****

الجزء الثاني

{ نهاية البداية و

بداية اللانهاية }

- نصف الحقيقة أسوأ من الوهم
- الساحر الجيد لا يبوح بأسراره
- العودة إلى الجذور
- نهاية البداية و بداية اللانهاية ..
- إصرار الذاكرة
- دياميس روما
- الكرة الكونية
- زوبعة في فنجان
- وجهاً لوجهين في القاع
- استراحة محارب

نصف الحقيقة أسوأ من الوهم

إيرلندا الشمالية / بلفاست

أواخر كانون الثاني 2022 م

كانت الشرطة منتشرة في كل زاوية من منزل الضحية، وكأن الجدران نفسها خضعت للحراسة، تهمس بسرٍّ لم يُفصح عنه بعد. الجثة ممددة في هدوء كئيب على الأرض، أما باقي المكان فبدت عليه الحياة اليومية المعتادة، صامتة، غير مدركة للصدمة التي اجتاحت غرفة واحدة فقط. اقترب المحقق من الجثة بخطوات حذرة، يدرسها كمن يقرأ نصًا مخفي المعاني، محاولاً فهم القصة التي تحكيها اللحظة الأخيرة.

الطلقة في الصدر كانت واضحة، قاسية وصريحة، وكأنها إعلان عن النهاية بلا تردد. لكن الغرابة الحقيقية كانت في أصبع الضحية الملطخ بالدماء، الذي لم يقتصر دوره على الموت فقط، بل أصبح أداة فنية أو رسالة مشفرة، حيث رسمت به الضحية رمزًا غريبًا على الأرضية بجوارها قبل أن تفارق الحياة : الرقم سبعة وثمانية بالعربية، متداخلان، وفي مركزهما يسطع الرقم تسعة بالإنجليزية، كما لو أن الدم نفسه أراد أن يتحدث لغة المجهول.



اقترب مساعده بخفوت، وهمس في أذن المحقق:

- لا يوجد أثر لاقتحام، ولا لشجار، ولا لبصمات.

ابتسم المحقق ابتسامة حزينة، وكأن اللغز يكشف عن نفسه بلا كلمات:

● إذن فالضحية يعرف القاتل، وفتح له الباب، جلس معه قليلاً قبل أن يسدل الستار على حياته.

توقف للحظة، يحدق في وجه الضحية المتجمد، يقرأ التعبير الأخير على محياه، التعبير الذي يحمل كل مرارة الخيانة:

● مسكين بروفيسور ترومان... لقد كانت لحظاته الأخيرة مليئة بالمرارة حين أدرك أن الخيانة جاءت من شخص كان قريبًا منه.

ثم رفع عينيه نحو السماء المنعكسة في نافذة الغرفة، وفكر في ما فقده المجتمع العلمي، وفي العبقرية التي كانت في طريقها لتغيير فهم البشر للرموز والتاريخ:

● كما أننا فقدنا عالمًا مخضرمًا، جسد المعرفة والرموز التاريخية والمعاصرة في آن واحد... ورحل قبل أن تكشف أسرار آخر رسائله.

*****

مصر / الإسكندرية

شباط 2022 م

الساعة الثالثة فجراً ...

كانت الغرفة صامتة إلا من أنفاسه المتسارعة.

فتح حقيبته كمن يفرّ من حلمٍ اشتدّ كابوسه، يضع أغراضه بلا ترتيب، يرمى القميص فوق الحاسوب، وجواز السفر فوق سترةٍ لم يجف عرقها بعد.

النافذة ترتجف خلفه من صفعات المطر ..

وهاتفه الملقى على السرير لا يزال مضاءً، ينزف من شاشته تحذير كُتب كصفعة قدر:

(لقد قتل البروفيسور ترومان منذ أيام، لدينا معلومات تؤكد أنك ستتعرض لمحاولة اغتيال في الغد ، سنضع حراسة مشددة على منزلك إن شئت أو قم بإجراءاتك بنفسك و احم نفسك على الفور ..)

قرأ الرسالة للمرة العاشرة. لا شيء فيها يتغير.

الخنجر أصبح على رقبته. جملة واحدة تكفي لتنسف كل ما خطّط له في حياته.

خرج من الفيلا كاللص، لكن الخوف وحده كان يطارده.

ألقى بالحقيبة في السيارة، جلس خلف المقود، ضغط على زر التشغيل دون أن ينظر، وانطلقت العجلات تزأر بوحشية على إسفلتٍ غمره المطر ، كأنها تسابق الزمن على رقعة موتٍ مرسومة مسبقًا.

كان البحر عن يمينه، داكنًا، كأنما ينتظر جثته.

المطر يطرق الزجاج كتنبيه أخير.

و السيد عزيز شارد.

الماضي يتفجر في رأسه : وجوه، أسرار، اجتماعات مغلقة، عيون لم يرها لكنها كانت تراقب...

كيف تحولت اللعبة إلى فخ ؟

منذ متى صار هدفًا بعد أن كان لاعبًا خفياً ؟

فجأة...

من زقاق جانبي مظلم ..

برزت سيارة سوداء من طراز جيب.

كأنها خرجت من رحم الظلال.
لم يكن فيها ضوء، لا لوحة، لا صوت... فقط
النية بالاغتيال ..

أدرك على الفور.

الرسالة لم تكن تهديدًا... كانت إعلانًا.

زأرت السيارة خلفه كذئب جائع، وبدأت المطاردة.
تحرّش بصادمٍ مباشر من الخلف.
ثم من الجانب .. احتك الهيكلان كوحش خرافي يتألم ..

شرر الحديد يلتهم الليل ..
والصمت يُكسر بنحيب الزجاج المتمزق ..
كأن المدينة نفسها تنزف.

فتح السيد عزيز عينيه أكثر.
لم يكن هناك مفر.
السيارة الجيب أسرع .. أقوى.
وهم يلاحقونه بلا هوادة.

وفي لحظة برقٍ داخلي، عرف أن أمامه خيارين :
إما أن يموت مثل فأر في المصيدة ..
أو يقفز من الحافة... ويترك الأمر للبحر.
وفي اللحظة التي حطّم فيها الرصاص زجاج النافذة الخلفية...

انتهى التفكير.

أدار المقود بقسوة ..
واندفعت السيارة فوق الرصيف ..
ثم حلّقت للحظة، صامتة، كأن الزمن توقّف ..
قبل أن تهوي بكل ثقلها في جوف البحر.

ضربة.
صوت خافت يشبه ارتطام جثة بكفنٍ مائي.
الماء تسلل من النوافذ كأصابع شبح ..
والبرد انغرس في جسده كسكاكين.
لكنه لم يكن مستعدًا للموت... ليس الآن.

ساقه اليمنى تنزف ألماً ..
وصدره يحتج بضربات موجعة ..
لكنه فتح الباب ..
ركله بقوة ..
وغاص في الظلمة.

كان البحر في تلك الليلة كالأب : غاضب، صارم، لكنه يعرف أبناءه.
وعزيز ابن الاسكندرية كان ابنًا عتيقًا.
سبح.
شقّ التيار كمن يهرب من قدرٍ مكتوب على الجبين حتى بلغ الشاطئ ..
ثم أمسك بصخرة ..

وتسلّق إلى فجوةٍ بين الصخور كوّنت كهفًا صغيرًا... مأوى لمن خسر معركة ونجا من المقصلة.

تجمّد في مكانه.

الظلام يحميه.

ثم سمع الأصوات :

رجلان، لغة لا يعرفها، لهجة ليست من هنا.

يتكلمان بقسوة و غضب ..

بحثا عنه، لكنه لم يُصدر همسة.

اقتنعا بأنه غرق و غادرا.

ثم ساد صمت ما بعد أو ربما قبل العاصفة.

وقف مترنّحًا.

الدم يسيل على قدمه.

يده على صدره.

والبحر خلفه كأنما يقول : أعطيتك ليلة أخرى... لا أكثر.

ومشى قبل أن ينجذب المارة إلى الجلبة ...

مشى السيد عزيز، كأن كل خطوة تأخذه أعمق في الغموض، لا في النجاة.

*****

قبلها بأسبوع

ألمانيا / ميونخ

الساعة الثانية ظهراً ..

جلس أوليفر في ركنه المحبب من الحديقة، على كرسيه الوثير المحاذي لشجرة الكافور العتيقة، وكأس المتة الساخنة يطلق بخاره المتصاعد كأنفاس متأملة في هواء الشتاء المعتدل. أسند رأسه إلى الوراء وأغمض عينيه نصف إغماضة، تاركًا وجهه يستقبل دفء الشمس وكأنه يعود، بعد غياب طويل، إلى حضنٍ عرفه منذ الأزل. السماء صافية حدّ التواطؤ، والنسيم العابر ينثر في الأجواء عبق بداية ربيع مبكر.

راح يفكر في شام... شامه لم تأتِ كغيرها، بل كمفاجأة من مفاجآت الحياة النادرة، كواحة تفيض ماءً وظلاً على رجل أنهكته الصحارى. أربعة أشهر فقط، لكنها كانت كافية لتقلب مفاهيمه رأسًا على عقب. تقدم إليها بعد شهرين، وكأن قلبه لم يحتج أكثر من ذلك ليوقن بأنها الحلم المتجسد، فوافقت... وتقرّر أن يكون زفافهما في تموز المقبل، مع موعد تخرجها بشهادة الدكتوراه في الكيمياء، كأن القدر قرر أن يكافئه بكل ما أخّره عنه الزمن دفعةً واحدة.

لم تكن هذه القصة العاطفية إلا خاتمة مدهشة لسلسلة أحاج و مغامرات بدأت قبل شهور في ميلانو، حين التقى بالسيد عزيز، ذلك الغامض الآتي من ضوء وظلال. ومن هناك، تناثرت محطات رحلته كخرز مسبحة نادرة : **لاباز، قرطاج، بانكوك، ويلينغتون... حتى بلغ القدس،** حيث انتظرته الإجابة على هيئة فتاة تُدعى شام، ولوحة مذهلة عنوانها : الزيتونة... شجرة السماء ، من توقيع ذلك الساحر الغامض : عزيز.

لكن السؤال ظل عالقًا في أعماقه: من هو السيد عزيز ؟ وأين هو الآن ؟

كل ما بقي له منه هو رسالة يتيمة بعثها بعد وصوله إلى شام، كتب فيها :

(نصف المعرفة أسوأ من الجهل، ونصف الحقيقة أسوأ من الوهم.)

ثم اختفى... كما تفعل الأشباح في الأساطير.

تذكّر كلماته الأخيرة في ميلانو :

(سنجلس يوماً ما، بعد نهاية الرحلة، لنتحدث عن كل شيء)

فهل كان ذلك وعدًا حقيقيًا ؟ أم جزءًا من خرافة كتبها له القدر ؟

وبينما هو غارق في الذكريات، رن هاتفه بإشعار خافت. حمله بكسل المتأمل وفتحه... فتجمد للحظة.

كانت رسالة من السيد عزيز نفسه.

شهق في صمت، وتدفق إلى صدره شعور غريب يشبه التخاطر. ابتسم وهو يقرأ، فقد بات يدرك أن الغرابة لا تنفصل عن هذا الرجل... و أن غير المتوقع طقس روتيني من أسلوبه و شخصيته ..

قرأ نص الرسالة ..

((مبارك لك مجددا عثورك على نصفك المكمل لك و زيتونتك الخاصة بك ..))

فكر للحظات ثم رد عليه برسالة ..

((أهلا سيد عزيز، أشكرك ، لك الفضل الأكبر في حدوث ذلك ، إنني أحاول الوصول إليك منذ فترة بشتى الطرق لأدعوك إلى حفل زفافي من جهة و لنكمل حديثنا الذي بدأناه في ميلانو كما اتفقنا من جهةٍ أخرى ، لقد

أخبرتني في ميلانو أن له تتمة بعد انتهاء رحلات السعي خلف الحقيقة ..))

((بالطبع له تتمة سيد أوليفر ، و قد حان الوقت المناسب تماماً لنتحدث فهل أنت مشغول حالياً ؟))

((أبداً ، لكن سنتحدث عبر الهاتف !؟))

((بالطبع لا .. أنا حالياً في ميونخ و بالتحديد في مدينتك غارميش بارتن كيرشن للقائك إن سمحت ظروفك بذلك ..))

كان ذلك غير متوقعاً البتة !! ..

((مرحباً بك في بلادي سيد عزيز، بالطبع أود لقاءك بشدة .. تفضل إلى منزلي))

((أفضل الجلوس في مقهى سيد أوليفر .. فتواجد البشر من حولي يمدني بطاقة إيجابية و سعادة حقيقية ..))

((كما تشاء ..))

أرسل له أوليفر عنوان مقهى (**أسرار**) الذي يرتاده في العادة في شارع لودفيج شتراسي وسط مدينته.. ثم نهض بحماس ، لهفة و سعادة لكي يجهز نفسه ..

*****

في الموعد المحدد، دفَعَ أوليفر باب المقهى الزجاجي فارتفع صوت الجرس النحاسي معلنًا دخوله، وتلفّت حوله بعينٍ يقظة. هناك، في الزاوية القصيّة بجوار حوض الأسماك الضخم وتحت اللوحة الفنية الوحيدة التي تزيّن الجدران ، لمح السيد عزيز جالسًا في سكون يشبه التأمل. كان المشهد بأكمله وكأنه قد خُطّ بعناية في سيناريو مُسبق : الإضاءة الخافتة، ارتعاش الماء داخل الحوض، الألوان الهادئة، ووجه السيد عزيز الذي بدا مألوفًا حدّ الدهشة.

اجتاحت أوليفر موجة من الذكريات وهو يخطو نحوه. ستة أشهر فقط، ومع ذلك بدت له دهرًا. منذ لقائهما الأول في كنيسة ماريا ديليه غراتسيه أمام لوحة العشاء الأخير، تغيّر كل شيء. خاض رحلات، مرّ بتجارب، اكتشف نفسه وماضٍ كان يجهله، حتى صار لا يعرف الرجل الذي كان عليه قبل تلك اللحظة المصيرية.

اقترب أوليفر منه بخطى حذرة، لكن في عينيه لهفة طفل. نهض السيد عزيز لاستقباله، وفي ابتسامته دفء أبويّ نادر، كأنه يلتقي بأحد أبنائه الذين حرمتْه الحياة منهم ذات خسارة. عانقه دون كلمة، فقط الصمت والحنين كانا يتكلمان بينهما.

● الحمد لله على سلامتك أيها الرحالة العظيم ..

○ شكراً لك سيد عزيز ، الحمد لله على سلامتك بدورك و أهلاً و سهلاً بك في مدينتي ..

● إنها زيارتي الأولى لها ، كم هي مدينة جميلة ، قريبة من القلب و تشعر بأنها تحاكي شيئاً ما بداخلك ..

ابتسم أوليفر ..

○ هذا لطف بالغ منك .. إنك في مدينتك على كل حال ..

صمت للحظات ثم ابتسم ..

○ أرى أن حبك الطاغي للفن و الرسم قد جذبك مباشرةً إلى اللوحة

الفنية اليتيمة في المقهى لتجلس بجوارها ..

ابتسم السيد عزيز بدوره ..

● بلى، أنت محق، و أنا أعشق هذه اللوحة بالذات، (**ولادة فينوس**) آلهة الحب و الجمال كما ترى و هي تنشأ من داخل المحارة ، إحدى روائع الفنان الإيطالي (**ساندرو بوتيتشيلي**)..

فهم أوليفر سريعاً ما يقصده السيد عزيز بكلامه، فهو يشير إلى رحلة الأحاجي السابقة بخصوص الزيتونة ..

○ نشوء زيتونة السماء إلهة الحب من الشرنقة الكونية **!؟**

ابتسم السيد عزيز أكثر ..

● يمكنك قول ذلك، لقد أصبحت متمرساً بالفعل في حل الأحاجي سيد أوليفر! .. و بمناسبة الحديث عنها، أخبرني أكثر عن تقييمك لرحلاتك السابقة على دروب الحقيقة ؟

○ من أين أبدأ سيد عزيز ؟ تجربة رائعة و أيام لا تنسى ، أسفار ممتعة و حقائق مذهلة مرتبطة ببعضها البعض على نحو مذهل و متقن يشهد بعبقريتك الفذّة في صياغة الأحاجي و قراءة الأفكار ، و قد توجت بشكل لا مثيل له بتعرفي على شام في ختامها ، لقد كنت محقا تماماً في ميلانو ، إن الحب بالفعل هو نصف الحقيقة و كان عثوري عليه تحولاً جذرياً و هاماً للغاية في شخصيتي و حياتي ، كأجمل نهاية ممكنة لرحلة الأحاجي الشيقة تلك ..

أخرج السيد عزيز البايب من جيبه و أشعله ثم نفث قليلاً من الدخان من فمه ، و أخذ يحدق في أوليفر للحظات قبل أن يفاجئه بالقول مبتسماً ..

● نهاية رحلة الأحاجي !

○ أجل !!

● إطلاقاً سيد أوليفر .. في الحقيقة لقد بدأت رحلتك للتو ..

كان ذلك صادماً بشدّة لأوليفر..

○ بدأت للتو !؟ لم أفهم !

● بالطبع ، لقد أخبرتني في ميلانو في أول لقاء بيننا أن هدفك الأساسي في الحياة هو بلوغ الحقيقة الشاملة ، أليس كذلك ؟

○ بلى هو كذلك ..

● كما ذكرت لك في رسالتي الأخيرة في القدس سيد أوليفر ، إن نصف المعرفة أسوأ من الجهل ، كذلك فإن نصف الحقيقة أسوأ بكثير من الوهم ، و ما وصلت إليه في رحلتك السابقة (الحب) هو جزء بسيط من الحقيقة و إن كان الأهم ، لكن الكون من حولنا واسع يعج بالأسرار ، و الحقيقة لا تقتصر على شيء مفرد ، لذا لا يمكن بلوغها بسهولة ، إنها سلسلة من حلقات عديدة كل حلقة تولد من رحم سابقتها .. و قد حصلت على حلقةٍ فقط منها في رحلتك الأولى و هي (الزيتونة) ، لكن في الواقع لا يزال الطريق أمامك طويلاً لبلوغ الحقيقة الشاملة التي ترنو إليها ..

صمت السيد عزيز للحظات سحب فيها مجدداً من البايب ثم ابتسم ..

● لنقل إنك كنت تبحث عن مطرقتك في ميلانو سيد أوليفر فقادك ذلك إلى كنز هائل ..

○ مطرقتي !؟

● بالضبط ، كحال المتقاعد **إيريك لويز** الذي أضاع مطرقته العزيزة على قلبه عام **1992** لذا خرج يبحث عنها بكاشف المعادن فلم يعثر

عليها فحسب بل عثر على ثروة هائلة من الذهب و الفضة أيضاً ، أي ان سعيه وراء شيء بسيط يقدره بحق قاده لأشياء أخرى كثيرة غاية في الأهمية.. و أنت بدورك سيد أوليفر ينتظرك عالم كامل من الأسرار المذهلة و ليس سر الزيتونة فحسب و إن كان عزيزاً على قلبك فدفعك للخروج و البحث عنه بعقلك كاشف الحقائق و الأسرار .. في حال كنت ترغب بذلك بالطبع و ستجعلك هذه الأسرار أغنى رجل في العالم .. بل أغنى حتى من القيصر الروماني **أغسطس** بحد ذاته لأن الثروة الفعلية في هذه الحياة هي مقدار الحقائق التي تعرفها و ليس كم المال الذي تملكه .. فهل تريد فتح الباب السري المؤدي إلى ذلك العالم سيد أوليفر ؟!

*****

الساحر الجيد لا يبوح بأسراره

شعر أوليفر بانفجارٍ عارم من السعادة والحماسة يجتاح كيانه ككل ـــ روحه، قلبه، وعقله ـــ جراء كلمات السيد عزيز الأخيرة. فقد كانت بمثابة شرارة أعادت إشعال نار المغامرة في داخله، إذ أنها إعلان صريح بأن فصول الرحلة لم تُختتم بعد... كما توهّم.

الأحاجي التي عشقها حتى الإدمان، لم تكن إلا بدايةً لملحمة أعمق. وها هو الباب يُفتح مجددًا على مصراعيه لمغامراتٍ جديدة، وأسرار لم يُكشف عنها بعد، وحقائق ما تزال تتوارى في الظلال، بانتظار ضوء من نوع خاص.

دماغه المتعطّش للألغاز، المتشبّث بجمال الغموض، استيقظ بكامله. لقد كانت التجربة الأولى استثنائية بكل المقاييس؛ لوحة فسيفسائية من السفر، الأحاجي ، الرمز، الحلم، والمصير... ولم يكن ليرفض تكرارها، بل اشتاق لها كما يُشتاق للحن قديم أعاد للقلب نبضه حين سمعه.

ومن دون تردد، وبلهفة الطفل الذي وُعد بهدية العيد أو حكاية ما قبل النوم، أجاب بجملة واحدة...

◯ بالطبع أريد سيد عزيز و متشوق للغاية .. لكن قبل كل شيء هنالك سؤال هام ينخر تلافيف عقلي منذ أشهر و ينتظر إجابتك عنه..

● و ما هو ؟

◯ كيف استطعت التعرف على كل تلك الحقائق ، الأشخاص و المواعيد بمثل تلك الدقة الهائلة ؟ ما هو سرك سيد عزيز ؟

ابتسم السيد عزيز بغموض ثم قال ممازحاً ..

● أنت تعرف المقولة الشهيرة سيد أوليفر:

(**إن الساحر الجيد لا يبوح بأسراره أبداً**) ..

ابتسم أوليفر بدوره ..

○ أجل أعرفها ، أوليس هنالك وسيلة لمعرفة تلك الأسرار عبر أحجية مثلاً !

● ربما في قادم الأحاجي سيد أوليفر أو ربما لاحقاً في نهاية رحلة التنقيب عن الأسرار بالكامل ، لا تتعجل .. فما يزال أمامنا طريق طويل من الرحلات المثيرة و الغامضة..

و أشار السيد عزيز بإصبعه إلى حوض الأسماك بجوارهما..

● كنصيحة مني في الوقت الراهن سيد أوليفر ، تمتع بالغوص قرب سطح المحيط حيث ترى الكائنات البحرية المذهلة ، الشعاب المرجانية الفريدة و أشعة الشمس التي تتلألأ نابضةً بالحياة .. فهنا تجربة الغوص ساحرة و لا تنسى، لكن تجنب الغوص أكثر من ذلك في الوقت الراهن فعندها ستصل إلى الأعماق و القاع ، حيث يستبدل كل ما سبق بظلام دامس ، صمت مطبق و كائنات متوحشة كسمكة الشيطان الأسود مثلاً ، إنه مكان لن تحب التواجد فيه و تجربة لن ترغب بعيشها على الإطلاق ..

عمّ الصمت لحظات بعد الكلمات الغريبة التي أفصح عنها السيد عزيز، فجلس أوليفر مستغرقًا في تأمل حوض الأسماك المتلألئ بألوانه، كأنه يغوص في بحور غير مرئية من الفكر والذكريات.

كانت نصيحة السيد عزيز مثل خيط ضوء رقيق امتد في ظلمة أفكاره، يناديه للثقة واليقين. فقد تجرّع من قِبَله في ميلانو حكمةً دفعت به إلى اكتشاف كنزه الأعظم، شام، التي أزهرت حياته بألوان المعنى الحقيقي.

وفي هذا الهدوء العميق، تناغمت نبضات قلبه مع إحساس داخلي لا يُخطئ، يدعوه لأن يفتح أذنيه لقلبه، وأن ينصت بعناية إلى ذلك الصوت الحكيم الذي لم يخذله يومًا.

○ بالطبع ، سألتزم بنصيحتك سيد عزيز، و بالحديث عن الحقائق ، لقد

كانت الحقيقة السابقة بخصوص الزيتونة (شجرة السماء) غريبةً و مذهلةً قلبت مفاهيمي عن الحياة رأساً على عقب لأبصر الواقع كما هو لأول مرة في حياتي ، فما هي الحلقة الجديدة التالية في سلسلة الحقيقة ؟

● هنالك حقائق كثيرة و خيارات متعددة لنكمل منها سيد أوليفر، دعني أفكر قليلا ..

تلفت السيد عزيز حوله و أخذ يجول بعينيه ماسحاً المقهى كسونار، كانت هنالك **طاولة بلياردو** في طرفه شاغرة و لا أحد يستخدمها حالياً ..

● مقهى لطيف يشعرك أنك في منزلك كما أن طاولة البلياردو في طرفه حركة ذكية !

○ أجل إنه كذلك ، إنه المقهى الذي أرتاده في العادة للقاء أصدقائي ..

● و هل تجيد لعب البلياردو ؟

تفاجأ أوليفر من السؤال و تغيير مسار الحديث عن الحقيقة بشكل حادّ !

○ بالطبع .. أنا أتقنها !!

● إذا هيا بنا نلعب قليلاً ..

نظر إليه أوليفر بدهشةٍ أكبر ، فالسيد عزيز رجل بالسبعينات من عمره ، وقور و حكيم ، بحيث بدت صورته يلعب البلياردو غير منطقية في عقله بتاتاً !!

○ أتريد لعب البلياردو سيد عزيز ؟! و ماذا بخصوص الحديث عن الحقائق الكبرى .؟

ابتسم السيد عزيز و قد فهم طبيعة نظراته المستهجنة لطلبه..

● اصبر قليلاً سيد أوليفر .. يقول الكاتب و الطبيب **الأمريكي أوليفر هولمز:**

(لا يتوقف الناس عن اللعب لأنهم كبروا، بل يكبرون لأنهم توقفوا عن اللعب) ..

و أنا لا أريد أن أكبر أكثر .. ثم ضحك من قلبه على نحوٍ رأى أوليفر للمرة الأولى ذلك الطفل البريء القابع في أعماق قلبه .. فابتسم ، إنه يرى الآن جانباً آخر من شخصية السيد عزيز ..

اقتربا من طاولة البلياردو في حين تابع السيد عزيز كلامه ..

● أنت تعرف أهرامات الجيزة في مصر سيد أوليفر، أليس كذلك ؟!

○ بالطبع .. !

● الهرم كالحقيقة الكبرى الشاملة تماماً، ضخم و جميل لكنه في الأصل مؤلف من حقائق صغرى كثيرة (القطع الحجرية) و التي تشكل مع بعضها البعض هرم الحقيقة الكبرى .. و في الواقع سيد أوليفر ما من شيء تافه على سطح هذه الكرة الأرضية ، فكل شيء سواءً كان كائناً حياً أم جماداً ينطق بحقيقة صغرى كإحدى تلك القطع الحجرية و باتحادها سوياً يتشكل الهرم الأكبر الشامل لكل شيء ..

○ هذا يبدو صحيحاً ..

● بلى، و لعبة البلياردو مثلاً لا تستهن بها على الإطلاق فهي تنطق بحقائق كثيرة و ستكتشف ذلك بنفسك لاحقاً ، تعال لنلعب قليلاً و نتعلم كثيراً ..

قام السيد عزيز بتجميع الكرات ثم قال ..

● تفضل بعثر الكرات بنفسك ، ابدأ الانفجار العظيم ...

تقدم أوليفر بخطى هادئة نحو الطاولة، وعصاه في يده تتأرجح برقة، كأنها فرشاة رسّام على وشك أن تلامس لوحة بيضاء. ليبعثر الكرات بضربة واحدة، فتفرقت في اتساع الطاولة، تسبح كلٌ في مسارها الخاص، كأنها

نجومٍ انفجرت في سماء الليل الداكنة. توقف للحظة، مذهولًا بهذا التشبيه الغريب والدقيق في آنٍ واحد .. (**تمامًا كحال الانفجار العظيم**) ، تمتم أوليفر، حينما تفرقت المجرات و الأجرام في كل اتجاه، فتسارعت في رحلتها اللامتناهية...

ابتسم السيد عزيز، وأمسك بعصا البلياردو بثقة، وكأن الكلمات تتسرب من بين أصابعه كما يتسرب النور من خلال شقوق نافذة قديمة.

● هذه ليست سوى الحقيقة الصغرى ..

قال بصوت هادئ وحكيم ..

● أما الحقيقة الكبرى فهي ما سيحدث بعد ذلك...

تقدم بثبات نحو الطاولة، وعينيه تلمعان بوميض المعرفة، كأنه يحمل في جعبته أسرارًا من عالم آخر.

أمسك بعصا البلياردو و تابع كلامه ..

● الحقيقة الكونية القادمة التي ستكتشفها سيد أوليفر في رحلتك الجديدة تحمل الصفات التالية :

أولاً ، تمثل لك **عمر الحياة على هذا الكوكب** أي متى تنتهي و يعود كل شيء إلى ما كان ..

ثانياً ، سرها موجود في كثير من الأشياء و بشكل أو بآخر في لعبة البلياردو هذه أيضاً ..

ثالثاً ، ستسافر و تتعب من أجلها كما الحقيقة السابقة بخصوص الزيتونة لكي تشعر بقيمتها بدورها..

فهل أنت مستعد لذلك ؟

جمد أوليفر في مكانه مذهولاً و محدقاً بالسيد عزيز بثبات كما لو أن **أسطورة الميدوسا الإغريقية** نظرت في عينيه فحولته إلى تمثال حجري ، إن هذا كلام خطير و غريب للغاية ، فهل يعرف السيد عزيز حقاً عمر الحياة أم أن ذلك مجرد تخمين منه ؟! ، إنه و بناء على ما حدث في تجربة الزيتونة يدرك تماماً ما الذي يفعله و يملك بلا أدنى شك كمّاً هائلاً من الحقائق الغريبة ، لكن هل هنالك بالفعل أحد يعلم مثل هكذا حقيقة كبرى و هل يعقل أن تبوح طاولة بلياردو بسيطة كهذه بها ؟! إن الحياة ستنتهي يوماً ما بالطبع و بالتالي فلها مدة زمنية محددة ، لكن كيف لك أن تعرف كم تبلغ هذه المدة ؟

بكل الأحوال شام تكمل دراستها في القدس و هو يملك متسعاً من الوقت لخوض غمار رحلات جديدة ، ناهيك عن فضوله الجامح لمعرفة هذه الحقيقة الكبرى المثيرة للاهتمام على نحوٍ متطرف ، ليكن إذاً ..

◯ بالطبع سيد عزيز أنا أكثر من مستعد ..

● إذا هيا بعثر الكرات ، و لنقضِ بعض الوقت على سطح هذه الطاولة المحاكي لوجه كوكب الأرض كما ستكتشف لاحقاً خلال رحلتك القادمة..

لعبة البلياردو ذات مبدأ بسيط و هو إدخال سبع كرات ملونة في حفر جانبية للطاولة عبر كرة بيضاء ، ثم في النهاية بعد إدخال جميع الكرات الملونة ، عليك إدخال الكرة السوداء ذات الرقم **8** لتنتهي اللعبة بذلك ..



قضى أوليفر ساعة من الوقت مع السيد عزيز و أدهشه أنه يجيد البلياردو

بحرفية على نحوٍ أذهله ، ثم دعاه بعدها إلى الغداء في مطعم مجاور ..

غادر السيد عزيز بعد الغداء لارتباطه بموعد هام في هامبورغ و عليه اللحاق بطائرته ، فأوقف سيارة أجرة أمام المطعم لكن قبل أن يستقلها ربت على كتف أوليفر و قال بجدية هذه المرّة ..

● انتظر رسالتي القادمة لتبدأ بها الخطوة الثانية على دروب الحقيقة ، لكن تذكر سيد أوليفر أن تدخل الكرة السوداء الثامنة في الآخر فقط **كاليوم الآخِر** تماماً و ليس قبل ذلك و إلا فإنك تخسر اللعبة ..

ثم ركب السيارة و انطلقت سريعاً حتى اختفت عند أحد المنعطفات ، مخلفةً وراءها أوليفر مذهولاً مع زوبعة من الأفكار تدور في رأسه بلا توقف ..

اليوم الآخِر **!!** ، ما لذي يقصده السيد عزيز به ؟ إنه مصطلح غريب جديد ، و يبدو أنه حجر الزاوية في رحلته القادمة .. **!!**

إن السيد عزيز لا ينفكّ يذهله أكثر فأكثر، و كلما ظن أنه وصل إلى منتهى الغرابة ، فاجأه بالمزيد من الحقائق الصادمة بشدة ..

*****

العودة إلى الجذور

تكشف المستور

وصل أوليفر إلى منزله بينما الليل يمدّ عباءته الحبرية على المدينة، يغمرها بهدوء ثقيل كأنّه يستعد لإسدال الستار على فصلٍ انتهى لتوّه. كل شيء في الخارج بدا متباطئًا، والهواء يحمل برودة خفيفة تشبه ارتجافة الإدراك حين تلامس الحواس حقيقة مبهَمة.

دخل المنزل بخطى نصف واعية، كتلك التي يسير بها العائد من حلم غريب لم يزل عالقًا في أطراف الوعي. روتينه المعتاد أخذه إلى المطبخ، حيث أعدّ كأس متة كما لو أن هذه العشبة الساخنة تحمل له جذورًا يلتصق بها في وجه عواصف اللايقين. ثم صعد بهدوء إلى غرفة المطالعة، ملاذه الداخلي، وحارس ذاكرته العميقة.

هناك، عند طاولة المكتب العتيقة، جلس متأملًا في سكون. أخرج ورقة بيضاء وقلمًا، كمن يتهيأ للغوص في طقسٍ توثيقي، لا بدافع التسلية، بل بدافع النجاة من التبعثر. فاليوم الذي مرّ لم يكن كباقي الأيام، بل كُسر فيه الخطّ المستقيم للزمن، وانفتح شقّ في جدار الواقع، تسللت منه إشارات خفية تتطلب فكّ شيفرتها.

استعرض في ذهنه الوقائع التي تكاثفت على نحوٍ متسارع، متشابك، كأنّها قُذفت إلى حياته دفعة واحدة بقصد إزاحته عن مساره القديم. عودة السيد عزيز لم تكن مجرد صدفة عابرة، بل كانت كعودة نجمٍ خفيّ إلى مداره بعد غياب طويل. ظهوره جاء حاملاً مفاتيحًا جديدة، وأسئلة أخطر من الإجابات.

ثم جاءت النصيحة. تلك العبارة الغامضة عن كرة البلياردو السوداء ذات الرقم **8**، وعن ضرورة إدخالها في النهاية فقط، كما لو أنها استعارة للزمن، أو إشارة إلى دورة الحياة التي لا تكتمل إلا عند تمامها. بدا الأمر أشبه بمفتاحٍ فلسفي يفتح بوابة لمدارك أعمق، حيث يتقاطع اللعب بالوجود، والفيزياء بالميتافيزيقيا.

لكن النقطة الأهم لم تكن في التفاصيل، بل في جوهر الإشارة : هذه ليست النهاية، بل بداية جديدة. التجربة السابقة، التي ظنها خاتمة رحلته، ما هي إلا فصل تمهيدي. لقد تهيأ له أنه بلغ ذروة المغزى، فإذا بها كانت قاعدته الأولى فحسب.

خطّ أوليفر على الورقة ثلاث نقاط جوهرية تلخّص ما جرى :

❁ السيد عزيز نصحه بتجنب الغوص الزائد في التفاصيل و الاستمتاع بالحقائق قرب السطح ..

❁ رحلة الأحاجي مستمرة فالحقيقة عبارة عن سلسلة من حلقات و الحلقة القادمة ستحدد كما أخبره عمر الحياة على سطح كوكبنا العزيز الأرض !

❁ اليوم الآخِر هو حجر الزاوية في المغامرة القادمة ..

فمن أين يبدأ ؟

كانت الخطوة التالية واضحة فرضت نفسها بقوة ، إنه اليوم الآخِر ، فهو هام لا محالة و إلا لما ذكره السيد عزيز في نهاية الحديث ليختم به كلامه كما لو أنه يعطي أوليفر طرف الخيط الذي ينبغي البدء منه ، فما هو هذا اليوم الغريب ؟

حاول أن يستنبط حقائق عنه بنفسه عبر المحاكمة قبل ان يلجأ إلى الشبكة العنكبوتية ..

إن الاسم يوحي بشيء سريالي من عالم آخر ، و وصفه بالآخِر يشير إلى وجود أيام أخرى كثيرة قبله ليختمها جميعاً بحيث أن لا أيام بعده كما يبدو .. لكن لا معلومات أكثر يقدمها التحليل الذهني بخصوصه .. لم يضع أي

ثانية أخرى بالتفكير العبثي و سارع بفتح حاسوبه ليكتب في محرك البحث (اليوم الآخر) ، كانت هنالك نتائج عديدة للغاية و كلها تتحدث عن ذات الفكرة ، بأنه مصطلح قرآني من كتاب الله عند المسلمين ذكر في آيات عديدة .. و كانت جميع الآيات تقرن الإيمان بهذا اليوم بالإيمان بالله ، فمثلا إحدى الآيات التي قرأها كانت تنص على :

(البر من آمن بالله و اليوم الآخِر)

غريب للغاية !! ما هو هذا اليوم الهام لدرجة قرن فيها بالإيمان بوجود الذات الإلهية بنفسها ؟! .. إنّ الآيات لخيبة أمله لم تفسر معناه و مغزاه بدقة مما زاد من غموضه !

هل سيقوم السيد عزيز بتفسير معناه لاحقاً في الأحجية المرتقبة ؟ ربما فهذا مرجح ..

إنه يسير على خطى الرحلات السابقة بخصوص الزيتونة ، لقد بدأت بدورها بآيات قرآنية لتتسارع الأحداث بعدها على نحوٍ مثير و تفتح له أبواباً عديدة أوصلته إلى حقائق كبرى و الأهم إلى ألماسته النفيسة شام .. فهل ختام رحلته القادمة سيكون بنفس القدر من الأهمية ؟!

إنه لا يتوقع أقل من ذلك من السيد عزيز .. الرجل الغامض ..

اكتفى بما وصل إليه ثم نزل لتناول العشاء مع ماتيوس و كلمتان لا غير تدوران في ذهنه كحلقة مفرغة ..

اليوم الآخِر .. اليوم الآخِر ..

*****

مرّت الأيام التالية ثقيلة الوطء على أوليفر، أشبه بحصى صغيرة تتساقط ببطء مقيت في ساعة رملية صدئة. الزمن، الذي كان يركض لاهثًا خلال

رحلاته السابقة، بدا الآن وكأنه يسير على عكازين مكسورين، يعرج في رتابة قاتلة. كان ذهنه، المدمن على الألغاز والمغامرات، يعيش حالة استنفار دائم، كقوس مشدودٍ منذ لقائه الأخير بالسيد عزيز، ينتظر سهمًا جديدًا ينطلق.

لم تعد الأعمال اليومية تثير فيه شيئًا. مكالمات روتينية متفرقة لتسيير شؤون العمل، رسائل بريد إلكتروني فاترة، جلسات متكررة مع ماتيوس لا جديد فيها، وكؤوس المتة التي كانت تهدئه في الماضي، باتت تزيد من ضجره الآن. حتى عزفه على الكمان الذي كان يشعل روحه بدا فجأة كمن يحاول إشعال نار وسط جليد.

أما شام، فتقيم في القدس، غارقة في دراستها، بعيدة كأنها نجم في مجرة أخرى. الهاتف وحده يربط بينهما، لكن الكلمات عبر الأثير لا تكفي، والحنين كان أشبه بماء مالح لا يروي ظمأه.

وفي اليوم الخامس بالضبط، حين بدأ يقتنع في قرارة نفسه أن هذه المرحلة هي امتحان للصبر أكثر من كونها تمهيدًا لمغامرة، وصلته الرسالة المنتظرة.

لم يكن هناك اسم مرسل، ولا عنوان بريد الكتروني، فقط إشعار على تطبيق التواصل الاجتماعي، ظهر كما لو أنه خرج من العدم. وحين فتحه، أحس بقلبه ينبض بإيقاع مختلف، وكأن آلة الزمن في داخله دارت من جديد.

أحجية جديدة. بدايتها تشبه اللغز، ونهايتها مفتوحة على المجهول. عادت نكهة المغامرة إلى فمه، وتوهجت في عينيه ذكريات رحلاته السابقة ،من ميلانو إلى لاباز، ومن قرطاج إلى بانكوك ثم أخيرا القدس. لقد عاد اللعب الكبير إلى الواجهة.

قرأ نص الرسالة، وهو يكاد يشعر بدقات قلبه تُحدِث رجع صدى في جدران الغرفة :

حتى تصل قمة الهرم ابدأ من قاعدته

لذا كي تتكشف أموري ابحث في جذوري

فهناك..

بيت الكتاب يفتح الأبواب

و كلام الله يجلو الضباب

لتحل الحقيقة مكان السراب

عزيز اليقين

و كان مرفقاً بالأحجية مجموعة أرقام غريبة في عدة سطور على نحوٍ جديد و مختلف عن الأحاجي السابقة !..

لم يكن في الأحجية ما يشير إلى تفسير مصطلح (اليوم الآخر) كما توقع .. لكنه لم يتذمر و باشر على الفور بمحاولة فك شفرتها، مستفيداً من خبرته السابقة في هذا المجال ، فبدأ بكل جزء منها على حدا ، ليكتشف أنّ أغلب الأجزاء ضبابيةً و محيرةً ، باستثناء فكرتين فقط واضحتين نسبياً و هما بيت الكتاب الذي يقصد به السيد عزيز مكتبة على الأرجح ، و كلام الله الذي يقصد به أحد الكتب السماوية كما يبدو ، لكن لا أكثر من ذلك .. أما الأرقام فهي عشوائية ككويكبات شاردة في الفضاء الخارجي بكافة الاتجاهات ، بحث عنها على حاسوبه فقد تكون إحداثيات جغرافية لمكان معين عليه زيارته ، لكن بدون جدوى ، إذ لم يعثر على أي تفسير منطقي لها ..

شعر بنفسه قد وصل إلى طريق مسدود .. لم يستسلم مجدداً و أعاد قراءة الرسالة بعمق أكثر ، و هنا خطرت بباله فكرة خلاقة أدرك على الفور أنها مناسبة على نحو مثالي ، فالجزء الثاني القائل بأن أمور السيد عزيز تتكشف بالعودة إلى جذوره يوحي بموطنه و مسقط رأسه ..

إنه يتذكر كلامه في ميلانو ، لقد أخبره حينها أن أصوله تعود إلى مدينة الإسكندرية في مصر ..

عاد إلى حاسوبه و بحث مجددا عن ثنائيات من الاسكندرية و بيت الكتاب أو الاسكندرية و كلام الله ، فوجد ضالته على الفور .. ابتسم بانتصار ، إنها مكتبة الاسكندرية الشهيرة ، لا بد أن هذا ما يقصده السيد عزيز و هو منطقي للغاية كما يفسر ما تبقى من الأحجية الذي يشير بشكل صريح إلى وجود شيء ما في تلك المكتبة ينتظره ليحل الأحجية بالكامل و يمنحه الحقيقة الجديدة المنتظرة (فهناك بيت الكتاب يفتح الأبواب لتحل الحقيقة مكان السراب) ..

إذاً فقد تحددت وجهته التالية إلى الاسكندرية ، و بالتحديد إلى مكتبتها ذائعة الصيت ، هنالك يرى ما تيسره السماء ، على كل حال هذا هو خياره الوحيد المتاح تبعاً لمضمون الأحجية إذ أنها لا تشير إلى أية أسماء .. مجرد عنوان مكان سيفتح له أبواب أكثر تقوده ربما إلى لقاء أشخاص تنتظره الحقيقة عندهم أو على أقل تقدير تفسر ذلك المصطلح الغريب الذي ذكره السيد عزيز (اليوم الآخر) !

أجرى ترتيباته المعتادة فحجز تذكرة سفر إلى القاهرة مع غرفة فندق في الإسكندرية و إعصار من الحماس ، الفضول و الترقب يجتاح روحه ، لقد افتقد متعة حل الأحاجي و السفر للتحري و تقصي الحقائق خلال الشهور المنصرمة ، و ها هو الآن يعاود التجربة مجدداً ..

*****

صباح اليوم التالي ...

جلس أوليفر في قاعة الانتظار في مطار ميونخ، بينما كان ضجيج المكان يهمس بحكايات المسافرين العابرة، تتقاطع فيها الوجوه واللغات والنيات. كان يحمل في قلبه نية واحدة فقط : أن يسافر في الزمان بقدر ما يسافر في المكان.

فتح هاتفه، وانهمك في قراءة معلومات عن مصر، تلك البلاد التي ظلت

تشدّ إليه بوصلة روحه منذ نعومة فضوله. ما إن بدأ بالغوص في تفاصيل الإسكندرية حتى شعر وكأنه يعبر بوابة زمنية، فالمدينة التي تحمل اسم

الإسكندر الأكبر ليست مجرد بقعة ساحلية، بل شاهدٌ حيّ على مفترق طرق التاريخ، حيث امتزج الغرب بالشرق، والفكر بالأسطورة.

علم أن الإسكندر اختار موقعها لتكون همزة الوصل بين اليونان العظيمة ونهر النيل الذي لا يموت، وأنها نشأت على أنقاض قرية صيادين وادعة تدعى **راكوتيس**. شيء في تلك التحوّلات الزمنية بين قرية صغيرة وإمبراطورية بحرية أسَرَ خياله. أحسّ أن خلف هذه الوقائع يكمن رمزٌ ينتظره.

من بين معالمها لاحت له صور **مكتبة الإسكندرية** الجديدة، كأنها مرآة المستقبل لأسرار الماضي، وتمنى أن تسعفه الأيام ليزورها، كما تمنى أن يزور **قصر قايتباي** حاملاً صدى المدافع القديمة حين يواجه بهدوئه المهيب هدير البحر، وأن ينعم ببعض الصفاء تحت ظلال حدائق **قصر المنتزه**. لكنّه يدرك أن رحلته هذه لن تكون سياحية.. بل روحية، رمزية، متوغلة في عمق السؤال الأزلي الذي يلاحقه منذ مدة : كم عمر هذا الكون ؟ وما الذي يعنيه أن تكون الحياة مؤقتة ؟

ارتفع صوت النداء أخيرًا، فوقف متأملاً الجملة :

يرجى من الركاب التوجه إلى بوابة الصعود

بدا له هذا النداء أشبه بجملة انتقالية بين فصلين من رواية ملحمية.

جلس إلى جوار النافذة، كما اعتاد في كل سفراته. ليس حبًا بالمشهد فحسب، بل لأنه يؤمن أن التأمل في طبقات الغيوم يُعيد ترتيب أفكاره كما يُعيد الحلم إلى مكانه الصحيح. أخرج من حقيبته كتابه المفضل تاريخ الكون وأصل الحياة، وفتحه ببطء كمن يرفع الغطاء عن كنز دفين. لم يكن مجرد كتاب، بل كان بوصلته النظرية لمهمة أشبه بالحجّ العلمي.

يعلم من مقدمته أن المؤلف يستعرض ثلاث أفكار رئيسية لا غنى عنها لمن يرغب بفهم عُمْر الكون :

- **الانفجار العظيم و تشكل الأجسام تحت الذرية ثم الذرات**

فالعناصر ..

⊙ **تشكل المجرات و توسع الكون** ..

⊙ **تطور الحياة على سطح كوكب الأرض** ..

و يبقى الشق الأخير الأهم ، كيف سينتهي الكون و متى ؟ و قد تكفل السيد عزيز بنفسه بالإجابة عنه ، فهل يفعلها ؟

هز رأسه مذهولاً ، يا إلهي إن مجرد التفكير بذلك يصيبه بالقشعريرة ..

تبعاً للكتاب فعمر الكون المقدر هو تقريباً **13.8** مليار سنة ، و قد قدره العلماء بالاعتماد على طريقتين :

☆ **البحث عن أقدم النجوم** .

☆ **قياس معدل توسع الكون واستخدام الاستقراء عودةً إلى الوراء نحو الانفجار العظيم** ..

فكم تبقى من عمره ؟

انتهى أوليفر من قراءة الكتاب بالتزامن مع انتهاء الرحلة التي لم يشعر بها إطلاقاً و هو غارق في المطالعة و التأمل ..

*****

مصر / القاهرة ...

استلم أوليفر حقيبته بصمت منهك من الرحلة الطويلة، ثم اندسّ في أول سيارة أجرة أمام مطار القاهرة الدولي بعد اتفاق سريع مع السائق على التوجه مباشرة إلى الإسكندرية، حيث يقبع مفتاح الأحجية الجديدة.

انطلقت السيارة عابرةً شوارع القاهرة الليلية، ثم ما لبثت أن انسلت بمحاذاة الجيزة، حيث بدت الأهرامات الثلاثة كشواهد أبدية من الضوء والظل، تعانق سماء الليل بعظمة لا تنطفئ. أما أبو الهول، فكان جالسًا هناك ككاهن حجري، يحدق إلى الأبد بصمتٍ مخيف، يحرس أسرار الزمن ويدفن تحت مخالبه ملايين الأسئلة. التفت إليه أوليفر من نافذته، وأحسّ للحظة بأن التمثال العملاق يراقبه هو بالذات، بعينين لا تنامان.

ثم شقّت السيارة سبيلها إلى طريق الإسكندرية الصحراوي، تبتلع الكيلومترات وسط بحرٍ من الظلام، بينما السماء فوقه كانت تلمع بنجومٍ تشبه نثارًا من الأحلام البعيدة، يتراقص فوق الرمال.

وصل إلى وجهته في حدود منتصف الليل، أنهكه الإرهاق فاستلم مفتاح غرفته دون تبادل أكثر من بضع كلمات، صعد إلى الطابق الثالث، رتّب حاجياته، اغتسل، ثم انهار على الفراش كأنما أغمي عليه من التعب. لم تمر سوى لحظات حتى كان غارقًا في نومٍ عميق، كمن أُلقي في حضن النسيان.

حين أشرقت شمس الصباح، لم يكن أوليفر هو ذاته الذي نام الليلة الفائتة. نهض من سريره كمن عاد من بُعدٍ سحيق، ذهنه حادّ كنصل خنجر، وروحه تشتعل شغفًا. تناول فطوره على عجل في مطعم الفندق، ثم استقل سيارة أجرة باتجاه مكتبة الإسكندرية، وجهته التي حلم بها طيلة الرحلة.

ترجّل أمامها ووقف مشدوهاً. كانت ضخمة، شاهقة، تحمل في هيئتها ما يشبه النبوءة. واجهتها الزجاجية المائلة محاطة بالمياه، تعكس الشمس ببهاءٍ

جعل المبنى يبدو كقرص متوهج ينهض من بحر الزمن، فيما الجدار الجرانيتي المجاور قد رُسم عليه تاريخ البشرية بحروفٍ من كل لسان، وكأن المكتبة تصرخ بلطف : أنا ذاكرة الإنسانية، وكل من عبر ..

كانت المكتبة أشبه بمعبدٍ عصري، يجمع بين حداثة الفكر وعبق الماضي، بين حجر اللغة ونور المعرفة.

وحين ولجها، اجتاحته رهبة عظيمة. الطوابق العشرة تمتد كمدارج نحو الأعماق، معظمها تحت مستوى سطح البحر، وكأن الداخل إليها لا يصعد بل يغوص... تذكّر قول السيد عزيز في ميونخ : **الحقيقة تسكن الأعماق يا سيد أوليفر، تماماً كالآلئ الثمينة.**

خطا بين أروقتها كمن يسير في حقل ألغام من الاحتمالات. كيف يبدأ ؟ ما هي الخيوط التي سيلتقطها ؟ ما هو السرّ المدفون هنا بين ملايين المجلدات والرموز ؟

تنفّس بعمق ثم توجّه إلى مكتب الاستعلامات حيث كانت تجلس موظفةٌ شابة خلف شاشة حاسوب... ألقى التحية بعينيه قبل صوته، وفي داخله سؤالٌ يتوهّج كجمرة :

● من فضلك ، كيف يمكنني العثور على كتاب محدد هنا ؟

○ أعطني عنوان الكتاب و أنا أدلك إلى مكانه ، فالمكتبة هنا مقسمة إلى أقسام تحوي كل منها عدد من المكتبات و كل مكتبة مقسمة إلى رفوف تضم كتبا بترتيب معين و أنا أدلك إلى ترتيب كتابك ..

ذكره تقسيم المكتبة الدقيق على الفور بالأرقام المرفقة بالأحجية فهل الغاية منها أن تقوده إلى كتاب محدد هنا ؟! منطقي للغاية .. ليجرب على كل حال فهو الخيار الوحيد المتاح بين يديه كما أنه يبدو مناسباً تماماً ..

● جميل ، و هل يمكنني التجول في المكتبة و قراءة عناوين الكتب ثم انتقاء ما يعجبني للمطالعة ..

○ بالطبع يمكنك ذلك ..

● حسنا ، أشكرك ..

○ أنا بالخدمة .. أهلا و سهلا بك ..

*****

نهاية البداية و بداية اللانهاية

مصر / الإسكندرية ...

مكتبة الإسكندرية ...

وقف أوليفر في قلب المكتبة الفسيحة، حيث تعانق أشعة الشمس الزجاج المتلألئ فوقها، فتنساب عبره الأشعة الذهبية باعثةً الحياة في أروقة المكان العتيقة. أصوات الخطوات المتناثرة، وهمسات الباحثين، وصدى صفحات الكتب تطبع على الأجواء هالة من الوقار والدهشة، وكأن المكتبة نفسها كائن حي ينبض بالحكمة والعراقة.

في وسط هذا المشهد المتألق، أخرج أوليفر هاتفه ببطء، وكأن اللحظة تستحق كل تقدير. أضاء الشاشة بنور خافت وسط عظمة المكان، وفتح الرسالة التي حملت بين طياتها تلك الأرقام الغامضة، كأنها شفرات من عالم موازٍ، تهمس له بكنوز من المعرفة تنتظر من يجرؤ على فك طلاسمها. تلك الأرقام لم تكن مجرد رموز، بل مفاتيح لمغامرة قادمة، لحقيقة تنتظر من يلاحقها وسط أعماق الزمان و المكان.

رغم صخب الحياة من حوله، شعر أوليفر بوحدة مؤثرة، كما لو أن الزمن توقف به للحظة ليستمع إلى نداء مجهول ينبعث من داخل تلك الأرقام. عيونه ثابته على الشاشة، وعقله يشتعل بشوق التحدي، مستعدًا ليخوض غمار رحلة جديدة عبر الألغاز، رحلة يقودها فضول لا يهدأ وطموح لا يعرف حدودًا.

كان الرقم الأول هو **4** ، غالباً نحن نتحدث عن القسم هنا ، فاتجه إلى القسم الرابع و كان يضم الكتب العلمية ، ماذا الآن ؟ الرقم الثاني هو **10** ، و هو على الأرجح يشير إلى رقم المكتبة ، انتقل إليها ، الآن المنطق يقول أن الرقم التالي هو أحد الرفوف ، فبدأ بالعد حتى وصل إلى الرف **12** و كان مرتفعاً لذا استعان بسلم مجاور .. الرقم الذي يليه هو **6** ، هو رقم الكتاب بالطبع ، أمسكه و سحبه ، وكان بعنوان **نسبية الزمن** ، منطقياً هو يتحدث

عن النظرية النسبية **لأينشتاين** و علاقتها بالزمن و كيف أن الزمن يختلف من مكان لآخر بحسب طبيعة الأشياء و سرعتها حتى تصل إلى سرعة الضوء فيتوقف الزمن تماما ..

نزل عن السلم و اتجه إلى طاولة مطالعة مجاورة ..

ماذا الآن ؟ بقي رقمان ، أولهما يشير بحسب المنطق إلى رقم الصفحة ، قلب الصفحات إلى الصفحة **79** ، بقي رقم وحيد و هو غالباً يدل على سطر في الصفحة ، بدأ بعد الأسطر حتى وصل إلى السطر **14** و كان عبارة عن مقولة بين قوسين مقتبسة عن أينشتاين في سياق الحديث عن نظريته :

(**العلم دون دين أعرج، والدين دون علم أعمى**)

أخذ يفكر فيها للحظات ، إنها غريبة و معبرة إلى أقصى حد ، فهي تشير إلى حاجة كل من الدين و العلم لبعضهما البعض و عدم إمكانية استغناء أحدهما عن الآخر كتوأم سيامي ملتصق ببعضه و مصيره واحد..

فالعلم بلا دين ينقصه شيء هام يمنحه غاية، و الدين بلا علم كلام في الظلام لا معنى له ..

إنه كلام غير عادي من عالم غير عادي ، تذكر جده **ملهم** والد أمه في طفولته و خلال أيام المدرسة ، كان يشجعه باستمرار على الدراسة و يقول له بشكل متكرر مقولة دينية معروفة (**العلماء ورثة الأنبياء**) يا أوليفر ، إنهم أنبياء العصر الحديث .. إنه محق تماما ..

فكر مجدداً ، ماذا الآن ؟

انتقل إلى السطر الثاني من أرقام الرسالة ، و مشى على ذات الطريق ، كان الرقم الأول هو **8** فذهب إلى القسم الثامن و كان خاصاً بالكتب الدينية هذه المرة ، الرقم الثاني **5** فذهب إلى المكتبة الموافقة ثم الرف **3** فالكتاب **9** و

أخرج الكتاب المرافق ، كان نسخةً من القرآن الكريم كتاب الله عند المسلمين

إذاً هو على الطريق الصحيح بحسب الأحجية (كلام الله يجلو الضباب) ، أحس بشعور مريح ..

هكذا ينتهي السطر الثاني من الأرقام فماذا عن بقية السطور ! كانت أربع ثنائيات مكونة من رقمين ..

أخذ القرآن بدوره و اتجه إلى طاولة شاغرة قريبة للمطالعة ..

ما الخطوة التالية ؟

فكر قليلا ، إن القرآن بحسب معرفته من والدته الراحلة كتاب مؤلف من عدة سور و كل سورة مقسمة إلى عدة آيات ، إن ذلك يذكر بثنائيات الأرقام المرفقة بالرسالة ، فهل هذا تفسيرها (ثنائية السورة و الآية) ؟!! على الأغلب هو كذلك ..

بحث عن السورة الأولى ثم الآية المرافقة لها و أخذ ذلك منه بعض الوقت ، و كان نص الآية بعد أن وجدها :

(**إن السموات و الأرض كانتا رتقًا ففتقناهما**)

انفجرت الآية في دماغه على الفور كقنبلة ذرية ، لقد ذكرته مباشرة بالانفجار العظيم للكون الذي شكل لاحقاً المادة و الخلاء ، إنه بلا شك على الطريق السليم ، فالآية تتحدث عن الكون و هو موضوع الأحجية كما

أخبره السيد عزيز ..

إنه يذهله مجدداً فهو يطرح القرآن من زاوية مختلفة معتمدة على العلم بعيداً عن الصورة النمطية المتبعة عادةً وهو يشير بشكل واضح إلى بداية القصة من أساسها و ولادة الكون من رحم الانفجار العظيم ، فما التالي ؟

الأفضل أن يكمل على نفس الطريق ، فبحث عن السورة التالية و الآية

المرافقة لها ، و كانت تنص بدورها على :

(و السماء بنيناها بأيدٍ و إنا لموسعون)

ما زلنا نتحدث عن الكون ، إذا هو ما يزال على الطريق الصحيح ..

شعر بشيء من الرهبة ، إن هذه الآية تتحدث بشكل واضح و لا لبس فيه عن توسع الكون ، و هذا مذهل على نحوٍ غريب فتلك حقيقة علمية حديثة العهد في حين أنّ القرآن كتاب قديم العهد يعود إلى عدة قرون ..

بالتالي فالسيد عزيز يتحدث الآن عن الكون في وضعه الراهن و هو يتوسع ، فماذا بعد ؟

المنطق يقول بأن السيد عزيز سيتطرق هنا إلى مصير الكون و نهايته و هو جوهر الأحجية الراهنة ..

بحث عن السورة قبل الأخيرة بحسب تسلسل الأرقام و الآية المرافقة لها ، فكانت :

(يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب ، كما بدأنا اول خلق نعيده ،وعدا علينا إنا كنا فاعلين)

شعر بقلبه يخفق بشدة ، إنها بالفعل تشير إلى نهاية الكون و الطريقة المذكورة تشرح أن الكون سيعود إلى هيئته الأولى التي بدأ منها ، و بحسب معلوماته فقد بدأ من نقطة مفرطة في الصغر و الكثافة و انفجرت لاحقاً لتكون الكون ، فكيف سيعود هذا الكون الواسع إلى تلك النقطة الصغيرة ، إن في هذا إشارة إلى انكماش الكون لاحقاً بعد توسعه إلى حدود معينة ، أي أن كوننا لن يتوسع إلى ما لانهاية و هذه فكرة علمية خطيرة للغاية ..!!

ابتسم بدهشة ، إنه شخص علمي بطبيعته و غير متدين فعلياً ، و لم يكن يدري أن بإمكان الكتب الدينية أن تكون ممتعة و شيقة بأن تطرح حقائق علمية و كونية بهذا الشكل ..

لقد اكتشف للتو أن الموضوع برمته قائم على تدوير الزوايا و طرح

المواضيع بطريقة خلاقة و جديدة ، و السيد عزيز بارع في ذلك بلا أدنى شك .. لقد جعل من آيات القرآن بحد ذاتها أحاجٍ تنتظر الحل و التفسير بشكل مشوق ..

بقيت ثنائية واحدة فقط من الأرقام ، و شعرٌ برهبةٍ عارمةٍ تجتاحه ، فبناء على كلام السيد عزيز ستقوده إلى الآية المنشودة التي ستحدد بالضبط عمر الحياة ، فهل يحوي القرآن فعلاً مثل هكذا معلومة ؟؟؟

بحث بأصابع مرتجفة من شدة الحماسة ، و كان مضمون الآية كالتالي :

(و إن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون)

ها قد وصلنا إلى صلب الأحجية حول عمر الحياة ، فنحن نتحدث الآن عن الزمن بشكل رسمي ..

ذكرته الآية على الفور باليوم الآخر الذي ذكره السيد عزيز في ميونخ ، إنه اليوم يعود من جديد إلى واجهة الحديث ، لكننا نتحدث هنا عن يوم إلهي يعادل ألف عامٍ بشري ! إنه اختلاف الزمن بين عالمين من جديد و النسبية تلقي بظلالها مرة أخرى ..

أخذ أوليفر يستجمع أفكاره معاً ، و يحاكم بمنطق و عمق ، فالموضوع أصبح جدياً للغاية و نحن هنا نتحدث عن صميم الحقيقة الكبرى الراهنة ..

وفقا لهذه الآية فمنذ ميلاد السيد المسيح حتى الآن مضى **2022** عاماً أي بحسب الآية يومان إلهيان و دخلنا في اليوم الثالث !؟

لكن ماذا عن الفترة قبل ميلاد السيد المسيح ، كم يوماً مضى ؟

استعان بهاتفه الخلوي للبحث عن هذه النقطة ، و وجد ضالته في **سفر التكوين (التوراة)** كتاب الله عند اليهود ، و الذي يتناول الحياة قبل ميلاد السيد المسيح و كانت هنالك معلومات كثيرة تتناول أعمار الأنبياء حسب ذكر الكتاب لها منذ السيد آدم و حتى السيد المسيح ، و أغلب الدراسات تقدر أن مجموع السنوات بينهما حوالي **4000** عام ، **إذا قبل السيد المسيح هنالك <u>أربعة</u> أيامٍ إلهيةٍ و بعده <u>ثلاثة</u> و نحن الآن في اليوم الإلهي السابع**

!! أي أننا في آخر أيام الأسبوع الإلهي **!!**

و هنا خطرت بباله فكرة غريبة جعلت القشعريرة تغمر جسده بالكامل و دماغه يدور في زوبعة من الأسئلة الخطيرة :

يا إلهي هل الحياة الدنيا عبارة عن سبعة أيام إلهية أي سبعة آلاف سنة أرضية و نحن في نهايتها الآن ..

و هل اليوم الآخر الذي ذكره السيد عزيز في ميونخ هو اليوم الثامن بعد الموت و يلي أيام الحياة السبعة أخيراً فيختمها و هو أبدي يستمر إلى ما لانهاية أي لا أيام بعده لذا سمي بالآخر .. لهذا هو هام للغاية و قرن الإيمان به بالإيمان بالله !؟

تذكر رقم ثمانية 8 يشير شكله إلى اللانهاية و هذه صفات الحياة بعد الموت أي الأبدية ..

إنها فكرة سريالية و نظرية غريبة قد تكون صحيحة أو خيالية ، لكنها بلا شك تطرح علامات استفهام كثيرة ..

هل هو على الطريق الصحيح في حل الأحجية ، و هل هذا ما قصده السيد عزيز ؟

سرعان ما اجتاح ذاكرته لقاءه بالسيد عزيز في ميونخ و لعبة البلياردو هنالك ، حيث تدخل الكرات الملونة السبعة و بعدها فقط يمكنك إدخال الكرة الثامنة السوداء لتنتهي اللعبة بذلك ، إنها مثال مبسط و دقيق للغاية عن هذه الفكرة ، و لابد أن هذا ما قصده السيد عزيز ، تذكر أيضاً كلامه قبيل رحيله إلى هامبورغ عن إدخال الكرة الثامنة بعد الانتهاء من إدخال جميع الكرات السبعة الملونة كاليوم الآخر الثامن الأخير تماماً الذي يتلو أيام الحياة الدنيا السبعة لكي تفوز باللعبة ، هذا يفسر كل شيء و يضع الأمور في نصابها الصحيح .. بالتالي فتحليله سليم بالكامل ..



كان الموضوع بسيطا و مذهلا بنفس الوقت ، فقد تمكن السيد عزيز بعبقرية

من خلال بضع آيات قرآنية أن يرسم لوحة متكاملة خاصة به ، عنوانها حياة الكون من المهد إلى اللحد ، الانفجار الكبير و ولادة الكون ثم توسعه و أخيرا انكماشه وعودته إلى هيئته الأولى ، و أكثر من ذلك طرح فرضية محتملة عن تحديد مدة الحياة الزمنية (**7000** سنة) اعتماداً على كلام الله في كتبه السماوية الثلاثة .. و كل هذه الحقائق ملخصة على نحوٍ معجز في لعبة البلياردو كما لمّح السيد عزيز بالفعل في ميونخ .. هذا مذهل .. !

و الآن ماذا يفعل ؟

لقد أكمل حل الاحجية و باحت بجميع أسرارها الغريبة ..

نظر في ساعته ، كان قد استغرق ثلاث ساعات كاملة في البحث و التفكير دون أن يشعر بها على الإطلاق ..

أعاد القرآن إلى مكانه المناسب ثم غادر المكتبة و طوفان من الأفكار يجتاح عقله ، من الصعب أن تعود الحياة في نظره كما كانت من قبل ، فنحن اليوم لم نعد في القرن الحادي و العشرين ، بل نحن في اليوم الإلهي السابع والأخير ، و خلفنا أسبوع إلهي مفعم بالأحداث .. حضارات ، امبراطوريات ، حروب ، أديان ، اكتشافات و اختراعات ، أما أمامنا فينتظرنا اليوم الإلهي الثامن اللانهائي بعد الموت (اليوم الآخر المقدس) بحسب القرآن !

يا إلهي هل نحن قريبون لهذه الدرجة من نهاية البداية و بداية اللانهاية ..

*****

غادر أوليفر مكتبة الإسكندرية ، و قفل عائداً إلى غرفته بالفندق حيث أعد كأس متة ثم جلس يراجع الأحداث و يفكر بالخطوة التالية ..

إنّ أفضل خطوة الآن هي العودة إلى ميونخ و انتظار تواصل السيد عزيز معه لذا قرر العودة غداً صباحاً ، لكن فجأة خطرت بباله فكرة غيرت مجرى الأحداث تماماً ، إنه الآن في الاسكندرية مسقط رأس السيد عزيز ، فلماذا لا يسأل عنه هنا و يزوره إن استطاع ؟ يمكنهما عندها مناقشة ما توصل إليه من الأحجية الأخيرة و الحقيقة المنبثقة عنها ..

اقتنع بالفكرة تماماً فنزل على الفور إلى موظفة الاستقبال و حياها ..

● آنسة **سلوى** ، هل تعرفين شخصاً هنا في الاسكندرية يدعى السيد عزيز اليقين ؟

ابتسمت الموظفة ..

○ بالطبع ، السيد عزيز رجل أعمال معروف بشكل كبير هنا ..

● و كيف يمكنني الاستدلال إلى عنوانه ؟

○ لحظة من فضلك ..

أجرت مكالمة سريعة تغيرت معها معالم وجهها ثم كتبت شيئا على ورقة و سلمتها لأوليفر ..

● تفضل هذا هو العنوان ، هل تريده بسبب الحادث ؟

خفق قلب أوليفر بشدة ..

○ أي حادث ؟

بدا الارتباك واضحا على الموظفة ..

● أعتذر عن إخبارك بذلك ، و لكن السيد عزيز تعرض بشكل مؤسف لحادث سير فجر اليوم على كورنيش الاسكندرية البحري ..

○ و هل أصابه مكروه ؟

● آسفة ، لكني لا أملك أي معلومات عن ذلك فقد سمعت الخبر للتو ..

○ أشكرك جزيل الشكر على تعاونك ..

● على الرحب ، أهلاً بك في بلدك مصر ، عذراً على هذا الخبر السيء و أتمنى السلامة للسيد عزيز ..

*****

لم يبد أوليفر أدنى تردد، فانطلق من فوره متجهًا إلى منزل السيد عزيز، وترك خلفه أروقة الفندق الهادئة التي لم تعد تليق بحالة قلبه المشتعلة. كانت نبضات صدره تتسارع كأنها ساعة تدق إيقاعًا متصاعداً، ملأ جسده أدرينالين مفعم بالتوتر و القلق المختلطين. فرغم قصر المدة التي عرف فيها السيد عزيز، إلا أن تلك العلاقة النامية كانت بالنسبة له كرحلة عمر طويلة، وكأن عزيز هو أبوه الذي فقده ذات لحظة مأساوية في حادث سير أليم في فرنسا ، وها هو الآن يخشى أن يفقده مرة أخرى و بنفس الطريقة، كما لو أن العالم يهدد بسلبه آخر ملاذاته.

بعد ربع ساعة من السير عبر شوارع هادئة، توقف أمام منزل السيد عزيز كما ذكر في العنوان. تقدّم أوليفر ببطء، راصدًا تفاصيل المكان بعين الباحث المتلهف. كان منزلاً من طابقين، تحيط به حديقة وارفة الأشجار، ضخمة ومكتنزة، تحوّلت إلى جزيرة خضراء وسط عالم صخري صارم. قرب البوابة، لاحظ كشكًا صغيرًا تعتليه ظلال المساء، يجلس فيه رجل مسن ذو ملامح عميقة تحمل أثقال الزمن ..

ابتسم للرجل و طلب لقاءه ، فاقترب منه و فتح البوابة ..

● كيف يمكنني خدمتك سيدي ..؟

○ أنا صديق السيد عزيز و جئت لأطمئن عليه ..

نظر إليه البواب بحزن عميق ..

● السيد عزيز تعرض لحادث فجر اليوم حيث غرقت سيارته في البحر و لم يعثر له على أثر بعدها ..

حدّق فيه بتمعن أكثر و قد أثارت لكنته الواضحة انتباهه ..

● هل أنت السيد أوليفر ؟!

خفق قلب أوليفر بشدة ..

◯ بلى أنا هو ..

● هل أستطيع التأكد من هويتك ..؟

تفاجأ من طلبه الغريب ، لكنه أخرج له بطاقته الشخصية الألمانية و أراها له ، لم يفهم البواب من اللغة المكتوبة سوى الاسم ثم قارن بين الصورة و وجه أوليفر ..

● أهلا بك سيد أوليفر أعتذر عن هذا الاجراء و لكنه طلب السيد عزيز ، فقد ترك لك أمانة معي و أخبرني أن أسلمها لك شخصياً في حال أصابه أي مكروه ..

◯ لا بأس ، لا بد أن للسيد عزيز أسبابه الخاصة وراء ذلك ، و ما هي الأمانة ؟

دخل البواب إلى الكشك لثوان ثم خرج و سلم أوليفر ظرفاً مغلقاً و مختوماً.

● هذه هي الأمانة ..

استلمها منه بفضول و توتر ثم شكره و ودعه ..

لم ينتظر الوصول إلى الفندق كي يعرف محتوى الظرف ، فقد كان قلقاً و متلهفاً للغاية ، لذا عند ناصية الشارع توقف و فتح الظرف بأصابع مرتجفة ، كانت بداخله رسالة مطوية، فتحها و قرأها فتغيرت معالم وجهه جذرياً ، إذ كان نص الرسالة مفاجئاً تماماً له :

إذا استلمت رسالتي هذه ، فهذا يعني أن مكروها أصابني ، لذا ابحث بالضرورة عن الكرة الثامنة قرب صخرة الملك في الميناء الملكي ، حيث تلتقي هناك الساعة الرملية الخضراء باللانهاية السوداء، اعمل بعدها على أن تسجد شجرة السماء

فعندها سيتمدد الوقت لتنتقل معه إلى مكان جديد في زمن بعيد

عزيز اليقين

و على الوجه الآخر للرسالة كتب سطر وحيد ..

(**زهرة الياسمين** – **نجم القطب** – **إله الحرب** –**القيصر** .. / **المرآة**)

ما هذه الرسالة الغريبة ؟! إنها أعقد من **مخطوطة فوينيش** نفسها ، أغرب مخطوطة في التاريخ و التي عجز جميع الخبراء عن ترجمتها و فك شفرتها حتى اليوم !

هز رأسه بدهشة .. طوى الرسالة مجدداً و وضعها في جيبه ثم عاد أدراجه إلى الفندق و القلق و الحزن يعتصران قلبه بشأن المصير الغامض للسيد عزيز ..

*****

إصرار الذاكرة

جلس أوليفر في غرفته بالفندق، لكن الجدران من حوله بدت أضيق من المعتاد، والهواء أثقل مما ينبغي، كأن المكان ذاته يضغط عليه بلا رحمة. تقلب في مقعده كمن تحاصره الأشباح، وكانت الأسئلة تنفجر في رأسه كسرب من الطيور الجائعة لا تهدأ.

ما الذي جرى للسيد عزيز ؟

هل ابتلعته المياه فعلًا، أم أنّه انسحب من المشهد بنفسه ؟ لا جثة، لا أثر، لا إجابة. فقط ذلك الفراغ الفاضح الذي يُثير الريبة، ذلك الصمت العميق الذي يتلو أو ربما يسبق العواصف.

صحيح أن أوليفر لا يعرف السيد عزيز إلا منذ فترة وجيزة، لكن العلاقة بينهما لم تكن تقاس بالزمن، بل بما زُرِع بين السطور : ثقة، رموز، إشارات، وأسرار. لقد أصبح عزيز بالنسبة إليه شيئًا يتجاوز فكرة الرجل الحكيم، كان صورة الأب الغائب، المعلم، وربما المرآة التي يرى فيها ملامح مصيره القادم. فكرة أن يفقده الآن، في هذا المنعطف، كانت تضربه في العمق.

ارتجف داخله حين استعاد سلوك السيد عزيز الغامض في ميلانو، نظراته المتلفتة، طريقته في تقليب الحديث وكأن كل جملة قد تكون مصيدة. بدا حينها كمن يرقب ظلًا يتبعه... فهل كان الحادث نتيجة ذلك الترقب؟

هل كانت كل تلك الحيطة مجرد وسواس ؟ أم أنها كانت نبوءة ؟

ثم تذكّر الرسالة التي وجدها لدى البواب، مكتوبة بخط اليد وبهدوء مريب :

إذا استلمت رسالتي هذه، فهذا يعني أن مكروهًا قد أصابني.

عبارة لم تُكتب عبثًا. إنها شهادة، وصية، ورمز إنذار أخير. بل إنها لم تكن رسالة وداع، بل رسالة تكليف. لقد حمّله المسؤولية كاملة : اتبع ما في الرسالة، لأجل الضرورة القصوى.

تسارعت نبضاته. إن الرسالة كانت شيفرة... لكنها أيضًا خريطة، ودليل، وطلب استغاثة. فالأمر لم يكن مجرد لغز جديد من ألغاز السيد عزيز، بل كان شيئًا أكبر من ذلك بكثير، شيئًا له علاقة بمصيره ، كما لمح في الكلمات.

يا له من رجل غامض لا ينفك يذهله على نحوٍ مخيف أكثر فأكثر ، لقد أدرك أن فضوله الشديد سيتغلب عليه و يدفعه للبحث عن منزله ، لذا ترك له الرسالة هنالك ..

شعر أوليفر أنه محاصر بين صورتين : صورة الرجل الذي أنقذه من الركود العقلي وأيقظ فيه الجوع للمعرفة، وصورة الغائب الذي يتركه فجأة في عاصفة بلا شراع.

شعور جاثم في أعماقه يخبره أن الحادث لم يكن عرضيًا. وأن غياب السيد عزيز ليس اختيارًا حرًّا.

هناك من أراد لهذا الرجل أن يصمت... لكن صوته لا يزال يتردّد في الرسائل.

رفع رأسه نحو النافذة، وكانت أنوار الإسكندرية تلمع من بعيد على صفحة البحر كالأسئلة التي لم تُجب بعد.

أغمض عينيه، وتمتم كأنّه يعاهد نفسه :

سأتبعك، سيد عزيز .. حتى النهاية.

لكن ما الوسيلة ؟ الرسالة غريبة بشكل يتفوق على كل الأحاجي السابقة مجتمعة .. فما المقصود بالكرة الثامنة ، هل هي كرة البلياردو السوداء مثلا ، أمر غريب ، ما علاقتها بحادث السيد عزيز ؟

و هنالك أيضاً صخرة الملك و ميناء ملكي ، اسمان غريبان للغاية .. فليبحث عنهما على هاتفه عله يمسك بطرف خيط يبدأ منه ..

بحث عن صخرة الملك فوجد نتائج عديدة لم يلفته شيء هام منها ، ثم عن الميناء الملكي و نفس الحالة ، بحكم أنه بات متمرساً في حل أحاجي السيد عزيز لم يستسلم و بحث على الفور عن ثنائية صخرة الملك و الميناء الملكي و هنا عثر مباشرةً على ضالته ، كانت هناك ثمة نتيجة مطابقة بشكل مثالي تشير إلى عاصمة **جامايكا** كينغ ستون (صخرة الملك بالإنكليزية) و الميناء الملكي القديم على شواطئها ..

كيف يتأكد من أنه على الطريق الصحيح ؟

بحث أكثر عن جامايكا عبر هاتفه و سرعان ما وقع بصره على علمها و كان يمثل مستطيلاً مقطوعاً بوترين أصفرين إلى ما يشبه الساعة الرملية الخضراء و إشارة لا نهاية سوداء كما ذكرت الأحجية بالضبط ..

إذا هو على الطريق الصحيح لا محالة .. و وجهته تحددت إلى عاصمة جامايكا تلك الجزيرة الكاريبية في أمريكا الوسطى ، لكن إلى أي مكان فيها ؟ إن السيد عزيز ذكر الكرة الثامنة عند الميناء الملكي ، فهل هو مقهى مثلاً ؟ ربما ، فقد صادفته حالة كهذه في أحجية الزيتونة ..

بقي أمامه الشق الأخير من الأحجية عن تمدد الوقت و سجود الشجرة الذي ذكره بالأحجية السابقة في مصر و الأيام الإلهية فقد كانت تتحدث عن تمدد الوقت و الزمن بالفعل بحكم أن اليوم الإلهي بألف عام بشري ، فكر فيه مطولاً لكن عبثاً إنه غامض تماماً هنا و بلا تفسير ، حالياً على أقل تقدير ، لكن الملاحظ على نحو مدهش عودة شجرة السماء المقدسة بالنسبة للسيد عزيز إلى واجهة الحديث من جديد و الكلام عن سجودها هذه المرة .. !!

هنالك أيضاً السطر المكتوب على وجه الرسالة الآخر، إنها مصطلحات غريبة لا رابط واضح بينها ، فكر كثيراً لكن دون جدوى أيضاً ، فما الذي يربط نجم القطب بزهرة الياسمين و بإله الحرب أو القيصر ، و من هو هذا القيصر بالأساس ؟ ثم ما الذي يعنيه بالمرآة .. ؟!

هز رأسه بيأس و صداع عنيف يجتاحه ، إنه كلام من عالم آخر .. على كل حال وجهته القادمة جامايكا و هي الخطوة الوحيدة المتاحة أمامه الآن بحكم المعلومات الغامضة و الشحيحة و هنالك يرى ما تملي عليه السماء ، فلا مجال لإضاعة أي ثانية أخرى في التحليل أو التكهن باعتبار أنّ مصير السيد عزيز لا يزال مجهولاً .. لذا أجرى ترتيباته المعهودة و حجز لنفسه تذكرة سفر مع غرفة فندق في كينغ ستون ..

أعد كأس متة و جلس يجمع عن جامايكا كل ما أمكن من معلومات فبناءً على تطور الأحداث العنيف و المفاجئ ، لا يمكن التنبؤ بما ينتظره هنالك

.. علاوةً على أن أي معلومة جديدة قد تفسر له أكثر ما ذكر في الرسالة من مصطلحات غريبة ..

معنى جامايكا باللغة القديمة « **أرض الخشب و المياه** » ، و قد كانت مأهولة بقبائل **أراواك** قبل وصول كولومبوس إليها ، بعدها استعبَد الإسبانُ الأراواك، الذين دمرهم صراعهم مع الأوروبيين إضافةً إلى الأمراض الدخيلة التي حملوها لهم ..كما نقل الإسبان مئات العبيد من غرب أفريقيا إلى الجزيرة.. ومن ناحية الجغرافيا فجامايكا تتكون من الجبال في المناطق الداخلية و تدعى **الجبال الزرقاء** ، في حين تقع جميع المدن الرئيسية على الساحل و أهمها العاصمة كينغ ستون ..

استغرق بالقراءة عن ذلك البلد العجيب حتى غلبه النعاس تماماً فغفا إذ تنتظره رحلة طويلة و شاقة صباح الغد ..

*****

جامايكا / كينغ ستون

صباحاً ..

جلس أوليفر في غرفته بالفندق، كأنما يجلس فوق جمرة. الهواء راكد، والجدران تحاصر أنفاسه، والأفكار تتدفق في رأسه مثل نهر جارف لا يعرف الرحمة. منذ أن وطئت قدماه أرض كينغستون، لم تهدأ عاصفة الأسئلة من جديد في أعماقه : ما الذي أصاب السيد عزيز ؟ هل نجا فعلًا ؟ وإن كان حيًا، فأين اختفى ؟ ولماذا ؟

إن غرق السيارة دون أن يُعثر على جثته لا يدع مجالًا للشك : لقد خرج منها. لكن ما خفي أعظم. أهو مختطف ؟ أم أنه يختبئ طوعًا ؟ ومن الذي طارده ؟ ولماذا توقع هذا المصير بهذه الدقة ؟

حاول أن يقنع نفسه بأن الأمر لا يعدو حادثًا، صدفةً، كباقي حوادث العالم

التي تخطف الأبرياء في لحظة رعناء. لكنه لم يستطع. كان يعرف السيد عزيز، أو هكذا ظن. رجل مثقف، حذر، عميق النظرات، يتكلم كما لو أن كل كلمة لديه تحمل ظلًا آخر خلفها. والآن... يختفي فجأة بعد حادث غير مفسَّر، تاركًا له كلمات مشفرة، ورسالة تلتمع كخنجر في الظل.

تذكر كيف بدا عليه التوتر في ميلانو، وكأنما كان يسمع خطوات غير مرئية تتعقبه في كل شارع. وها هو أوليفر الآن يتساءل :

هل كان السيد عزيز ضحية ؟ أم لاعبًا في لعبة أكبر من كليهما ؟

ثم تساءل بقلقٍ أشد :

هل أنا نفسي الهدف القادم ؟

نهض فجأة من سريره. لا مجال للانتظار. الوقت في هذه اللعبة ليس زمنًا، بل خيطٌ إذا ارتخى مرة، انقطع إلى الأبد.

خرج من الفندق كمن يهرب من شيء يطارده داخل رأسه، واستقل أول سيارة أجرة نحو الميناء القديم، حيث أشارت الرسالة بوضوح إلى بداية المرحلة التالية : **ابحث عن الكرة السوداء... الثامنة.**

الطريق إلى الميناء بدا له كرحلة في مرآة مقلوبة. كل شيء مألوف على نحو غريب. المراكب تتمايل، الغروب يتثاءب على صفحة البحر، والناس كأنهم يعبرون حلمًا ليس لهم.

وصل.

ترجل من السيارة بخطى حذرة، كمن دخل مسرحًا لا يعلم إن كان فيه متفرجًا أم بطلًا أم ضحية.

تسلل بين الأزقة، كأن الريح تسحبه من يده. حتى وصل إلى ذلك المكان. لم يكن عليه أن يبحث طويلًا، لأن اللافتة بدت له كإشارة كونية لا تقبل التأويل :

" The Black Ball "

كرة بلياردو سوداء ضخمة، يعلوها الرقم ثمانية، تتدلى فوق باب خشبي قاتم.

توقف للحظة، وابتلع ريقه بصمت. شعر أن هذه الكرة لم تكن رمزًا للعبة، بل لحياة كاملة على وشك أن تبدأ أو تنتهي.

فتح الباب ببطء، ودخل.

ضوء أزرق خافت غمر المكان، كما لو كان تحت الماء. صالة بلياردو هادئة، مليئة بشباب لا يبدون لاعبين، بل حراس أسرار. طاولات خضراء، عصيٌّ مائلة إلى الجدران، صوت الكرات المتدحرجة يصطدم بروحه كنبض غير منتظم.

لكن الشيء الذي سمره في مكانه، كان تلك اللوحة الضخمة في نهاية الصالة.

لوحة ثنائية، رسمها جنون فنان لا يؤمن بالصدفة :

تنينان يلتفان حول رمز الين واليانغ الصيني ، شعار العقيدة التاوية ..



كانت اللوحة معبرة للغاية في مثل هذا المكان فهي تعكس على نحوٍ مثالي لعبة البلياردو ذات الكرتين الهامتين البيضاء التي تدفع بها بقية الكرات الملونة السبعة كتحلل النور الأبيض إلى ألوان الطيف السبعة و السوداء التي تختم اللعبة بها .. تذكر الأحجية السابقة في مكتبة الإسكندرية ، لقد أضفت الآن صفات أخرى إلى رمز التاو هذا ، من ثنائية **العلم و الدين** اللذين يحتاجان لبعضهما البعض و مصيرهما مشترك ، إلى ثنائية **الدنيا** ذات الأيام الإلهية السبعة و **الآخرة** ذات اليوم الوحيد الثامن اللانهائي ..

تقدّم أوليفر نحو البار، حيث شاب خلاسي البشرة يلمّع الكؤوس بنظرة حيادية، وعينين كأنهما مرآتان لا تعكسان شيئًا سوى من ينظر إليهما.

ثم قال بصوت منخفض، يختلط بالقلق والثقة معًا :

○ مرحباً ..

● أهلاً بك .. طاولة شاغرة أم مشروب ؟

○ لا هذا و لا ذاك .. أنا أسأل عن مالك هذا المكان ؟

● إنه السيد **جاك** ..

و أشار بإصبعه إلى كهل بملامح افريقية يجلس إلى طاولة بجوار زجاج المحل ، منشغلاً بهاتفه الخلوي ..

● و لماذا تسأل عنه ؟

○ أريد سؤاله عن شخص ما ..

رمقه الشاب بنظرة شك غريبة أوحت لأوليفر بأنه يعرفه مسبقاً ..

● و هل أستطيع أنا مساعدتك ؟!

فكر أوليفر قليلاً ، لم لا .. فخياراته الأخرى هنا معدومة ..

○ إنني أبحث عن رجل يدعى عزيز اليقين ..

ابتسم الشاب له ..

● إذا فأنت السيد أوليفر ..!

عاوده الأمل مجدداً بقوة ..

○ بلى أنا هو ..

● وهل يمكنني التأكد من هويتك إن لم يكن ذلك مزعجاً ؟

○ بالطبع !

أخرج بطاقته الشخصية من جديد و هو مندهش من هذه الإجراءات الصارمة التي اتبعها البواب و يكررها عامل البار ثانيةً !! ..

دقق الشاب في الاسم عليها و نظر إلى صورته بتمعن ثم اقترب منه و همس له ..

● أهلا بك سيد أوليفر ، أنا **ريتشارد** ، و لقد أخبرني السيد عزيز بقدومك و أوصاني بأن أعطيك عنوانه هنا ..

دهش أوليفر أكثر من هذا الكلام غير المتوقع ..

○ و من أين تعرف السيد عزيز ؟

● والدي يعمل في شركته في العاصمة هنا و فضل السيد عزيز علينا لا يصفه كلام ..

مد ريتشارد يده إلى جيب سترته الداخلي و أخرج منه ورقة مطوية ثم سلمها له بطريقة خفية ، بحيث بدا أنه يصافحه ..

○ أشكرك جزيل الشكر ، تشرفت بمعرفتك سيد ريتشارد ..

● و أنا كذلك سيد أوليفر ، يبدو عليك الإرهاق .. ما رأيك بمشروب يعيد إليك طاقتك ؟

◯ أشكرك ، لكني في عجلة من أمري ..

● كما تشاء ، بلغ السيد عزيز تحياتي .. تذكر جيداً ، يجب ألا يعرف أحد عنوانه لأي سبب كان ..

ودّع أوليفر الشاب وانصرف، يلاحقه سؤال يتضخم ككرة ثلج في صدره : ما حكاية السيد عزيز حقاً ؟ لماذا كل هذه السرية، وكل تلك الإجراءات التي لا يتبعها إلا رجلٌ يشعر أن أنفاسه مرصودة ؟

هل كان فعلاً يخاف على نفسه ؟ أم أن ما يخشاه أكبر من مجرد تهديد عادي ؟ شيءٌ ما، شيء لا يزال مستورًا خلف ستار كثيف من الغموض، جعل أوليفر يشعر وكأن القدر يدفعه دفعًا إلى عالم لا عودة منه.

استقل سيارة أجرة مجددًا وأعطى السائق العنوان الذي حصل عليه.

انطلقت المركبة كأنها تعرف الطريق مسبقًا، تلتهم المسافات بلا توقف كنمر جائع . وما هي إلا دقائق حتى بدأت ملامح المدينة تتلاشى في المرآة الخلفية، وبدأت الضواحي تزحف من الأطراف كأشباح غامضة تنبثق من العدم.

بعد ربع ساعة، توقفت السيارة أمام فيلا من طابقين. منزل أنيق تغزوه الورود من كل الجهات، كأنه في حفل استقبال أبدي، إلا أن البوابة الحديدية المشرعة بلا حراسة جعلت قلب أوليفر يخفق بقوة.

● هذا هو العنوان، سيدي.

◯ شكرًا لك.

ترجل ببطء، حدّق في المكان مليًا. لم يُبدُ للوهلة الأولى ما يثير الشك، لكنه كان يعلم أن الصمت المطبق أحيانًا أكثر صخبًا من الضجيج.

كل شيء يوحي بأن الفيلا مهجورة... لا حركة، لا ظلّ، لا نَفَس.

النوافذ موصدة بستائر داكنة، والأبواب مغلقة بإحكام كأنها لا تريد أن تنفتح.

اقترب من الباب الأمامي، وطرق بعنفٍ فيه رجاءٌ مكبوت بأن يسمع صوتًا من الداخل، أن يرى وجه السيد عزيز يطل عليه فيبدد العتمة التي علقت في عقله منذ الحادث، لكن الرد الوحيد كان الصمت.

طرق مجددًا، بقوة أكبر، ثم نادى... ولا من مجيب.

قرر أن يدور حول الفيلا، يبحث عن أي إشارة حياة... وفي الجهة الخلفية، لاحظ نافذة مفتوحة قليلاً تُحركها نسمة خفيفة كأنها تدعوه للدخول.

تردد... أهذه دعوة، أم فخ ؟

لكنه أنصت، فلم يسمع شيئًا سوى خفقان قلبه.

تسلّق النافذة وقفز إلى الداخل، قاطعًا ما تبقى من تردده. لقد قطع أصقاع الأرض ، ولن يعود وفي صدره ألف سؤال بلا جواب.

وجد نفسه في غرفة جلوس غارقة في الصمت، موحشة كأن الزمن نفسه توقف فيها. خرج منها إلى المطبخ، ومنه إلى الغرف واحدة تلو الأخرى، صاعدًا إلى الطابق العلوي، كمن يفتش بين أطلال ذاكرة رجل لم يعد موجودًا.

لكن كل شيء كان نظيفًا، فارغًا، بلا أثر لحياةٍ حديثة.

جلس على طرف السرير في إحدى الغرف وقد بدأ الشك ينهش ما تبقى من يقينه. هل العنوان خطأ ؟ هل ريتشارد خدعه ؟ أم أن هناك شيئًا آخر، أعمق، يتجاوز إدراكه حتى اللحظة ؟

فجأة، برقت في ذهنه فكرة غريبة...ماذا لو كان في المنزل غرفة سرية ؟

أيعقل أن يكون السيد عزيز، العاشق للأحاجي و الألغاز، قد أخفى شيئًا هنا ؟

استعاد بسرعة المقطع الأخير من الأحجية... عن تمدد الزمن وسجود الشجرة، جملة بدت حينها رمزية، لكنها الآن تشع بمعنى محتمل جديد.

تذكر شيئًا غامضًا رآه خلال بحثه... لكنه لا يتذكر أين بالضبط، ولا ما هو.

عليه العودة إلى الغرف، أن يبحث عن تفصيل غريب، انحراف بسيط، نقش غير مألوف، كتاب موضوع بطريقة مشبوهة...

إن كان ثمة سرّ، فهو هنا، يختبئ خلف شيء يبدو مألوفًا لكنه ليس كذلك.

شعوره يخبره .. اللحظة التالية قد تغيّر كل شيء.

عاود تفتيش الغرف، ينهب بعينيه كل زاوية، كما لو أن الجدران ذاتها تخفي خلفها سرًا يتنفس. كان يهمس في داخله بأنه اقترب... اقترب كثيرًا، انتهى من غرف الطابق العلوي ثم انتقل إلى السفلي كمن يغوص إلى قاع الحكاية.

فتش المطبخ ثم بقية الغرف و بقي أمامه أخيراً غرفة المكتبة. حين دخلها،

أحس لوهلة أنّ الجدران تتنفس، وأن الكتب القديمة ترمقه بنظرات صامتة. هناك، على الجدار المقابل تمامًا لمكتبةٍ خشبية ضخمة، كانت تتدلّى لوحة ضخمة معلّقة ، مألوفة لديه بشكل يصعب تجاهله : لوحة **إصرار الذاكرة** للفنان الإسباني الشهير **سلفادور دالي**.

تقدّم منها يتأملها كأنما يقترب من ماضٍ بعيد. ساعات ذائبة، تنساب كالشمع فوق عتبات الواقع، تنحني وتتمدد ، وكأن الزمن قد تعب من الركض، فاستراح في هيئة حلم. ارتسمت على وجهه ابتسامة مفاجئة رغم الوضع المحتقن : إنها ذات الفكرة التي وردت في الأحجية الأخيرة ، الزمن الممتد ببطء، اليوم الذي يعادل ألف سنة .. الرسالة كانت واضحة بطريقة فنية مبهرة... هذه ليست مجرد لوحة، إنها مفتاح.

مدّ بصره إلى جانبي اللوحة، ولاحظ وجود مصباحين قديمين ملتصقين بالجدار، حاملاهما المعدنيان على هيئة شجرتي زيتون. برقت في ذهنه العبارة الغامضة : **شجرة السماء... إذا سجدت، ستفتح البوابة**. تسارعت أنفاسه وهو يمدّ يده إلى الجذع المعدني الدقيق لإحداهما، فشده إلى الأمام، فانصاعت الشجرة له و انحنت في خشوعٍ غريب. ثم انتقل إلى الثانية وكرّر الحركة ذاتها، فانحنت بدورها، لكن الصمت ظل مهيمنًا. لا حركة. لا اهتزاز. لا بوابة.

تراجع خطوة وهو يحس بالإحباط يزحف إليه مثل بردٍ بطيء، ثم... لمع في

ذهنه شيء قديم آن أوانه ! الآية القرآنية التي بدأت منها رحلة الأحاجي :

(يوقد من شجرةٍ مباركةٍ زيتونة، لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ...)

حاملا المصباحين كانا على هيئة شجرة زيتون... إنهما جزء من الرمز، لا يمكن تجاوزه.

أخذ يبحث بعينيه المحمومتين عن زرٍ، عن أداة، عن تلميح ضوئي... حتى وجده أخيرًا.. زر كهرباء مجاور .. كبسه فانبعث ضوءٌ خافتٌ دافئ من المصباحين. وما إن أضيء المصباحان حتى دوّى صوت خافت تحت الأرض، كأنما تروس خفية بدأت بالدوران، وارتجّت أرضية الغرفة تحت قدميه على نحوٍ مروّع، فاهتزّت الكتب في أماكنها وتمايلت الظلال على الجدران.

ثم، بانفتاح خفي لا يُرى إلا لحظة وقوعه، انشقّت الأرضية في منتصف الغرفة تمامًا، كأنّ الغرفة تتنفس عمقها للمرة الأولى منذ عقود، كاشفة عن باب أرضي لم يكن له أي أثر مرئي من قبل، حتى لأكثر العيون تدقيقًا.

اقترب أوليفر وقد جذبه المشهد بشدة لدرجة أنه نسي أن يتنفس. الأرض ابتلعت جزءًا منها لتمنحه مفتاحًا إلى المجهول. انحنى ببطء ونظر داخل الفتحة... درجٌ حلزوني يتلوى نزولاً في جوف العتمة، يهبط ثلاث دورات كاملة إلى القاع، كأنما هو لولب في الوعي البشري، يقود من الإدراك إلى الأسرار.

تردد. فكر. هل ينزل ؟ ماذا لو حوصر ؟ ماذا لو أُغلق الباب خلفه للأبد ؟ لا أحد يعرف أنه هنا. لا أحد سيسمع نداءه لو صرخ من قاع العالم.

لكن... تذكّر السيد عزيز. تذكّر تلك الثقة، تلك المعرفة، تلك الصداقة التي تجاوزت الزمن والمسافات. لا يمكنه أن يتراجع الآن. لا يمكنه أن يخون

النداء. شدّ قبضتيه، حبس أنفاسه، ثم بدأ في النزول بخطى ثابتة إلى حيث لا ضوء ولا صوت... فقط الوعد بالغموض.

وعند نهايات الدرج، كانت المفاجأة بانتظاره ، مفاجأة تفوق أكثر أحلامه جموحا...

*****

دیامیس روما

كأنما الباب السري قاده بهدوء إلى سر دفين، ليكشف لأوليفر عن عالم آخر ، شقة مكتملة تقع في قلب الظلام تحيط بها جدران حجرية ضخمة، وكأنها قلعة من العصورٍ الوسطى تُحاكي صمت الدهور وبطء الزمن ذاته. أثاثٌ عتيق ينبعث منه عبق التاريخ، والأنوار الخافتة تلعب بأضوائها على أركان المكان، فتخلق ظلالًا تتراقص بخفة، كأنها رسائل من الماضي.

وقف أوليفر مذهولًا، وقد جرفته موجة من الدهشة تخللتها نبضات قلب سريعة، رسالة السيد عزيز لم تكن مبالغة ، فسجود الشجرة قد حمله بعيدًا عن ضوضاء الحياة، إلى مملكةٍ تتنفس الأسرار و كأنها عالم آخر من زمن سحيق ..

وفي ركن الغرفة، وسط ذلك السكون المهيب، كانت المفاجأة الأكبر ، ظهر السيد عزيز، جالسًا على كرسي جلدي فخم، يده مضمدة بجبيرة ، يدخن بهدوء بايبه العتيق ، وابتسامته اللطيفة كانت كوشاح دفء وسط برودة المكان، عيونُه تلمع بحكايات غير معلنة، تجمع بين الحزن والأمل.

لم يتردد أوليفر لحظة، تقدّم بخطوات متسارعة نحو الرجل الذي صار بالنسبة له أكثر من صديق؛ كان كالظل الذي لم يفارقه، الأب الذي خسره ذات يوم مشؤوم في حادث أليم، والملاذ الذي قد يمنحه السلام هذه المرة.

وقف السيد عزيز ببطء، عانقه بحرارةٍ غامرة، حضنٌ حمل كلّ القلق والحنين، كلمات لم تُنطق ولكنها كانت أبلغ من ألف رسالة. وفي تلك اللحظة، اختلط الزمان والمكان، وتحول اللقاء إلى ولادة جديدة، بداية فصلٍ مجهول لكن مشرق، يحمل في طياته كل الأسرار التي ينتظر أوليفر أن يكتشفها.

◯ حمداً لله على سلامتك سيد عزيز ..

● أهلاً بك في **دياميس روما** كما يحلو لزوجتي الراحلة تسمية هذا المكان

◯ دياميس روما **!**

● أجل إنها الأقبية تحت الأرض التي اختبأ فيها المسيحيون الأوائل لتجنب

الأذى و التنكيل بحقهم ..

◯ كنت بذروة القلق عليك .. ما الذي حدث معك ؟ ما قصة حادث الإسكندرية ؟ و لماذا أنت متخفٍّ عن الأنظار بسرية تامة ؟

● سأخبرك الحكاية بالتفصيل لا تتعجل ، لكن أولا وقبل كل شيء أهنئك على حل الأحاجي ببراعة سيد أوليفر ، و أعتذر عن بتر رحلة الأحاجي الراهنة نظرا لتطور الأحداث و تغير الظروف بشكل فجائي و حاد ..

◯ تطور حاد ؟

عاود السيد عزيز الجلوس و هو يدخن البايب كما أشار إلى أوليفر بالجلوس على المقعد الآخر، ثمّ أخذ يروي قصته بصوته العميق الواثق..

● أجل تطور قلب الأمور رأساً على عقب .. و لتفهم ما حدث سيد أوليفر عليّ أن أخبرك أولاً عن منظمة خطيرة للغاية تدعى **منظمة الثبات** ، شعارها (الثبات العقائدي و رفض التجديد في فهم الدين) ، و هي منظمة متطرفة للغاية تضم أتباعاً من مختلف الأديان حول العالم .. أقرب للمافيا لكن بشكل أخطر من **الياكوزا** اليابانية أو **لوس زيتاس** المكسيكية أو حتى **مافيات السلفادور** ، فهي ذات خلفية إيديولوجية على خلاف المافيات الأخرى ..

◯ يبدو ذلك خطيراً بالفعل .. لكن ما علاقتك أنت بها ؟

● أصبحت تعلم سيد أوليفر من خلال رحلات الأحاجي أن لدي نظرتي الخاصة لبعض الأمور الدينية و أنني أفهم كتب الله بطريقة مختلفة قائمة على العلم بشكل أساسي ، فأنا أحاول التجديد و الاجتهاد في تفسير ما لم يفسر بشكل واضح دون الاساءة بالطبع إلى الذات الإلهية أو الدين ، زد على ذلك بأنّ ديانتي الأساسية في الحياة هي كلمتان فقط (**المحبة و السلام**) .. أما حرية المعتقد فهي مقدسة للغاية بالنسبة لي، فلك الحق من وجهة نظري أن تؤمن بما تشاء و تعبد ما تشاء طالما أنك لا تؤذي أحدا ،

أي بتعبير آخر كما يقول بوذا الحكيم :

(**اعبد الحجر إن شئت لكن لا ترجمني به**) ..

لكن نظرتي للأمور الدينية و كثير من أفكاري هذه لم ترق لتلك المنظمة بل اعتبرتني و أفكاري تهديداً كبيرا على الدين من جهة و عليها نفسها و شعبيتها من جهة أخرى .. و كما يقول أوليفر هولمز :

(**إن عقل المتعصب يشبه بؤبؤ العين، كلما زاد الضوء المسلط عليه زاد انكماشه** ..)

كذلك يقول الكاتب الإيرلندي **جورج برنادشو** :

(**التقدم مستحيل بدون تغيير، واولئك الذين لا يستطيعون تغيير عقولهم لا يستطيعون تغيير أي شيء** ..)

و هذا هو الكلام المنطقي الذي يجب أن يسود ، تطور العقول من أجل التغيير الصحيح و الفهم الأدق للأديان ..

◯ أتفق معك تماماً ، و بعد ؟

● هددتني المنظمة مراراً و تكراراً ، لكني لم أرضخ لتهديدهم إلى أن وردتني رسالة تؤكد أنهم سيحاولون قتلي قريباً جداً بعد اغتيال صديقي في أخوية التجديد البروفيسور اليهودي ترومان ، و باعتبار أن منزلي في الاسكندرية معروف ، قررت الانتقال إلى هنا ، هذا المنزل الذي صممته لمثل هكذا ظروف ، فحياتي كانت على الدوام مليئةً بالتهديدات و الوعيد ..

لكنهم طاردوني في الإسكندرية و أنا في طريقي إلى المطار لدرجة أجبروني على الخروج بسيارتي عن الطريق فغرقت في الماء ، و لحسن الحظ استطعت النجاة و التوجه إلى منزل صديق طبيب أثق به ففحصني و طمأنني على نفسي ، ثم سافرت بطائرتي الخاصة إلى هنا وسط سرية تامة معتمداً على معارفي و علاقاتي في البلاد .. و من حسن حظي مجدداً أنني أحتفظ بجواز سفري المكسيكي في منزلي .. إذ تلف جواز السفر المصري في حادثة الغرق .. فكما تعلم زوجتي مكسيكية و قد منحتني الجنسية ..

◯ و هذا يفسر لي سلوكك الغريب أثناء لقائنا الأول في ميلانو .. لقد كنت تتلفت حولك كثيراً بقلق و كأنك تخاف أن تكون ملاحقاً أو تتعرض للأذى .. لقد كنت تخشى أفراد المنظمة على ما أعتقد ؟

● تماماً .. فقد وصلني كم هائل من التهديدات خلال العام المنصرم ..

◯ و ما الذي تنتظره الآن ، إلى متى ستبقى هنا ؟

● سأختفي عن الأنظار لفترة من الزمن ، حتى تعتقد المنظمة أنني قتلت في حادث السير ، كما أن لي معارفاً في الانتربول أخبروني بأنهم يبذلون قصارى جهدهم للإمساك بزعمائها و الإيقاع بها فهم متورطون بجرائم و اغتيالات عديدة مما جعلهم مطلوبين فوق العادة و ملاحقين من قبلهم ، كما أنّ خروجي الآن بكل الأحوال انتحار حقيقي مني ، و أنا و إن كنت مؤمنا بأفكاري و مستعد للموت في سبيلها ، أرفض أن ألقي بنفسي إلى التهلكة .. فهذه المنظمة لا تمزح أبداً ، و تنفذ تهديداتها بأبشع الطرق ..

◯ فهمتك تماماً ، و كيف ستتدبر أمورك هنا ؟

● هنالك شخص أثق به تماماً ، يأتي كل فترة إلى هنا و يحضر معه كل ما أحتاجه من أغراض .. عندما أشاهده على كاميرا المراقبة خارجاً أفتح له الباب و أستلم منه الأغراض ..

◯ والد ريتشارد ؟

ابتسم السيد عزيز ..

● بالضبط .. لم أستطع ترك عنواني هنا مع بواب الفيلا في الاسكندرية لأنني لا أعرفه جيداً و لا أثق في ترك العنوان معه فقد عينته منذ فترة قصيرة بسبب وفاة البواب السابق الذي كنت أثق به ، لذا تركت لك أحجيةً معه ، بحيث أنها إن وقعت في يد غيرك لن يستدل منها على شيء فأنت الوحيد القادر الآن على فك شفرة الأحاجي باقتدار ..

صمت السيد عزيز للحظات ثم أردف بشكل صادم ..

● و لقد تركت لك هنا حاسوباً يحوي كامل المعلومات و الحقائق التي تخصني مع أوراقٍ رسميةٍ تخص أملاكي جميعاً و طريقة التصرف فيها و وضعتها في خزينة سرية في هذا القبو السري ذات رقم سري بحيث أنني إذا تعرضت لمكروه و وصلت أنت إليه حصلت عليها بالكامل ، فأنت و إن كانت معرفتي بك حديثة العهد ، الشخص الذي أثق به بالدرجة القصوى تبعاً لاعتباراتٍ خاصةٍ بي ..

تفاجأ أوليفر للغاية من كلام السيد عزيز و ثقته الغريبة تجاهه ..

○ أفهمك ، و شكرا لهذه الثقة الكبيرة ، لا أدري إن كنت أستحقها ، لكنني أتمنى أن أكون في موضعها ..

● إن وجودك هنا الآن دليل دامغ بالنسبة لي أنك أهل لها سيد أوليفر ، فأنت لم تحل الأحاجي فحسب بل تجاوزت اختبارات عديدة أيضاً أوصلتك إلى هذا المكان ، و أهم اختبار فيها أنك لم تتخلَّ عن صديقك في الظروف الصعبة و لاحقت مصيره حتى النهاية قاطعاً بقاع الأرض من أجل ذلك ، مضحياً بوقتك و أمنك و أشياء أخرى كثيرة ..

هز أوليفر رأسه بدهشة و خجل ..

○ هذ أقل ما يمكنني فعله من أجل صديق عزيز عليّ .. لكن كيف ضمنت أنني سأكتشف الرقم السري للخزينة سيد عزيز ؟

ابتسم السيد عزيز ..

● إنه مرفق بالأحجية على الوجه الآخر للرسالة ؟

○ زهرة الياسمين و مرفقاتها ؟

● بالضبط ؟

○ إنها أحجية صعبة لم أستطع حلها رغم التفكير المطول بها ؟ فما تفسيرها ؟

● لقد أصبحت سهلة للغاية الآن بعد أن عرفت أنها تمثل أرقاماً ، فكر قليلاً بها سيد أوليفر عندما تعود إلى ميونخ و ستكتشف حلها !!

○ سأفعل بكل تأكيد ، فهو يبدو تحدياً مثيراً للاهتمام ..!! و هل تقضي كامل وقتك في هذا القبو ؟

● بالطبع لا ، ما بين هنا و الأعلى ، لكن هذا المكان عزيز بشكل خاص على قلبي فهو يذكرني بزوجتي الراحلة **ماري روز**، كما أنني أحتفظ في غرفه العديدة بجزء كبير من أسراري و أموري الهامة إضافةً إلى أشيائي الغالية عليّ ..

ساد الصمت للحظات بعد الكلمات الأخيرة ثم هشمه أوليفر مبتسماً ..

○ و ماذا لو فشلت في وصولي إلى هذا القبو سيد عزيز ؟ ما الذي كان ليحدث ؟

نظر إليه السيد عزيز نظرة غريبة و تكلم بجدية للمرة الأولى في لقائهما ..

● لن تفشل سيد أوليفر ، أنت رجلنا المنشود و لدينا ثقة تامة بأنك ستعثر دائماً على طريقة لفعلها ، إذ أن فلسفتي بالحياة : **السماء لا تلعب النرد و لا تعتمد على المصادفات** .. و السماء اختارتك لغاية ، مما يؤكد لنا قدرتك على تجاوز جميع التحديات التي ستقابلها ..

○ رجلكم المنشود ؟!

ابتسم السيد عزيز ابتسامة متعبة ..

● نعم ، أنا و **البروفيسور ترومان و الأسقف جيمزا** اللذين للأسف قتلتهما المنظمة من قبل و أنا أعتبر الشخص القادم على لائحتها

ارتبك أوليفر كثيراً ، فالموضوع بات يتضمن القتل و الاغتيال ..

◯ و من أنتم سيد عزيز ؟

● نحن أخوية التجديد .. إنه موضوع طويل و شائك و ليس الوقت مناسباً بعد للحديث عنه ، و لكن كاختصار فإننا ثلاثتنا نرى فيك بناءً على دلائل و مؤشرات كثيرة دامغة الشخص القادم ليحمل إرث الحقيقة و الأسرار الكونية عنا ..

زادت دهشة أوليفر أكثر بعد هذا الكلام الغريب ..

◯ أنا ؟؟!!

● أجل أنت ، لم الدهشة سيد أوليفر ،؟ لا تستهن بنفسك و بإمكانياتك ! هل تعتقد أن السماء زرعت فيك حب المعرفة و التمحيص و البحث عن جذور الأمور في كل شيء ، ناهيك عن الرغبة الجامحة لبلوغ الحقيقة المطلقة ثم وضعتني في طريقك عبثاً ؟

◯ و لماذا تريدون شخصاً ليرث الحقيقة عنكم .. إن ما تعرفونه كنز حقيقي بالغ الأهمية و لا يقدر بثمن ، فلماذا لا تحتكرونه لأنفسكم ؟ لماذا تخاطرون بنقله إلى شخص آخر قد يبدده أو يسيء تقديره أو استخدامه ؟

● لأننا نتبع **فلسفة أوبونتو** سيد أوليفر ..

◯ أوبونتو ؟!

● أجل .. هي فلسفة شائعة في إحدى القبائل الأفريقية البدائية التي تدعى **كسوزا** .. و مبدأ أوبنتو يعني : (**أنا أكون لأننا نكون**) أي أن تعم الفائدة على الجميع و لا يحتكرها شخص بمفرده لنفسه ، و هنالك قصة عميقة ذات مغزى مرتبطة بهذه الفلسفة ..

أوليفر بفضول ..

◯ و ما هي ؟

● القصة تتناول أحد علماء الاجتماع الذي قام بعرض لعبة على أطفال قبيلة كسوزا بوضع سلة من الفواكه اللذيذة قرب جذع شجرة و أخبرهم أن

أول من يصل منهم إلى الشجرة يفوز بالسلة كلها .. لكنه عندما أعطاهم إشارة البدء تفاجأ بهم يسيرون سوياً ممسكين بأيدي بعضهم البعض حتى بلغوا الشجرة وتقاسموا الفواكه من السلة سوياً ..

و عندما سألهم لماذا فعلوا ذلك في حين كان بإمكان أحدهم الفوز بالسلة بأكملها لنفسه، أجابوه بتعجب : أوبونتو .. **أي كيف يستطيع أحدنا أن يكون سعيداً فيما الباقون تعساء ؟؟!! و هذا سر هام من أسرار الحياة التي تجهلها المجتمعات التي تدعو نفسها متحضرة ، في حين اكتشفه أفراد قبيلة بدائية** .. و نحن لا نستطيع الاستئثار بالحقيقة لأننا نريد للجميع أن يكونوا سعداء بها و مستفيدين منها ..

◯ فلسفة عميقة و نبيلة لأقصى الحدود تكفلت بإيصال فكرتك إليّ بأفضل و أيسر طريقة ..

استغرق أوليفر بالتفكير لدقائق مذهولاً بكلام السيد عزيز كله ، لكنه احترم رغبته في عدم التطرق أكثر إلى موضوع أصدقائه المتوفين فغير الموضوع مبتسماً ..

◯ إنك تبدو هادئاً للغاية سيد عزيز بالنسبة لشخص اغتيل أصدقاؤه و مهدد بالاغتيال بدوره ، هادئ لدرجة أنك لم تتوقف عن الأحاجي خلال العام المنصرم و هذا العام رغم سوء الظروف الراهنة ..

ابتسم السيد عزيز بدوره ..

● إن هذه الحياة هي تجربة وحيدة في أغلب الأحيان و لن تتكرر سيد أوليفر ، لذا عليك الاستمتاع بكل لحظة فيها و ألا تهدر ثانيةً منها بالخوف و القلق مهما اشتدت الخطوب و الصعاب، و ما هو الموت في النهاية ؟ إنه مجرد خطوة نخطوها من عالم لآخر، **إن الحياة هي مجرد يانصيب و الموت هو ربح الجائزة الكبرى فيه** ، فهل تريدني أن أخاف من الفوز بهذه الجائزة العظيمة التي ستنقلني إلى دنيا الأحلام و الأمان ..؟

أما الأحاج فهي تساعدني في كثير من الأمور العالقة ، فمن خلالها مثلاً استطعت أن أدلك إلى عنواني هنا و إلى قبوي السري ثم إلى الرقم السري

للخزينة دون أن أخشى من وقوع الرسالة في يد غيرك ، فأنت أصبحت الوحيد المتمرس في حل هذه الأحاجي سيد أوليفر ..

ساد الصمت مجدداً ، و أوليفر يمضغ كلام السيد عزيز الغريب في دماغه بصعوبة خاصةً مع هذه التطورات الخطيرة التي لم تكن على البال ، أخذ يجول بنظره فيما حوله متأملاً القبو السري الذي يعود بك إلى العصور الوسطى بتصميمه الغريب ، و كانت هنالك جدارية كبيرة مرسومة على السقف فوقهما تمثل **جدارية مايكل أنجلو (الله و آدم)** ..

◯ جدارية متقنة و أكثر من رائعة .. (الله يودع آدم) ..

نظر السيد عزيز إلى الأعلى ..

● بالفعل ، إنها جميلة و متقنة أفضلها على باقي اللوحات كافة ، و من ناحيتي فأنا أدعوها (**إني جاعل في الأرض خليفة**) ..

◯ آية قرآنية أخرى **!؟**

● أجل و تناسب اللوحة بشكل مثالي على ما أعتقد ..

◯ بالفعل ، تناسبها تماماً، بمناسبة الحديث عن الآيات القرآنية ، هنالك سؤال كنت أود طرحه عليك بخصوص أحجية الإسكندرية ..

● تفضل ..

◯ لقد استنتجت من تلك الأحجية أن أيام الحياة الدنيا تشتمل على **7** أيام إلهية تبدأ بآدم و حواء و تنتهي بالقيامة، و نحن حالياً في اليوم السابع ، أما اليوم الآخر فهو اليوم **8** اللانهائي و مسرحه العالم الآخر ، صحيح ..؟

● بالضبط ، كما لمحت لك في ميونخ ونحن نلعب البلياردو ..

◯ لكن ماذا عن الكون قبل السيد آدم و بعد نهاية اليوم السابع ؟

● سؤال أكثر من رائع سيد أوليفر ، و للإجابة عليه يجب أن نتحدث عن موضوع التكليف ..

◯ التكليف ؟

● بالضبط ، فكي يحاسب الإنسان على أفعاله عليه أن يمتلك درجة معينة من الوعي .. فإنسان الكهف مثلاً و إن كان يملك درجةً من الذكاء لا يمكن أن تحاسبه على أفعاله فهو لا يعرف إلا القليل و لاسيما فيما يختص بالسماء و الأمور الإلهية و الحياة بعد الموت ..

◯ هذا يبدو صحيحاً ..

● لذا هنالك تصنيفان للإنسان البشري :

Φ **الإنسان غير المكلف** ، و يضم كل البشر قبل آدم ..

Φ **الإنسان المكلف** ، و يضم آدم و بنيه حتى قيام الساعة .. و فترة الحياة التي يقصدها القرآن بسبعة أيام هي فترة التكليف أي من السيد آدم حتى يوم القيامة ، على كل حال فإنّ موضوع التكليف و الحساب بحد ذاته شائك للغاية ، و يحتاج إلى ظروف أفضل من الحالية لنناقشه إن أحببت و ربما صغناه بأحاجٍ جديدة كما تهوى ..

◯ وقبل السيد آدم كم عمر الكون ..؟

● اسأل العلم يجيبك ، و العلم يقول حوالي **13.8** مليار عام ..

◯ وهل سينتهي الكون بنهاية البشر ..

● ليس بالضرورة ، القيامة تحدث عند فناء البشر جميعا ربما بمذنب

قادم ، أو بتغير مناخي ، أو حروب نووية ، أو وباء قاتل أو أي طريقة أخرى .. نهاية البشرية شيء و نهاية الكون شيء آخر .. لكن حسب رأيي و قراءاتي ، فتوسع الكون له حدود سيبدأ بعدها بالانكماش ليعود إلى نقطة الصفر، عبر الثقوب السوداء أو استنادا إلى (**بوزون هيجز**) أو ما يدعى بجسيم الإله الذي اكتشف حديثاً ..

فبتصوري وفقاً للعلم و الكتب السماوية ، الكون بدأ بانفجار نقطة عالية الكثافة و سيعود إلى نفس الهيئة في النهاية ، وبينهما حياة طويلة منها حياة التكليف ذات الأيام الإلهية السبعة ، أما اليوم الآخر الثامن فهو لانهائي في العالم الآخر كما ذكرت بنفسك آنفاً ..

◯ و أين هو هذا **العالم الآخر ؟**

نظر السيد عزيز إليه مع ابتسامة عريضة ..

● أنت فضولي للغاية سيد أوليفر ، أتريد حقاً أن تعرف مكان العالم الآخر ؟

أوليفر بدهشة عارمة ..

◯ بالطبع أريد ، و هل يمكننا معرفة ذلك سيد عزيز **!؟**

*****

الكرة الكونية

نظر إليه السيد عزيز مطولاً و هو يدخن البايب ، ثم سأله أخيراً ..

● قبل أن أجيبك عن مكان العالم الآخر ، سأطرح عليك سؤالاً آخر ..

صمت قليلاً ثم همس ..

● ما الذي تظن وجوده في نهاية هذا الكون ، سيد أوليفر ؟

فكر أوليفر مطولاً قبل أن يجيب فهو سؤال غريب بشكل متطرف لم يخطر بباله من قبل ! ..

○ من ناحيتي لا أملك جواباً أبداً ، لكن يقول العلماء أن الكون يتوسع باستمرار و هذا ما تحدثنا عنه منذ قليل ..

هز السيد عزيز رأسه ..

● أجل هو كذلك يتوسع ، لكن إلى أين ؟

قوس أوليفر حاجبيه بدهشة ، بالفعل إلى أين ؟

○ لا أعلم بالطبع ! و هل تعرف جواباً لهذا السؤال سيد عزيز ؟

ابتسم السيد عزيز ابتسامةً غامضةً ..

● تعال معي ..

مشى السيد عزيز و هو يعرج قليلاً بسبب الحادث في بهو طويل و بجواره أوليفر غارق بالتفكير ، هل يعقل أن يجيبه السيد عزيز عن السؤال الذي يعتبر اللغز الأكبر المحير للعقول عبر الزمن ؟ تذكر الأحاجي السابقة ، **الزيتونة ، الأيام الإلهية السبعة و اليوم الآخر** ، و الآن **حدود الكون !!** هل تفعلها مجددا يا سيد عزيز ؟ ذلك ليس بغريب عليك !

تقدم السيد عزيز من إحدى الغرف و كان بابها مغلقاً ، فتحه ، و دخلاها.

جال أوليفر بعينيه يمسح المكان ، كان يعجّ بأشياء غريبة منها ما يراه لأول مرة في حياته ، و في منتصف الغرفة بالضبط كانت هنالك طاولة مستديرة و في مركزها توجد **كرة زجاجية** بقطر حوالي **30** سم ..

أشار السيد عزيز إلى الطاولة فتقدما منها ثم وقفا على حدودها ..

● تمعن قليلاً في هذه الكرة سيد أوليفر ..

مال أوليفر إلى الأمام و نظر ملياً إلى الكرة ، كانت من الزجاج الشفاف يملؤها سائل شفاف غريب تسبح فيه مجسمات حلزونية كثيرة تشبه بنية المجرات تنتشر من المركز خارجاً باتجاه حدود الكرة و عندما تصل إليها تعود للرجوع إلى المركز ..



ابتسم ..

○ إنها تمثل الكون إذا ..

● بل أكثر من ذلك سيد أوليفر ، ما قولك بأن هنالك بشراً يعيشون فعلاً الآن على كوكب ما في إحدى هذه المجرات التي رأيتها ..

لمعت عينا أوليفر و نظر إليه نظرة غريبة ..

◯ هل هذا نوع من المزاح سيد عزيز .. ؟

● إطلاقاً ، تخيل الآن دنيا أخرى تشبه بكثير من جوانبها دنيانا ، و هذه الكرة موجودة على طاولة كهذه تماماً في مكان ما هنالك ، و كوننا بكليته يتسع في هذه الكرة التي ليس بالضرورة أن تكون زجاجية طبعا بل من مادة خاصة بذلك العالم ..

فتح أوليفر فمه مذهولا فلم يكن هنالك ما يقال ، إن السيد عزيز يمزح بلا أدنى شك ، إذ إنّ هذا الكلام يتراوح ما بين المزاح في أحسن الأحوال ، و الجنون في المقلب الآخر، فكيف يمكن لكرة صغيرة زجاجية أو من أية مادة أخرى أن تحتوي كوناً واسعاً كاملاً !

قرأ السيد عزيز أفكاره كعادته فابتسم ..

● أنا على ثقة تامة بأنك غير مستعد بعد لمثل هذه الحقيقة سيد أوليفر ، **فالأفكار الجديدة التي تخالف ما هو معتاد و متعارف عليه ، قد تكون صادمةً للغاية و تسبب رضاً نفسياً و ذهنياً لمتلقيها بادئ الأمر لكنّ ذلك لا يعني إطلاقاً أنها غير صحيحة كما تناقشنا منذ أشهر في ميلانو حول فرضية مركزية الأرض في المجموعة الشمسية التي أثبت لاحقاً بطلانها و بأن الشمس هي مركزها الحقيقي**.. لكن لنقل كبداية للحديث ، لمَ يمكن للأرض أن تكون كروية و تدعى الكرة الأرضية ، و لا يمكن للفضاء أن يكون كذلك كروياً و يدعى الكرة الفضائية أو الكونية مثلاً..؟!

ذهل أوليفر أكثر من هذا الكلام ، بالفعل لم لا ؟! لماذا كلمتا (**الكرة الأرضية**) ليستا غريبتين علينا ، و كلمتا (**الكرة الكونية**) تبدوان كذلك ؟!

◯ بالفعل ، أنت محق !!

● جميل ، لذا كاستمرار للحديث ، هل تودّ السفر وراء هذه الفكرة الغريبة بالنسبة لك الآن لتصبح أهلاً بامتلاكها كحقيقة لاحقاً كما حدث مع سابقاتها..؟!

أجاب بلهفة و بدون تردد ..

◯ بالطبع أودّ بمنتهى الحماس و الفضول .. !! لكن بمناسبة هذا الحديث هنالك سؤال يدور في خلدي منذ زمن سيد عزيز و أتمنى أن تجيبني عليه ؟

● تفضل ..!

◯ أفهّم جيداً وجهة نظرك بأنني يجب أن أبذل جهداً و أتعب لبلوغ الحقائق لكي أشعر بقيمتها كما وضحت لي منذ أشهر في إيطاليا، لكن لم اخترت التعب عبر السفر دون غيره من أشكال العناء سيد عزيز ..؟

نفث السيد عزيز قليلاً من الدخان من البايب ثم ابتسم ..

● لأنه طقس قديم يعود لآلاف السنين سيد أوليفر و ليس من اختراعي الشخصي أو قراري الذاتي ، و أنت تعرف هذا الطقس جيداً !

◯ حقاً ، أعرفه ؟!

● بالطبع ، إنه (**الحج**) سيد أوليفر ، ألم تسأل نفسك من قبل لماذا فرض الحج إلى أراضٍ بعيدة على أتباع الديانات مثل **مكة للمسلمين، بيت لحم للمسيحيين، القدس لليهود، الله آباد للهندوس، لومبيني للبوذيين و إمريتسار للسيخ** و غيرهم. ؟ . ألم يكن من الممكن أن يحج كل شعب إلى مكان خاص بمدينته ؟ أليس ذلك بأيسر عليهم من نواحٍ عديدة ؟

فكر أوليفر قليلاً ..

◯ بالفعل أنت محق ، و لم ذلك برأيك ؟

● لسببين هامين للغاية ، **الأول** أن عناء السفر خاصة في الأزمنة السابقة كان من أشدّ أشكال العناء ، فمن خلاله تثبت للخالق أنك مستعد للتحمل و دفع الثمن عبر طاعته لاستحقاق رحمته و ثوابه ، و **الثاني** أن السفر يجعل من الطقس الذي تؤديه حكاية و مغامرة ممتعة تمنحه أبعاداً أخرى تزيد من أهميته ، هيبته و رهبته ..

أومأ أوليفر برأسه موافقاً ..

◯ منطقي جداً ! .. و الغاية من الأحاجي ؟

● المتعة الذهنية سيد أوليفر ، فحل الألغاز و الأحاجي يعتبر بالتحليل العلمي أكبر متعة ممكنة للدماغ البشري ! فيما عدا ذلك فالحقائق مجرد نظريات جافة لا تستهوي العقل !!

ابتسم أوليفر ..

◯ و أشهد أنها كذلك بالفعل من وحي تجربتي الشخصية ، إذ منحتني متعة لم أجربها طوال سنين حياتي ..

● إذاً هيئ نفسك من الآن ، فبانتظارك رحلة جديدة و أسفار أخرى وراء الأحاجي التي تحبها سيد أوليفر، غداً ستعود إلى ميونخ لترتاح قليلاً من عناء السفر إلى مصر ثم جامايكا و تستعد للرحلات القادمة عبر أحاجٍ جديدة مني.

صمت يفكر للحظات ثم أردف ..

● لكن قبل ذلك ، أريد أن أمنحك شيئاً خاصاً بسيطاً مستوحى من حديثنا هذا كهدية متواضعة مني تبقى ذكرى لك من هذه البلاد و هذا المكان و هذا الحوار الغريب أيضاً ..

◯ مفاجآتك لا تنتهي سيد عزيز .. !! هذا لطف بالغ من حضرتك ..

اتجه السيد عزيز إلى غرفة مجاورة ، غاب لثوانٍ ، ثم عاد و معه شيء في يده ، تبين لأوليفر بعد أن اقترب أنها ساعة !! ..

● أتمنى أن تقبل مني هذه الساعة التي تليق بمعصمك .. أنا أدعوها (الساعة الكونية) ..

ابتسم أوليفر بامتنان ..

◯ شكرا لك سيد عزيز على هذه اللفتة الظريفة ، لكن ما المناسبة !؟

● لا مناسبة ، لقد لاحظت أنك لا ترتدي ساعة في معصمك ، و تذكرت أن لدي ساعة ذات صلة بحديثنا و بالأخص بالأحجية السابقة التي اضطررت لبترها تبعاً للظروف القاهرة ، فأحببت أن أهديها لك ..

تأمل أوليفر الساعة أكثر ، كانت عادية الحجم لكن غريبة التصميم كشيء سحري فعلاً و مستوحاة من حوارهما السابق فزجاجها مقبب قليلاً ككرةٍ زجاجيةٍ تماماً ، في مركز الساعة جمعت الشمس مع القمر و تمتد منهما عقارب الساعة بشكل أشعة ضوئية ربما كدلالةٍ إلى السرعة القصوى للضوء و التي يتوقف عندها الزمن كلياً ، كما استبدل كل رقم من أرقام الساعة برمز لكوكب من الكواكب الثمانية ، مجرة ، ثقب أسود ، مذنب و عند الساعة صفر أو الثانية عشر كان هنالك رمز **لكائن فضائي** .. إنه كون صغير مبسط محتوى في هذه الساعة على هيئة كرة زجاجية ..



ابتسم أوليفر ..

○ إن تصميمها فريد و غريب بالفعل ! لكن لا أخفيك سراً سيد عزيز بأن وجود الكائن الفضائي فيها يثير زوبعةً من الأسئلة في رأسي ..؟

ابتسم السيد عزيز بدوره ..

● أسئلة من قبيل ماذا ؟ ..

○ مثلاً هل تؤمن بوجود الفضائيين سيد عزيز ..؟

● أنا أؤمن بكل ما أخبرنا القرآن الكريم بوجوده سيد أوليفر ..

○ و هل ذكر القرآن الكريم شيئاً عنهم ؟

نظر السيد عزيز إليه نظرة غريبة تحمل ألف معنى ..

● لا يوجد ثمة شيء لم يتطرّق إليه القرآن يا صديقي .. من أصغر الجسيمات إلى الكون الواسع و حتّى ما بعده ، لكنه بحاجة لمن يتمكن من تفسيره بحرفية فيفك شفراته و ألغازه .. في الحقيقة كان يفترض أن يكون ذلك ثاني أجزاء الأحجية الأخيرة في مكتبة الإسكندرية التي اضطررت لبترها ..

○ الجزء الثاني ؟

● بالطبع .. فقد كانت الأحجية التي اخترتها لك في مقهى ميونخ **كونية** إن جاز التعبير و مقسمة على ثلاثة أجزاء .. **الأول** و قد حللته أنت ببراعة ، يتناول عمر الكون و الحياة على الأرض و مسرح الأحداث هو مكتبة الاسكندرية في مصر.. أما **الثاني** فيتناول وجود حيوات أخرى غيرنا في هذا الكون الواسع الصغير بنفس الوقت و مسرح الأحداث كان ينبغي أن يكون **المكسيك** حيث اكتشفت **تماثيل أكامبارو** المدهشة ..

○ تماثيل أكامبارو !

● تماماً .. **33** ألف تمثال اكتشفت عام **1944** من قبل **فالديمار** في بلدة أكامبارو المكسيكية الصغيرة قرب العاصمة مكسيكو سيتي، و التي تجسد بشراً يروضون ديناصورات مع مجسمات لسفن فضائية أثبت العلم أنها تعود لقرون خلت قبل اكتشاف الديناصورات أو وضع فرضية وجود فضائيين ... مما يطرح العديد من الأسئلة العجيبة..

○ مذهل !! .. إنّ هذا يفترض وجود حضارات سبقتنا منذ زمن سحيق تجاوزت مدى إدراكنا الحالي بمسافات .. و ربما قدّر لها أن تتواصل مع حيوات أخرى من الكون ساعدتها على فعل ذلك !

● تماماً، و هذا احتمال قوي له ما يبرره ، إذ لا وجود لتفسيرات أخرى

منطقية لتماثيل أكامبارو .. فمن أين عرفت تلك الحضارة التي عاشت منذ قرون بوجود الديناصورات أو الفضائيين ؟!

◯ بالفعل ، أمر محير على نحو مخيف ! و الجزء الثالث من الأحجية ؟

● الجزء **الثالث** يتناول أسرار الكون في القرآن بمسرح أحداث في **جزيرة القيامة في تشيلي** التي يكتنفها الغموض و الألغاز مع عشرات التماثيل على سطحها لوجوه تحدق عالياً في السماء و كأنها تحاول كشف خفايا الكون ..

ابتسم أوليفر بدهشة ..

◯ يبدو أنه فاتني الكثير من المتعة حرفيّاً !

● ربما ، لكن لم يفت الأوان لتحصيلها و لو جزئياً ، إذ يمكننا الآن مناقشة تلك الأجزاء و إن كانت متعة السفر و حل الأحاجي لها معنى خاص آخر..

أوليفر بفضولٍ طاغٍ ..

◯ بلا أدنى شك .. و تجربتي الخاصة تقسم أنّ متعة السفر و حل الأحاجي لا تعوّض كما لا تقارن بأي متعة أخرى .. لكن كيف ذكر القرآن وجود فضائيين في هذا الكون الشاسع ، إنه أمر يستحث الدهشة و الفضول معاً ؟

● بلى هو كذلك .. فالله تعالى يقول في القرآن الكريم :

(ومن آياته خلق السموات و الأرض و ما بث فيهما من دابة و هو على جمعهم إذ يشاء قدير)

و كما تلاحظ مقدار غرابة و أهمية هذه الآية القرآنية سيد أوليفر فهي تتحدث بشكل صريح عن خلق الله لكائنات حية أخرى في الكون و قدرته إن شاء على جمعنا بهم ..

قطّب أوليفر حاجبيه مشككاً ..

◯ لكن ألا تقصد الآية بدواب السماء (الطيور) ؟

هزّ السيد عزيز رأسه نافياً ..

● إطلاقاً .. الدواب هي ما تدب على الأرض و لا تطير سيد أوليفر .. كما أننا على تواصل دائم و مباشر بالطيور فما الغرابة بأن يجمعنا الله تعالى بهم ؟ .. الآية تشير بشكل واضح إلى صعوبة التقائنا بالمخلوقات الكونية الأخرى لكن الله تعالى قادر على تحقيق ذلك بسهولة متى شاء ..

فتح أوليفر فمه مذهولا ..

◯ إنه كلام خطير ، غريب و الأهم أنه منطقي للغاية و لا غبار عليه ، يؤكد بشكل قاطع - من منظور ديني - وجود حيوات أخرى في هذا الكون الواسع بالفعل.. !

● بلى إنه كذلك .. و هذا ما يثبت أن مفارقة فيرمي منطقية تماماً و من حقها طرح التساؤلات ..

◯ مفارقة فيرمي ؟!

● أجل .. و يقصد بها مجموعة الحلول المقترحة لسؤال العالم الفيزيائي الإيطالي الأمريكي **إنريكو فيرمي** في خمسينيات القرن الماضي ..و قد كان سؤال فيرمي : **أين الجميع ؟**

الذي قصد به الحضارات الأخرى في الكون سوانا و فرص وجود حياة أخرى فيه التي تتراوح بين عدة مليارات من الفرص، وبين انعدام الفرص تماماً عدا الحياة التي على كوكب الأرض ، وبسبب وجود التباين الشديد جداً بين الحلول سميت مفارقة ..

◯ بالفعل سؤال مشروع و محير !.. هل هذا الكون الشاسع يقتصر على الحياة على كوكب الأرض فقط ؟ .. أمر صعب التصديق !!

● تماما .. لقد أثارت مفارقة فيرمي جدلاً واسعاً في المجتمع العلمي و الأدبي بين من يقول أنّ المقاييس والاحتمالات تُرجّح أن تكون الحياة الذكية

شائعة في الكون، و بين من يتذرع بالافتقار التام إلى أدلة دامغة على وجود تلك الحياة في أي مكان آخر غير الأرض .. و بعيداً عن الأدلة القرآنية لوجود حياة أخرى فإن التحليل المنطقي لذلك يرجح وجودها بشكل هائل ..

◯ و كيف ذلك ؟

● بالنظر إلى الأعداد الكبيرة للأجرام السماوية في الكون الواسع الرحب ، فهناك ما يقدر بنحو **200 - 400** مليار نجم في مجرتنا العزيزة درب التبانة **70** سيكستيليون نجم في الكون المرصود .. و حتى لو نشأت الحياة الذكية على نسبة ضئيلة فقط من الكواكب حول هذه النجوم، فإنه ما يزال هناك عددٌ كبير من الحضارات الموجودة ، و باعتبار أن هذه النسبة مرتفعة للغاية فهذا يعني وجود عددٍ كبير من الحضارات حتى في مجرتنا العزيزة درب التبانة ..

◯ و كيف فسر العلماء المؤيدون لهذه المفارقة عدم احتكاكنا بالفضائيين حتى الآن ؟

● في الحقيقة اهتم الباحثون بطرح الكثير من الحلول لهذه المفارقة، بل أنّ بعضهم طرح معادلات لحل هذا الإشكال من قبيل **معادلة ديرك** .. و بعض الحلول لمفارقة فيرمي التي اقترحها العلماء حول الكائنات الحية الأخرى في الكون تشمل :

هم موجودون بالفعل لكنهم لا يتواصلون معنا لسبب ما..

هم موجودون ويتواصلون معنا بالفعل ولكن لا يمكننا فهمهم لاختلاف لغة التواصل ..

كانوا موجودين في وقت لم نكن نحن فيه ، لكنهم لم يمروا بالضرورة على الأرض ، ثم اختفوا بعد ذلك ..

اختفوا! أي دمروا أنفسهم أو دمرهم شيء ما، كما قد يحصل مع البشر في حال نشوب حرب نووية لا تبقي و لا تذر ! ..

قد نكون غير مهمين بالنسبة لهم على الإطلاق بسبب فرق التطور ، فقد يكونون متطورين لدرجة تجعلنا بنظرهم كالنحل مثلاً بالنسبة للبشر، فهل

فكر البشر يوماً ما بالتواصل مع النحل رغم أنهم يحومون حولنا طوال الوقت !؟ ..

◯ منطقي للغاية .. لكنني أميل إلى تصديق القرآن الكريم .. فكلام الله فوق أي كلام .. كما أنني أؤيد الطرح الأخير من مجموعة الحلول .. فإن كانت هذه الكائنات متطورة لدرجة تمكنها من قطع المسافات الشاسعة في الكون للوصول إلى كوكب الأرض فنحن بالفعل جنس بدائي بالنسبة لهم ، تماماً كحال النحل بالنسبة لنا كما أسلفت سيد عزيز .. في الواقع بقد أقنعتني سيد عزيز و بت مؤمناً بوجود حيوات أخرى غيرنا في هذا الكون الواسع ربما نتواصل معها ذات يومٍ بإرادة الله .. إنك لا تنفك تدهشني بهذه التحف القرآنية .. إذ ذكرت لي سابقا في مكتبة الإسكندرية في الجزء الأول من الأحجية أنّ القرآن تطرق إلى نشوء الكون من الانفجار العظيم و توسعه ثم تنبأ بطريقة انتهائه ، بل أكثر من ذلك بعمر الحياة على كوكب الأرض..

صمت أوليفر للحظات ثم أردف ..

◯ بمناسبة الحديث عن أسرار القرآن، ما هو الجزء الثالث من الأحجية الذي يتناول أسرار الكون الأخرى في القرآن سيد عزيز .. ؟

● هنالك آيات قرآنية عديدة تتناول الكون و ما يحتويه من ظواهر و أسرار سيد أوليفر .. فهنالك مثلاً الآية التالية من سورة يوسف ..

(اذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنــي رأيت احد عشر كوكبًا و الشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين)

فالمعروف حتى الآن وجود **8** كواكب فقط في المجموعة الشمسية مما يثير تساؤلات هامة عن هوية الكواكب الثلاثة المتبقية التي لم يرصدها العلم رغم تطوره حتى الآن ! .. ناهيك عن معرفة القرآن بوجود كواكب أخرى عديدة غير الأرض في مجموعتنا الشمسية رغم عدم وجود الأدوات الفلكية الكافية لإثبات ذلك وقتها ..

◯ غريب بالفعل ! و غيرها ..؟

● تطرق القرآن للثقوب السوداء ..

نظر أوليفر إليه بدهشة عارمة ..

○ حقاً تطرق لها ؟!

● بالطبع في الآية التي تقول ..

(فلا أقسم بالخنّس الجوارِ الكنّس)

فالخنس باللغة العربية هي الأشياء غير المرئية و المحجوبة عن العين البشرية أما الجوارِ فهي الأجرام السيّارة و الجارية في الكون .. في حين صفة الكنّس تشير إلى كنسها لكل شيء من حولها .. وهذه هي الخصائص الثلاثة الرئيسية للثقوب السوداء ..

○ مذهل ! و غير ذلك ؟.. زدني سيد عزيز فالفضول يقتلني ..

ابتسم السيد عزيز ..

● قوله تعالى ..

(و لقد جعلنا في السماء بروجاً و زيناها للناظرين)

و المقصود هنا تجمّعات النجوم في المجرات التي أطلق عليها القرآن تسمية البروج المزينة إذ تأخذ أشكالاً و ألواناً مختلفة مدهشة تسرّ العين و تفجّر العقل من جمالها و روعتها .. بالطبع في زمن نزول القرآن لم يكن أحد يدري بوجود المجرات بعد فقد كانت السماء بالنسبة للبشر قطعة واحدة بلا أجزاء..

○ سبحان الله .. يا لإعجاز القرآن ! المزيد المزيد سيد عزيز ..

● قوله تعالى في وصف النجوم النترونية ..

﴿ **و السماء و الطارق * و ما أدراك ما الطارق * النجم الثاقب** ﴾

فهذه النجوم صغيرة الحجم للغاية لكنها هائلة الكتلة بنفس الوقت و تدور حول نفسها مئات المرات في الثانية مطلقةً نبضات تم تسجيل صوتها بوسائل خاصة فكان يشبه المطرقة لذا لقبت بالمطارق الكونية أي النجوم الطارقة كما وصفها القرآن تماماً ..

فتح أوليفر فمه بذهول ..

◯ كل هذا موجود في القرآن ؟

● و أكثر من ذلك .. أزيدك من الشعر بيت .. قوله تعالى ..

﴿ **فإذا انشقت السماء فكانت وردةً كالدهان** ﴾

و يرجح أن هذه الآية تشير إلى السوبرنوفا أو المستعر الأعظم ، ذلك المصطلح الذي يطلق على انفجار النجوم الكبيرة بطريقة توحي بانشقاق السماء حرفياً ثم موت تلك النجوم مخلفة وراءها ما يعرف **بسديم عين القط** الذي يشبه الوردة المتفتحة تماماً في ظاهرة فلكية مذهلة ..

◯ مذهل و مخيف في نفس الوقت !

● بلى هو كذلك .. و هناك قوله تعالى :

﴿ **هو الذي جعل الشمس ضياءً و القمر نوراً و قدّره منازل** ﴾

و هذه معجزة قرآنية بحدّ ذاتها ميّز فيها القرآن بين طبيعة تكوين الشمس و القمر .. فالضياء صادر مباشرة من الشمس المحترقة أما النور فهو انعكاس ضوء الشمس على القمر الصخري الذي لا يضيء من تلقاء ذاته .. و كما ترى لا يمكن لأي إنسان في ذلك الوقت معرفة هذه الحقائق فطبيعة الشمس و القمر كانت مجهولة حينئذٍ ..

◯ يا له من تفسير خلّاق و دقيق !! ..

● و هنالك المزيد بعد ..

أوليفر بسعادة و فضول ..

○ أبهرني سيد عزيز .. فالقرآن أشبه بصندوق كنوز !

● أيضاً قوله تعالى :

(إنّ الله يمسك السموات و الأرض أن تزولا)

و هنا يفسر الله كيف يحافظ الكون على توازنه رغم توسعه السريع الكفيل بخلق بيئة باردة للغاية غير متوافقة مع الحياة .. فذلك التوسع يتم بمقدار مدروس إلهياً عبر كبح جماحه من خلال الجاذبية التي تخلقها المادة المنتشرة بين الأجرام السماوية مالئةً فراغ الكون و التي لم يتم اكتشافها بالضبط بعد.

○ لقد تجاوزت مرحلة الذهول .. فلساني الآن يعجز عن التعبير حرفيّاً

ابتسم السيد عزيز ..

● و في هذا السياق نتطرق إلى آية أخرى مذهلة ..

(و أنّا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً و شهباً)

فهذه الآية العجيبة تشير إلى أن الشهب و النيازك تجري في الكون بحرية خارج نطاق المجموعات الشمسية فلا تدور في فلك نجوم محددة .. في حين تشكل النجوم حرساً حقيقياً للكواكب فتجذبها إليها و تمنعها من الشرود في فضاء الكون تائهة بشكل عبثي يسبب تصادمها و يخلق بيئات غير مناسبة للحياة ..

○ النجوم تحرس الكواكب من الاصطدام ببعضها .. عبقري و مذهل حرفياً .. !!

● إنه القرآن سيد أوليفر .. معجزة الإله و مكمن أسراره .. في الحقيقة

كان الجزء الثالث من الأحجية منطوياً على الكثير من الآيات الأخرى .. لكن الوقت لا يسعفنا الآن لذكرها جميعاً .. ربما في لقاءات أخرى قادمة سيد أوليفر أو نضعها في قوالب أحاجٍ جديدة ..

هز أوليفر رأسه بدهشة عارمة مكللة بالإعجاب ..

◯ أشكرك جزيل الشكر سيد عزيز على هذه الساعات الغنية بالمعلومات المذهلة .. لقد وصلت بي إلى حدود الكون الواسع خلالها بل أكثر من ذلك حتّى إلى ما بعد حدود الكون ! .. و نجحت بتدوير عقلي **180** درجة في من خلال آيات القرآن الكريم بأسراره و حقائقه .. كما أجدد شكري الجزيل مجدداً على هذه الساعة ، إنها هدية معبرة للغاية ستجعلني أتذكر على الدوام هذا المكان **دياميس روما** مع الحوار الذي دار بيننا عن غرائب الكون الواسع و الحيوات الأخرى فيه ، إضافةً إلى توسعه ضمن حيز صغير من العالم الآخر ، كلما نظرت في هذه الساعة كذكرى لن تنسى و لن تمحى أبداً من مخيلتي ..

● سعيدٌ بأنها نالت إعجابك ..

نهض أوليفر من مقعده ..

◯ الحمد لله على سلامتك سيد عزيز مجدداً ، خذ حذرك و حيطتك من أفراد المنظمة الظلامية فاغتيالهم لصديقيك ترومان و جيمزا يؤكد نواياهم السامة و جرأتهم اللامحدودة ، من جهتي سأنتظر رسالتك الجديدة و الأحجية التالية بفارغ الصبر إذ يقتلني الفضول لمعرفة ما ينتظرنا بعد حدود الكون .. !!

● الشكر لك سيد أوليفر لتحملك المشاق حتى تصل إلى هنا كي نلتقي و نتحدث ، تذكر جيداً منذ اليوم بأنك رجلنا المنشود و على كاهلك مسؤولية كبيرة بحمل إرث الحقائق الكونية عنا .. سفراً هادئاً و آمناً ، و بالطبع سأكلمك لاحقاً لتزويدك بالأحجية الجديدة ..

عاد أوليفر إلى غرفته في الفندق و هو يترنح نوعاً ما من شدة التعب ، لذا

حجز تذكرة سفر إلى ميونخ في الصباح التالي ثم أوى مباشرةً إلى الفراش دون عشاء و سرعان ما غرق في نوم عميق ..

*****

زوبعة

في فنجان

ألمانيا / ميونخ

صباحًا ..

قضى أوليفر رحلة العودة الطويلة مستغرقاً بالتفكير بآخر المستجدات سواء في مصر أو جامايكا ، صحيح أن رحلة الأحجية السابقة كانت قصيرةً بسبب اضطرار السيد عزيز لبترها تبعاً للظروف ، لكنها كانت ممتعةً مع حصاد مذهل للغاية ، خلاصتها على النحو التالي :

◉ **نحن الآن في اليوم الإلهي السابع و الأخير ، و قد اقتنع إلى حد كبير بهذه النظرية** ..

◉ **لسنا وحيدين في هذا الكون فقد خلق الله تعالى غيرنا فيه و سيجمعنا بهم بإرادته، و قد اقتنع أيضاً بذلك** ..

◉ **كوننا يتوسع في حيز صغير كروي ضمن العالم الآخر ، و هو لم يقتنع تماماً بذلك ، لكنّ السيد عزيز سيقنعه بطريقته الخاصة عبر الأحاجي** ..

فهل يفعلها السيد عزيز مجدداً و يثبت له هذه الحقيقة الغريبة **!؟**

وصل أوليفر إلى منزله في غارميش بارتن كيرشن مع الأنفاس الأولى للفجر، والندى لا يزال يلامس أوراق الزهور بخفةٍ تشبه الهواجس العالقة في ذهنه. تنفّس بعمقٍ رائحة الصنوبر التي تعبق في الأرجاء، ثم ولج إلى المطبخ بهدوء من أنهكته الرحلات، فأعدّ لنفسه فطورًا خفيفًا، تبعه بكأس من المتّة الساخنة، عله يستعيد بعضًا من صفائه وسط دوامة الأفكار.

جلس في الحديقة الخلفية، حيث تظلل شجرة الكافور العتيقة بقامتها الباسقة جزءًا من مقعدٍ خشبي لطالما اعتاد التأمل فيه. أسند ظهره برفق واستسلم لصمت الصباح، فيما تداعت إلى ذهنه فصولٌ من رحلته الأخيرة، متوقفة

عند مشهدٍ يصرّ على أن يتكرر كأنما يستعرض نفسه: التهديد بالقتل الذي تلقّاه السيد عزيز بعد اغتيال زميليه، البروفيسور ترومان والأسقف جيمزا.

لقد أضفى ذلك الطابع العنيف على ما كان يبدو مغامرات فكرية وأحاجٍ رمزية، فإذا بها تتحول شيئًا فشيئًا إلى حقل ألغامٍ حقيقي تتشابك فيه الفلسفة بالدم، والمعرفة بالخطر.

(كم هو شائنٌ ووَضيع)

فكّر أوليفر وهو يحدّق في ظل الشجرة المتراقص على العشب ..

(أن يُقتل الإنسان من أجل فكرة.)

إن البشر ـــ كما يؤمن أوليفر ـــ يجب أن يُمنحوا حق التعبير عن آرائهم كاملةً، شريطة ألا يطال الأذى غيرهم، فالفكرة التي تُحدث ضجةً وتثير الغضب والجدل، هي في الغالب فكرةٌ تلامس الحقيقة، وتضرب على وترٍ حيّ. وهؤلاء الذين يطلقونها، لا يجب أن يُخنق صوتهم أو يُسفك دمهم، بل يُنصت إليهم، لأنهم ربما يدفعون بعجلة الوعي خطوةً أخرى في الاتجاه الصحيح.

أما الأفكار الواهية، فهي تُهمل من تلقاء نفسها، لا يخشاها أحد، ولا تثير حفيظة أحد.

أغمض عينيه قليلاً ثم فتحهما على طيفٍ لطالما افتقده خلال الأيام الماضية : شام. فاض به الحنين إليها، إلى تلك الهدأة في صوتها، وتلك الحكمة الغضة التي تسكن كلماتها.

نظر إلى ساعته. إنه توقيت مناسب في القدس.

أخرج هاتفه، واتصل بها.

كان صوتها أول نسمة حقيقية في صباحه.

أخبرها بعودته من رحلته، واطمأن عليها ، على دراستها، على حياتها، على الشيخ نبيل...

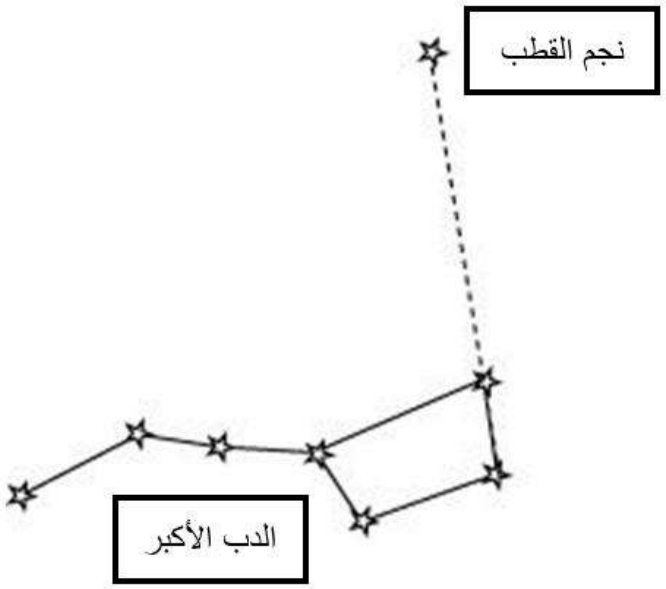
تفرّغ بعدها للتفكير بالأحجية الصغيرة التي تركها له السيد عزيز بخصوص الرقم السري للخزينة ..

إذاً كل من الكلمات الغريبة يمثل رقماً ما ..

بدأ **بزهرة الياسمين** .. فبحث عن صورتها على هاتفه ، إنها زهرة بيضاء ذات خمس بتلات كنجمة تماماً و صورتها بذلك تنطق مباشرة بالرقم الأول و هو **5** غالباً ..

انتقل إلى المصطلح الثاني و هو **نجم القطب** .. بحث على هاتفه عن جميع المعلومات المتعلقة به و عن أي رقم قد يرتبط به ، فوجد أنه نجم يدل على اتجاه الشمال لكن للأسف لا وجود لرقم محدد مرتبط به بوضوح، لم يستسلم و بحث أكثر و أكثر حتى عثر عل معلومة غريبة قد تشير إلى شيء ما ، كانت تتحدث عن إمكانية تحديد موضع نجم القطب في السماء من خلال إيصال خط بين آخر نجمتين من مجموعة الدب الأكبر ذات النجوم السبعة لتصل إليه مباشرة ، فهل السيد عزيز يلمح إليه بالنجم الثامن المكمل للدب الأكبر ، تذكر على الفور اليوم الثامن الأخير

اللانهائي الذي يلي أيام الحياة السبعة و ابتسم ، ما هذا الترابط العجيب ؟
إذاً الرقم الثاني على الأرجح هو **8** ..



ثم انتقل إلى المصطلح الثالث و هو **إله الحرب** ، غالباً يقصد به السيد عزيز الإله الإغريقي أي الإله مارس أو المريخ لكن لا أرقام معروفة مرتبطة به،

فهل يقصد به كوكب المريخ ؟ ممكن جداً و في هذه الحالة يصبح له ترتيب بحسب بعده عن الشمس و هو الرابع ، بالتالي نحصل على الرقم الثالث و هو **4** ..

بقي الرقم الأخير ، فما لذي يقصده السيد عزيز **بالقيصر** ؟ بحث على هاتفه و كانت جميع النتائج تتحدث عن الشيء نفسه ، إما القيصر الروسي أو القيصر الروماني و بالأخص قيصر روما الأشهر يوليوس ، سرعان ما ربط أوليفر اسمه بشهر يوليو/ تموز أي السابع الذي سمي تيمناً به .. ابتسم بانتصار ، لقد حصل بذلك على الرقم الأخير وهو **7** ، فالرقم يصبح **5847** ..

لكن ما لذي يعنيه السيد عزيز بالمرآة ..

بحث مجدداً على هاتفه ولم يعثر على أي معلومة هامة قد تربطها برقم معين ، لم يتذمر و واصل البحث عن أي سر متعلق بالمرآة حتى عثر أخيراًعلى معلومة تتناسب تماماً مع هذه الأحجية ، إنها طريقة سرية استخدمها **ليوناردو دافنشي** قديماً لإبقاء المعلومات ضمن خانة الأسرار و ذلك بالكتابة بشكل معكوس ثم وضع الورقة أمام المرآة التي تعكس الكلمات لتظهر الكتابة الحقيقية مقروءة بوضوح ..

إذاً خلاصة كل ما سبق يكون الرقم السري لخزينة السيد عزيز هو **7485** ، فهل هو صحيح ؟ ..

كم أنت غريب أيها السيد عزيز .. ربما تكون أكثر شخص غامض عاشق للأسرار و الأحاجي على وجه البسيطة ..!

*****

في اليوم العاشر من عودته من جامايكا ، وصلت رسالة السيد عزيز الجديدة المنتظرة ، ذكرته على الفور بأحاجي الزيتونة فقد كانت شعرية :

انقسم الزمن به إلى قسمين ..

قبله أيام و بعده أكثر من يومين ..

انتصب عالياً فوق التلال ..

و نظراته تكشف المستور ..

اسمه المتخفي في الظلال ..

إنسان الله الجاذب للنور ..

وعلى طاولة معيّنة .. وضعت كرة زجاجية

إنها مثال أو عيّنة .. تحوي أسراراً غيبية

توضع تحت المجهر

فتتكشف الأمور

عزيز اليقين

كانت الأحجية طويلةً نسبياً و غريبةً كالعادة .. لكنها تحوي معلومات لا بأس بها كما يبدو ..

كنظرة أولى لاحظ أنها مؤلفة من أربع مقاطع .. فقرر محاولة حلها مقطعاً تلو الآخر .

لنرى ، لدينا المقطع الأول يتحدث عن شيء أو شخص هام انقسم الزمن بسببه إلى قسمين ..

ذكره هذا المقطع على الفور بالمسيح ، فالتاريخ مقسم إلى قبل ميلاده و بعده ، منطقي جداً ، تأكد من صحة تفكيره من خلال الشق الثاني فهو يشير إلى

الأحجية السابقة ذات الأيام الإلهية السبعة ، و التي تقسم إلى أربعة أيام قبل المسيح و يومين بعده و الثالث نعيشه الآن .. هذا مناسب بشكل مثالي فقبل المسيح أيام بالفعل و بعده أكثر من يومين كما تقول الأحجية .. !!

جميل ، ننتقل إلى المقطع الثاني الذي يقول أن المسيح ينتصب فوق التلال و ينظر إلى شيء ما يدل على اسم متخفٍّ ، هذا الشق غريب ، لكنه يذكره بشيء ما بالفعل ، عصر تفكيره و ذاكرته لدقائق حتى تذكر في النهاية ،

إنه **تمثال المسيح الفادي** الذي ينتصب أعلى تلة في مدينة ريودي جانيرو البرازيلية مشرفاً على المدينة ، إذا فالسيد عزيز يدله على عنوان شخص في المدينة و اسمه كما ذكر في الأحجية (إنسان الله الجاذب للنور) ، لكن ما معنى ذلك .. ؟؟

عاود البحث عن اسم يعني إنسان الله فوجده على الفور إنه غابرييل ، رائع ، و الآن اسم يعني الجاذب للنور ، و كان لوكاس ..

هكذا أصبح لديه اسم كامل (**غابرييل لوكاس**) موجود في ريو دي جانيرو .. فهل تحليلاته صائبة ؟

انتقل إلى المقطع الثالث إنه يتحدث عن طاولة معينة الشكل عليها كرة زجاجية ، لقد شاهد هذا المنظر من قبل عند السيد عزيز ، لكنه شاهده اليوم أيضا منذ لحظات فقط و هو يبحث لكن أين ؟ عاود التدقيق في صفحات البحث السابقة فوجد ضالته ، إنه علم البرازيل ، المعين الذي يحوي كرة مليئة بالنجوم (الكرة الكونية !!) ..

ابتسم بثقة و انتصار ، إنه على الطريق الصحيح بلا أدنى شك ..

بقي الجزء الرابع و الأخير الذي يتحدث عن وضع الكرة الزجاجية كعينة تحت المجهر فتتكشف الأمور ، ما لذي يقصده السيد عزيز يا ترى ؟! على الأرجح يشير إلى توجه معين او وظيفة محددة تعتمد على المجهر بشكل أساسي ..

بذلك أوفت الأحجية بكل وعودها ، فلدينا مكان هو ريودي جانيرو مع اسم هو غابرييل لوكاس و وظيفة هي غالبا مختبر أو ما شابه ذلك .. هذا كم هائل من المعلومات لم يصادفه في أي أحجية سابقة .. !!

قام بترتيباته المعهودة فحجز تذكرة سفر إلى البرازيل للغد مع غرفة فندق في ريو دي جانيرو ..

*****

البرازيل / ريو دي جانيرو

صباحًا ..

دخل أوليفر إلى غرفة الفندق بعد رحلة طويلة أنهكت جسده واستغرقت نحو خمس عشرة ساعة، فنظّم أغراضه على عجل، ثم اغتسل ليستعيد شيئًا من نشاطه، وارتدى ملابسه الصيفية الخفيفة، فالبرازيل تودّع آخر أيام الصيف في نصف الكرة الجنوبي، ورائحة الرطوبة الدافئة تعبق في الهواء.

اقترب من الشرفة وسحب الستائر بخفة، ليفاجأ بمشهد كأنه هارب من إحدى حكايات ألف ليلة وليلة... تلال خضراء تطوّق المدينة بحنوّ، وجزر صغيرة تتناثر كأنها حبّات لؤلؤ ألقتها الآلهة فوق سطح المحيط. من جهة البحر، امتدّ **شاطئ كوباكابانا** كسبيكة ذهبية ناعمة، تناثرت فوقها المظلات الملوّنة كمجوهرات مبعثرة سقطت من صندوق كنز مفقود. أما من الجهة الأخرى، فقد انتصب **تمثال المسيح الفادي** بذراعيه الممدودتين، يشرف على ريو دي جانيرو كحارس أبدي، يبارك المدينة أو يحرسها من المصير المجهول.

تنفّس أوليفر بعمق، كأنما يحاول أن يملأ رئتيه بجمال المشهد وربما ببعض الشجاعة، ثم همس لنفسه :

ما الخطوة التالية ؟

كان من الواضح أن الخطوة الأذكى الآن هي سؤال موظفة الاستقبال عن طبيب أو مختبر يرتبط باسم غابرييل لوكاس. لم يكن لديه خيار آخر، ولا وقت للمماطلة.

نزل إلى الطابق الأرضي بخفة المفتون بجمال اللحظة والمحموم بالقلق في آن، فالبهو كان يعج بالحركة والنشاط، وقد نال كفايته من النوم على متن

الطائرة، فقرر أن يبدأ مغامرته في التحري فورًا، بلا تلكؤ.

اقترب من موظفة الاستقبال مرة أخرى، وابتسم قائلاً:

● آنسة أدريانا ، إنني أبحث عن شخص في المدينة اسمه غابرييل لوكاس يملك مختبرا على الأغلب أو يعمل في السلك الطبي ، فكيف يمكنني الوصول إليه .. ؟

○ مختبر الطبيب غابرييل ، بالطبع إنه مشهور للغاية هنا في ريو ، انتظر لحظة من فضلك ..

بحثت في كتاب أمامها للحظات و كتبت العنوان على ورقة ثم سلمتها له ..

○ تفضل سيد أوليفر ، هذا هو العنوان ..

● أشكرك جزيل الشكر ..

○ بلاد السامبا ترحب بك ..

ابتسم لها ابتسامة راضية، ثم غادر الفندق بخفة المنتصر، منتشيًا بما تحقق حتى الآن؛ فكل شيء سار على نحو أيسر مما تخيّل، وكأن حدسه قد استبق الأحداث بخطى واثقة. ركب سيارة أجرة كانت تقف أمام مدخل الفندق، وأعطى السائق ورقة دوّن عليها العنوان الذي حصل عليه من موظفة الاستقبال.

لم تمضِ سوى خمس عشرة دقيقة حتى توقفت السيارة أمام مبنى كبير في قلب ريو دي جانيرو النابض بالحياة. أشار السائق بسبابته نحو المبنى قائلاً بلغة الإشارة التي لا تخطئ : لقد وصلنا ..

ترجّل أوليفر من السيارة ونظر إلى أعلى، حيث برزت لافتة ضخمة على الطابق الثاني، كتب عليها بخط واضح:

مختبر الطبيب غابرييل لوكاس – علم التشريح المرضي

شعر بأن قلبه ينبض بقوة تحت قميصه الصيفي، فهذه أول خيوط الحقيقة الملموسة في ريو، وأول اسمٍ يحمل ثقل الغموض.

وقف لبضع لحظات على الرصيف، كأنما يستجمع شتات أفكاره ويراجع ما سيقوله. لم يكن لديه الكثير من الخيارات، فالطريقة التي استخدمها مرارًا من قبل، وأثبتت فعاليتها، بدت هي الأجدى: سيذكر اسم السيد عزيز كوسيلة للدخول، كأنه توصية غير مكتوبة.

دلف إلى داخل المبنى بخطى ثابتة، وصعد السلم الداخلي نحو الطابق الثاني، حيث بدت الممرات مزدحمة بالأبواب و اللافتات. راح يتنقّل بعينيه بين الأسماء حتى وجد ما يبحث عنه.

د. غابرييل لوكاس

كان الاسم مطبوعًا على لوحة صغيرة بجانب باب خشبي أنيق. لم يتردد. طرق الباب بخفة، ثم فتحه بهدوء.

في الداخل، كان شابٌ ثلاثينيّ، يرتدي معطفًا مخبريًا أبيض، يجلس خلف طاولة مغطاة بالصناديق والملفات وبعض الأدوات الطبية. رفع رأسه بابتسامة مهنية حين رأى أوليفر يدخل.

ردّ أوليفر الابتسامة، ثم قال بالإنجليزية، وهو يعلم أن فرص التواصل بالبرتغالية قد تكون محدودة :

● مرحباً .. أدعى أوليفر ، و أودّ رؤية الطبيب غابرييل لبضع دقائق ..

أجابه الشاب بإنجليزية مكسرة قليلا ..

○ أهلاً و سهلاً بك ، انتظر لحظة ..

اتجه إلى باب مغلق في طرف الغرفة و طرق عليه ، فسمع صوتاً أجشاً يدعوه للدخول ، غاب لثوانٍ ثم عاد ..

○ الطبيب بانتظارك ، تفضل ..

دخل أوليفر إلى الغرفة الجانبية ، فوجد طبيباً متقدماً بالعمر نوعاً ما ذا لحية

بيضاء خفيفة مع نظارات سميكة على عينيه، ابتسم له بملامح ودودة للغاية ثم خاطبه بلباقة مفرطة ..

◯ أهلاً و سهلاً بك سيد أوليفر ، كيف هو حال السيد عزيز ؟

تفاجأ أوليفر قليلاً ثم ابتسم، إنّ الأمور تسير بسلاسة غريبة، فالطبيب يعرفه ، و هذا يوفر عليه الشرح الكثير ..

● أهلا بك حضرة الطبيب ، بخير و يرسل لك تحياته القلبية ..

◯ هنالك أمانة لك معي من السيد عزيز ، كما أود أن أريك شيئا أيضاً

● بالطبع حضرة الطبيب ، أشكرك على الاحتفاظ بالأمانة و على وقتك الثمين ..

◯ إن السيد عزيز صديق مقرب للغاية و أسعد كثيراً بإسداء المعروف له ، هل سبق و أن نظرت عبر مجهر من قبل سيد أوليفر ؟

● لا ، للأسف لم أحظ بهذه الفرصة من قبل ، لقد درست المجهر بشكل نظري بحت ..

◯ إذا فأنت على موعد مع تجربة فريدة و شعور مذهل حالاً ، تعال معي.

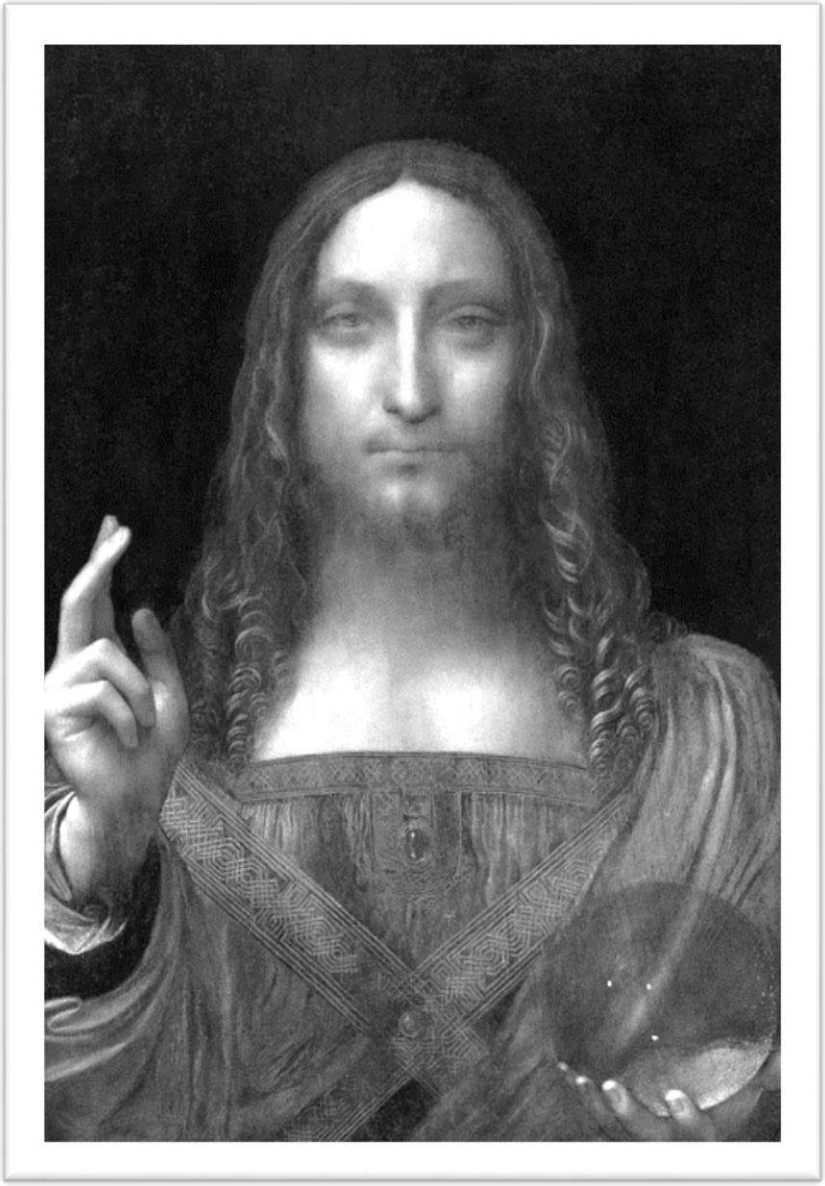
اتجه الطبيب إلى طاولة في طرف المختبر عليها مجموعة مجاهر ، في حين أخذ أوليفر يتأمل الغرفة من حوله و سرعان ما لفت نظره لوحة كبيرة معلقة على الجدار الجانبي لشخص يشبه ملامح المسيح يمسك بيده كرة زجاجية فتسمر في مكانه و تذكر كلام السيد عزيز في جامايكا عن الكرة الكونية مضمون الأحجية الحالية ..

● لوحة جميلة و مرسومة بحرفية عالية حضرة الطبيب ..

ابتسم الطبيب غابرييل ..

◯ بلى إنها كذلك و تدعى (**سلفاتور مندي**) أي مخلص العالم و تمثل

السيد المسيح .. إنها من أعمال الفنان **ليوناردو دافنشي** ..



دهش أوليفر للغاية من المعلومة ، إنه يعلم مسبقا بأن دافنشي يضمّن أسراراً كثيرة في لوحاته ، لكن أن يتطرق إلى موضوع الكرة الكونية فهذا أمر غريب و غير متوقع **!**

● و هل تعرف أيها الطبيب إلامَ رمز دافنشي بالكرة الزجاجية **؟!**

أجابه الطبيب و هو يبحث في علبة مليئة بشرائح زجاجية ..

○ في الحقيقة لا ، لا أعرف ، إن ما يهمني في اللوحة هو شخص السيد المسيح لا أكثر ..

هز أوليفر رأسه في حين اختار الطبيب شريحةً زجاجيةً من العلبة و أراها لأوليفر ثم سأله ..

◯ ما الذي تراه في هذه الشريحة سيد أوليفر ؟

كانت الشريحة فارغةً تماماً و يمكنك الرؤية من خلال زجاجها ، فقال بدهشة

● لا أرى شيئا ، إنها فارغة !!

وضعها الطبيب تحت المجهر و غير قليلا في إعداداته ..

◯ انظر الآن مرة أخرى ..

نظر أوليفر عبر عدسات المجهر، ولم يكن يتوقع أن يخطو بهذه البساطة إلى عالم آخر تمامًا. هناك، على تلك الشريحة الزجاجية الدقيقة، بدا له الكون كما لو أنه ينهض من سباته الأبدي؛ حياة كاملة تتنفس وتتحرك، تسكن فراغًا لا يُرى بالعين المجرّدة.

كانت المادة المعروضة نسيجًا غريبًا، تعيش فيه كائنات دقيقة، بعضها ساكن كأنها تنتظر، والبعض الآخر يتلوى أو يسبح أو يركض ضمن حدود عالمه الدقيق. كل حركة بدت له كتجلي لنبض خفيّ، لا يُقاس بالزمن المعتاد، ولا يخضع لقوانين عالمه الخارجي.

راح يتنقّل بين أقسام الشريحة، يضبط العدسات ويغير مستوى الرؤية، وكل مرة تظهر أمامه أشكال جديدة، وأنسجة مختلفة، وتركيبات لا تشبه سابقاتها. كأن الشريحة تمارس عليه سحرًا، وتدعوه لاكتشاف أسرارها قطعةً تلو الأخرى.

ورغم أنه، كما قال، درس المجهر ومبادئ علم الأحياء الدقيقة أيام دراسته، إلا أن المشاهدة الحيّة شيء مختلف كليًا. أن ترى الحقيقة بعينيك أمر يهزك من الداخل، ويوقظ فيك شعورًا مبهمًا... ذلك الشعور الذي لا تسعفه الكلمات.

كيف لهذا الفراغ الضئيل أن يعجّ بالحياة؟

كيف لهذا الحيّز الذي لا يتجاوز بضعة ميليمترات أن يحتوي عوالم كاملة؟

في تلك اللحظة، تذكّر كلمات السيد عزيز، حين حدثه ذات مساء عن الكون الذي يتسع في حيّز صغير في عالم آخر ..

ابتسم أوليفر... لكن ابتسامته لم تكن فرحًا، بل مزيجًا من الرهبة والانبهار. كان يشعر كما لو أن المجهر لا يكشف له فقط أسرار الأنسجة، بل يضعه أمام مرايا فلسفية، تعكس ضيق معرفته واتساع ما يجهله.

● إنه لشيء فريد و مذهل بالفعل !

○ بلى إنه كذلك ، لطالما كنا نقول أن الإنسان عبارة عن نقطة في هذا الأرض تهمل لصغرها من حيث الحجم ، ثم أثبت العلم من خلال التلسكوب التوأم السيامي للمجهر أن الأرض مجرد نقطة في المجرة التي هي عبارة عن نقطة في هذا الكون .. ثم جاء المجهر ليثبت لنا وجود كائنات حية عبارة عن نقاط غاية في الصغر بالنسبة للإنسان نفسه تهمل بدورها لصغرها كالبكتريا و الفيروسات مما طرح التساؤل الأهم : كيف نقيم مسألة الحجم ؟ و ما جملة المقارنة التي نعتمدها ؟..

● بالفعل إنه تساؤل مشروع !

○ و الآن سأسلمك الأمانة سيد أوليفر ، اعذرني لضيق وقتي فأمامي عشرات العينة لدراستها و تقديم تقارير عنها خلال فترة ضيقة ، علنا نتقابل في ظروف مناسبة أكثر لنتابع حديثنا ..

اتجه إلى ما يشبه الخزنة متوسطة الحجم في زاوية المخبر، انحنى و فتح بابها ثم أخرج ما يشبه صندوقاً متوسط الحجم مغلفاً بعناية و سلمه لأوليفر الذي تلقفه بفضول و سعادة بالغين .. كان ثقيلاً نوعاً ما مما أثار دهشته ، إنها ليست لوحة كسابقاتها بكل تأكيد .. شكره جزيل الشكر على لطافته و وقته الثمين ثم غادر عائداً أدراجه إلى الفندق ..

****

ما إن ولج أوليفر باب غرفته حتى ألقى مفاتيحه على الطاولة بخفة، ثم اتجه مباشرة نحو السرير حيث وضع الصندوق.

ركع أمامه كما لو أنه أمام تابوت فرعوني، ثم راح يعبث بغلافه المتين بلهفة طفل يفكّ هدية عيد ميلاده، حتى تمزق الغلاف كجلد قديم متشقق، وظهر الصندوق المعدني الثقيل بلونه الرمادي المائل للزرقة، يوحي بصرامة المختبرات ودقة الأسرار.

مدّ يديه وفتح الصندوق ببطء، فصدر عنه صوت خفيف كأنّه تنهيدة خرجت من جوف الزمن.

وبعينين متسعتين، رأى المجهر.

لم يكن كأي مجهر سبق أن رآه، بل تحفة من الصلب والزجاج المصقول، بقاعدة عريضة منحوتة الأطراف، وعدساتٍ لامعة تعكس ضوء الغرفة بطريقة سحرية. بدا له كأنما هو جهاز من المستقبل، أو من ماضٍ متقدم على حاضره.

أمسكه بين يديه بتوقير، وقلبه، فإذا بقاعدته تحمل نقوشًا عربية محفورة بدقة تشي بصنعة يد خبيرة لا تعرف العبث.

كانت الأحرف غائرة قليلاً، لكنها ما تزال تقاوم الزمن، وتقول:

سيد الاختراعات (المجهر) أعطانا الدرس الأهم :

الحجم مجرد فكرة نسبية تختلف باختلاف جملة المقارنة التي نستخدمها ، فالبكتريا ليست صغيرة ، و الكون ليس بكبير ، بل نحن من نطلق عليهما هذه الصفات بالنسبة لجملة مقارنة مغرورة و هي (البشر) التي تعتبر نفسها المرجعية في كل شيء ، أما بالنسبة لمصمم هذا الكون ، فالكون بأكمله مجرد زوبعة في فنجان قهوة..

و تلا الكتابة ثنائية أرقام ، لم يشك أوليفر للحظة أنها تشير بدورها إلى آية قرآنية جديدة ..

جمد في مكانه بلا حراك للحظات ، إنّ السيد عزيز محق ثانيةً ، فالكون واسع في عيوننا نحن فقط كبشر كجملة مقارنة ، لكن بالنسبة للقوة التي أوجدت الكون نحن ككائنات دقيقة تعيش في كون غير مرئي على شريحة مجهر إلهي !!

إنه يعي الآن كلام السيد عزيز في جامايكا بخصوص الكرة الغريبة و توسع كوننا ضمنها ، و قد اقتنع بتجربة بسيطة للغاية قوامها رؤية شريحة تعج بالحياة تحت مجهر ، بإمكانية و منطقية حدوث ذلك تماماً ، الفكرة ليست بالكرة بحد ذاتها بل بوجود كوننا (الواسع) في حيز صغير من عالم آخر و هذا أمر يسير و منطقي في آنٍ معاً بالنسبة للخالق ، لكن لمَ هذا الحيز كروي و ليس شكلاً آخر كمكعب أو هرم أو غيره .. ؟

فكر قليلاً بالموضوع و تذكر أن جميع الأجرام السماوية من كواكب و نجوم و مذنبات كروية الشكل ، فالشكل الكروي كما يبدو بشكل جلي ذو أهمية بالغة ودلالات رمزية خاصة بالنسبة لخالق الكون ، تماماً كالكرة التي يحملها السيد المسيح في لوحة (سلفاتور مندي) ، **حتى أنّ العقل البشري بذاته الذي يختزل في إمكانياته المطلقة الكون برمته يتربع على عرشه ضمن صندوق عظمي كروي الشكل و هو الجمجمة ..** بالمحصلة **يبدو أن الكرة شكل سحري بالفعل !!**

تذكر الآية المرفقة بالكتابة، فبحث عنها مباشرةً على هاتفه ليجد أنها تنص على :

(يا معشر الجن و الإنس إن استطعتم أن تنفذوا من

أقطار السموات و الأرض فانفذوا)

ذهل أوليفر للغاية من مضمون الآية ، فالسيد عزيز يجيبه من خلالها على سؤاله بأدق طريقة و أبهى صورة ، إذ أن الآية تشير إلى الشكل الكروي للكون بشكل صريح **فالقطر** مصطلح مرتبط بالشكل الدائري أو الكروي.

فكما أن الأرض كروية فالآية تشير إلى كروية الفضاء بدوره ..!

شعر برعشة تسري في جسده ، يا إلهي، **ما هذا القرآن المعجز المتخم بالأسرار .. و كم هو صغير هذا الكون (الواسع) .. !**

*****

وجهاً لوجهين

في القاع

البرازيل / ريو دي جانيرو ..

مساءً ..

أعاد أوليفر المجهر إلى علبته المعدنية، وكأنما يُسدِل الستار على فصلٍ لم تكتمل تأويلاته بعد، ثم دسّه بعناية في حقيبة السفر كما يُخبّئ سِرًّا لا يعرف بعد عمق أثره. جلس على طرف السرير، والفراغ يترامى في عينيه، يحدّق في جدران الغرفة كأنها تنكمش عليه ببطء.

كان جائعًا، والجوع في مثل هذه اللحظات لا يكون مجرد نداء الجسد، بل قرعًا على باب العودة إلى الأرض، إلى العادي والمألوف.

نهض أخيرًا، غادر الفندق يسعى خلف طبق دافئ ونفسٍ مطمئن.

على ناصية الشارع، لاحت له لافتة نيون صغيرة، تهتز في هواء المساء تحمل للصدفة العجيبة اسم :

ماجيك بول أي الكرة السحرية بالإنجليزية ..

ابتسم متذكراً كرة البلياردو الثامنة و الكرة الكونية مع كلام السيد عزيز بأن السماء لا تلعب النرد إطلاقاً و هذا ما تعززه الأيام حيناً بعد حين ..

دخل المطعم.

جلس بصمت، وتناول طعامه دون أن يتذوقه حقًا. القهوة جاءت بنكهة برازيلية أصيلة، مرّة تمامًا كما ينبغي لكل يقظة أن تبدأ.

أخذ يفكر بكلام السيد عزيز و الكرة الكونية في العالم الآخر حيث يتوسع كوننا بكليته داخلها و أننا جميعاً عبارة عن كائنات مجهرية بالنسبة لأرواح ذلك العالم ..!! هز رأسه بدهشة مجدداً ، يا إلهي إنها فكرة تبعث القشعريرة في كامل الجسد من شدة غرابتها ، فهل هي صحيحة ؟!..

حين خرج، كانت الشمس قد انكمشت خلف الجبال، والليل يفرش سواده رويدًا فوق وجوه الأبنية.

شعر بنشاط و طاقة عقب الغداء فقرر السير بجولة في شوارع ريو دي جانيرو .. كانت الساحات تعج بالأطفال الذين يلعبون كرة القدم بشغف و ذلك ليس بغريب على البرازيل عرابة كرة القدم و ولادة الأساطير الكروية على مر السنين ، تعب في النهاية فعاد أدراجه إلى الفندق ..

سار في الطرقات بصمت. صوت حذائه على الأرصفة بدا كإيقاع قديم لنشيد يعرفه ولا يتذكره. قرر أن يسلك طريقًا أقصر، شارعًا ضيقًا يشق قلب الحيّ.

كان الزقاق خاليًا من الحياة، إلا من ظلال مترامية وريح خفيفة تُحرّك ورقة يابسة إلى منتصف الطريق.

ثم — دون مقدمات — أحسّ بأنفاس على جانبيه، واقتربت منه أجساد لا صوت لها.

فجأة، صار بين رجلين.

همس أحدهما بصوت بارد، خالٍ من الانفعال:

○ امشِ بهدوء و لا تقاوم أو تصرخ ، فهنالك مسدس في جيبي و لن أتردد في استخدامه ..

توقّف الزمن في عينيه، لحظة كأنها من خارج العالم، لا ينتمي فيها لجلده، ولا للمدينة، ولا للزمن الذي يعرفه.

هل هم لصوص؟

أم أولئك الذين لا تُعلن وجوههم، بل تُقرأ آثارهم في الظلال ؟

كان عقله يسرق أجوبة من ملفات السيد عزيز، من أنفاس الأسقف جيمزا،

من تلك النظرة المرتجفة للبروفيسور ترومان قبل موته.

و الآن، هل جاء الدور عليه ؟!

مشوا به إلى نهاية الزقاق حيث وقفت سيارة سوداء، محركها يعمل، وأضواؤها مطفأة كأنها تنتظر قدرًا لا اسم له.

فُتح الباب الخلفي.

التفت إليه الرجل صامتًا، وأشار له بالدخول.

دخل أوليفر.

كان الجو داخل السيارة مكتومًا، تفوح منه رائحة الجلد والسكوت.

أُغلِق الباب، وانطلقت السيارة دون كلمة واحدة.

في المقعد الخلفي، جلس أوليفر مثل من يُحمَل إلى المجهول، لا كمخطوفٍ مذعور، بل كمن اختار أن يسير إلى المصير وهو يفتح عينيه.

ذلك أن هناك لحظات... لا ينفع فيها الهرب.

بل يُصبح الهرب هو ما يُفقدك المعنى.

بعد نصف ساعة تقريباً توقفت السيارة عند ميناء المدينة و كانت أنواره الملونة تضيء رصيفه و تنعكس على سطح المياه بطريقة شاعرية لا تتناسب إطلاقاً مع الحالة المتوترة الخطيرة التي يمر بها ..

- انزل بهدوء ..

ترجل من السيارة ليجد أمامه في المياه لينشاً محركه دائر و مستعداً للإبحار

◯ اصعد إلى اللنش ..

● من أنتم ؟ و ماذا تريدون مني ؟

◯ أنت تجيب فقط و لا تسأل ، و حذار من رفض التعليمات أو النقاش ، أخرج يده من جيبه و كانت تحمل مسدساً ..

لم يكن أمامه خيار.

الشرر المنبعث من عيني الرجلين لم يكن بحاجة إلى ترجمة، كانا كجمرتين يتوعدان بالاحتراق إن هو تردّد للحظة. فاستسلم أوليفر، وصعد إلى اللنش ، يجرّ معه قلقًا يتضاعف مع كل موجة ترتطم بجانبه.

راح القارب يشق عباب المحيط في صمت ثقيل، وكأنما يعبر به من عالمٍ إلى آخر، من شاطئ الأمان إلى أعماق المجهول.

مرت ربع ساعة، وربما دهر، حتى ظهر أمامهم يخت هائل الحجم، يطفو فوق الماء كقصرٍ عائمٍ على عرش من الظلال.

توقّف اللنش بجانبه، وامتدّ درج حديدي كجسرٍ من طقوس العبور.

دُفع أوليفر بعنف.

◯ اصعد ..

صعد.

صوت الحديد تحت قدميه بدا كأنّه يئن، كأنّه يصرخ نيابةً عنه.

وحين بلغ السطح، كان المشهد كافياً لزرع الرهبة في نخاعه :

رجال مسلّحون في كل زاوية، أعين تراقب دون أن ترمش ..

أجساد واقفة كتماثيل مصقولة للعنف الجاهز.

دُفع مجددًا،
وسار بخطوات مترددة إلى داخل اليخت.
نزلوا درجًا معدنيًا، ثم آخر..
ساروا في ممرّ طويل كأنه أحشاء السفينة، جدرانه لمّاعة، وأرضه تهمس بأقدامهم،
حتى وقفوا أمام باب ضخم لقمرة مميزة عن غيرها.
طرق أحد الحارسين الباب.

جاء الرد من الداخل،
صوت أجش، كأن حنجرته غُلّفت بالصقيع:
◯ ادخلوا.

دُفع الباب،
ودخل أوليفر، وكأنما يُساق إلى محكمة سرّية في قلب البحر.

كانت القمرة أمامه فخمة حدّ الترف،
سجّاد فارسي، مقاعد جلدية فاخرة،
نقوش ذهبية على الخشب الداكن،
وأجواء تنضح بفخامة مشوبة بالخطر.

في صدر القاعة، رجلان يجلسان في هدوء مريب ..
كأنما عرشاهما قد نبتا من أرض اليخت نفسه،

ملامحهما جامدة،

قسوة الزمن محفورة على وجهيهما

كأنهما خرجا تواً من كتبٍ عن إمبراطوريات الظل.

تلاقت نظراتهما مع أوليفر،

واستقرت عليه كما تستقر بندقية على جبهة هدفها،

وللحظة، شعر بأنه قد اختُطف ليس فقط من مكانه،

بل من ذاته.

◯ هذا رجلنا سيدي ..

نظر إليه أحدهما للحظات بتمعن ثم خاطبه بلهجة مفعمة بالغضب و التهديد

● إذا أنت أوليفر ..

شعر أوليفر هنا بالقلق و الخطر الوشيك .. إنهم يعرفونه شخصياً ، و بالتالي هذه هي منظمة الثبات بلا أدنى شك ..

◯ بلى أنا هو ، من أنتم ، و لماذا قمتم باختطافي ؟

● من نحن ، أمر لا يعنيك ، أما بالنسبة لاختطافك فهذا أمر مرهون بك ، فأنت حتى الآن مجرد ضيف لدينا ، فإذا أخبرتنا بما نريد غادرت سالماً على الفور ، و إذا أحجمت عن الإجابة أو خدعتنا كان لنا كلام آخر معك

◯ و ما الذي تريدونه مني ؟

● سؤال بسيط للغاية ..

نظر إليه نظرة منذرة تهدده من المراوغة أو الكذب و قال بجدية بالغة ..

● أين هو السيد عزيز ؟

تأكد هنا تماماً بأنه في وكر المنظمة وأخذ دماغه يعمل بسرعة الضوء لكنه عجز عن إيجاد جواب مناسب ، لذا قرر أخيراً استخدام أسلوب التجاهل معهم ليرى أين سيوصله ..

◯ السيد عزيز !! لا أعرف أحدا بهذا الاسم !

نظر إليه الرجلان نظرة تنم عن غضب و حقد شديدين ، و أخرج أحدهما مسدساً من خصره تحت سترته و وجهه باتجاهه .. فخفق قلب أوليفر بشدة و أحس بالعرق البارد يتصبب من مسام جلده كلها ..

● السيد عزيز الذي التقيته في ميونخ منذ فترة قصيرة حيث جلستما في مقهى هناك و لعبتما البلياردو، السيد عزيز الذي أهداك اللوحات المعلقة في الغرفة العلوية في منزلك ، هل عرفت من هو السيد عزيز الآن ؟ نحن نتابع خطواتك من ميونخ إلى مصر حيث أضعنا أثرك هناك ، و ها أنت تأتي بقدميك من جديد إلينا هنا في البرازيل ، لقد أوقعت نفسك بالفخ بنفسك ؟

جمد أوليفر في مكانه متأرجحاً بين الصدمة و القلق ، إنهم بالفعل يعرفون كل شيء عنه ، و الواضح أنّ الإنكار أو التجاهل لن يفيداه إطلاقاً ، فماذا يفعل الآن ؟

◯ أجل عرفته ، لقد تعرض لحادث سير في الاسكندرية منذ أيام و اختفى ثم انقطعت أخباره عني ، فعدت إلى ميونخ مجدداً..

بصق أحد الرجلين على الأرض حانقاً و أعطى إشارة غريبة لأحد المرافقين فتقدم من أوليفر و لكمه لكمةً قويةً في معدته ثم أخرى على وجهه، سقط بعدها على ركبتيه و الدم يسيل من أنفه و فمه .. في حين تابع الرجل الآخر الكلام ببرود ..

● ليس لدينا وقت نضيعه معك أو مع غيرك ، كما أننا لا نحب المجادلات أبداً ، الساعة الآن السابعة و النصف ، أمامك ساعة واحدة فقط لتفكر فيها ، و سنلتقي بعدها فإن لم تسعفك ذاكرتك في معرفة مكان السيد عزيز ،

سيسعفك مسدسي هذا ، و قروش المحيط خارجاً نهمة لتناول عشائها .. و ربما أيقظ فقدانك لأصابعك و احداً تلو الآخر ذاكرتك الغافية ، و تذكر أن ما من أحد يعرف وجودك في هذا اليخت النائي ، لذا فكر بحكمة فأمامك خياران لا ثالث لهما ، إما النجاة و إما العذاب حتى الموت ، فلا حلول وسطى لدينا ، إن السيد عزيز هو أحد أعداء الدين ، و عقوبته إن لم يتب هي القتل ، و هذا ينسحب على كل شخص يتستر عليه و ستلحقه العقوبة نفسها ..

أشار الرجل بيده إشارةً صامتة.

فانقض المرافقان عليه، وأمسكا بذراعيه بقوةٍ كادت تسحق عظامه توحي بأن الرحلة لم تنتهِ بعد.

سُحب أوليفر خارج القمرة كمن يُقاد إلى مصيرٍ لا يُمنح فيه حتى رفاهية السؤال.

تقدّموا في البهو حتى نهايته، ثم انحدروا بدرج آخر إلى ممرّ جديد، أضيق وأقلّ نورًا.

توقفوا أخيرًا أمام باب معدني، فُتح بأصوات صريرٍ توحي بالإحكام أكثر من الترحيب.

أُنتُزع هاتفه،

دُفع إلى الداخل،

ثم أُغلق الباب خلفه، وأُوصِدَ كما تُوصَد زنزانة نُسِي من فيها.

*****

وحيداً في قمرة ..

وجد أوليفر نفسه فجأة محبوسًا في قمرة ضيقة، فارغة كأنها مهجورة من كل معنى.

التحوّل كان سريعًا، وحادًا، وخطيرًا كمن يهوِي من على حافة حلمٍ إلى كابوسٍ بلا قاع.

رفع عينيه إلى الأعلى،

كانت هناك كُوّة زجاجية صغيرة، تتموّج فوقها مياه المحيط،

تتشابك عليها أنوار اليخت، في ما يشبه رقصةَ ضوءٍ على نعشٍ زجاجي.

تذكّر كلمات السيّد عزيز في ميونخ، حين كان يتحدّث عن المحيط وأعماقه،

حيث الظلمة أبديّة،

وحيث الكائنات التي لا تعرف الرحمة.

(المنظمة... نسخة بشرية من أعماق المحيط،)

همس في نفسه.

وعاد ليؤمن: السيّد عزيز كان محقًّا، كما هو دائمًا.

جلس على الأرض،

مسح بقميصه الدم المتخثّر على وجهه،

ألقى نظرة على ساعته،

ربع ساعة فقط مرّت من المهلة.

لكن الزمن هنا لا يُقاس بالدقائق، بل بالنبضات الثقيلة، والمصائر المعلّقة.

هل يخون السيّد عزيز؟

هل يُخبرهم بمكانه؟

الجواب جاء صارمًا، داخله، كقَسَمٍ خُتم بالحياة نفسها :

(أموت ولا أخون.)

خياراته ؟ معدومة.

أمله ؟ سراب.

مكانه ؟ قمرةٌ ضيقةٌ في قلب محيطٍ لا حدود له،

على ظهر يخت لا يعرف بوجوده أحد،

والأسوأ من كل ذلك...

أن حياته أصبحت مرهونة بخيانة رجلٍ آمن به، علمه، وفتح له أبواب الوجود.

كان قاب قوسين من النهاية.

وبينما الدقائق تمضي كالسكاكين.. بدأ شريط حياته يُبثّ أمامه، لا كمشهدٍ متتابع، بل كوَمَضاتٍ خاطفة.

تذكّر شام ...

أغلى ما مرّ في حياته،

اللقاء بها في القدس لم يكن مجرّد مصادفة، بل حدثٌ غيّر قوانين روحه.

الآن فقط، وهو يواجه ظلال النهاية، أدرك أنها كانت الحياة ذاتها، مصغّرة في ابتسامة، وموجزة في نظرة.

كما قيل :

(أصدق المشاعر و الأفكار هي التي تراودنا عند مواجهة الموت)

ثم تذكّر السيّد عزيز..

ذاك الرجل الغريب ..

أحاجيه، أسراره، وجنونه النبيل.

ما من أحد قاده إلى ما قاده هو إليه :

حقائق كونية، أبواب مخفية للوجود، مفاتيحٌ نادرة تُفتح فقط لمن يغامر.

صحيح أنه وحيدٌ الآن في مواجهة المصير..

لكنّه، في عمقِ ذاته، كان ممتنًا.

لقد عاش.

واختبر ما لا يختبره أغلب الناس.

تذوّق الحب، وسافر إلى أعماق الحقيقة ..

وكان مستعدًّا أن يموت واقفًا على أعتابها.

(إن كنتَ ستموت في سبيل شيء،
فليكن في سبيل الحقائق الكونية الكبرى،
لا شيء أسمى منها.)

ومع كل ذلك، كان الخوف حاضرًا.

لم يكن يمتلك ما يمتلكه السيّد عزيز من هدوءٍ أمام الموت ..

ذاك الذي قال له في جامايكا :

(الموت ؟ هو الجائزة الكبرى في يانصيب الحياة.)

يا له من رجل!
كم يبدو غريبًا، ساحرًا، مخيفًا في آن.

هل هو على حق؟
ربما.
بل لا شك أنه كذلك.
لكن أوليفر،
ما يزال على الدرجات الأولى من سلّم الحقيقة ..
ولذلك لا يزال خائفًا...
قلقًا...
عاجزًا عن كبح مشاعره.

ولم يكن هناك من أحد يسمعه.

إلا الماء...
والصمت.

*****

مفاجآت اللحظات الأخيرة ..

كان الوقت يمضي بثقلٍ لا يُحتمل، كسلحفاة عليلة تجاوزت قرنًا من الزمان، تتهادى على رمال جمرية. جلس أوليفر في القمرة الضيقة، مستسلمًا بكامله لوضعه الراهن، كأنما قد نُزع من الحياة وأُلقي في برزخٍ لا ينتمي لأي من العالمين. كانت القمرة سجنًا سماويًّا معلقًا بين الحياة والموت، ومتبقٍّ له

ثلاثون دقيقة فقط قبل أن ينزلق من العالم الأول إلى الآخر، كحبة رمل وحيدة عَلِقت في عنق الساعة، تقاوم السقوط، لكنها لا تملك إلا أن تستسلم في النهاية... فلا أحد يفلت من مصيره، حتى لو كان ذلك المصير مصنوعًا من ظلال.

عادت إلى ذاكرته نبرة السيّد عزيز، وهو يتحدث عن العالم الآخر، عن حدود الكون الذي نعيش فيه ولا نراه. وبرغم جسامة الموقف، وخطره القاتل، ارتسمت على وجه أوليفر ابتسامة باهتة، فيها شيء من السخرية وشيء من الحنين. رفع معصمه يتأمل الساعة التي أهداه إياها السيد عزيز، كرة كونية تضيء بوميض خافت، كأنها ثقب دودي صغير يفتح على الغيب. لقد أصبح على بُعد دقائق معدودة من عبور لا رجعة فيه، حيث ستعرج روحه، ربما، عبر هذه الكرة العجيبة، أسرع من الضوء، إلى ما لا يمكن تسميته.

راحت عقارب الساعة، المتشابكة كأشعة شمس وقمر، تتسابق بلا رحمة نحو نهايته. وعند موقع الساعة صفر، حيث ينتصب مجسّم لكائن فضائي صغير، همس أوليفر لنفسه :

(في حالتي هذه... وحده زائر من مجرّة أخرى يمكنه إنقاذي.)

لكنّه كان مخطئًا... بشكل لم يتوقعه العقل ولا القلب.

فعند تمام الساعة الثامنة وعشر دقائق، حين كان القلب على وشك أن ينفجر من صمت الانتظار، وحين أصبحت صورة شام آخر طيف في عينيه ، حين ذاب كل شيء في داخله تحت وطأة روحانية طاغية تمتزج بالفزع... عندها تحديدًا، وفي ذروة حلكة الليل، حدثت المعجزة الصغيرة.

صوت خطوات كالهمس ..ارتجفت أناملٌ على مقبض باب القمرة.

تجمدت الدماء في عروقه، وتصبب العرق البارد من مسامه. هل قرّرت المنظمة قطع المهلة ؟ هل سيُقتل الآن ؟ أم سيعذب قبل ذلك ؟

ثم انفتح الباب.

لكن القادم لم يكن من رجال المنظمة. بل كان رجلاً غريبًا، بملامح تنتمي لسهول الأنديز و غابات الأمازون، تبدو عليه سحنة أهل أمريكا الجنوبية، متعبة لكنها صلبة. في عينيه بريق حاسم، وفي وجهه جدية لم تخلُ من حنوّ مكتوم. حين رأى ارتباك أوليفر، ابتسم له ابتسامة خفيفة، وقال بهدوء :

● لا تخش شيئاً ، أنا صديق و أدعى سيباستيان .. تعال معي في الحال

كان الأمر أشبه بيد تمتد من مجرّة نائية، لتنتشله من البرزخ، وتعيده إلى قيد الحياة. نهض أوليفر دون تردد، كأن الأمل عاد ليشتعل فيه من جديد. تبع الرجل بصمت، وأُغلق الباب خلفهما بهدوءٍ يشبه التنفس الأخير لصمتٍ طويل.

سارا في البهو بخطوات خفيفة كأنهما يعبران من حلم إلى حلم. كل شيء من حولهما بدا هادئًا على نحو مريب. وعندما وصلا إلى الممر الأعلى، لمحا من بعيد ظلّ حارس مسلّح يقترب ببطء. كانت تلك عقبة جديدة، لكن القدر كان في صفّهما : المصباح العلوي كان مطفأ، فابتلعتهما الظلمة.

بذكاء متمرّس، فتح سيباستيان باب غرفة مجاورة، دخلاها على الفور، وأغلقه جزئيًا، بحيث تُركت فتحة صغيرة تُرى منها خطوات الخطر. مرّ الحارس دون أن يشكّ، فخرجا مجددًا وتابعا تسللهما نحو السطح.

وعلى سطح اليخت، انحرف سيباستيان إلى اليمين، تبعه أوليفر بصمتٍ تام، حتى بلغا مؤخرة المركب، حيث تتدلّى قوارب النجاة.

و بأيدٍ متعاونة ، وقلوب تخفق تحت ثقل الاحتمال، شرعا بإنزال أحد القوارب بحذر، خشية أن يشكّ البحر أو يسمع الصمت صوتهما. نجحا، لكن وقبل أن يلمس الماء، شقّ الفضاء ضوء مصباح يدوي بدأ يتنقّل بين القوارب، يبحث عن الحركة، عن النَفَس، عن الهاربين من المجهول ، ثم انبثق صوت خشن غائر :

◯ من هنالك ؟ **أندروس** أهذا أنت ..؟

وقف الاثنان مكانهما صامتين و نظرا إلى بعضهما بتوتر و قلق مفرطين ، إن الموضوع برمته يتجه نحو كارثة قد تكلفهما حياتهما ، فكر سيباستيان سريعاً و لم يكن هنالك بد من المواجهة ..

● لنفترق و نحيط به ، أنا أحدثه من الأمام و أنت كمم فمه من الخلف ثم أتكفل أنا بالباقي ..

بالفعل نفذا الخطة على الفور، فتقدم سيباستيان من صاحب الكشاف بهدوء و خاطبه بصوت طبيعي ..

● صديقي **مايكل** ، هذا أنا **هنري** ..

○ هذا أنت أيها الغبي ، ما الذي تفعله هنا لوحدك **!؟**

● إنها فترة استراحتي من الحراسة فرغبت أن أصفي أفكاري بهدوء و أتنفس هواء الليل العليل ..

كان أوليفر قد وصل إلى خلف الحارس تمامًا، يحدّق في ظهره كمن يتهيّب عبور حاجز بين الحياة والموت. بلمح البصر، مدّ يده وكمّم فمه بإحكام، وفي اللحظة نفسها انقض سيباستيان كفهد أفريقي، ولكمة دقيقة خاطفة أسقطت الحارس أرضًا كجذع شجرة قطعه البرق. تجمّد أوليفر لوهلة من الدهشة، مذهولًا من المهارة الرشيقة التي أظهرها سيباستيان، لم يكن مجرد دليل أو منقذ، بل مقاتل خبير، بدا كأنه خرج من معسكر سرّي يتقن فيه الصمت والضرب في آن.

ألقى أوليفر نظرة خاطفة على ساعته ، الثامنة وخمسٌ وعشرون دقيقة. تبقّت أمامهما خمس دقائق فقط ليبتعدا عن فخ اليخت قبل أن يُكشف أمر هروبهما. تسلّلا إلى قارب النجاة بخفة الظلّ ، وتولّى سيباستيان التجديف أولًا بصمت مدروس، حتى ابتعدا مسافة آمنة وسط العتمة الكثيفة. ثم أدار المحرك، فاندفع القارب كرمحٍ انطلق من قوس الغيب، يشقّ الماء باتجاه الميناء.

وما إن اقتربا من اليابسة، حتى اخترق ساحة بصر أوليفر فجأة وميضٍ مفاجئ في الأفق، أضواء يخوت عدّة تنطلق بسرعة نحو اليخت، تعقبها أصوات الحوّامات تشقّ صمت المحيط، تصرخ في السماء كما لو أنها تبشّر

بعاصفة قادمة. تطلع إلى سيباستيان بدهشة مشوبة بالحذر :

◯ ما الذي يحدث ؟

● سأخبرك بكل شيء عندما نصل إلى الشاطئ ..

استمرّ الزورق يشقّ طريقه وسط أمواج خفيفة، وكان وجه أوليفر موجّهًا نحو اليخت. فجأة، دوّت أصوات طلقات نارية كثيفة، شعّت الرصاصات في السماء كألعاب نارية دامية، وأضاءت الليل بلون الخطر. ثم اخترق الأفق صوت صارم عبر مكبّر، يطالب أفراد المنظمة بالاستسلام.

حين وصلا أخيرًا إلى الشاطئ، كان الصمت قد عاد إلى المكان، والهدوء يلفّ اليخت كما لو أن شيئًا لم يحدث. لم تكن هناك حاجة إلى تفسير، فالمعركة لم تكن متكافئة، والاستسلام كان حتميًا.

نزلا في ركن قصي مظلم من الشاطئ، يتجنّبان العيون المتلصصة والأسئلة الفضولية، ثم شرعا في السير نحو الميناء المضاءة أنواره عن بُعد. وبينما كانت أقدامهما تترك آثارها على الرمل، بدأ سيباستيان يحكي لأوليفر حكايته... الغريبة، والمفصلية،

● أدعى **سيباستيان هيرناندیز** ، و أنا من **الباراغوي** ، أنا بالأصل عضو في الانتربول ، وأعرف جيداً من تكون فأنت صديق للسيد عزيز اليقين ، لقد أبلغتني القيادة منذ فترة بإمكانية تعرضك للأذى كتحذير من السيد عزيز بحكم علاقتك الجديدة به و لقائكما المتكرر فهو مراقب على الدوام ، فأخذت ذلك بعين الحسبان ، لقد تم اختياري شخصياً لاختراق منظمة الثبات بسبب خبرتي الكبيرة و تاريخي الحافل بالإنجازات في الإنتربول .. هل سمعت بهذه المنظمة ؟

◯ أجل ، أخبرني السيد عزيز عنها ..

● جيد ، هذا يوفر علي الكثير من الشرح .. خضعت لتدريب مكثف للقيام بتلك المهمة الخطيرة ، و تمكنت بالفعل من الانخراط في المنظمة تحت اسم **هنري روبرتسون** كمحاولة للوصول إلى العقل المدبر لها فهو من يهمنا بالأساس .. ترقيت فيها خلال أشهر في المهام حتى تمكنت من العمل على

اليخت مع الزعيمين الأساسيين للمنظمة **كاميليو** و **فابيان** بعد العقل المدبر الذي ندعوه في الانتربول بلقب **الكابتن مورغان** ..

◯ الذين قابلتهما أنا ؟!

● بالضبط ..

◯ و من هو الكابتن مورغان هذا ؟!

● إنه مجهول الهوية تماماً بالنسبة لنا و لا نعرف شيئاً عنه بما فيه اسمه الحقيقي أو مكان إقامته لذا نطلق عليه الكابتن مورغان نسبةً إلى القرصان الشهير مورغان فهو يتبع نفس سياسته في العمل ..

◯ أي سياسة تقصد ؟!

● لم يكن القرصان مورغان يغزو السفن بنفسه بل يسمح للقراصنة الصغار بفعل ذلك ثم يغزو سفنهم المتواضعة عند عودتهم ليحصّل منهم ما غنموه من ذهب و مجوهرات عبر عمليات القرصنة ..

◯ أي أنه يمارس القرصنة على القراصنة أنفسهم ..!

● بالضبط ..و العقل المدبر للمنظمة يقوم بالمثل تماماً فهو لا يظهر لأحد أبداً بل يترك مساعديه يقومون بالعمل القذر و يحصّل هو النتائج المبهرة و المرضية له من خلالهما .. و قد كنا قريبين للغاية من الوصول إليه لكن إمساك المنظمة بك غير كل شيء و خلط الأوراق مجدداً ، فعندما عرفت أنهم سيحاولون الوصول إلى السيد عزيز اليقين من خلالك أو يقتلوك ، تواصلت مع الانتربول و أخبرتهم بأنك رهينة لدى المنظمة التي تمارس الضغط عليك للإفصاح عن مكان السيد عزيز و بأنّ حياتك في خطر .. فتلقيت تعليمات بإنقاذك و مغادرة اليخت على الفور معك ..

شعر أوليفر بإحراج كبير ..

◯ إذا فقد أفسدت عليكم الخطة كلها ..

● إطلاقاً ، أولاً أنت لا يد لك فيما حصل ، و ثانياً سنصل على الأرجح

إلى الزعيم الأول من خلال أعوانه إضافةً إلى المعلومات الهامة التي جمعتها بنفسي مؤخراً و التي تمثل طرف خيط هام للوصول إليه ، إنها مسألة وقت لا أكثر ، لا تحمل نفسك ما لا ذنب لك به ، فما يهم الآن أنك خرجت سالماً من يخت الموت ذاك ، إنك محظوظ بتواجدي هناك و إلا كنت ستخسر حياتك بلا أدنى شك هذا إن لم تعذب بوحشية قبل ذلك ، إنها منظمة بربرية لا تتورع عن فعل أي شيء ..

وصلا إلى الميناء المضاء مع انتهاء سيباستيان من روايته .. كان يعج بعشرات الناس ينظرون باتجاه اليخت و يتناقشون حول ماهية ما حدث هنالك

◯ أشكرك جزيل الشكر سيباستيان ، إنني حرفياً مدين لك بحياتي .. شرفٌ كبير لي أن تعرفت على شخصك ..

● هذا واجبي سيد أوليفر، فمن المبادئ الأساسية لدينا في الانتربول حماية الأبرياء و المظلومين ، الشرف لي بلقائك و أثمن عالياً شجاعتك و وفاءك تجاه السيد عزيز فأمثالك قليلون في هذا الزمن الرديء .. و اعذرني على المغادرة الآن فهويتي يجب أن تبقى سرية على الدوام بحكم طبيعة عملي ، لذا لا أحبذ الاختلاط بالغرباء ..

◯ إلى اللقاء صديقي ..

● رافقتك السلامة ..

*****

استراحة

محارب

ألمانيا / ميونخ

صباحًا ..

وضع أوليفر المجهر الذي جلبه من البرازيل، هدية السيد عزيز، في ركن أنيق من مكتبه الأبّنوسي بغرفة المطالعة. لم يكن مجرد أداة علمية، بل بات تذكارًا مشحونًا بدلالات كونية، قطعة رمزية أخرى تضاف إلى رفيقاتها من لوحات على الجدران، تشهد على رحلاته في تخوم المجهول. كان ما نُقش على قاعدته حول غرور النفس البشرية بمثابة تذكير دائم : أن نخفض رؤوسنا حين نحدّق في شساعة الكون، هذا الكون الذي لا يعدو أن يكون، في مجاز مُرّ، دوامةً صغيرة تدور في فنجان.

لا تزال مشاهد اليخت محفورة في ذهنه بكل وضوح : احتكاكه بالمنظمة، مواجهته للموت، وتلك الساعة التي بدت وكأن الزمن كله انكمش فيها. عاشها بكل خلية في جسده، ولا تزال تطارده كأنها تحدث الآن. لقد عاد من الموت ، لا مجازًا بل نفسيًا، بكامل وعيه مثقلاً بحقيقة لا رجعة عنها.

أشياء كثيرة تبدّلت في داخله. صار تقديره للحياة أعمق، رهبة الموت في عينيه أخفّ، وحنينه إلى شام أصدق وأكثر تجذرًا. إنه الآن يستعد للزواج منها، لا بدافع العاطفة وحدها، بل بقناعة مكتملة الأركان، بوعي أنضج، وكأن التجربة أزالت ما تبقى من الضباب بين القلب والعقل. لقد أصبح لهذا الارتباط طيف آخر، بُعد فلسفي لا يقل أهمية عن الحب.

احترامه للسيد عزيز ارتفع إلى مرتبة جديدة. تلك الطريقة الهادئة التي خشي بها عليه دون أن يزرع فيه قلقًا، ثم بلاغه الاستباقي إلى الإنتربول بشأن خطر المنظمة عليه رغم ضآلة الاحتمال، والذي ثبت لاحقًا أنه أنقذ حياته فعلًا ، كل ذلك كان له أثر بالغ. بات أوليفر يدرك أن الحقيقة، مهما كانت براقة، لا تكتمل إلا حين تُختبر تحت ضغط الحياة والموت. إنه ذلك الامتزاج

العنيف بين الفكر والخطر، ذلك البرزخ الذي مرّ به، هو ما منح سعيه معنى جديدًا.

لقد كانت الحقائق التي سعى خلفها طوال رحلاته مجرد نظريات معلقة في الهواء، أما الآن، فقد نزلت إلى الأرض. لحمتها التجربة، ودمغتها المحنة. صارت محسوسة، نابضة، وعميقة كالجرح. لقد أدرك أخيرًا أنّ ما كان ينقص تلك المعارف هي تلك الساعة التي قضاها على سطح اليخت، والتي أصبحت، دون منازع، أهم ساعة في حياته.

فيها نظر إلى نفسه لأول مرة، كما يُنظر إلى انعكاس صادق في مرآة لا تكذب، فرأى ماضيه، حاضره، ومستقبله بتجرد لم يختبره من قبل، وبدقّة لا تحدث إلا بعد انهمار المطر، حين تغتسل الرؤية من غبار الوهم.

كان ذهنه مكتظًا بالأفكار، تتصارع في رأسه كأمواج تتلاطم في مرفأ. من **الإسكندرية** ومكتبتها وأسرارها، إلى **كينغستون** وديناميس روما، وصولًا إلى **ريو دي جانيرو** حيث لامس ظلال المنظمة بعينيه وقلبه. جلس إلى مكتبه الأبنوسي، تنفس بعمق، ثم سحب ورقة وقلمًا. كتب في أعلاها : **سلسلة الحقيقة** ، وبدأ يسجل فصول الرحلة... حلقةً تلو الأخرى.

◉ **الزيتونة** (**شجرة السماء**) ..

◉ **الأيام الإلهية السبعة و اليوم الآخر الثامن اللانهائي** ..

◉ **لسنا وحيدين في هذا الكون** ..

◉ **كوننا الذي يتوسع في حيز صغير للغاية في العالم الآخر** ..

إنها حقائق مذهلة و غريبة بالفعل ، و يضاف إليها العنصر الجديد الهام للغاية ..

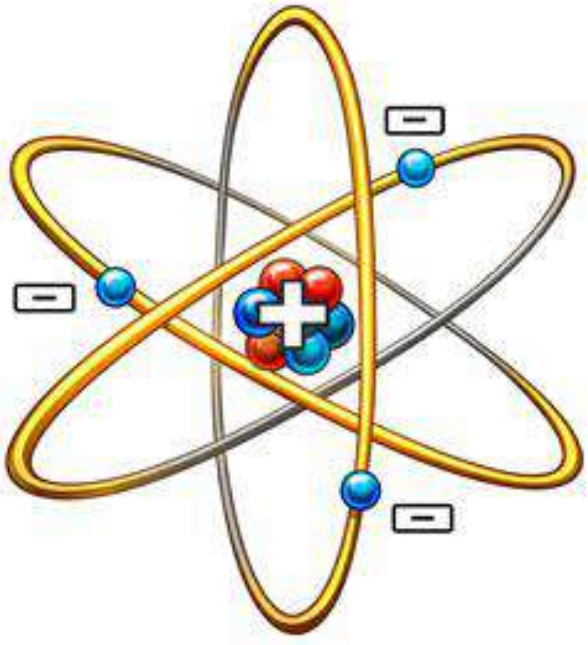
◉ **إن السيد عزيز و البروفيسور ترومان و الأسقف جيمزا رأوا**

فيه الشخص القادم المؤهل لكسب إرث الحقيقة و الأسرار الكونية

ألقى برأسه إلى الخلف، مستغرقًا في تأمل هذه المسؤولية الجديدة التي لم تخطر له على بال، لا من قريب ولا بعيد. أغمض عينيه، وفي لحظة عابرة، شعر بروحه تنفلت من جسده، تحلّق عاليًا في السماء، ثم تخترق الفضاء بسرعة تفوق الضوء، تعبر حدود الكون، وتتجاوز الكرة الكونية لتصل إلى العالم الآخر...

نظر حوله. كانت ملايين الأرواح تملأ ذلك العالم كما النحل في خلية نورانية، يتحرك كلٌّ فيها بانسجام كوني مهيب. رأى والديه الراحلين هناك، وصديق طفولته العزيز الذي غلبه السرطان بعد صراع مرير قاتل فيه بضراوة ، وآخرين كثر، يعرفهم ولا يعرفهم. كان الجميع غارقين في سلام عميق، في **عالم بلا ألم، بلا حزن، بلا زمن**. لا وجود سوى للطاقة الايجابية البيضاء، للأفكار النقية، في حين تتناثر الأفكار السوداوية السلبية بعيدًا في الفراغ، كتحذير رمزي دائم من الماضي الأرضي، كي لا يُعاد...

كما لو أنّه يرى ذرةً عملاقة، نواتها موجبة من النور، بينما تدور حولها شحنات ظلامية سالبة مبعدة عنها بقوة لا تُقاوم.



وفي مركز هذا العالم، كانت الزيتونة — شجرة السماء — شامخة وسط الفضاء، جذورها ممتدة في عمق الأرض، وأغصانها تعانق النجوم، تتساقط منها الأرواح كما الثمار، في دورة أبدية من النشوء والعودة.



حلّق حولها، مفعمًا بالأمان والانتماء، قبل أن تعيده رحلته عبر الزمن إلى الوراء، مرورًا بالكرة الكونية، ثم السماء، حتى عاد واستقرّ في جسده من جديد. فتح عينيه، وابتسم. لقد كانت رحلة خاطفة تختصر كل ما مرّ به، لحظة واحدة تلخص الحياة بأكملها.

ولكن... ماذا بعد؟

ما الذي يخبئه له السيد عزيز بعدُ من حقائق أخرى؟

المنظمة قد سقطت جزئيًا، ولكنّها لن ترضى بالهزيمة. الانتقام قادم، لا محالة. لذا، من الطبيعي أن يعتصم السيد عزيز في دياميس روما ، ملجأه السري في جامايكا، لشهور عدّة، حتى تُستأصل المنظمة من جذورها.

أما هو — أوليفر — فسيلتزم منزله هو الآخر لبعض الوقت، وإن كان الخطر عليه أقل، فالهدف الحقيقي هو الفكر لا الجسد، والسيد عزيز هو صاحب الفكر.

ثم إن زفافه بات قريبًا، وعقله منشغل بشام، التي أصبحت جوهر تجربته، لا ملحقًا بها.

إنها استراحة محارب، من الألغاز والأسرار، ولو لفترة قصيرة.

ومع ذلك... شعر بشيء من الحزن. لقد أدمن تلك الأحاجي، وذلك التيه الجميل بين الرموز والمعاني.

الرّتابة تُخيفه.

والهدوء يُربكه.

لكنّه يعلم — في أعماقه — أنّ الأعاصير كما السكون لا تنام طويلًا.

وأن الحقيقة، مثل الشروق، لا يمكن أن تُحبس خلف جبل.

*****

فلسطين / القدس

تموز 2022 م .. مساءً ..

جاء أخيرًا يوم الزفاف المنتظر.

بسيطًا، هادئًا، كما أرادت شام تمامًا. كانت تؤمن أن الحب الحقيقي لا يحتاج صخبًا ولا مظاهر، بل قلوبًا صافية تعرف كيف تنبض في تناغم.

كانت لفتة نبيلة من أوليفر أن يقترح إقامة الزفاف في مكانها السحري بين أشجار الزيتون .. لفتة تحمل الكثير من الحب والفهم. ذلك الركن الهادئ الذي لطالما احتضن أحلامها، وعانق وحدتها، صار اليوم يشهد تحقق أجمل تلك الأحلام.

جلس الضيوف إلى الطاولات الخشبية المزينة بورود بيضاء وعبير زهر الليمون، واقتصر الحضور على الشيخ نبيل، السيد ماتيوس وزوجته، بعض من صديقات شام من الميتم والجامعة، وأصدقاء أوليفر المقربين.

كان الغائب الكبير، كما في كل محفل عظيم، هو السيد عزيز. لم يكن حضوره جسديًا، لكن ظله بدا حاضرًا في كل شيء، في هذا الاتحاد الذي كان هو بذرته الأولى.

أشجار الزيتون كانت متوّجة بالأنوار الملونة، تتلألأ على إيقاع موسيقى هادئة، بينما انساب ضبابٌ خفيف مع المساء كأنما جاء من عالم آخر، فمرّ بين الأغصان في حياء، ثم انسحب تاركًا مشهدًا سرياليًا يليق بالحب الخالد.

حين وصلت سيارة الزفاف، ترجّلت منها شام بثوبها الأبيض، تمسك بذراع الشيخ نبيل، تمشي بخطى واثقة، وابتسامة تحمل ذاكرة طويلة من الانتظار والشفاء والانتصار. كانت أشبه بحمامة سلام تهبط برفق بين الأشجار المقدسة.

سلّمها الشيخ لأوليفر، ثم انسحب وعيناه تغصّان بدموعه.

تلاقت العيون.

في لحظة صمت، وقف الزمن احترامًا لما بينهما.

رأى أوليفر في عينيها الحب العظيم الذي عثر عليه ككنز ثمين على قمة جبل الحقيقة ، الكنز الذي جعله يرى كل شيء من حوله بطريقة مختلفة تماماً و كأنه ولد من جديد فأدخل السعادة إلى قلبه كطفل .. الألماسة النفيسة التي توجت حياة بأكملها قضاها حول العالم باحثاً عنها بين آلاف الألماس ..

و رأت شام في عينيه عائلةً بأكملها تضمها بحنان ، أبوين و أخ و صديق بل أكثر من ذلك ، كل شيء افتقدته في حياتها السابقة ..

ثم تبادلا الخواتم.

تشابكت الأيادي، فاجتمع الخاتمان في شكل لانهاية، كأنما يرسمان رمز اليوم الثامن، ذاك الذي لا يعترف بنهاية للحب.

اقتربا أكثر، وتلاقت الشفاه، فابتسم الكون بكليّته، وأضاءت السماء، وأمطرت شهبًا ناعمة كالدعاء.



*****

ألمانيا / ميونخ

غارميش بارتن كيرشن ...

أواخر شهر تموز 2022 م..

رن جرس المنزل مطولاً فتوجهت شام إلى الباب و فتحته ، كان هنالك عامل توصيل يمسك بين يديه صندوقاً مغلقاً و مغلفاً ..

● طرد للسيد أوليفر و زوجته السيدة شام ..

○ شكرا لك ..

استلمت الطرد ثم عادت أدراجها إلى غرفة المعيشة في الطابق السفلي التي أخذت مكان غرفة السيد ماتيوس سابقاً إذ أصبحت مهامه بالطبع أقل بعد مجيء شام ..

○ عزيزي ، هنالك طرد مرسل لنا ..

دهش أوليفر قليلاً ..

● ممن ؟

○ لا أدري !

تقدمت شام و سلمته الطرد فمزق أوليفرالغلاف، ليجد صندوقاً من الكرتون المقوى كتب عليه رقم **7485** بشكل واضح ، و بينما ظنته شام رقم الطرد البريدي ، ابتسم أوليفر .. إنه السيد عزيز و هذا هو رقم الخزينة السرية الخاصة به ، لقد كانت استنتاجاته بمكانها تماماً ، فتحه بلهفة ليفاجأ بوجود الكرة الزجاجية التي شاهدها في قبو السيد عزيز في جامايكا بداخله.. مع

ظرف بجانبها ، اكتسحت الدهشة محيا شام من هذه الهدية الغريبة الغامضة في حين مزق أوليفر الظرف فكانت بداخله رسالة مكتوب على كلي وجهيها ، قرأ الوجه الأول ..

(مبارك لكما زفافكما المجيد ، الهدايا المادية تستهلك مع

الزمن و تذهب أدراج الرياح لتصبح طي النسيان أما

المعنوية فتدوم و تتعتّق بمرور الوقت ، و هديتي لكما

هي الكون بين أيديكما عبر ما مر من أحاجٍ و ما سيأتي

منها في قادم الأيام ..)

أما على الوجه الآخر للرسالة فقد كتب ..

(طلب من أينشتاين في إحدى المناسبات أن يلخص نسبية

الزمن بجملة واحدة فقال : بالنسبة لشخص يقفز

على الجمر فالوقت يمر بطيئاً للغاية كدهر ، أما بالنسبة

لشخص في موعد غرامي فالوقت يمر بسرعة كلمح

البصر .. و أعتقد سيد أوليفر أن فرق الزمن بيننا

الآن هائل)

ابتسم أوليفر ابتسامة عريضة و قد فهم دعابة السيد عزيز ففي حين يختبئ هو من أذى المنظمة في ديناميس روما و يمر عليه الوقت بطيئاً و مملاً هناك ، يعيش أوليفر حياته العاطفية الجديدة سعيداً بسرعة الضوء ..

دهشت شام من ابتسامة أوليفر ..

◯ يبدو أنك تعرف مرسل الطرد ..!!

● بالطبع ..

◯ و من هو؟

نظر إليها أوليفر نظرة غامضة ..

● إنه عرّاب كل ما جرى معنا عزيزتي .. تعالي لنجلس و أخبرك كل شيء ..

*****

الجزء الثالث

{ لقاح الظلام N }

- حقائق عديدة بقواعد جديدة
  - جذور الشر
- الإشباع و بداية الضياع
  - **N**
- لقاح الظلام
  - الكون **25**
- ولادة النور من رحم الظلام
  - بئر يوسف
- الإنسان المعجزة

حقائق جديدة

بقواعد جديدة

الصين / هونغ كونغ ..

مركز التجارة الدولي ..

كانون الثاني، 2023 م ..

الساعة 12 ظهراً ..

جلس أوليفر إلى طاولته المحاذية للواجهة الزجاجية في الطابق الأخير من مركز التجارة الدولي، ذاك البرج الذي يشقُّ سماء هونغ كونغ كأنما يريد أن يلامس الغيب. أمامه، امتدّت المدينة المترامية، تنسحب منها الأضواء شيئًا فشيئًا، وتعلوها طبقة ضباب زاحفة كأنها ذاكرة قديمة عادت لتغطي الحاضر.

ضباب ناعم، رمادي، يسري في الشوارع وبين الأبراج، يبتلع الأشكال والألوان بصبرٍ لا يُزعج، بل يشبه الحنين.

أغمض عينيه للحظة. لم يكن الضباب خارج النافذة فقط، بل في ذهنه أيضًا.

شام.

كانت هناك، في ميونخ، تنتظر قدوم الشيخ نبيل من القدس.

الشيخ نبيل، الرجل الذي كان يستند إليه قلبها، سيترك أخيرًا دروب المسجد التي مشاها عقودًا كشيخ وقور في خدمة الآخرين ، وسيسكن معهما.

الفكرة وحدها كانت تبعث دفئًا في صدر أوليفر، ومع ذلك لم يكن مرتاحًا.

كان قلقًا. لا لشيء محدد. بل لذلك القلق الغامض الذي يُرافق الإنسان حين يعرف تمامًا كم هي الحياة هشة.

شام قوية، نعم، وقد أتقنت اللغة الألمانية كما ينساب الماء بهدوء إلى وعائه. لكنها الآن تمثل كل شيء في حياته. وكل شيء، حين يُصبح محددًا بشخص واحد، يُصبح عرضة للفقد.

ثم هناك ماضٍ لم يُغلق بابه بعد.

فراره من ريو دي جانيرو، انهيار منظمة الثبات ، ظهور الإنتربول... كل هذا كان ظاهريًا نهاية، لكنه يعلم أن من يمسك بالخيوط لا يظهر في العلن.

وهو — رغم هدوئه الظاهري — لم ينسَ الوجوه، ولا العيون التي لم تُغلق يومها على متن اليخت.

لكنه أيضاً، لم يعد يعرف نفسه تمامًا.

بعد عامين من السفر خلف الألغاز، أصبح توقيع العقود مهنة غريبة عليه، كأنما اختير لها بالخطأ.

لم يعد المال يعني له شيئًا، ولا الاجتماعات.

كان يُريد فقط شيئًا واحدًا : أن يعود السؤال.

أين ؟

لماذا ؟

ما الذي يعنيه هذا الرمز ؟ ومن زرعه في المكان ؟

أصبحت حياته كصفحة بيضاء، بعد أن امتلأت بالخرائط.

فتح عينيه، عاد ينظر إلى الضباب.

لكن شيئًا ما تغيّر.

انعكاس خافت ظهر في زجاج الواجهة أمامه.

ظلٌ خلفه.

بشرٌ لم يسمع خطاه.

ثم شعر بها... اليد.
وُضعت بهدوء على كتفه، كما تضع الريح إصبعها على صفحة كتاب.

لم يلتفت بعد.
لكنه جَمُد.
وتجمّدت المدينة أيضًا.
حتى الضباب توقف، كأنه ينتظر.

ثم جاء الصوت.
هادئًا.
عميقًا.
بلا عجلة، ولا خوف، ولا لهفة.

● مشهد خيالي بالفعل لا ينقصه سوى وجود شام أمامك !!

التفت بدهشة إلى الخلف..

○ سيد عزيز !

كان السيد عزيز بنفسه يبتسم له ..

● هو بذاته .. أهلاً بالرحالة العظيم ..

وقف أوليفر يسلم عليه بحرارة فاحتضنه السيد عزيز كعادته ..

○ أهلاً بك سيد عزيز ، يا لها من مفاجأة، ما الذي تفعله هنا ؟

● مجرد سائح في هذه البلاد الجميلة ! ..

ابتسم أوليفر من الجواب الطريف غير الصحيح بشكل مؤكد ..

○ و كيف عرفت أنني في هذه المدينة و في هذا البرج بالتحديد ؟

اتسعت ابتسامة السيد عزيز دون أن يرد .. فأردف أوليفر بخجل ..

○ سؤال ساذج أليس كذلك ؟!

هز السيد عزيز رأسه نافياً ..

● إطلاقاً ، بل سؤال مشروع و منطقي، لكن الجواب عنه يؤجل إلى أجل لاحق كما اتفقنا من قبل ، أليس كذلك ؟

ابتسم أوليفر ..

○ بلى .. فالساحر الجيد لا يبوح بأسراره !! .. تفضل بالجلوس أرجوك ..

جلس الاثنان معا، في حين تابع أوليفر كلامه ..

○ لكن أليس في هذا خطر عليك سيد عزيز ؟! ألا تخاف من انتقام المنظمة ؟

● لقد سقطت منظمة الثبات بالكامل منذ أيام سيد أوليفر، و تم القبض على زعيمها (الكابتن مورغان) كما يلقّب من قبل الانتربول بعد تتبع آثاره في **جزيرة فيجي** جنوب المحيط الهادئ بناءً على معطيات مساعديه الاثنين و المعلومات القيمة التي زودنا بها عميلنا سيباستيان عنه ، طبعاً خطر الانتقام يبقى وارداً لكنني لا أستطيع التخفّي مدى الحياة فلدي أعمال أديرها ! ..

شعر أوليفر بارتياح عارم ..

○ هذه أخبار رائعة للغاية ..

● بلى أصبحت حرا طليقا من جديد .. دعك مني الآن و حدثني أكثر عنك ، ما أخبارك أنت و شام بعد الزواج ؟

○ نحن بأفضل حال ، الزواج تجربة رائعة بالفعل، عالم آخر من الاستقرار و تشارك ثواني الحياة مع الشخص الذي تحبه و تنسجم معه ..

● بلى إنه كذلك، كرقصة تانغو ساحرة تعتمد على تناسق الحركات بين شريكين لا أشك بإتقانكما لها ، فمنذ التقيت بك في ميلانو أدركت على الفور أن كليكما يكمل الآخر على نحو مثالي ، وهل تأقلمت شام مع العيش في ألمانيا ؟

○ تأقلمت إلى درجة كبيرة ، كما أنها أحبت البلاد كثيرا، علاوةً على ذلك فقد أتقنت اللغة الألمانية إلى حد بعيد في زمن قياسي ، لكنها تفتقد بساتين الزيتون في القدس بشدة فهي معتادة على السير فيها بين الحين و الآخر لتصفية ذهنها و برمجة حياتها ، و لذلك قمت بزراعة **5** أشجار زيتون في حديقة منزلي كي تروي قليلاً من حنينها مما أدخل البهجة إلى قلبها الأبيض كروائح عطرة مهاجرة من وطنها ..!

● لفتة نبيلة و مفعمة بالحب من قبلك .. من منا لا يفتقدها ! إن لأشجار الزيتون سحرها الخاص فهي توحي بالقوة ، الطمأنينة ، العطاء و الانتماء أكثر من أي شجرة أخرى في العالم ..

ابتسم أوليفر ..

○ بكل تأكيد ، فهي ليست شجرة السماء عن عبث !

● بلى ، على كل حال تأقلم شام مع الحياة هناك أمر مهم للغاية ، لم يكن الوضع يسيرا هكذا بالنسبة لزوجتي ماري روز بعد أن تعرفت عليها في المكسيك و تزوجنا ، فعندما انتقلت للعيش معي في مصر عانت كثيرا في السنوات الأولى حتى تأقلمت مع اللغة العربية ، عاداتنا و تقاليدنا ..

صمت السيد عزيز للحظات و كأنه يستعيد ذكرياته مع زوجته الراحلة ثم أردف..

● و هل أخبرت شام عن مغامراتك في دنيا الأحاجي ؟

○ بالطبع بناءً على توصيتك في رسالتك الأخيرة ، إذ خاطبتنا سوياً من خلالها .. فأدركت أنك تريد مني اطلاعها على ما جرى ..

● و ما هو انطباعها عنها ؟

○ لقد ذهلت تماما بتلك الرحلات المدهشة و ما تمخض عنها من حقائق كبرى و غريبة عن هذه الحياة ، خاصة الأسرار الكونية الفريدة فهي تعشق ذلك النوع من الأسرار، كما أنها ترغب بشدة بالتعرف عليك ، إذ لديها أسئلة كثيرة تود طرحها ..

● و السؤال الأهم بالطبع هو : كيف عرفت بشأنها هي و الشيخ نبيل .. !

ابتسم أوليفر ..

○ محق كعادتك ، إضافة إلى أسئلة عديدة تدور في ذهنها عن الأحاجي السابقة و عن الحياة بشكل عام و بالأخص أسرار الكون التي تستهويها ..

هز السيد عزيز رأسه ..

● سنلتقي جميعا بالتأكيد لكن في الوقت المناسب فلديّ الكثير لأشاركه معها و مع الشيخ نبيل ، بمناسبة هذا الحديث ما أخبار الشيخ نبيل بدوره ؟

○ أخباره جيدة أيضاً .. سينتقل للعيش معنا في غارميش بارتن كيرشن خلال هذين اليومين، و قد اشتريت له منزلا قريبا من منزلنا ..

● إذن فقد أنهى عمله في مسجد قبة الصخرة !؟

○ أجل ، لقد ناهز الشيخ نبيل الثمانين من العمر و من حقه أن يتقاعد و يرتاح ليحل مكانه شيخ أصغر سناً يتكفل بمهامه ..

● لكن الحياة في ألمانيا ستكون صعبة عليه من نواحٍ كثيرة ..!

○ إلى حدٍّ ما ، لكنني وظفت شاباً عربياً ، متديناً، مثقفاً و لطيفاً لمساعدته

في أمور الحياة و الترويح عن نفسه بالحوار معه ، و سيتكفل بكل احتياجاته ، علاوةً على ذلك سنزوره أنا و شام باستمرار للاطمئنان عليه و تغيير روتين حياته اليومي ..

● هذا لطف كبير منك سيد أوليفر..

○ إطلاقاً ، إنه واجبي البديهي سيد عزيز، فالشيخ نبيل يستحق ما هو أكثر من ذلك بكثير، فمن جهة أفنى عمره في خدمة الآخرين و تعليمهم ، و من جهة أخرى كانت كفالته لشام اليتيمة التي لا تقدر بأي ثمن في نظري، لقد كان عائلتها كلها عندما فقدت تلك العائلة، و من حقه أن يهنأ بحياة هادئة مريحة في سنوات حياته المتبقية مع أبناء يهتمون لأمره كتعويض عن الأبناء الذين حرمته الحياة منهم !..

● أجل هذا صحيح ..

ساد الصمت للحظات ثم هشمه أوليفر بكلام متوقع ..

○ إن تجمع الغيوم في العادة يبشر بقدوم المطر سيد عزيز، و أظن أن وجودك هنا مؤشر على قدوم أحاج جديدة لكشف حلقات أخرى من سلسلة الحقيقة ..

ابتسم السيد عزيز ..

● إحساسك الذي لم يخذلك أبداً في مكانه سيد أوليفر .. و الجواب هو : بلى و لا ..

دهش أوليفر من الرد ..

○ بلى و لا ! ما الذي يعنيه ذلك ..؟

● بلى هنالك حلقات جديدة من سلسلة الحقيقة بانتظارك ، لكن لا لا توجد أحاج هذه المرة ..

كان ذلك مفاجئا تماما لأوليفر ..

○ و لماذا ذلك سيد عزيز؟

● لقد تغيرت الظروف كثيراً سيد أوليفر منذ التقينا في ميلانو أول مرة، فأنت حاليا شخص متزوج ذو التزامات ، من ناحية أخرى لا بد أن السفر المتواصل بسبب العمل و الأحاجي قد أنهكك .. لقد أثبت خلال العامين المنصرمين بالأدلة الدامغة من خلال اختبارات كثيرة أنك أهل لامتلاك الحقيقة و بت تقدر قيمتها بشدة وهذا كافٍ بالنسبة لي، فلا داعٍ غالباً للسفر المفرط بعد الآن ..

○ و كيف سأكتشف الحلقات الجديدة من سلسلة الحقيقة إذاً .. ؟!

ابتسم السيد عزيز بغموض ..

● لدي أساليبي الخاصة لذلك، لا تخشَ شيئا سيد أوليفر ..

صمت للحظات .. ثم أشار بسبابته إلى الضباب الذي يجتاح المدينة في الأسفل ..

● إنه لإحساس رائع و غريب أن تشاهد الأرض عالياً من السماء ، إنه شعور الآلهة كما تصور الإنسان منذ القدم ، لذلك بنيت أغلب المعابد القديمة فوق التلال و الجبال كحال جبل الأوليمب مثلاً ..

○ إنه كذلك بالفعل ، لكن للكرة الكونية أقوال أخرى فيما يخص موطن الآلهة !

هز السيد عزيز رأسه..

● بالطبع ، بمناسبة هذا الحديث ، لقد تطرقنا خلال الأحاجي السابقة بشكل واسع إلى خفايا الكون و السموات ، لذا علينا الآن الانتقال إلى جوهر الحكاية و أصل الرواية و هي **الأرض** التي نعيش عليها و بالتحديد أكثر (الإنسان) غاية الإله من الخلق بالأساس، فهنالك مواضيع شتى و حقائق غزيرة لنكتشفها عنه ..

اعتدل أوليفر في جلوسه ..

○ أنا مستعد و متحمس للغاية ..!

● متأكد من ذلك ، لكنني سأتبع معك هذه المرة سياسة مختلفة سيد أوليفر ، **إذ أننا سنغير قواعد اللعبة** ..

استعمرت الدهشة بوضوح ملامح أوليفر ..

○ نغير قواعد اللعبة ! كيف ؟

● هذه المرة **ستختار أنت و ليس أنا** موضوع نقاشنا و الحقيقة الجديدة التي سنطرق بابها ..

*****

جذور الشر

ابتسم أوليفر بدهشة من هذا التغير المفاجئ في أسلوب السيد عزيز في منحه الحقائق ، فقد اعتاد فيما مضى على أن تجري الأمور وفق رغباته و حساباته ..

○ هذا لطف بالغ منك سيد عزيز، لكن لماذا تمنحني هذا الشرف ..؟

● لأنك بما قمت به حتى الآن و بما حصلت عليه من حقائق تحولت من تابع إلى شريك ، و هذا ما ستكون عليه الأمور من الآن فصاعداً ..

○ أخجلتني سيد عزيز بحق .. في الحقيقة اختيار موضوعنا القادم محير للغاية ، امنحني لحظات لأفكر ..

● خذ كامل وقتك ، أعلم أنه اختيار صعب ، فالإنسان متاهة من الأسرار و الألغاز ، بل إنه ككل أحجية بحد ذاته ..

نظر أوليفر عبر الواجهة الزجاجية فرأى الضباب ينحسر عن المدينة تدريجياً ليغزو أفكاره على ما يبدو فقد كان خياراً عويصاً بالفعل ، لكنه ابتسم بعد دقائق، إذ عثر أخيراً على موضوع مثير بالنسبة له و شائك للغاية في الحياة ..

○ أعتقد أنّ أفضل طريقة لمواصلة رحلة اكتشاف الحقيقة سيد عزيز هي البدء من حيث انتهينا مؤخراً ..

● ما الذي تقصده سيد أوليفر ؟!

○ أي من منظمة الثبات ..

● المنظمة ! ما خطبها ؟ أظنك بت تعرف كل شيء عنها الآن !

○ بلى، ما أقصده هنا شيء آخر تماماً و هو ما تمثله المنظمة بحد ذاتها .. أي وجود الشر في حياتنا ، وجود الناس الذين يروجون للظلام بدلاً من النور

● ما خطبهم ؟

○ ما الغاية من وجودهم في الحياة سيد عزيز ؟ إن الله قادر على كل

شيء كما نعلم .. إذاً لو شاء لعم الخير كوكب الأرض أليس كذلك ؟

● بلى : (**و لو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً**) ..

○ آية قرآنية أخرى ؟

● أجل ..

○ و هي غريبة و مذهلة كالعادة ، إذ تشير بشكل صريح إلى قدرة الله على جعل الكوكب بأكمله مقتصراً على الخير لو أراد ، فلماذا لا يشاء **؟!** ما ضرورة وجود الشر ؟ لابد أن لله غاية نبيلة و حكيمة من ذلك ، فهل تملك جوابا عن هذا السؤال سيد عزيز **؟!**

ابتسم السيد عزيز ابتسامة عريضة ..

● **جذور الشر !** يا له من اختيار موفق و خير حلقة نكمل سلسلة الحقيقة منها ..



صمت قليلاً ثم أردف ..

● إن الجواب عن سؤالك هذا بحاجة لشرح يطول، و هذا المكان غير

مناسب أبدا، أنا أملك منزلاً هنا في هونغ كونغ ، فهل تملك وقتاً إضافياً اليوم لزيارتي كي نكمل حديثناً و أجيبك عن سؤالك الهام ؟ فأنا أعلم أن طائرتك غداً صباحاً ..

أجابه على الفور و بدون تردد ..

○ بالطبع ، في سبيل الحقيقة أنا متفرغ في أي وقت ، إذ لها الأولوية مقابل أي شيء آخر .. هل توقيت الساعة السادسة مساءً مناسب لك ؟

● مناسب تماماً .. أتركك إذاً الآن لتتم صفقة عملك و سأمضي بدوري لإنهاء بعض الأعمال ثم نلتقي مساءً ..

وضع السيد عزيز قبعته على رأسه ثم ناوله بطاقة تحمل عنوانه في المدينة و غادر طيفاً كما أتى ..

*****

في تمام الساعة السادسة مساءً ..

وصل أوليفر إلى منزل السيد عزيز، يتبع العنوان المنقوش على ظهر البطاقة وكأنما يتتبع أثر نجمٍ خافت في ليلةٍ عاصفة.

توقّف أمام الباب الخشبي الداكن، بينما كانت الرياح تعزف لحنها فوق أشجار السرو المحيطة، وانحنى إلى الأمام بقدر ما تسمح له كتفاه ليحتمي من زخّات المطر التي انهمرت بعنف، تتساقط على سترته كأنها رسائل مستعجلة من السماء

رفع يده، شرد لوهلةٍ قبل أن يطرق الباب بثلاث نقرات متتالية، لا قوية ولا خجولة، كأنما تقيس وقعها على روح صاحب الدار.

لم تمضِ سوى ثوانٍ حتى سمع خطواتٍ هادئة تقترب من الداخل، تتردد على الخشب العتيق بإيقاع يشبه عزف بيانو خافت في غرفة مغلقة.

ثم انفتح الباب ببطء، وظهر السيد عزيز بابتسامته الأبوية كظلٍّ خرج للتو من صفحات كتاب نُسي على رفٍ مهجور.

● أهلاً بصديقي العزيز (**طالب الحقيقة**) ؟

ابتسم أوليفر ..

○ أهلاً بالمعلم ..

● لا لست كذلك ، في الحقيقة نحن جميعاً طلاب الحقيقة في مدرسة الحياة ، و لو عرفنا شيئاً غابت عنا أشياء أخرى كثيرة ..

دخل أوليفر على الفور ثم خلع معطفه المبتل بمياه الأمطار ..

○ هذا تناقض مريب سيد عزيز **!؟** إذاً كيف سأصل إلى الحقيقة الشاملة إن كنت سأجهل الكثير على الدوام **؟!**

تناول السيد عزيز معطفه فعلقه خلف الباب و هو يبتسم ..

● أحسنت ، هذا هو السؤال الأهم ؟ لنقل أن ذلك سيكون موضوع الأحجية الأخيرة التي ستحلها و الحلقة الأخيرة من سلسلة الحقيقة التي ستكتشفها .. إنه سؤال غريب يحمل التناقض في طياته (**الحقيقة الشاملة في وجه الجهل المحتّم**) ..**!** مبدئياً سأجيبك عن هذا السؤال بشكل مختصر لكنه معبر و كافٍ في هذه المرحلة على ما أظن .

○ كلي آذان صاغية سيد عزيز ؟

فكر السيد عزيز قليلا ..

● اتبعني سيد أوليفر ..

مضى السيد عزيز بخطى واثقة عبر ممر طويل، كمن يعرف تمامًا أين تتقاطع الأقدار. خلفه، كان أوليفر يتبعه بصمتٍ يكاد يُسمع، يتلفّت بعينين مدهوشتين من فخامة المكان واتساعه الذي لا يُشبه ما توقعه أبدًا.

بدا المنزل من الداخل كمعرضٍ للأسرار:

لوحات زيتية ضخمة بدت وكأنها تنبض بالحياة، عيون شخصياتها تلاحقه بنظرات لا تنسى، وبعضها يحمل رموزًا مألوفة رآها في رحلاته، لكنه لم يعرف معناها يومًا.

على جانبي الممر، استقرت تماثيل من العاج و البازلت الأسود والبرونز، بعضها آدميّ وبعضها لا يشبه شيئًا إلا الأساطير. شعَر أوليفر وكأنّ التماثيل تهمس فيما بينها بلهجةٍ خفية لا تُسمع.

الضوء كان خافتًا، يأتي من مشاعل جدارية تتراقص شعلتها كما لو كانت تتنفس، تُلقي بظلالٍ طويلة على الأرض الرخامية، فبدت خطواتهما كظلّين يمشيان في حلمٍ ثقيل.

حتى توقف السيد عزيز أخيرًا أمام بابٍ عتيق في نهاية الممر. كان بابًا خشبيًّا ضخمًا، داكن اللون، محفورًا بنقوشٍ غامضة تشبه الرموز التي لاحقته في مغامراته السابقة، وفي جانبه قفل نحاسيّ عتيق ...

استدار السيد عزيز ببطء، ونظر إلى أوليفر بتلك النظرة العميقة التي لا تكتفي بالسؤال، بل توحي بالجواب... ثم ابتسم.

ابتسامة لا تحمل ودًّا فحسب، بل شيئًا آخر... شيئًا من المعرفة المخبّأة، من الأبواب التي آن لها أن تُفتح، من الإجابات التي كانت تنتظر اللحظة المناسبة لتخرج من صمتها.

ثم قال بهدوء:

- أخبرني سيد أوليفر ما الذي يوجد وراء هذا الباب في داخل الغرفة ؟

هز أوليفر رأسه بدهشة ..

○ لا أعرف بالطبع !

● تماماً، و هذا هو **الجهل المطلق بالحقيقة الشاملة** ..

تقدم السيد عزيز و فتح الباب ثم دعا أوليفر للدخول ..

● و الآن ، ما الذي يوجد في داخل الغرفة ..؟

تلفت أوليفر حوله يتفحص الغرفة بعينيه ..

○ مكتبة ، مقعدان كبيران ، مائدة عليها حاسوب موصول إلى جهاز إسقاط مع تمثال رخامي لفينوس آلهة الحب عند الإغريق على ما أعتقد إضافةً إلى لوحات فنية عديدة أثار انتباهي منها تلك اللوحة الفريدة لشجرة السماء و بوذا يصلي متربعاً في جذعها ..

● تماماً، و هذه هي **الحقيقة الشاملة** .. فهل امتلاكك لها يجعلك الآن خبيراً بمحتويات هذه الغرفة..؟

○ لم أفهمك تماما سيد عزيز ..!!

● سأوضح لك أكثر .. هل تعرف عدد الكتب في هذه المكتبة ؟

○ بالتأكيد لا !

● هل تعرف محتوى كل كتاب منها ؟ مما صنعت المقاعد ؟ من أي خشب صنعت المائدة ؟ محتوى الحاسوب ؟ آلية عمل جهاز الإسقاط ؟ مصدر التمثال الرخامي ؟ من الذي رسم لوحة الشجرة و بوذا ؟

○ أبداً ، لا أعرف جواب أي سؤال من هذه الأسئلة ؟

ابتسم السيد عزيز..

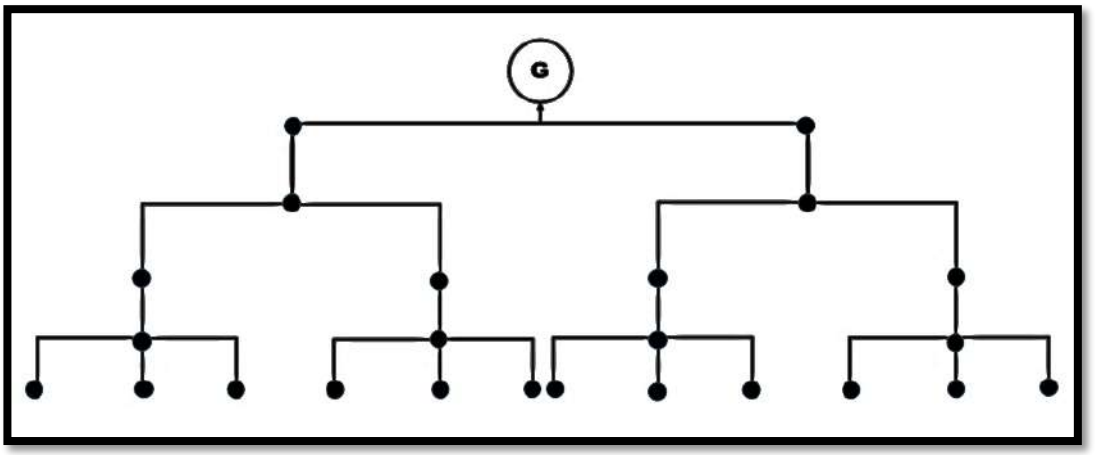
● ها قد وصلت إلى جوابك عن السؤال الأساسي : (**الحقيقة الشاملة مقابل**

الجهل المحتوم) .. فأنت الآن تعرف الحقيقة المطلقة الضرورية و هي محتوى الغرفة لكنك تجهل أي شيء متعلق بهذه المحتويات، و بذلك أنت لا تزال تلميذاً بحاجة للتعلم رغم امتلاكك للحقيقة الشاملة التي هي نتاج علم و عمل جميع البشر عبر كل العصور .. و كمثال مبسط آخر أنت بت الآن مدركاً لاتساع كوننا في الكرة الكونية الصغيرة ضمن العالم الآخر ، لكنك تجهل كل ما يتعلق بأسرار هذا الكون و طبيعة أجرامها أو عددها أو مواقعها و غير ذلك ، كذلك الأمر فأنت تجهل الكثير من الحقائق عن الزيتونة (شجرة السماء) في ذلك العالم رغم إيمانك الجديد بوجودها هناك ..

هز أوليفر رأسه بإعجاب..

○ يا له من مثال بسيط و معبر للغاية سيد عزيز، قدرتك على الشرح و الإقناع مذهلة ، لقد وصلتني وجهة نظرك بشكل دقيق و كافٍ و اقتنعت بها تماماً كالعادة ..

● أما الجواب الأدق على سؤالك فيكمن في **فلسفة هرم النقاط**.



○ هرم النقاط ؟

● أجل، و سأشرحه لك بإسهاب لاحقاُ في الأحجية الأخيرة كما أخبرتك منذ قليل ، إنه خير مفهوم نختم به رحلة البحث الشيقة عن الحقيقة الشاملة..

○ أثرت فضولي كعادتك سيد عزيز ، أنا مترقب على أحرّ من الجمر.. فهو مصطلح غريب يحمل في طياته جواباً على كثير من الأسئلة كما يبدو

● بلى ، هو كذلك بالفعل .. أما الآن فلنعد إلى موضوعنا الأساسي الذي اخترته بنفسك سيد أوليفر : ((جذور الشر)) ..

○ تفضل سيد عزيز، كلي آذان صاغية ..

● لا ، ليس مباشرة ، قبل البدء بالحديث عن الحقيقة الجديدة اذهب إلى المطبخ سيد أوليفر و أعد لنا كأسين من المتة الساخنة فهي الترياق السحري لهذا الطقس البارد الماطر ..

التفت إليه أوليفر بدهشة ..

○ أتحب المتة سيد عزيز ..؟

ضحك السيد عزيز و هو يشير إلى غرفة المطبخ ..

● بالطبع ، و أشربها منذ عقود !! لكن شربها مع صديق له طعم آخر كما هو واضح من اسمها ..

○ من اسمها ؟! كيف ؟

● بالطبع كلمة متة بالانجليزية هي **mate** و هي ذات الكلمة التي تعني الشريك أو الصديق الذي يشاطرك أمراً ما ..

ابتسم أوليفر بذهول من هذه المعلومة الطريفة و الغريبة فهو لم يلاحظها من قبل أبداً ..

● أنا بانتظارك هنا في (غرفة البحث عن الحقيقة) كما أسميها ، و بينما تقوم أنت بتجهيز المتة الساخنة ، سأقوم أنا بتجهيز عدة الشرح و النقاش لنباشر حديثنا مباشرةً ..

هزَّ أوليفر رأسه في حيرةٍ لا تخلو من ابتسامة خفيفة، ومضى في طريقه إلى المطبخ، خطواته تتردد على أرضية المكان بصدى خافت يقطّعه سيل الأسئلة في رأسه.

إن السيد عزيز يواصل إدهاشه بطرقه الملتوية والدقيقة معًا.

كيف ؟

كيف عرف عنه كل هذه التفاصيل، من صفقة العمل التي أبرمها صباح اليوم في هونغ كونغ، إلى ولعه الغريب بكأس المتة كل مساء، إلى عاداته الصغيرة التي لا يعرفها سواه ؟

ما هذا الحضور الكلي الذي يمتلكه الرجل في التفاصيل والماورائيات، كأنه يراقب من مكانٍ آخر لا تبلغه الأبصار؟

لكنه ما كان ليقلقه ذلك بقدر ما يقلقه سؤالٌ ظلّ يتردد داخله كجرس لا يتوقف :

(ما الغاية من وجود الشر في هذا العالم، إن كان الله قادرًا على أن يعمّ الخير أرجاء الكوكب بأكمله ؟)

ذلك السؤال القديم قِدم الزمن، الذي تاهت فيه العقول والفلاسفة، وذابت أمامه ديانات ومذاهب وتفسيرات، ولم يظفر أحد بإجابةٍ تُرضي العقل والقلب معًا.

فهل يمتلك السيد عزيز تلك الإجابة ؟

لقد صدق في كل ما قاله من قبل عن الكواكب والسدم، عن الأرواح والنجوم، عن الضوء و النسيج الخفي ، فهل ينجح اليوم في الغوص إلى الأعمق ؟

إلى الإنسان ؟

إلى سر الشر ذاته ؟

كانت روح أوليفر تغلي كمرجل...

اشتياقه للمغامرة الفكرية ، تلك الرحلة التي تسافر بك دون أن تغادر كرسيك

، عاد يلسعه من جديد، يداعب روحه ويغريها :

الرحلة خلف الحقيقة.

تلك الحلقات الغامضة من السلسلة الكونية، التي لا تُفتح إلا لمن يملك الشغف الكافي، والإيمان الكافي، والجنون الكافي.

ومع ذلك، فإن ما يُثير روحه أكثر من كل هذا...
أن السيد عزيز، وللمرة الأولى، منحه شرف اختيار الحلقة التالية بنفسه.

*****

الإشباع و

بداية الضياع

مع كل رشفة من كأس المتة الساخنة، كان البخار يتصاعد مثل أرواحٍ قديمةٍ تعانق السقف، بينما ظلت زخّات المطر تهدر بأناملها الثقيلة فوق زجاج النافذة . في تلك اللحظة، كانت الغرفة تغرق في ضوءٍ أصفر خافت، يتمازج مع إيقاع المطر ليصنع ستارًا بين الواقع والتأمل.

جلس السيد عزيز قرب أوليفر على الأريكة الوثيرة المصنوعة من الجلد المعتق، كأنها حملت من قبل جلسات سرّية كثيرة وتبادلات لمعارف مخفية. حمل كأسه برفق بين راحتيه، وكأنها بوصلة توجّهه إلى قلب الحقيقة، ثم قال بنبرة رصينة تسكنها الحكمة:

● إذاً وقع اختيارك على معرفة سبب وجود الشر في هذه الحياة سيد أوليفر ؟

رفع أوليفر نظره نحوه، وقد استقرت في عينيه نظرة تائهة بين الشغف والرهبة، إذ لم يكن يتخيّل أن تبدأ الرحلة الجديدة من حيث يتمنّى كل باحث أن تنتهي، من السؤال المحرّم الذي تجرّأ على طرحه :

(إن كان الله قادرًا على نشر الخير في كل مكان... فما الغاية من وجود الشر؟ ولماذا يسمح به ؟)

○ بالطبع إن كان ذلك ممكناً ..!

أومأ السيد عزيز ببطء، وكأن عقله سبق الزمن وأدرك ارتجاج السؤال في صدر أوليفر، ثم أردف، وهو يدير المصاصة في كأسه :

● لا شيء مستحيل في هذه الحياة ، لكن قبل البدء بحديثنا .. سؤالك ليس حديثًا، يا أوليفر. إنه قديم قِدَم الألم ذاته، قِدَم الدموع الأولى التي سالت من عين طفلٍ فقد أمه، أو من قلب أمٍّ ترى ولدها يضيع أمامها. لكنه سؤال لا يُجاب عليه بالحجج، بل بالرحلة.

ارتفع صوت المطر فجأة، كأنما تشارك الطبيعة في الحوار، أو تعلّق عليه، أما أوليفر فقد أحس بقلبه ينبض كما لو كان يوشك على بدء مغامرة لا

تشبه سابقتها، مغامرة لا تبحث في حجارة المعابد ولا في خرائط النجوم، بل في أعماق النفس البشرية، حيث تنمو بذور النور والظلمة معًا.

لكن قبل أن يتابع السيد عزيز كلامه انقطع النور على حين غرّة فغرقت الغرفة في ظلامٍ دامس ..

O يبدو أن الكهرباء قطعت بسبب تهاطل الأمطار ..!

لم يأته أي رد من السيد عزيز !

O سيد عزيز هل هنالك خطب ما ؟

مرّت ثوانٍ كأنها دهور من الصمت المطبق، وكل ما فيها ساكن كأن الزمن ذاته قد احتبس بين جدران تلك الغرفة الغامضة. بدأ أوليفر يشعر بارتباك غريب يزحف إلى صدره، ثم تسلل إليه قلق خافت أخذ يتضخم كنبض الطبول في أعماقه، حتى صار صوته أقرب إلى هدير. ذهنه لم يكن بحاجة إلى كثير من التهويل، إذ قفز مباشرة إلى أسوأ الاحتمالات، وتحديداً إلى شبح المنظمة وانتقامها المحتمل، ذاك الذي ظل يتربص به كظلٍّ لا يغيب. تسرّعت خفقات قلبه وكأنها تحاول الفرار من قفص صدره، وهو يتلفت بقلق كأن شيئاً سيتجلى من العدم في أية لحظة.

وفجأة، دون سابق إنذار، انبثق شعاع ساطع من النور في وسط الغرفة، فشقّ السكون والظلمة كوميض برق أضاء الغموض الكثيف. تسلّط الشعاع نحو الجدار المقابل، حيث ظهرت على الفور صورة ضخمة وكأنها حية تنبض داخل إطار من الزمن القديم. كان أوليفر بالكاد يصدق عينيه: لوحة آدم وحواء، تقف بينهما شجرة التفاح الشهيرة، تتدلّى من أغصانها ثمرة واحدة براقة كجمرة، توشك أن تُقطف من جديد.

لم تكن اللوحة مجرد مشهد ديني مكرر، بل كأنها جاءت لتفتتح فصلاً جديداً من رحلته الوجودية، تسأله بعيونها الصامتة : أتدرك الآن فصلك من القصة ؟

التفت إلى يساره، حيث كان يجلس السيد عزيز، ليلقي عليه سؤالاً طارئاً اختنق في صدره، لكنه فوجئ بأن المقعد كان خالياً. اتسعت عيناه دهشة، وأحسّ بقطرات من الغموض تنساب فوق جبينه، كما تنساب المعاني الغامضة من كتاب مغلق لا يُقرأ إلا بالقلب.



قبل أن ينهض أو ينطق، جاءه الصوت العميق، الأثيري، من خلفه، وكأنه ينبثق من جدار الزمن ذاته :

● إنها نعمة النور سيد أوليفر ، النعمة المجانية الأغلى في هذه الحياة ..

(إذا أردت أن تعرف نعمة الله عليك فأغمض عينيك)

صمت قليلاً ثم أردف ..

● و لكي تقدر نعمة النور هذه ، عليك أن تخسرها في البدء فتجرب العيش في الظلام لفترة من الزمن كي تعرف بالضبط ما الذي تمثله و تعنيه .. إن مجرد عيشك في العتمة لثوانٍ سيد أوليفر أربكك و أثار الخوف و القلق في داخلك كما جعل أفكارك تتوه في متاهة و روحك تتخبط في الظلام فجعلك كل ذلك دون أن تشعر تقدس النور و تقدر قيمته تماماً ..

ابتسم أوليفر ..

○ هذا ما حدث للتو بالضبط ، لكن ما علاقته بموضوعنا و بالصورة أمامي ..؟

● كل العلاقة سيد أوليفر، لكن قبل أوضح لك ذلك عليك أن تجيبني أنت عن السؤال التالي من وحي الصورة أمامك :

لماذا برأيك نفي آدم و حواء من الجنة إلى الأرض ؟ ما رمزية هذه القصة ؟ هل جرى ذلك بالفعل من أجل تفاحة ؟!

فكر أوليفر للحظات ..

○ أظن أن السبب هو عصيان توصيات الله الذي أمرهما بالابتعاد عن الشجرة و نهاهما عن قطف أي ثمرة منها ..

● تماماً سيد أوليفر، لكن لنفكر بعمق أكثر ، لماذا يخاطر شخص يعيش في الجنة حرفياً و يملك كل شيء بخسارة كل ذلك من أجل تفاحة لا قيمة لها ؟!

هز أوليفر رأسه بدهشة ، بالفعل إنه سؤال غريب..

○ أنت محق .. سؤال محير ! لماذا برأيك سيد عزيز ؟

اقترب السيد عزيز منه ثم عاود الجلوس في مقعده متابعاً كلامه ..

● لأن الإنسان بطبيعته عندما يصل إلى مرحلة الإشباع من النعم يفقد تقديره الذاتي لها و يتحول إلى كائن متمرد ، مغرور و ميال لتجربة كل ما هو جديد و مجهول حتى و لو كان ذلك سيئاً أو خطيراً عليه قبل أي شخص آخر .. و هذه كارثة لكي تقدر حجمها سيد أوليفر، تخيل معي التالي : (لو أن الله خلق جميع البشر في الجنة ثم تركهم يعيشون فيها و كل شيء مؤمن لهم ، ما الذي كان ليحدث ؟)

زم أوليفر شفتيه بحيرة ..

○ من الصعب التكهن سيد عزيز ..!

● إطلاقا يا صديقي، النتيجة حتمية، سيشبع البشر من كل تلك المتع المتوفرة في الجنة بعد فترة من الزمن قد تطول أو تقصر لكنها آتية لا محالة حتى يصلوا في النهاية إلى مرحلة لن يقدروا قيمة النعم بين أيديهم ، ليبدأ كل منهم بتجربة شيء جديد ، و في حال أنك ولدت في النور ثم وصلت إلى درجة الإشباع منه ما الذي يبقى لك لتجربه ؟

○ الظلام بالطبع ..!

● بالضبط ، سيبدأ الناس بتجربة المشاعر السلبية و الظلامية من سلطة ، تمجيد ذات ، إقصاء الآخر وصولاً إلى محاولة الانقلاب على خالقهم و التمرد عليه ثم محاولة السيطرة على عالمه و قبل أن يدرك البشر أن هذه الدرب التي سلكوها خاطئة و خطيرة بلا نتيجة ترجى منها ، إذ لا تضيف شيئا إيجابياً أو سعيداً إلى حياتهم ، تكون الكارثة قد وقعت و تحولت الجنة إلى جحيم حقيقي من تبذير للنعم ، إسفاف فكري و تسفيه للحقائق النبيلة بسبب إحجامهم عن توصيات و نصائح و إرشادات خالقهم ذي المعرفة المطلقة بأحوالهم و الأعلم بمصلحتهم أكثر من أنفسهم ..

قوس أوليفر حاجبيه بدهشة ..

○ هذه كارثة كبرى بالفعل ..

● تماماً ، و لذلك السبب وجدت الأرض كضرورة قصوى لتأهيل البشر عبر مرحلة وسيطة من الدروس و الاختبارات كي يستحقوا العيش في العالم الآخر بسلام دون أن يؤذوا أنفسهم أو يتمردوا على خالقهم .. و سأضرب لك مثالاً عن ذلك سيد أوليفر يوضح الفكرة بشكل أعمق ..

○ كلي آذانٌ صاغية ..

● تخيل سيد أوليفر أنك تعيش في غرفة تحوي كل شيء يلزمك في الحياة، ليس لها نوافذ، و لها باب وحيد مغلق ، لكن خلف هذا الباب ثمة غرفة أخرى يعيش فيها حيوان ضارٍ مفترس و أنت تجهل هذه الحقيقة .. ما الذي سيحدث بعدها ؟

ستقضي فترة من حياتك تكتشف محتويات الغرفة و آلية استخدامها فتتمتع بها و تسير الأمور على خير ما يرام في البدء ، لكن مع مرور الوقت بتكرار نفس الإجراءات يومياً ستصاب بالضجر ، الملل و الاشباع من تلك المحتويات لذا ستحاول تجربة شيء جديد ، عندها ستتبع الخيار الوحيد المتاح بين يديك و هو محاولة فتح الباب المغلق بأي طريقة من شدة فضولك و تمردك حتى لو اضطررت إلى خلعه ، فما الذي سيحدث ساعتها ؟

○ ستدخل الحيوان المفترس إلى غرفتك ليقتلك !

● بالضبط ، و هذا ما لا يريده الله لنا كبشر، فالجنة هي الغرفة التي تحتوي كل شيء و الجحيم هو الغرفة المجاورة لها ، يفصلنا عنه باب مغلق نهانا الله أن نفتحه لمصلحتنا قبل أي شيء آخر.. لكن آدم و حواء فتحاه رغم ذلك التحذير .. **و من باب الرحمة الإلهية أن هذا الباب قادهما إلى الأرض و ليس إلى الجحيم ليتعلما الدرس هنالك جيدا و يفهما حجم الخطأ الكارثي الذي ارتكباه بتمردهما و عصيانهما لأوامر خالقهما بعد وصولهما لدرجة الإشباع من نعم الجنة ثم لنتعلم نحن من بعدهما بتجاربنا الخاصة الدرس نفسه** .. فالموضوع لا يقتصر على ثمرة التفاح بحد ذاتها بل بما تختصره من عبر عن هذه الحقيقة المرة (الإشباع يقود إلى التمرد و الضياع) ..

أومأ أوليفر برأسه موافقاً و معجباً من هذا الشرح المقتضب البسيط و الدقيق في آنٍ معاً ..

○ كلام منطقي لا غبار عليه ، و هو مرعب في ذات الوقت ..!

● تماماً ، إذاً لأجل تجنب الوصول إلى مرحلة الإشباع من نعم الجنة ، و صوناً لهذه الجنة مع تلك النعم الوفيرة فيها و ما تمثله من نور، و من أجل المحافظة على الروح النبيلة و العقل السليم حفاظاً على البشر من التيه الحتمي الذي لا مفر منه في طريق العصيان ، التمرد و سلوك الدرب الخطأ بعد الوصول إلى مرحلة الإشباع ، وجدت الأرض و كانت الدنيا بأيامها السبعة داراً للاختبار و تلقين هذا الدرس الجوهري و المقدس :

(إن أنت أنصت إلى الله أو العقل المطلق السليم

فستقدر النعم بين يديك و ستحصل على كل شيء

لتعيش جنتك على الأرض، أما إن أنصت لغرائزك أو ما

يدعى شيطانك فقدت الشعور بقيمة هذه النعم و تهت

في غياهب الظلام لتخسر كل شيء

و تعيش في جحيمك الخاص)

و هنا يأتي مصطلح (**الصراط المستقيم**) الذي يشير إلى استخدام العقل و نبذ الغرائز للعيش في النور و التماهي مع طبيعته أو كما يدعوه البوذيون (**الاستنارة**) .. أي جذور الخير هذه المرة ..

○ مذهل و معبر !! أتفق معك في كل كلمة سيد عزيز ..

● و كخلاصة لحديثنا عن مستهل صور اليوم سيد أوليفر.. فإنّ الوصول إلى مرحلة الإشباع من أي شيء هو مؤشر لبداية ضياع هذا الشيء ، كما لو كنت تتسلق قمة جبل ما ، ما الذي سيبقى لك لتفعله إن بلغت هذه القمة أخيراً ؟

ابتسم أوليفر بدهشة ..

○ لا مزيد من الصعود ، سيبقى النزول بالطبع !

● تماما، و هذا يقودنا إلى الصورة الثانية في حديثنا ..

*****

N

ضغط السيد عزيز على زر في جهاز تحكم في يده فتغيرت صورة آدم و حواء إلى صورة شعار بلون أزرق سماوي يحمل حرف **N**..

- هل تعرف هذا الشعار سيد أوليفر ؟

هز أوليفر رأسه نافياً ..

- إطلاقا !
- إنه شعار **فريق نابولي الإيطالي لكرة القدم** ..



نظر أوليفر إلى الشعار بدهشة جمّة، حاجباه انعقدا في انفعال طفولي حائر، إذ بدا له الشعار غريبًا عن السياق، نافرًا من عوالم الجنة وأحاديث النشوء الأزلية، كما لو أن آلة الزمن اختارت أن تعبث به فجأة وتُلقي به من السماء إلى مدرج صاخب في ملعب كرة قدم.

- فريق كرة قدم...!

قالها في نفسه، مذهولًا من هذا الانتقال الحادّ، المقطوع، كما لو أن لحنًا سماويًا شجيًا انقلب فجأة إلى صخب أبواق وهتافات جماهير، متسائلًا :

ما علاقة آدم وحواء بهذا ؟ ما صلة الفردوس بمباراة من شوطين ؟ أهي مزحة أخرى من مزحات السيد عزيز المبطّنة بحكمة ؟

لكن عينَي أوليفر، رغم تساؤله، لم تغادرا الشعار؛ كان يحمل رمزًا ما، كأنه يُخفي أسرارًا تحت ألوانه ونمطه البسيط، أو كأنّه باب جديد في متاهة السيد عزيز، لا يفتح إلا لمن يقبل اللعب بشروط مختلفة.

ولم تخفَ دهشته عن عينَي السيد عزيز، تلك العينين العتيقتين اللتين قرأتا آلاف الأرواح كما تُقرأ القصائد. ابتسم، ابتسامة مَن اعتاد أن يرى النفوس تتقلب في بحر الحيرة قبل أن تُولد من جديد. ثم قال بنبرةٍ هادئةٍ مشبعةٍ بالتلميح :

● إنك مستغرب من التحول الحاد في مجريات الحديث أليس كذلك ؟

○ في الحقيقة أجل ..!

● يبدو أنك نسيت مقولة الطبيب و الكاتب الأمريكي **أوليفر هولمز : لا يتوقف الناس عن اللعب لأنهم كبروا ..**

ابتسم أوليفر متابعاً ..

○ **بل يكبرون لأنهم توقفوا عن اللعب ..**

● تماما، **لنلعب قليلاً و نتعلم كثيراً** .. هذا هو شعاري في الحياة سيد أوليفر .. بالمناسبة من هو فريقك المفضل في كرة القدم الإيطالية ..؟

○ أنا لا أتابع كرة القدم في الحقيقة ، لكنني منحاز قليلاً **لفريق جوفنتوس**

● فريق السيدة العجوز ! بالطبع أنت كذلك ، الجميع ينحاز لفريق السيدة **فالناس كلهم أبناء الدنيا و لا يلام الإنسان على حب أمه ..**

ابتسم أوليفر ..

○ تقصد بكلامك الزيتونة (شجرة السماء) على ما أعتقد ؟

قابله السيد عزيز بابتسامة أخرى ..

● بالضبط ، لقد أصبحت متمرساً تماماً في فهم الأحاجي و اللعب بالكلمات.

صمت السيد عزيز للحظات ..

● أما أنا فأنحاز لفريق نابولي ، ففي شبابي عندما كنت في مثل عمرك تقريبا أي في الثمانينيات من القرن الماضي مرّ النادي بحقبة ذهبية بقيادة نجمه **دييغو مارادونا** فاكتسب شهرة واسعة للغاية ..

○ اللاعب الأرجنتيني الذي سجل الهدف الشهير بيده في كأس العالم..

● بالضبط و أطلق عليها تسمية (**يد الله**) .. و سنتحدث أكثر عن هذه اليد بعد قليل سيد أوليفر، لكن لنعد إلى موضوعنا الأساسي ..

○ كنا نتحدث عن شعار نادي نابولي الظاهر أمامنا ..

● أجل، و ما يهمني فيه هو حرف **N** هذا الحرف المقدس في نظري و الذي يلخص أحد أكبر ألغاز و أسرار الحياة ..

○ حقاً ، حرف يمثل كل هذا !

● بالطبع سيد أوليفر ، هذا الحرف سحري بالفعل فهو يجسد كما ترى أمامك الارتقاء من الصفر نحو الأعلى ثم الهبوط فجأة نحو الأسفل ثم الارتقاء مجدداً ..

نظر أوليفر إلى الشعار أمامه بدهشة ..

○ بلى هو كذلك !.. لكن ما الذي يعنيه ذلك ؟

● ألا ترى سيد أوليفر بأن هذا الحرف يختزل كل كلامنا السابق عن الإشباع و بداية الضياع عندما يولد الإنسان في النور و الخير ثم يرتقي بحياته نحو الأفضل ليصل إلى الذروة حيث تبدأ مرحلة إشباع من النور فيفقد هذا النور بريقه و قيمته في عينيه تدريجياً حتى ينطفئ ليبدأ بعدها في تجربة طريق الظلام منحدرا بحياته نحو الأسوأ حتى يبلغ مرحلة يكتشف فيها حقيقة النور

مجدداً و يستذكر قيمته و معناه الحقيقي ليعود بذلك إلى الصراط المستقيم فيصبح مؤهلاً تماماً للعيش في العالم الآخر ..

دهش أوليفر من هذا التشبيه البسيط و البليغ ..

○ بلى ، أنت محق سيد عزيز ، فهذا الحرف يختزل هذه الفلسفة تماماً ..!

● و الناس في هذه الحياة مختلفون في أي مرحلة من المراحل الثلاثة يعيشون (**الصعود الأولي أم الهبوط أم الصعود النهائي**) ، لكنهم يميلون إلى الانجذاب إلى الناس الذين يشاركونهم نفس المرحلة ..

○ بمعنى آخر، الطيور على أشكالها تقع !

● أحسنت سيد أوليفر ! و هذا يفسر لك سبب وجود التجمعات الروحية كما يفسر تماماً وجود العصابات كالمنظمة التي ذكرتها .. فالناس الذين هم في طور الصعود يميلون للتكاتف معاً و دعم بعضهم البعض، كذلك الناس الذين هم في طور النزول يميلون لذات الشيء لحماية أنفسهم و أفكارهم ..

○ هذا منطقي للغاية ..

● و من خلال وجود هذا الخليط من النور و الظلام في الحياة تدور عجلة التعلم عن قداسة النور و أهميته و جوهره ، و عن غوغائية الظلام و عدم الجدوى من المشي في طريقه ..

○ أي أن الناس يعلمون بعضهم بعضاً ..

● تماماً ، هذا ما أراده الله من خلقنا على هذه الأرض ، فإن كنت في طريق الصعود كنت واعظاً لمن هم في طريق السقوط، و إن كنت في طريق السقوط شعرت بأهمية الصراط المستقيم و جعلت من هو في النور يتمسك به بشكل أكثر ضراوة لأنه يرى سقوطك الأخلاقي سلبياً ، قبيحاً و خطراً فينفر منه ..

○ و هل هذا المسار ينطبق على جميع البشر سيد عزيز ..؟

● بالطبع سيد أوليفر :

(جميع بني آدم خطاؤون و خير الخطائين التوابون)

○ مقولة بليغة للغاية ، لكن هنالك سؤال يطرح نفسه بقوة سيد عزيز ..!

● و هو ؟

○ هنالك حالات كثيرة يموت فيها الإنسان و هو على طريق الخطأ، كما يقيمه الناس على أقل تقدير، فما مصير هؤلاء ؟

ابتسم السيد عزيز ..

● إنه سؤال منطقي أكثر من رائع سيد أوليفر ، لقد تحدثنا سابقاً عن القاعدة العامة للحياة و اختصرناها بحرف **N**، و لكن لكل قاعدة استثناءات كما تعلم لكنها وجدت كي تؤكد القاعدة و ليس العكس .. كي أجيبك على سؤالك هنالك سرّ دفين في هذه الحياة عليك معرفته ..

○ سرّ !؟ ..

● أجل، لقد ذكرت منذ دقائق أن الحياة على الأرض وجدت كي نتعلم الدرس فنتلافى حدوث الكارثة في العالم الآخر بتحوله إلى جحيم من الظلام بعد الوصول لمرحلة الإشباع من النعم أليس كذلك ؟

○ بلى ..

● و للحفاظ على استمرار الحياة على الأرض على هذا النحو يجب تجنب حدوث الكارثة على الأرض نفسها و تحولها إلى جحيم بدورها ..

○ منطقي للغاية ، و كيف يتم ذلك ؟

● باستثناءات القاعدة سيد أوليفر ، تخيل لو أن الحياة تلعب بقواعد معروفة و ثابتة، عندها سيجد من هم في مرحلة السقوط الطريقة الفعالة للفوز في اللعبة و فرض كلمتهم بشكل نهائي أي انتصار الظلام على النور ، و بالتالي خروج الأمور عن السيطرة و تحول الأرض إلى جحيم مطلق ..

○ لذا تظهر الاستثناءات دوماً كي تخلط الأوراق من جديد ..

● بالضبط ..

○ أفهمك سيد عزيز، لكن ما مصير هذه الاستثناءات ؟ هل تنطبق عليهم دروس الحياة ..؟

● بالطبع ، كثير من الناس ينتمون لعصابات و منظمات لا أخلاقية لكنهم من الداخل نظيفون و قادتهم الأقدار و حكمة الإله إلى ذلك المكان لغايات سماوية، و بالعكس هنالك من يكون ضمن جماعات روحية أو إنسانية لكن روحه تائهة تماماً .. و لأجيبك بشكل أكثر دقة عن سؤالك سأذكر لك حالة طبية أخبرني عنها طبيب صديق لي تمثل استثناء للقاعدة و تفسر كثيراً من الحقائق ..

○ تفضل سيد عزيز ..

● هنالك مرض يصيب الإنسان يدعى (**ورم القواتم**) هل سمعت به من قبل سيد أوليفر ؟

هز أوليفر رأسه نافياً ..

○ أبدا ..!

● هو عبارة عن ورم في غدة الكظر القابعة فوق الكلية عند الإنسان يفرز هرمون الأدرينالين المسؤول عن الاندفاع و الطباع النزقة و العنف ، تخيل أن يصاب شخص صالح من داخله يحب الخير و يدرك قيمة النور بهذا المرض، عندها سيقدم هذا الشخص على أفعال و تصرفات متناقضة مع أفكاره قد تصل حتى إلى درجة القتل دون أن يستطيع السيطرة على نفسه، و قد يحبس و يعدم بسبب ذلك دون أن يشخص مرضه ..

هذا الشخص هو في نظر الناس مجرم ، قاتل و شرير ذو طباع سيئة ، لكن في الحقيقة هو عكس ذلك و الله يعلم ذلك و إن جهله الناس، أي أنه فهم درس الحياة بينه و بين نفسه، في حين استخدمه الله كأداة لتحقيق غايات أخرى، هذا الشخص و أمثاله هم استثناءات القاعدة التي يستخدمها الله لتبقى قواعد الحياة غامضة و الأوراق مخلوطة كي لا يستطيع أحد قراءتها بسهولة و يتمكن بالتالي من تغيير قواعد اللعبة ..

أومأ أوليفر رأسه موافقا ..

○ أي أن الاستثناءات للقاعدة العامة في مدرسة الحياة هي وجود بشر نظيفين من الخارج و ملوثين من الداخل، و بالعكس بشر ملوثون من الخارج و نظيفون من الداخل ..

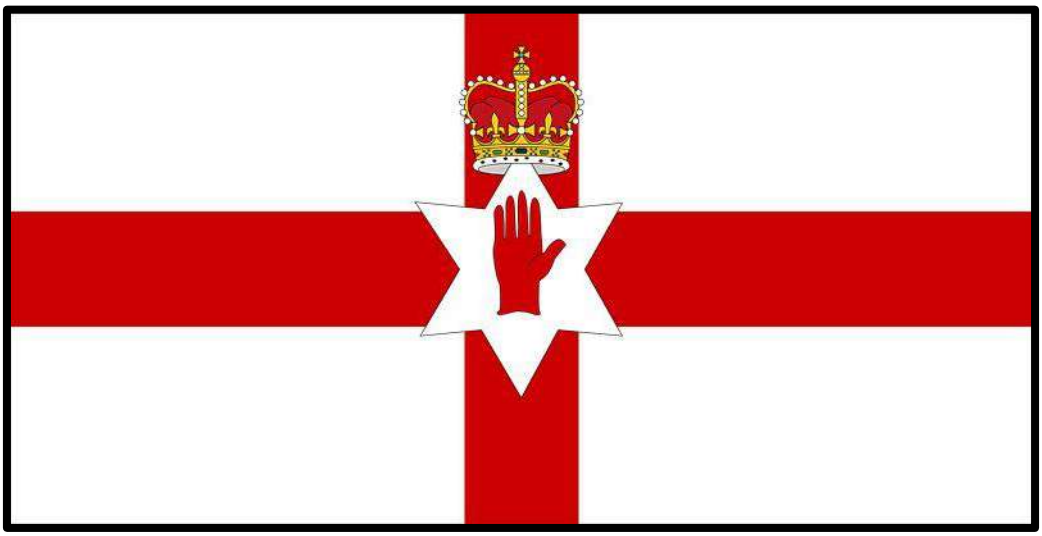
● يمكنك قول ذلك كتبسيط، و بجميع الأحوال النقاش في مسألة الاستثناءات يطول و سنتحدث عنه أكثر لاحقا في حلقة مستقلة من سلسلة الحقيقة، أما الآن فلننتقل إلى الصورة التالية ..

*****

نقاح الظلام

ضغط السيد عزيز الزر مجدداً فظهرت صورة جديدة عبارة تمثل علم لبلد عرفه أوليفر على الفور ، فهي دولة ليست بعيدة عن بلاده ألمانيا ..

○ علم **أيرلندا الشمالية.. !**



اجتاح الحزن ملامح السيد عزيز على نحوٍ فاضح ..

● بالضبط .. النجمة السداسية و اليد في منتصفها .. و هي أيضاً بلد البروفيسور ترومان..

○ صديقك الذي اغتالته المنظمة **!؟**

● أجل ، البروفيسور في علم تحليل و تفسير الرموز في الحضارات و الأديان المختلفة ..

صمت السيد عزيز للحظات ثم أردف :

● إن لعلم دولة أيرلندا الشمالية قصة خاصة بالبلد و تاريخه لكنها لا تتعلق بموضوعنا اليوم، و سأقتبس عن البروفيسور ترومان نظرته الخاصة بعلم بلاده كما كان يخبرنا بها أنا و الأسقف جيمزا، حيث كان يرى فيه حكاية أخرى تتعلق بحديثنا الدائر الآن ..

○ جذور الشر ؟

● تماماً ، فالنجمة السداسية على العلم تتكون بالأساس من مثلثين متعاكسين

أحدهما يتجه للأعلى و الآخر للأسفل .. فهل يذكرك هذا الرمز بشيء مما تناقشنا فيه اليوم ؟

فكر أوليفر للحظات ..

○ بالطبع حرف **N** (الارتقاء نحو النور ثم السقوط لاحقا في غياهب الظلام) !

● بالضبط ، و من ثم تتدخل يد الله التي أتيت على ذكرها منذ قليل لتنتشلك من سقوطك فترتقي بروحك من جديد ..

○ و لماذا يتدخل الله لإنقاذ الإنسان الغارق في الظلام، ألم يبتعد عن الله بإرادته ، إذاً عليه تحمل عواقب اختياره !؟

● سؤال هام للغاية سيد أوليفر ، و جوابه يشتمل على سببن ..

○ و هما ؟

● السبب الأول : لأن الله نبيل ..

○ نبيل !

● بالطبع ، إن غاية الله من خلق الإنسان على الأرض ليست تعذيبه بل كما ذكرنا منذ قليل ، تعلم الدروس و العبر كي يستحق الجنة لاحقاً بعد الموت، أو لنقل إن الحياة الدنيا هي بمثابة اللقاح من الظلام ..

○ هذا مصطلح غريب لم أفهمه سيد عزيز!

● سأشرح أكثر سيد أوليفر .. إن مبدأ اللقاح كما تعرف هو إعطاء العامل الممرض بكميات صغيرة غير قاتلة لتتولد مناعة ضده تحمي الإنسان مستقبلاً ضد الكميات الكبيرة من هذا العامل الممرض .. صحيح ؟

○ بلى ..

● كذلك **الله في الحياة الدنيا و من خلال تجارب معينة خاصة بكل إنسان يجعله يسقط في الظلام لفترة من الزمن كي يعرف قيمة النور تماماً و خطورة الظلمات و قباحتها ثم ينتشله من سقوطه إلى النور مجددا و قد**

أصبح ذا قداسة خاصة في عينيه.. و بهذه الطريقة يقيه الله من السقوط في الظلمات الكبيرة حيث اللاعودة منها و الحكم على الإنسان بالضياع إلى الأبد ..

○ لقاح الظلام ، مذهل ! و السبب الثاني .. ؟

● السبب الثاني منبثق من الأول ، و هو أن الله بنفسه من يعطي الإنسان لقاح الظلام ، لذلك هو أيضاً من يخرجه لاحقا من ذلك الظلام بيده .. أو كما تقول الآية القرآنية الكريمة ..

(و نفس و ما سوّاها فألهمها فجورها و تقواها)

○ فألهمها !! آية معبرة للغاية سيد عزيز و تلخص فلسفة لقاح الظلام تماماً ، يا له من قرآن مدهش يعج بالأسرار و الكنوز الفكرية و الفلسفية !

صمت أوليفر قليلاً ثم أردف مبتسماً ..

○ إن هذين المثلثين المتداخلين في العلم يذكرانني **بالبورصة** سيد عزيز حيث الأسهم ترتفع و تنخفض باستمرار ..

صفق السيد عزيز بيديه مشجعاً ..

● ملاحظة ذكية كعادتك سيد أوليفر ، و يمكنك القول بأن الحياة ككل عبارة عن بورصة فيها شركتان هما شركة النور و شركة الظلام ، يرتفع فيها سهم اليقين و الإيمان عند الناس و ينخفض بشكل مستمر دون توقف ، و السعيد و الرابح الأكبر في هذه الحياة من يضع أسهمه في شركة النور .. لأنه مهما تذبذبت أسهمها فربحها مضمون في المحصلة.. و العكس صحيح فشركة الظلام ستفلس عاجلاً أم آجلاً مهما ارتفعت قيمة أسهمهما أو كما تقول تتمة الآية السابقة ..

(قد أفلح من زكّاها، وقد خاب من دسّاها)

هز أوليفر رأسه بدهشة معجباً بالتشبيه و من تتمة الآية، في حين ضغط السيد عزيز الزر منتقلاً إلى الصورة التالية و كانت عبارة عن رمز عالمي مشهور يمثل رمز الديانة التاوية (يين و يانغ) ..



● أظن أن الصورة تشرح نفسها أليس كذلك ؟

○ بلى صراع النور و الظلام الدائم في الحياة ..

● تماما لكنني أحب أن أضيف شيئاً آخر هنا ..

○ كلي آذان صاغية ..

● كما تلاحظ سيد أوليفر فإنّ النصف الأبيض من الشعار يحوي دائرة سوداء و بالعكس النصف الأسود منه يحوي دائرة بيضاء ..

○ أجل لاحظت، و ماذا يعني ذلك ؟

● يعني أن في قلب كل إنسان يمشي على الصراط المستقيم شيطان كامن يحاول حرفه عن هذا الصراط و هو ما رمزنا له بالإشباع من النور ثم حب اكتشاف عالم الظلمات ، و بالعكس في قلب كل إنسان تائه ملاك كامن

يجذبه مجدداً نحو الصراط المستقيم كونه جرب طريق الظلام فعرف يقيناً بأنه عبثي بلا نتيجة ترجى و نهايته هي الهاوية السحيقة ..

○ كلام بليغ و مذهل ..

● لقد كان البروفيسور ترومان من عشاق رمز التاو هذا، و يصفه بأنه أكثر رمز معبر عبر التاريخ البشري، إذ أن له رغم بساطته الشديدة تفسيرات غزيرة للغاية، و على مستويات متنوعة و مختلفة ..

○ أضم صوتي إلى صوته، إذ يراودني نفس الإحساس عندما أرى هذا الرمز .. و هل هو رمزك المفضل بدورك سيد عزيز ؟

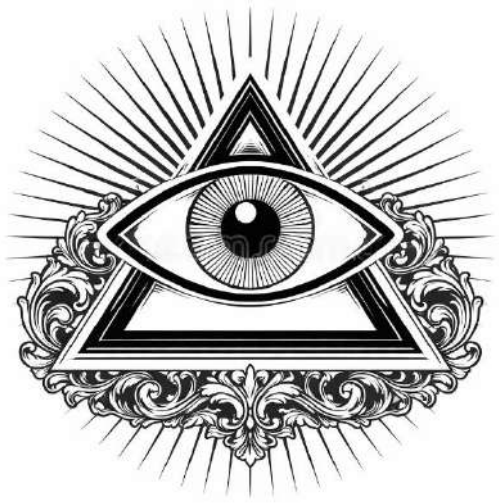
● أنا أعشق شعار التاوية كثيراً لكن رمزي المفضل هو **العين الثالثة** ، أو **عين الإله التي لا تنام**..

○ عين الإله ؟

● أجل ، و لها تسميات مختلفة باختلاف العقائد.. لكنها غالباً ما يشار لها بعين ضمن مثلث يشع منها النور ..

ابتسم أوليفر ..

○ تقصد شعار الماسونية ..؟!



● لا ، عين الإله رمز أقدم بكثير من الماسونية ، فمثلاً هو عند المصريين

القدماء **عين حورس** ، كما أنه موجودة عند البوذيين ، الهندوس ، الديانة الكاودائية و عند حضارات و عقائد أخرى ..

لكن أنت محق فهي أشهر ما تكون عند الماسونيين بسبب وجودها على عملة الدولار الأمريكي، العملة الأشهر و الأكثر تداولاً حول العالم ..

○ و لماذا هي رمزك المفضل سيد عزيز ؟

● لأنه مع ارتقاء هرم المعرفة و الحكمة تتفتح بصيرة الإنسان فيرى أشياءً لا يراها الآخرون ، أي أن الناس ترى الشيء أمامها بطريقة معينة تقليدية لكن المستبصر يراه بطريقة مختلفة تماما ذات أبعاد أخرى ..

و عندما تصل ذروة الهرم و هذا شيء مستحيل بالطبع على الإنسان يمكنك رؤية كل شيء و لا تخفى عليك لا صغيرة ولا كبيرة ، و هي الصفة التي يختص بها الإله لوحده ..

○ و هل لهذا علاقة بالحقيقة الشاملة و هرم النقاط الذي ذكرته منذ قليل ..

● تماما، العين الثالثة هي النقطة الأولى التي تتفرع منها كل النقاط ، هي البذرة ، هي الشرنقة ، و هي النقطة الأولى التي انفجر منها **الكون الأكبر و الكون الأصغر** ، هي باختصار : (**الأول بلا بداية**) ..

ابتسم أوليفر ..

○ إن هذه مجموعة أحاج مختلطة و متشابكة .. أظنّ أنني فهمت بعضها فحسب إذ يتعلق بالأحاجي السابقة كما يبدو..

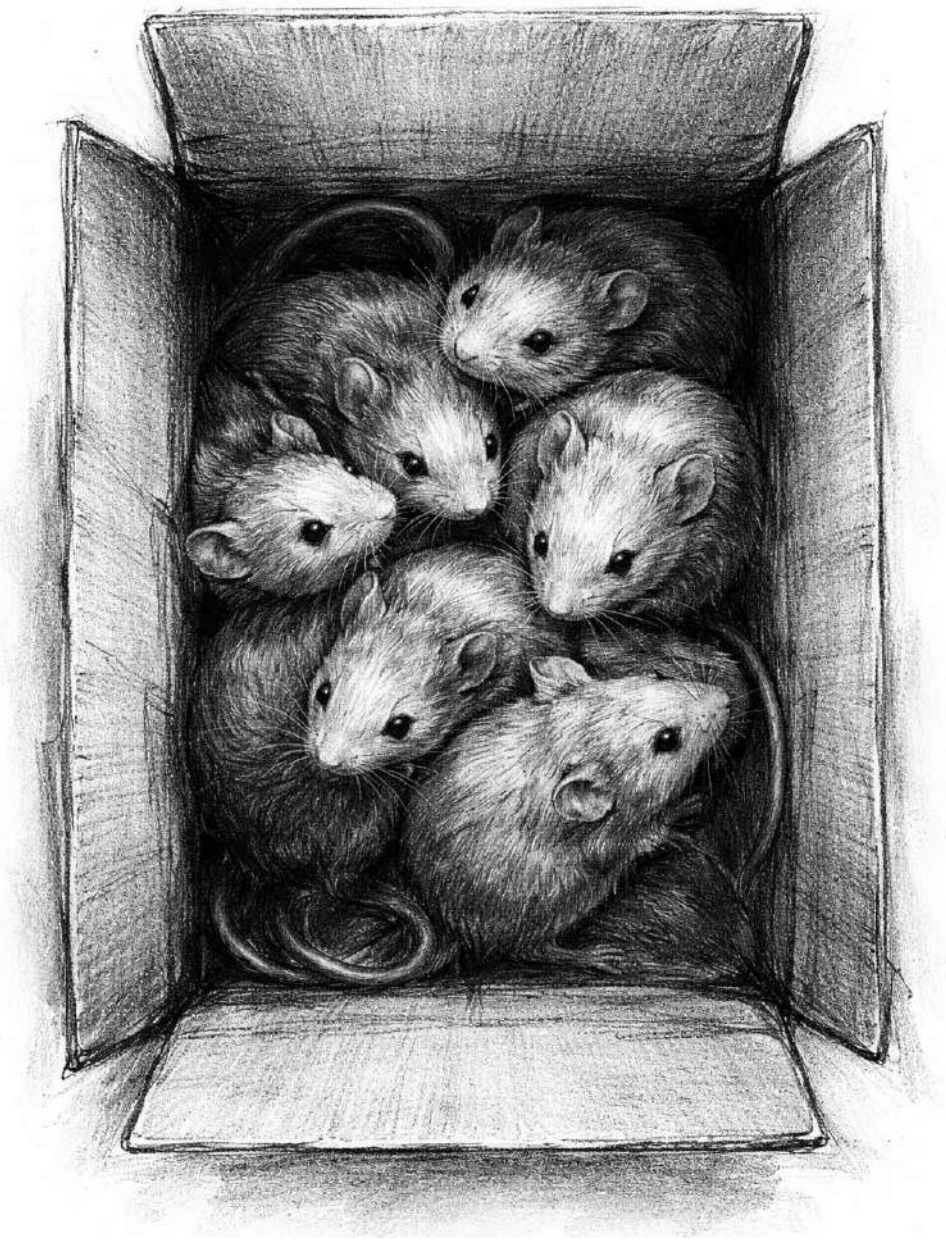
● و ستفهم القسم الباقي مع تقدمك في رحلة البحث عن الحقيقة سيد أوليفر .. ننتقل إلى الصورة التالية ..

*****

الكون 25

ضغط السيد عزيز الزر في جهاز التحكم مجدداً، فظهرت الصورة الجديدة ، كانت عبارة عن مجموعة فئران في صندوق .. بدت الدهشة واضحة على وجه أوليفر .. فابتسم السيد عزيز ..

● أنت تتساءل بالطبع ما علاقة الفئران بحديثنا ؟



بادله أوليفر الابتسام ..

○ بالفعل ، لكن مفاجآتك لا تنتهي سيد عزيز !

● حديثنا الآن يخصّ تجربة علمية أجريت على الفئران فهي تدعم بشكل كبير ما تحدثنا عنه حتى الآن بخصوص الموضوع الذي اخترته بنفسك سيد

أوليفر (جذور الشر)...

اعتدل أوليفر في جلسته و هو يشعر بفضول عارم كبير ..

○ أنا مصغٍ بالكامل سيد عزيز ..

● التجربة تدعى (**الكون 25**) هل سمعت بها من قبل؟

هزّ أوليفر رأسه نافياً ..

○ إطلاقاً ..

● هي تجربة أجراها عالم الأخلاق الأمريكي (**جون كالهن**) عام **1986** م ، حيث أنشأ ما يعتبر مدينة فاضلة للفئران حيث فيها رزقُ دائم و أمانُ مستمر و مطلق، ثم وضع فيها أربعة فئران، اثنين ذكور و اثنين إناث ، تركهم بعدها ليعيشوا و يتكاثروا كل **55** يوم و هو يراقبهم حتى بلغ عددهم حوالي **600** فأراً، فما الذي حدث لاحقاً بحسب رأيك ؟

○ لا فكرة واضحة لدي ، لكن يفترض أنهم عاشوا حياةً سعيدةً كفئران **!**

● العكس تماماً هو ما حدث سيد أوليفر، فمع ظهور الأجيال الجديدة إلى الحياة و التي ترعرعت في عالم متوفر فيه كل شيء بدأت الأمور التالية بالتفشّي :

1. **العدائية من الفئران تجاه بعضها البعض ..**
2. **الأنانية المفرطة خاصة عند الذكور و تخليها عن أزواجها و أولادها**
3. **قتل الأمهات لأطفالها ..**

و استمرت الأمور هكذا بتراجع أعداد الفئران حتى بقى فأر وحيد بعد عدة سنوات ليموت أخيراً فتنتهي معه تلك التجربة الغامضة و المحيرة و تنتهي أيضاً الأحلام بإقامة اليوتوبيا أو المدينة الفاضلة كتجربة على مجتمع الفئران

○ يا لها من تجربة فريدة ، غريبة و مخيفة في آنٍ معاً **!!** و لماذا حدث ذلك من وجهة نظر العالم جون، و من وجهة نظرك الشخصية أيضاً ؟

● العالم لم يفسر النتائج بل وصفها فحسب، أما من وجهة نظري فالجواب على سؤالك هو كلمة واحدة أسلفنا ذكرها منذ قليل و هي (**الإشباع**) أي التعود على النعم الذي يتلوه طور الانحدار عندما يصل الإنسان إلى مرحلة لا يقدر فيها قيمة تلك النعم أبداً ..

○ أي أنّ ما ينطبق على الإنسان ينطبق حتى على عالم الحيوان ..

● بالضبط ، و هنالك آية من القرآن الكريم أقدرها للغاية تلخص تجربة الكون **25** هذه و مفهوم الإشباع بأفضل طريقة ممكنة ..

أوليفر بفضول ..

○ و هي ؟

● الآية تنص على :

(و لو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض و لكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير)

○ يا إلهي، كم هي آية مذهلة و معبرة بالفعل ، فالله يعلم ما لا يعلمه البشر و يعرف مصلحتهم أكثر منهم ، إذ يدرك كما يقول بنفسه أن الرزق الشامل للجميع سيؤدي إلى فساد الأخلاق بسبب الوصول إلى الإشباع الخطير الذي ذكرته ..

● تماماً سيد أوليفر، لكن لكي يعتدل الميزان و تتحقق الغاية السامية من خلق الله للبشر لابد من ذكر آية أخرى متممة لهذه الآية ..

○ و ماذا تقول بدورها ؟ ..

● الآية الثانية تقول :

(و تلك الأيام نداولها بين الناس)

أي أن دوام الحال من المحال فمن هو في النور قد يمسي في الظلام و من هو في الظلام قد يصبح في النور و هكذا كتوالي النهار و الليل في حياتنا و لا يبقى على حاله سوى الله تعالى ..

○ مذهل !!

● و كخلاصة لكل ما سبق أكتفي بالجملة التالية التي تلخص مبدأ الإشباع.

(**وفرة النعم تسبب البطر ثم فساد الأخلاق**)

و هذا يفسر بدوره لمَ كان الأنبياء و القديسون زاهدين بالحياة و متقشفين، لأنهم يدركون بأن الغنى و الثراء يفتحان أبواب البطر على مصراعيه مع عواقبه الوخيمة ..

و خير مثال على ذلك هو بوذا الذي عاش أميراً مترفاً في شبابه يملك كل شيء، لكنه هجر كل ذلك لاحقاً و اكتفى بحياة الناسك بحثاً عن الاستنارة و فهم الحياة بصورة دقيقة و عميقة ، حتى أن كلمة بوذا تعني حرفيا :

(**المستنير**)..

○ بالفعل هذا ما يشيع عن الأنبياء و القديسين ، لطالما جال هذا السؤال في خاطري بخصوص اعتكافهم عن ملذات الحياة ، و أنت الآن تجيبني بأفضل طريقة ممكنة ..

● وهنا يظهر مفهوم **الصيام** و أهميته في حياتنا ، طبعا أقصد الصيام عن كل متع و ملذات الحياة و ليس الطعام و الشراب فحسب، فالصيام بحد ذاته شكل مبسط من أشكال اللقاح ضد الظلام ..

○ هذه فكرة غامضة سيد عزيز ! كيف يتم ذلك ؟

● بامتناعك عن متع الحياة لفترة من الزمن كما يحدث في الصيام ، فإنك تقدر قيمتها تماما و كأنك فقدتها بالفعل، فتدرك ما الذي ينجم عن الاسراف أو التبذير بها مما يدفعك إلى احترامها و صونها بأشفار العيون ..

و كما أن للقاح الأولي جرعات معززة و داعمة لاحقاً ، كذلك الصيام يعود سنوياً لتدعم تجاربه بعضها بعضاً مما يرسّخ فكرة احترام النعمة في نفوس الناس ..

و يمكنني القول و بكل ثقة بأن الصيام هو أهم أركان الأديان على الإطلاق لأنه إن مورس بوعي و إدراك قد يجنب الإنسان طور السقوط في الحياة عندما يعي بنفسه تماما قيمة النعم فيصونها محققاً غاية الإله الأسمى ..

○ أي أنّ الصيام هو ترياق التسمم بالإشباع ..

● أحسنت سيد أوليفر ، بالفعل إنه كذلك و هنالك مثالان جميلان يدعمان هذه الفكرة الخلاقة التي أتيت على ذكرها ..

○ و هما ؟

● **المثال الأول** : هو أن يعيش الإنسان في جو مشمس جميل يغمر فيه النور كل مكان، فحين لا يقدر الإنسان هذه النعمة و ذلك النور تتجمع الغيوم لتحجب نور الشمس عنه ثم تهطل الأمطار كالدموع دالة على ندم الإنسان بسبب عدم تقديره لما كان فيه من نعم، و هنا تختلف غزارة الأمطار باختلاف شدة السقوط التي يعيشها الإنسان فقد تكون مجرد غيث أو قد تسبب سيولاً و فيضانات .. و عندما يتعلم الإنسان الدرس جيداً تتلاشى الغيوم لتشرق الشمس من جديد و تجف الدموع ، فيغمر النور حياة الإنسان مرة أخرى ..

أوليفر بإعجاب ..

○ مثال معبر للغاية **!!** و **المثال الثاني** ..؟

● الزنزانة سيد أوليفر : فالإنسان الذي لا يقدر الحياة الكريمة التي منحه إياها الله و النور الذي ولد فيه فيمشي في دروب الظلام المتنوعة قد يؤول فيه الأمر إلى السجن و ظلماته ، حيث يحرم من كل المتع التي كان يعيش فيها لفترة من الزمن ، ليفكر بينه و بين نفسه في ما مضى و يندم على الخيار الذي اتخذه ، ثم يخرج من السجن إلى الحياة ثانية لاحقاً لكن بمنظور مختلف تماما يقدس فيه النور و نعم الله التي لا تعد و لا تحصى، من جهة

أخرى فهذه الحياة الدنيا و بالمقارنة مع الجنة هي زنزانتنا الكبيرة التي نعيش فيها جميعاً كي نفكر بالنعم العظيمة التي أغدق بها الله علينا ..

○ تشبيه بليغ بدوره ..

● و بذلك **فالغيوم و السجن** هما دواءان فعالان لحالة الإشباع من النعم التي قد يعيشها الإنسان كما اسلفت بنفسك ، حيث يحسران تلك النعم عنه لفترة يقدرها الله بحكمته ثم تتلاشى الغيوم أو يخرج الإنسان من الزنزانة بعدها لتعود النعم مجدداً ..

لننتقل إلى الصورة التالية ..

*****

ولادة النور

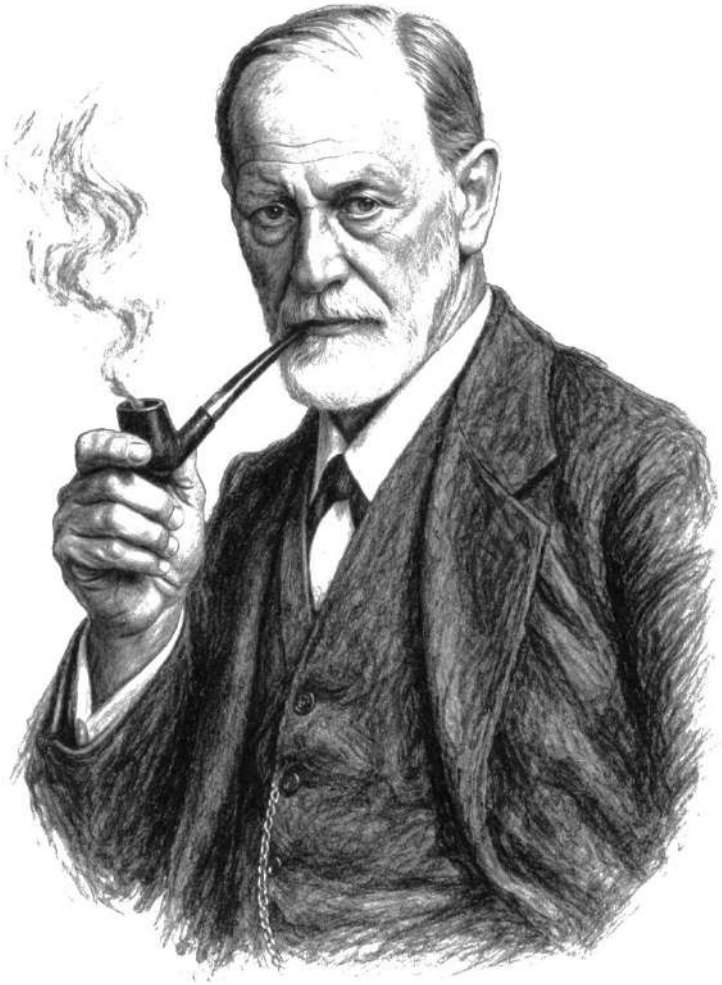
من رحم الظلام

حدّق أوليفر في الصورة الجديدة و كانت لشخص يدخن البايب .. ابتسم و هو يرى السيد عزيز يخرج البايب خاصته و يشعله ثم ينفث الدخان من فمه و كأن الرجل في الصورة أشعل الحنين في قلبه تجاهه..

● هل عرفت من هو هذا الشخص سيد أوليفر؟

○ في الحقيقة شكله مألوف ، لكنني لم أتذكره ..

● إنه الطبيب النمساوي **سيجموند فرويد** عرّاب الطب النفسي ..



○ بالفعل ، لقد تذكرته الآن !

● إن لفرويد مقولة شهيرة :

(**الجنس أصل كل الشرور**)

و هو يجيبك من خلالها عن سؤالك الأساسي (جذور الشر) .

زم أوليفر شفتيه معترضا على المقولة ..

○لا أتفق معه في الحقيقة .. إذ كيف يكون الجنس أصل الشرور و هو الوسيلة التي أتينا بها جميعا إلى الحياة سيد عزيز ؟!

● سؤال رائع و منطقي للغاية .. أنت محق و سأوضح لك لماذا ..

صمت السيد عزيز للحظات ثم أردف ..

● إن للنجمة السداسية التي تحدثنا عنها منذ قليل معنى آخر هل تعرفه سيد أوليفر؟

○ لا أعتقد ..

● يرمز المثلثان المتعاكسان في تلك النجمة إلى العملية الجنسية بين الذكر و الأنثى ، حيث يرمز المثلث المتجه للأعلى للأنثى و المثلث المتجه للأسفل للذكر .. و من خلال اتحاد هذين المثلثين معا في العلاقة الجنسية يولد إنسان جديد .. و هذان المثلثان يشكلان الشرنقة الكونية كما سنتحدث بإسهاب لاحقاً في أحجية مستقلة ..

○ هذا منطقي ، لكن ما علاقته بموضوعنا سيد عزيز ..؟!

● كل العلاقة يا صديقي ، فمثلما ينجم عن اتحاد هذين المثلثين إنسان جديد، ينجم عن (اتحاد مثلثي الارتقاء نحو النور ثم السقوط في الظلام) نور جديد مهيأ و مؤهل لدخول ملكوت الله في العالم الآخر .

.

ذهل أوليفر من هذا التشبيه فهو بسيط لكن بليغ للغاية في أنٍ معاً ..

○ أي كحرف **N** تماماً ..

● بالضبط ، و في الحقيقة إنّ العلاقة بين الجنس و ولادة النور هي أعمق من ذلك بكثير سيد أوليفر ..

○ ما الذي تقصده سيد عزيز ؟

● لقد جسد الله النور في عقل الإنسان بحيث أنك إن استطعت استخدام

100 % من عقلك بلغت درجة الألوهية ..

هز أوليفر رأسه بدهشة ..

○ و هل يعقل ذلك سيد عزيز ..؟

ابتسم السيد عزيز ..

● بالطبع، في الحقيقة إن أكثر الناس عبقرية في هذه الحياة لم يستخدموا أكثر من **1** % من عقولهم ، لذا فالبشر أبعد ما يكونون عن الوصول إلى تلك المرحلة سيد أوليفر ..

○ حقيقة علمية مذهلة **!**

● بلى، و من جهة أخرى جسد الله الرغبات ، الانجذاب إلى الشهوة و تجربة السير في الظلام بالأعضاء التناسلية و الجنس حتى أنه خلال العملية الجنسية يغيب استخدام العقل و يتعطل التفكير لفترة كما تعرف بالطبع .. لذا هنالك مقولة في جميع المعتقدات و الأديان تنص على :

(**إن ارتقى الإنسان بعقله بلغ مستوى الملائكة و إن انصاع لشهوته انحدر إلى مستوى الشياطين**)

و بالعودة إلى حديثنا فإن الإنسان الذي ارتقى نحو النور أولا ثم انحدر نحو الظلام ثانيا .. يرتقي أخيرا نحو الأعلى للأبد كولادة نور جديد من رحم الظلام ..

أوليفر بذهول ..

○ أي أن **العقل النهائي يولد من رحم الشهوة !؟**

● بالضبط ، أو كما يقال أشد لحظات الليل حلكة هي التي تسبق بزوغ الفجر تماماً ، أو أن أشد درجات الإلحاد هي التي تسبق الإيمان المطلق بدرجة .. أي باختصار الظلام مقدس بحد ذاته لأنه الرحم الذي سيولد منه

النور النهائي الذي ينضم إلى قافلة العالم الآخر و ذلك عبر اليد الإلهية التي تنتشل الإنسان من غياهب الظلام .. كذلك فإن الجنس و رغم أنه انصياع للشهوة هو مقدس لأنه يمنح حياة جديدة تنضم إلى قافلة البشرية ..

و هنالك آية قرآنية تلخص ذلك :

(الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور)

○ آية مذهلة كالعادة تدعم ، تؤكد و تلخص كل ما شرحته سيد عزيز .. !!

● بالفعل هي كذلك ..

ضغط السيد عزيز الزر مجدداً ، فظهرت صورة أخرى عبارة عن قطار في نفق ينتهي ببوابة مغمورة بالنور، علق عليها قائلاً ..

● و العملية بأسرها كعبور قطار الحياة عبر نفق سيد أوليفر إذ يكون القطار في النور أولا ثم يعبر في الظلام ليخرج في نهاية النفق إلى النور مجددا ..



و طول النفق يختلف من تجربة بشرية لأخرى ..

كما أن ظلام النفق بحد ذاته يجعلك تقدر تماماً قيمة النور الذي كنت فيه، و الذي ستخرج إليه مجدداً ..

ابتسم أوليفر بذهول من دقة الوصف ..

O لساني يعجز حرفيا عن التعبير سيد عزيز ..

ابتسم السيد عزيز و ضغط الزر في يده انتقالاً إلى صورة جديدة ..

*****

بئر يوسف

كانت الصورة الجديدة عبارة عن بئر مياه ..

قوس أوليفر حاجبيه دهشةً ..

○ بئر !



ابتسم السيد عزيز ...

● أجل ، لكنه ليس كأي بئر ، إنه بئر يوسف ..

○ النبي !؟

● بالضبط ..

○ و ما علاقة ذلك بحديثنا ؟!

● إنه يشير إلى نقطة هامة لابد من أن أتطرق إليها سيد أوليفر ..

○ تفضل سيد عزيز، كلي آذان صاغية ..

● لقد ذكرنا فيما سبق بأن الظلام بحد ذاته مقدس لأنه رحم النور النهائي و أن لقاح الظلام ضروري في الحياة الدنيا على الأرض لنتجنب الظلام

الأكبر في العالم الآخر .. لكن ماذا بشأن الأنبياء و الرسل كيف ستمنحهم اللقاح و المناعة ؟ هم معصومون عن الخطأ بحكم طبيعة رسالتهم و دورهم في الحياة ، فكيف سيصلون إلى درجة النور النهائي ؟ أم أن هذه المعايير لا تنطبق عليهم .. ؟

دهش أوليفر من السؤال ..

○ بالفعل ، سؤال هام و محير ، و كيف يتم ذلك سيد عزيز ؟

● هنا يأتي التفريق بين مصطلحين مختلفين يا صديقي و هما **الانحراف و الابتلاء** ، لكنهما يصلان إلى نفس النقطة النهائية و هي النور ، أي يمكنك القول بتعبير آخر أنّ : **جميع الدروب تؤدي إلى النور** ..

ابتسم أوليفر ..

○ و ما الفرق بينهما ؟

● بالنسبة **للانحراف** فهو خروج الإنسان من النور نحو الظلام بإرادته بعد بلوغه درجة الإشباع من النور ثم تمرده و رغبته في تجريب دروب الظلام ، و هذا شأن عامة الناس و شرحناه بإسهاب من خلال الصور السابقة .. أما **الابتلاء** فهو إخراج الله الإنسان من النور نحو الظلام ضمن ظروف و تجارب خاصة و استثنائية ليمنحه اللقاح ثم يعود به إلى النور مجدداً ، و هذا شأن خاصة الناس من الرسل ، الأنبياء ، القديسين و الأولياء الصالحين ..

○ لكن هل يجوز للرسل مثلا أن يمشوا في دروب الظلام سيد عزيز ..؟

● إنه ظلام من نوع آخر سيد أوليفر ، ليس فسوقاً أو عربدة ، بل هو انحسار النعم عنك لفترة من الزمن تجعلك تقدر تماما قيمة النعمة ..

○ لم أفهمك جيداً سيد عزيز ..

● حسناً ، لنجسد هذا الظلام الخاص بالناس الصالحين ببئر النبي يوسف ، الذي رموه أخوته فيه ، فمنذ تلك اللحظة بدأت الصعاب تجتاح طريقه من ظلام قاع البئر إلى الابتعاد عن والديه و بعدها السجن ثم افتراء زوجة

عزيز مصر عليه و تآمر كهنة المعبد عليه بدورهم .. إنها جميعاً ابتلاءات تجعل عودك يقسو ، و تجعلك تقدر جميع الحاجات التي حرمت منها ..

○ فهمت، كحال النبي أيوب أيضاً و ما أصابه من أمراض و ويلات ..

● تماماً .. و إن لكل رسول من الرسل عدد كبير من الابتلاءات التي اختارها الله له بعناية و بشكل يناسب كل منهم و ظروفه على حدة .. و هذه الابتلاءات هي التي صقلت النور بداخلهم ليتخذ شكل النور النهائي ..

ساد الصمت المطبق للحظات بعد الجملة الأخيرة ، في حين أخذ أوليفر يستذكر في ذهنه الصور التي رآها خلال الساعات التي مضت هذا المساء الغريب ، بدءًا من **صورة آدم و حواء** ، مروراً **بشعار فريق نابولي لكرة القدم** ثم **علم إيرلندا الشمالية** و بعدها **رمز عقيدة التاو** ، و **صندوق الفئران** ، ثم **صورة سيجموند فرويد** ، و بعده **النفق** و أخيراً **بئر النبي يوسف ..**

إنها مجموعة صور تروي حكاية ممتعة و معبرة لأبعد حد عن سر وجود الشر في هذه الحياة و ضرورة وجوده فيها كرحم لولادة النور النهائي ..

○ إذا يمكننا القول سيد عزيز بأن الحياة الدنيا هي عبارة عن مصنع للأنوار يتم فيها صقل النور و معالجته ليصبح نوراً نهائياً مؤهلاً تماماً للعيش في العالم الآخر أي ملكوت النور الأكبر و هو النور الإلهي ..

● تماماً سيد أوليفر ، و هنالك بيت شعر عزيز على قلبي يختصر كلامك و يصف الحالة التي تستقبل فيها السماء كل روح عندما يموت الإنسان و يدخل ملكوت العالم الآخر، و يقول :

نزعت عنك رداءً كنت تلبسه

من التراب و عاد النور للنورِ

أوليفر بذهول ..

○ يا سلام ، كم هو شعر معبر !! ..

● بلى إنه كذلك ، و هو ما يجسده سكان **تايلند** بشكل مثالي كل عام من خلال **مهرجان الأنوار** حيث يطلق فيه كل شخص بالوناً صغيراً مضاءً بشعلة نحو السماء ، لتعطي الاف الأنوار مظهراً فريداً و معبراً لا يوصف و هي تصعد مجتمعة نحو الأعلى ..

○ تماماً، لقد سبق و رأيت هذا المهرجان بالفعل على هاتفي ، إنه مذهل بحق كما تقول ..

● و هذا المهرجان أسميه أنا (**الإنسان المعجزة**) ..

ابتسم أوليفر بدهشة ..

○ و من هو هذا الإنسان سيد عزيز ؟!

● إنه ليس إنساناً محدداً سيد أوليفر، بل **هو كل إنسان عاش و يعيش و سيعيش على كوكب الأرض** .. و هذه هي الحقيقة الكبرى في الحياة التي للأسف يجهلها كل إنسان عن نفسه .. و لقد حدثتك عنها سابقاً و إن كان ذلك على نحو سريع ..

○ لا أذكر ذاك الكلام في الحقيقة ! متى جرى ذلك ؟

● عندما لعبنا البلياردو في مدينتك غارميش بارتين كيرشن سيد أوليفر ..

قوس أوليفر حاجبيه مستغرباً .. في حين ابتسم السيد عزيز و ضغط الزر في يده فظهرت صورة أخرى ..

*****

الإنسان

المعجزة

كانت الصورة الجديدة تمثل هرماً من **أهرامات حضارة المايا** الشهيرة في أمريكا الوسطى ..



● أجل سيد أوليفر، لقد أخبرتك في ذلك الوقت أن ما من شيء أو شخص تافه على سطح هذا الكوكب ، فالحقيقة الكبرى هي الهرم الأكبر، و كل منا هو قطعة حجرية من مجموعة القطع التي تشكل هذا الهرم ..

ابتسم أوليفر ..

○ أجل، تذكرت الآن ..

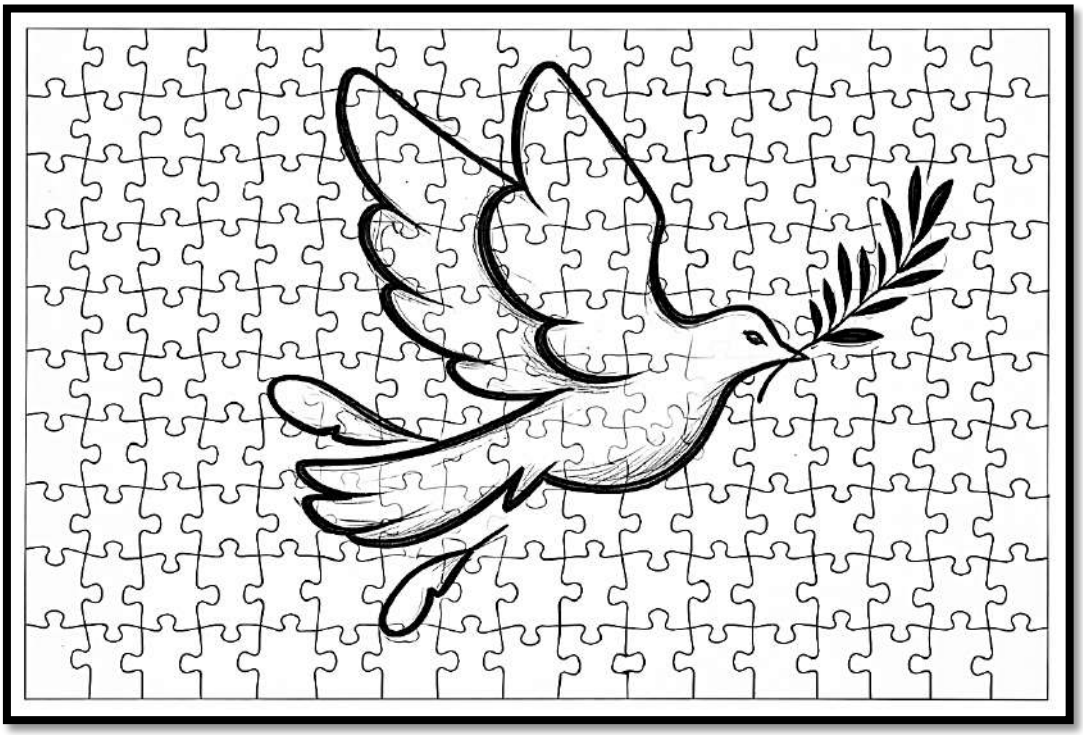
● جيد، و في حال تكسرت أي قطعة من هذا الهرم ستتشكل نقطة ضعف في هيكله قد تسبب لاحقاً انهيار جزء كبير منه و ربما الهرم بأكمله .. هذه هي أهمية كل إنسان في هذه الحياة و التي يجهلها غالبا عن نفسه .. الحقيقة المغيبة :

(**كل إنسان هو قطعة لا تعوض من هرم الحياة**)

و لأوضح هذه الفكرة أكثر سأعطيك مثالا آخر سيد أوليفر و هو **الآلة** ، فأية آلة نستخدمها هي عبارة عن مجموعة قطع تتحد سوياً لتنجز الهدف المحدد للآلة ، و كل قطعة فيها لا بديل عنها و لو كانت مجرد(برغي) صغير في الآلة فضياعه قد يؤدي إلى توقف الآلة عن العمل مهما كانت ضخمة و معقدة ..

○ يا له من مثال معبر بالفعل ..

هز السيد عزيز رأسه ثم ضغط الزر في يده مجدداً فظهرت صورة جديدة عبارة عن **لعبة الأحجية** ذات القطع المتشابكة التي تشكل في النهاية بعد تركيبها صورة ما ، و كانت الصورة الشاملة لحمامة تحمل غصن الزيتون في منقارها ..



○ أحجية حمامة السلام !

● بلى، إن الحياة ككل عبارة عن لوحة واحدة تتكون من ملايين القطع التي تتشابك مع بعضها كلغز أو أحجية تحل تدريجياً لينكشف غموضها في النهاية و تقرأ لوحة الحياة بوضوح .. و كل منا قطعة من هذه الأحجية ..

○ و في حال فقدت أي قطعة منها تأثرت لوحة الحياة بالكامل ..

● بالضبط .. **كلوحة فسيفسائية** مذهلة كل منا عبارة عن جزء منها بالغ القيمة و الأهمية ..

ضغط السيد عزيز الزر ثانيةً فظهرت صورة للسماء ليلاً ..



● الصورة الأخيرة لليوم سيد أوليفر.. **السماء ذات النجوم** .. المنظر الأجمل على الإطلاق الذي سحر الإنسان عبر الزمن و ألهمه الإبداع الكثير.

○ الأنوار التي تملأ ظلام الكون ..

● تماماً ، فكل نجم مضيء في هذا الكون يجسد إنساناً عاش في هذه الحياة صُقل النور في داخله ثم ارتقى نحو الأعلى .. و تجتمع كل مجموعة نجوم معا لتشكل مجرة تمثل عائلة أو مدينة أو بلداً ما كما تتفاعل هذه النجوم مع بعضها كتفاعل العناصر الكيميائية لتجسد حكايات و قصص الحياة بين البشر عبر التاريخ ، و من حقائق الحياة الكبرى سيد أوليفر **أن أسرار الأرض معكوسة في السماء ، فكل ما جرى و يجري و سيجري على سطح كوكب الأرض مجسد بطريقة ما في الفضاء من خلال علاقة النجوم ببعضها و المجرات ببعضها، فلا شيء على الأرض أو في السماء يحدث بشكل عبثي أو مصادفة** ..

ابتسم أوليفر مذهولاً ..

○ إذا **فالهرم ، الآلة ، الأحجية ، الفسيفساء و الكيمياء بين نجوم و مجرات السماء** كلها دلائل على أهمية كل إنسان على هذا الكوكب ، الإنسان المعجزة الذي هو مشروع نور نهائي في العالم الآخر و الذي يعالج في الحياة الدنيا عبر لقاح الظلام و خوضه تجربة **N** ذات المراحل الثلاثة و التي يتمخض عنها نور نهائي جديد من رحم الظلام ..

● أحسنت .. تلخيص ممتاز سيد أوليفر **!!**

ساد الصمت للحظات بعد الكلمات الأخيرة، ثم قطعه السيد عزيز بقوله ..

● هكذا نصل إلى نهاية حلقة جديدة من سلسلة الحقيقة و التي اخترتها بنفسك سيد أوليفر (**جذور الشر**).. فهل كانت أجوبتي كافية بالنسبة لك ؟

ابتسم أوليفر ..

○ أكثر من كافية سيد عزيز .. لقد اختزلت لي فلسفة الشر كلها بحرف وحيد وهو **N** .. هذا مذهل و فريد بحد ذاته .. أشكرك جزيل الشكر ..

● هذا واجب محتم عليّ .. لكنني أخشى أن تكون قد استمتعت بالأحاجي أكثر من مجرد تقليب صور و الحديث عنها، و إن كنت مجبراً على فعل

ذلك كما قلت لك احتراماً لوقتك و التزاماتك ناهيك عن ارهاق السفر المتلاحق ..

هز أوليفر رأسه نافياً ..

○ أبداً سيد عزيز .. لقد ذكرت لي سابقا في ديناميس روما في جامايكا، أن الأحاجي هي أكبر متعة ممكنة للعقل البشري، و بدونها الحقائق مجرد معلومات جافة لا تستهوي العقل ، لكنك تمكنت اليوم بالرغم من غياب الأحاجي الصريحة من جعل هذه الحقائق الجديدة أحاج متتابعة من خلال الصور التي عرضتها صحبة الشرح الذي فسر معانيها و كشف غموضها، لذا فقد استمتعت تماماً بذلك.. و في المحصلة بلغت الحقيقة الجديدة التي أنشدها و أجبتني عن سؤالي بوضوح تام ، بالفعل أنت محق سيد عزيز ، لقد تغيرت المعادلة كثيراً فأصبحت ذا التزامات جديدة و ليس بإمكاني ترك شام لوحدها لفترات طويلة .. يكفيها غيابي المتكرر بسبب صفقات العمل !!

● كلامك هذا يسعدني للغاية سيد أوليفر، سنستمر إذا على هذا المنوال في شرح حقائق الحياة الكبرى .. ومن يدري قد نعود إلى رحلات الأحاجي في أي وقت لاحق تبعاً لطبيعة الحقائق القادمة !!

أما الآن أظن أن الوقت قد تأخر كثيراً عليك .. فموعد طائرتك في الصباح الباكر ..

○ أجل، أنت محق، علي الانصراف بالفعل ..

● رافقتك السلامة سيد أوليفر، بلغ شام و الشيخ نبيل الوافد الجديد تحياتي القلبية ، أخبر شام كذلك بأنّ دوراً هاماً ينتظرها في الحلقة القادمة من سلسلة الحقيقة، لذا انتظرا ظهوري الجديد لنكشف النقاب عنها ..

○ بانتظار ذلك على أحر من الجمر، ستسعد شام للغاية بهذا النبأ ، أجدد شكري لك سيد عزيز على استضافتي لساعات و تعليمي دروساً جديدة في الحياة و على كأس المتة الشهي في هذا الجو البارد الممطر ، إنه بلا شك أشهى كأس متة احتسيته في حياتي لا سيما أنه مع شريك ..

ابتسم السيد عزيز و قد فهم ما يقصده أوليفر ..

● على الرحب و السعة أيها الصديق **matemate** .. أتمنى لك سفرا آمناً ، هادئاً و مريحاً ..

الجزء الرابع

{ ميتافيرس الروح }

- أفلاطون و ديكارت
  - ميتافيرس الروح
- لوسيد دريم (الأكوان الموازية)
  - تناسخ الأرواح
- آلام الموت ؟!
  - النبأ العظيم (النسبة فاي)
- نظرية الراوتر السماوي

أفلاطون و

ديكارت

فلسطين / القدس ..

أيار 2024 م ..

اجتمع الحضور بخشوعٍ تام، كأن الزمن نفسه قد توقّف احترامًا لرحيل الشيخ نبيل. الريح كانت ساكنة، لا تحرّك شجرة ولا تنثر ورقة، وكأن الطبيعة قررت أن تصمت بدورها، إجلالًا لروح غادرت الدنيا بنقاء.

فوق حوافّ المقبرة الضيقة في قريته الأم، تلك التي أوصى أن يُدفن فيها منذ سنوات، تجمّع الناس في دوائر من الصمت والدمع. كان الهواء ملبّدًا بشيء غير مرئي... ليس الحزن فقط، بل رهبة أن تفقد صوتًا كان يعني الطمأنينة، نظرة كانت كالعكاز لمن يتعثرون في دروب الحياة.

انحنى أوليفر والسيد عزيز معًا، كلٌّ منهما يحمل حفنة من التراب، وكأن كل حبة فيها تحمل شكرًا أخيرًا، ووداعًا لم يُجهّز له القلب بعد. ارتطام التراب بالكفن أصدر صوتًا خافتًا لكنه ثقيل، كأنه يرسم نهاية فصل من قصة طويلة، فصل كُتب بحبر من حكمة ومحبة ومواقف لا تُنسى.

بينما كانت الأيدي تتوالى لإسدال الوداع الأخير، وقفت شام بجوار القبر، شاحبة الوجه، وعيناها معلقتان بذلك المستطيل الترابي الذي احتضن أعزّ من كان. لم تبكِ بصوت، لكن عينيها كانتا تغليان بنهرٍ لا يُرى، يحمل في جريانه صور الطفولة، وقصص المساء، وهمسات العزاء في الليالي الصعبة. الشيخ نبيل لم يكن بالنسبة لها مجرد معلم أو وصيّ، بل كان الوطن الأول، والبيت الذي لم يتغيّر رغم كل ما تغيّر حولها.

وضعت يدها على بطنها بحركة غير واعية، كأنها تتحسس استمرار النبض الذي غاب للتو. لقد قررت هي وأوليفر أن يسمّيا الطفل القادم نبيل ، علّه يحمل في اسمه امتدادًا لذلك الحنان الذي غاب بالجسد وبقي بالروح. كانت

تلك الفكرة بمثابة حبل نجاة علّقها فوق بحر الحزن، تمنحها شيئًا من الرجاء، شيئًا من الضوء في يومٍ حالك السواد.

نظرت من حولها فرأت أكاليل الزهر تتكئ في خجل على أطراف القبر. تقدّمت بخطى بطيئة، كأن كل خطوة هي محاولة للتصالح مع فقدٍ لن يُعوّض، التقطت وردة بيضاء من أحد الأكاليل، وردة تشبه قلب الشيخ في نقائه، وقبل أن تُلقي بها على التراب، ضمّتها إلى صدرها لحظة، كأنها تطبع فيها كل ذكرياتها معه، ثم أسقطتها برفق فوق الكفن، كوردة أخيرة من ابنة لوالد لم يلدها.

وغابت الوردة شيئًا فشيئًا تحت طبقات التراب المتزايدة، كما يغيب المشهد الأخير في عرضٍ مسرحي لا يُعاد، وامّحت من النظر، لكن رائحتها ظلّت معلّقة في الهواء، كشاهدٍ صامت على حب لا يموت.



انتهت مراسم الدفن فالتفت أوليفر إلى شام و احتضنها برفق ..

● أعلم أن الفراق قاسٍ و مرير حبيبتي .. لكن الشيخ نبيل غادر الكرة الكونية إلى الكون الأكبر حيث جنان الله التي تليق بأمثاله ، لاشك أنه سعيد

هناك .. و علينا أن نسعد لسعادته ..

◯ أعلم ، لكن أكثر ما يحزنني أنه كان يتمنى أن تغادر روحه جسده هنا في وطنه .. لكن وفاته المفاجئة هذه بددت كل أحلامه ..

كان السيد عزيز واقفاً على مقربة يصغي إلى مواساة أوليفر فاقترب من شام و وضع يده على كتفها ..

● ما يهم بالفعل أنه دفن في وطنه عزيزتي .. أما موضوع خروج الروح من جسده ، فهذه فكرة خاطئة ، مجرد وهم لا وجود له .. لا فرق إن توفي الشيخ نبيل في ميونخ أو في القدس ، ففي الحالتين انتهت قصة جسده الأرضي على هذا الكوكب و استيقظ جسده السماوي في الكون الأكبر ..

نظرت إليه شام بدهشة فهي رأت السيد عزيز للمرة الأولى هذا اليوم ..

◯ لم أفهم سيد عزيز ..!

تدخل أوليفر في الكلام ..

● أحجية جديدة ؟!

◯ ليس بعد ، ليس الآن .. الزمان و المكان و الحدث غير مناسبين .. ما أريد إيصاله لك شام أن السيد عزيز فتح عينيه للتو في الكون الأكبر ، أما جسده تحت التراب فقد أنجز مهمته و ذهب إلى غير رجعة .. يبقى الأهم أنه ووري الثرى في وطنه كما أحب و كما ينبغي .. بقية التفاصيل نتكلم عنها لاحقاً ..

أومأت شام برأسها بصمت ، و دماغها الفضولي التواق للمعرفة يتأرجح بين الحزن العميق و الأسئلة الكثيرة ..

غادر الجمع مكان القبر و اتجهوا إلى منزل السيد نبيل لاستقبال واجب العزاء بشخص خدم الله و بيته و عباده طوال حياته و ترجل أخيراً عن صهوة جواده ..

*****

ألمانيا / ميونخ ..

آب 2024 م ..

انتهت شام من إعداد مائدة العشاء في الحديقة الخلفية للمنزل، حيث تسللت أنفاس المساء الندية بين أوراق الأشجار، واختلط عبير الياسمين برائحة الخبز المحمّر وأعشاب الزعتر الطازجة. رتّبت الأطباق بعناية كأنما تُزيّن طقسًا مقدّسًا، وأشعلت شمعتين داخل فانوسين زجاجيين لتضفي على المكان دفئًا ناعسًا، يناسب مزاج ليلة تُخبّئ حديثًا كبيرًا.

جلست رفقة أوليفر إلى الطاولة تحت شجرة الزيتون العتيقة، وكانت نظراتهما تتقاطع بين صمتٍ حنون ونفاد صبرٍ. أدار أوليفر بين أصابعه كوب الماء كمن ينتظر مفتاحًا لعالمٍ خفي، بينما كانت شام تتفقد كل تفصيلة على الطاولة رغم أنها أنهت تجهيزها للتوّ، وكأن قلبها يرتّب أكثر مما ترتّب يداها.

في السابعة تمامًا، رنّ جرس بوابة الحديقة، رنينًا هادئًا لكنه بدا لهما كنبضٍ صاخب في صدر اللحظة.

نهض أوليفر بخفة واتجه إلى البوابة، وقبل أن يصل إليها، لمح من خلال السياج الخشبي وجه السيد عزيز يبتسم كما لو أنه جلب معه نسمة من الماضي وحفنة من الأسرار. فتح أوليفر البوابة بابتسامةٍ عريضة تشي بمودةٍ متجددة :

- ● أهلاً بالمعلم التلميذ في منزلنا للمرة الأولى ..
- ○ أهلاً بني .. بدأت كلماتك تنحو منحاً أكثر دقة ..
- ● تفضل شام و أنا بانتظارك ..

شق الاثنان طريقهما بين أشجار الزيتون حتى بلغا مائدة العشاء .. حيا السيد عزيز شام كابنته التي لم يحظّ بها في حياته .. فأوليفر و شام هما عائلته الآن و قد تقدم به العمر ..

◯ كيف هو حال الجنين نبيل يا زيتونة الميتم ؟

ابتسمت شام بهدوء ..

● الإيكو يقول أنه بخير و صحة جيدة ..

◯ عظيم ، أسأل المولى أن تستمر الأمور بسلاسة و سلامة حتى ولادته

● أشكرك .. لكنه يلح عليّ ببعض الأسئلة التي لا يملك أحداً جواباً عليها إلا أنت ..

◯ من أين أعرفك أنت و جده المرحوم الشيخ نبيل ، و كيف جمعتكما أنت و أبيه السيد أوليفر معاً ؟

● بالضبط .. إضافةً إلى كم هائل من الأسئلة الأخرى حول الحقائق المذهلة التي أخبرت أوليفر عنها ..

أخرج السيد عزيز البايب من جيبه و أشعله ثم قال بابتسامة غامضة ..

◯ أعتذر منك عزيزتي ، لكن عليّ التحفظ عن هذا الجواب في الوقتالراهن ، سأخبرك بلا شك لكن في الوقت المناسب ..

أومأت شام رأسها غير راضية فالفضول يكاد يقتلها ، لكنها احترمت رغبة السيد عزيز ..

● لا بأس ، كما ترتأي .. لكن على الأقل من حقي أن أحصل على أجوبة عن بقية الأسئلة ، و بالأخص معنى كلامك الغريب الذي قلته لي في القدس يوم دفن أبي ..

رفع السيد عزيز حقيبته و ابتسم ..

◯ هذا من حقك بلا شك ، و لقد جهزت مسبقاً الجواب في هذه الحقيبة .. كنت أتمنى لهذه الأحجية بالتحديد أن تكون عبارة عن مغامرة مثيرة ، لكن حملك بطفل يجعل السفر عسيراً عليك ، لذا سأكتفي بشرح فكرتي عبر مجموعة صور .. هل تملكون جهاز إسقاط في المنزل ..

رد أوليفر بحماس ..

● بالطبع في الطابق الأرضي .. لدينا غرفة للسينما ذات شاشة كبيرة للغاية ..

◯ عظيم .. إذن ننتهي من هذا العشاء اللذيذ المعد على المائدة ثم ننزل سوياً لنكتشف معاً أحد أكبر أسرار الحياة في هذه الدنيا ، اللغز الذي حير الجميع بدون استثناء على مدار التاريخ مذ تكونت الخليقة حتى يومنا هذا.

نظر أوليفر و شام إلى بعضهما و ابتسما ، ثم قال أوليفر ..

● أسرارك لا تنتهي سيد عزيز .. من الزيتونة شجرة السماء إلى أيام الحياة الدنيا السبعة و اليوم الآخر ثم الكرة الكونية و أخيراً و يبدو ليس آخراً جذور الشر ..

◯ و اليوم سننزع الحجاب عن الوجه الملائكي للروح .. فأقص عليكما أسرارها المذهلة ..

بعد عشاء عائلي دافئ، تناثرت فيه الضحكات كحبات المطر على نافذة ذاكرة لم تُغلق بعد، وامتلأت أجواؤه برائحة الطعام المنزلي الممزوجة بنكهات الحنين، جلس الثلاثة يتبادلون الأحاديث كأنهم يعيدون ترميم الزمن، مجيبين على أسئلة شام الفضولية التي لا تخلو من تلك اللمعة الطفولية التي لم تفارق عينيها يومًا.

مع انطفاء آخر شمعة على الطاولة، انتقلوا إلى غرفة السينما في الطابق الأرضي، تلك الغرفة التي صممت خصيصًا لتكون ملاذًا للذكريات

والعروض الخاصة. كان المكان معتمًا إلا من وهجٍ خافت ينبعث من مصابيح جانبية تشبه الشموع، يتراقص ضوؤها على الجدران بكسلٍ مسرحي.

انشغل السيد عزيز بتوصيل حاسوبه المحمول بجهاز الإسقاط، تتحرك يداه بمهارة رجل يعرف أسرار الصور وما تخبئه من ظلال. عيناه كانتا مركّزتين، لكن في داخله كان البحر يهمس بقصص لا يسمعها أحد سواه.

أما شام، فقد انسحبت بخفة إلى المطبخ لإعداد كؤوس المتة، الطقس المقدّس الذي لا يكتمل دفء الأمسيات دونه. كانت تقف هناك، تتنقل بين إبريق الماء الساخن و الأعشاب الخضراء كأنها تحضر لنوع من الطقس الصوفي، وفي قلبها نبض خفي، فرح هادئ يتسلل إلى روحها دون استئذان.

بعد نصف ساعة، جلس أوليفر إلى جانب شام، يلامس كتفها كأنما ليؤكد لها أنه ما زال هنا، كما وعد. عيونهما التقتا في صمتٍ خفيف، لا يحتاج إلى ترجمة.

أما السيد عزيز، فاختار مقعدًا منفردًا في الزاوية، حيث يسكن الظل ويتكئ الحنين. في يده كان جهاز تقليب الصور، كمن يحمل بين أصابعه مفاتيح الماضي. وما إن بدأ العرض، حتى عمّ السكون، ولم يبقَ سوى صوت الصور وهي تنبض على الجدار، تروي ما لم تستطع الكلمات قوله يومًا...

● قبل البدء بالحديث عن موضوعنا الهام و الشيق .. أخبريني يا شام ، ما هو تصورك عن الروح ؟

فكرت شام قليلاً ..

○ مادة غريبة مبهمة توجد داخل الجسد البشري و عندما يموت هذا الجسد تخرج منه لتصعد السماء إلى الجنان ..

● و أنت سيد أوليفر ؟

◯ نفس التصور ، هذا ما هو معروف عن الروح ..

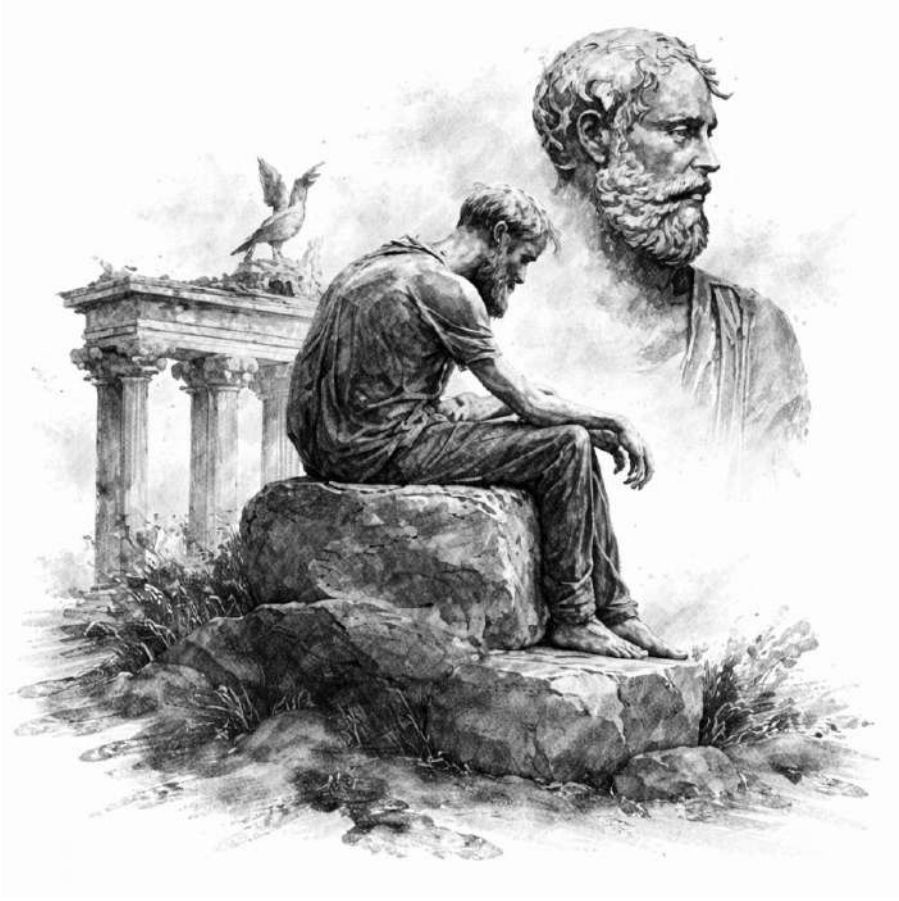
● و إذا أخبرتكما أن هذا التصور غير صحيح ، هل تقبلان بذلك ..؟

نظرت إليه شام بدهشة ..

◯ إن أنت أقنعتنا ، بالطبع .. لكن يصعب عليّ فهم الروح بخلاف هذه الصورة .. فلا حل آخر منطقي يربط البشر في الدنيا بالعالم الآخر أو الكون الأكبر كما يطيب لك تسميته سيد عزيز !!

● بل هنالك حل آخر منطقي للغاية بل هو الأكثر صحة و واقعية .. لنبدأ الحديث على كل حال لنرى معاً ما تخبئه لنا الصور القادمة عن حقيقة الروح الغامضة التي حيرت عقول مليارات البشر عبر الزمن ..

ضغط السيد عزيز الجهاز في يده فظهرت أمامهما على الشاشة العملاقة صورة كبيرة لشخص يبدو من ملامحه و لباسه أنه إغريقي ..



◯ هل تعرفان من هو هذا الشخص ؟

شام مترددة ..

● أحد فلاسفة الإغريق ؟!

○ بالضبط .. إنه الفيلسوف الإغريقي أفلاطون و مدينته الفاضلة التي لن تقام أبداً ..

أوليفر بدهشة ..

● و ما علاقته بالروح سيد عزيز ؟! هل شرح أفلاطون طبيعتها ؟

○ لا تتعجل سيد أوليفر ، سنرتقي هرم الروح طبقة تلو الأخرى ، فلا شيء يحدث دفعة واحدة .. لا تنس أن الله خلق الكون في ستة أيام قبل أن يستوي على عرشه في اليوم السابع ..

● بالطبع ..

○ هل سمعتما من قبل بتجربة أفلاطون الافتراضية عن الوهم و الخداع ؟!

قطبت شام جبينها ..

● لا ، لم أسمع ..

○ و لا أنا ..

● هي تجربة بسيطة لكن هامة تبيّن سهولة تعريض العقل للخداع، و تنص التجربة على التالي : لو قمنا بإبقاء مجموعة من الناس منذ ولادتهم في غرفة صغيرة مع مجموعة من الخيالات التي تنعكس أمامهم على الحائط، ، ثم تكلمنا مع الناس في الغرفة من وراء الحائط ، فماذا سيعتقد هؤلاء الناس ؟

شام بفضول ..

○ سيعتقدون أن هذه الأصوات قادمة من الخيالات التي يرونها أمامهم!!

● تماماً ، و بإمكانهم أيضاً أن يجزموا بذلك ، فهم لا يعرفون شيئاً آخر في العالم غيرهم هم والخيالات التي يرونها ، فحدود العالم بالنسبة لهم هي هذه الغرفة الصغيرة، ولا بدّ أن تلك الأصوات آتية مما يرونه أمامهم .. بهذه الطريقة نكون قد خدعنا عقولهم بكذبة صدقوها وآمنوا بها ولم يشككوا بها قطّ ! ولكن ماذا لو كشفنا عنهم الحجاب وأخرجناهم من غرفتهم تلك إلى العالم الأكبر؟ ما رأيك سيد أوليفر ؟

○ سيكتشفون أن تفكيرهم كان مجرد أوهام و يعرفون الحقيقة المجردة كما هي بأنّ هنالك بشراً خلف الجدار يتكلمون ..

● بالضبط كما هو خداع ظل أصابع اليد الذي يرسم أشكالاً غريبة على الحائط ، إن نظرنا خلفنا سنرى الأصابع الحقيقية ، فالعبرة من هذه التجربة أنّ كثيراً من المعتقدات التي كوّناها في حياتنا ضمن عالم المعرفة المحدود بين أيدينا مجرد وهم باطل ، فلو كُشف لنا الحجاب عن عالم أكبر من المعرفة، كما كُشف في تجربة أفلاطون، لن نبقى جازمين أن حياتنا التي نعيشها على هذه الأرض حقيقة ، فلعلها مجرّد حلمٍ لواقع آخر؟ إنها فلسفة هرم النقاط التي سبق و تطرقنا إليها سيد أوليفر و سنقاربها بتفصيل أكثر لاحقاً ..

شام بحيرة ..

○ حلم لواقع آخر ، لم أفهم ..!!

● لا بأس ، لا زلنا في بداية الحديث .. ما يهم الآن هو فكرة أفلاطون الهامة بأنه ليس كل شيء نعتقده حقيقة هو حقيقي بالفعل ، بل ربما هو وهم ناجم عن قصور معرفتنا ، فإن توسعت هذه المعرفة أكثر فهمنا الأمور على نحوٍ أعمق و أدق .. ننتقل إلى الصورة التالية ..

ضغط السيد عزيز الجهاز في يده فظهرت أمامهم صورة لشخص و بجواره وجه شيطان و تحتهما كتابة من عدة أسطر ..

○ و هل تعرفان من هو هذا الشخص بدوره ..؟

هز أوليفر و شام رأسيهما بالنفي ..

● إنه الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت .. الذي طرح من خلال مبدئه الشهير (الشك) فكرة أفلاطون ذاتها لكن من زاوية مختلفة ..



○ من أي زاوية تقصد ؟

● في القرن **17** استحضر هذا الفيلسوف الفرنسي فكرة الجني السيء الذي يحاول خداعه و ايهامه بأنّ كل ما يجري حوله في العالم الخارجي هو حقيقة واقعية .. و كان يهدف ديكارت من هذه الفكرة إلى إعادة بناء المعرفة البشرية على أسس ثابتة متبنياً في ذلك (مبدأ الشك) ، حيث قال أن حواس البشر حالها حال أحلامهم تتلاعب بالواقع و قد تخدعهم ، لذا قام بنبذ كل المعارف والمسلّمات حتى تلك التي حملت نسبة ضئيلة من الشك ، بل إنّ ديكارت دفع بمبدأ الشك إلى الحد الأقصى ، فنجده يقول في كتابه (**تأملات في الفلسفة الأولى**) ما كتب على الشاشة أمامكما :

(سأفترض إذاً أنّ جنياً سيئاً، قد استعمل كل ما أوتي من حنكة لتضليلي. و سأفترض أن السماء، الهواء، الأرض، الألوان، الأشكال، الأصوات، و سائر الأشياء الخارجية التي نراها، ليست إلاّ أوهاماً و خيالات، يلجأ إليها الشيطان كي يقنعني بواقعيتها)

فهل تقتنع سيد أوليفر بهذا الكلام ؟!

◯ بالطبع لا .. إنها نظرية خيالية ..!!

● أبداً سيد أوليفر ، رغم أن هذه الفرضية بظاهرها باطلة بشكل بديهي كما يبدو ، لكنها صحيحة للغاية في باطنها كما سنرى بعد قليل .. ننتقل إلى الصورة التالية لنوضح أكثر ..

ميتافيرس

الروح

ضغط السيد عزيز على الجهاز في يده فظهرت هذه المرة صورة لفتاة ترتدي نظارات الواقع الافتراضي (ميتافيرس) الشهيرة ..



◯ نظارات الواقع الافتراضي !!

● تماماً .. إن هذه الفتاة تشبهك يا شام ..

○ و ما الذي تراه في هذه النظارات ؟

● واقعاً افتراضياً بالطبع .. ربما هي الآن تمرح بين أشجار الزيتون تحت سماء زرقاء صافية تحتضن أسراباً من الطيور ..

○ إن اختراع هذه النظارات منذ سنوات قليلة يعتبر ثورة حقيقية ..

● أوافقك الرأي بشدة ، لكن في الحقيقة تاريخ العيش في واقع افتراضي أقدم من ذلك بكثير، حيث يعود إلى عام **1935**، عندما قدم كاتب الخيال العلمي الأمريكي، **ستانلي وينباوم** نموذجاً خيالياً للواقع الافتراضي في قصة قصيرة بعنوان: (**نظارات بجماليون**) و خلال أحداث هذه القصة، التقت الشخصية الرئيسية بأستاذ جامعة اخترع زوجاً من النظارات، يمكن من خلالها الانغماس في التجارب الخيالية، باستخدام حاستي الشم و اللمس.. ثم تطورت تقنيات الواقع الافتراضي عبر السنوات اللاحقة حتى عام **2010** عندما قدمت **جوجل** وضعاً ثلاثي الأبعاد مجسماً لخدمة التجول الافتراضي ، وفي نفس العام، ابتكر الأمريكي **بالمر لوكي** أول نموذج أولي لنظارات رأس تقدم خدمة الواقع الافتراضي ،.. و قد ساهم هذا التطور في تعزيز الاهتمام بالواقع الافتراضي أكثر بعد ذلك ..

○ و ما علاقة ذلك كله بحديثنا السابق سيد عزيز ؟

● فكرتان بسيطتان للغاية سيد أوليفر : الأولى هي أن الواقع الافتراضي الذي تعيشه عبر تلك النظارات هو واقع وهمي تماماً كالواقع الذي فرضه الشيطان الشرير على الفيلسوف ديكارت حسب نظريته ، أما الفكرة الثانية فيمكن تلخيصها بسؤال : عندما تنزع هذه الفتاة في الصورة نظاراتها و تعود للواقع الحقيقي ، هل ستتذكر الأحداث و الأشخاص و الأماكن التي عايشتها في تجربة الواقع الافتراضي ؟

○ بلا شك ستتذكر ..

● بالضبط .. و هذه فكرة غاية في الأهمية عليكما تذكرها جيداً لأننا سنعود إليها بعد قليل يا صديقي .. لننتقل إلى الصورة التالية ..

ضغط السيد عزيز الزر مجدداً فظهرت صورة لشخص و صورة أخرى لشبح ..



◯ ننتقل الآن إلى شرح مصطلحين علميين و هما **النومينون** و **الفينومينين** بشكل مقتضب و سريع .. هل تعرفين الفرق بينهما يا شام ..؟

● لا أعتقد ..

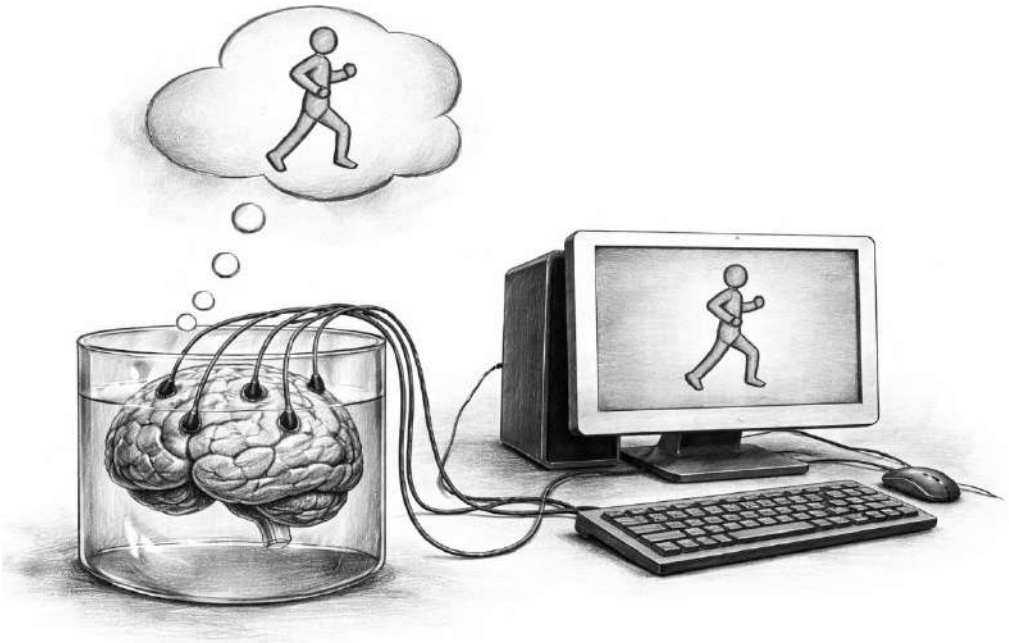
◯ **نومينون** هو مصطلح يشير إلى كل شيء غير مدرك بالعقل و غالباً يشار به إلى كل شيء غير مرئي بالتحديد ، كالروح طبعاً و الجن و الأشباح

و غيرها من الماورائيات .. أما **الفينومينين** فمصطلح معاكس يشير إلى كل شيء محسوس بالعقل .. و سنعود إلى هذين المصطلحين بعد قليل أيضاً .. ننتقل إلى الصورة التالية ..

بضغطة أخرى على الجهاز ظهرت صورة غريبة لدماغ ضمن وعاء ..

◯ ماذا ترى في الصورة سيد أوليفر ؟

● دماغ في وعاء !! ..



◯ بالضبط و هذا هو اسم نظرية علمية افتراضية مذهلة .. (الدماغ في وعاء) ، هل سبق و سمعتما بها ؟

● لا ..

◯ و لا أنا .. لكنها تبدو نظرية غريبة من اسمها ..

● بالفعل هي كذلك و تقول ببساطة : لو أن دماغك فصل عن جسدك و وضع في محلول مغذي ، ثم وصل مع كمبيوتر فائق التطور يقوم بتنشيط باحات دماغك بنبضات خاصة مدروسة كي يمنحك أحاسيس مزيفة لكنك تشعر بها كواقعية ، فترى أشياءً و تسمع أصواتاً و تلمس أشياءً أخرى ، كما تشم روائح و تشعر بمذاقات مختلفة و هكذا .. فهل دماغك حينئذ سيفهم

هذه الأمور كأوامر من الحاسوب أم أنه سيؤمن بأن هذا الواقع الذي يعيشه حقيقة فعلياً ؟

قوست شام حاجبيها بدهشة ..

◯ نظرية غريبة بالفعل و مربكة للعقل .. هل سيظن الدماغ نفسه إنساناً كاملاً يعيش حياةً حقيقية أم أنه سيستوعب أنها مجرد تنبيهات متزامنة و مدروسة لباحاته ؟!

● بالضبط ، أمر مربك و محير بلا شك .. و قد تم طرح هذه النظرية باسمها أول مرة من قبل الفيلسوف الأمريكي **هيلاري بوتنام** في كتابه (السبب و الحقيقة و التاريخ) الصادر عام **1981** .. و هذا يذكرنا بنظرية أفلاطون عن الوهم و افتراض ديكارت لوجود شيطان شرير يوهمه بحقيقة ما يجري من حوله .. فالدماغ حرفياً سيعيش حالة وهمية هنا لأنّ كل ما يحدث في محيطه مجرد سراب خلقه الحاسوب ..ننتقل إلى الصورة التالية

ضغط مجدداً الزر فظهرت صورة غريبة أخرى لمجموعة أشخاص في أسطوانات زجاجية و كأنها مشهد من فلم خيال علمي ..



● هذه الصورة تجسد مشهداً من **فيلم ماتريكس** الشهير ، لابد أنكما على

دراية به ..

◯ بالطبع ، و للصدفة الغريبة أنني و شام شاهدناه مجدداً معاً منذ أيام معدودة فقط !!

● لا يوجد شيء اسمه صدفة في الحياة سيد أوليفر ، و سنتطرق إلى ذلك لاحقاً اليوم ، أما هذه الصورة فهي للمشهد الذي يكتشف فيه أحد قراصنة الحاسوب و هو (**نيو**) أنّ العالم عام **1999** ليس إلاّ محاكاة افتراضية للواقع صُمّمت بواسطة جهاز استخبارات إلكترونية ، و أنه وبقية الناس تم وضعهم في قوالب مليئة بالسوائل المغذية متصلين سلكياً بجهاز حاسوب..

◯ الدماغ في وعاء !!

● تماماً ، الناس يعيشون في عالم افتراضي (ماتريكس) برمجه حاسوب معقد .. و هذه الفكرة الهامة و الغريبة تنقلنا إلى الصورة التالية ..

مع ضغطة زر أخرى ظهرت على الشاشة العملاقة صورة عرفها أوليفر و شام على الفور فصاحت شام بدهشة ..

◯ **فلم أفاتار ؟!**



● بالضبط ، الفلم الثاني الرائع في حديثنا اليوم ، هل تعرفين معنى اسم أفاتار يا شام ..؟

◯ في الحقيقة لا .. لكنني أعلم أنه اسم الشخصية الزرقاء في الفلم التي تنتقل إليها نفس الإنسان بعد أن يتم وضعه في أسطوانة زجاجية ..

● تماماً ، و هذا ما يعود بنا إلى فكرة فلم ماتريكس و نظرية الدماغ في وعاء مجدداً ، في الحقيقة كلمة أفاتار **كلمة سنسكريتية** شائعة في **الفلسفة الهندوسية** و تعني تجسد كائن علوي أو (**ديفا**) أو الإله الأعلى على كوكب الأرض في صورة كائن آخر .. هل يمكنك ربط هذا المصطلح بفلم أفاتار سيد أوليفر ..

◯ أظن ذلك .. فالديفا في الفلم هو الإنسان و الأفاتار هو الكائن الأزرق الذي يتجسد فيه الإنسان ..

● أحسنت ، و تذكرا هذه الفكرة جيداً لأننا سنعود إليها لاحقاً .. و كتذكير بالصور التي عرضناها حتى اللحظة كي لا تتوهان، لدينا **نظرية أفلاطون عن الوهم ثم نظرية ديكارت عن الشيطان الشرير و بعدها نظارات الواقع الافتراضي فمصطلحا نومينون و فينومينين ثم نظرية الدماغ في وعاء و أخيراً و ليس آخراً فلما ماتريكس و أفاتار** .. هل أنتما مستوعبان لكل هذه العناوين ..

◯ بالطبع ..

● و أنا أيضاً .. كان الشرح مبسطاً ، واضحاً و كافٍ ..

◯ إذن ننتقل إلى الصورة التالية ..

ضغط الجهاز مجدداً ، فظهرت صورة لجماجم تحيط بقبر أصابت أوليفر و شام بقليلٍ من الدهشة ..

● صورة غريبة عن سياق الحديث ، أعلم ، لكنها ذات صلة وثيقة بموضوعنا .. عزيزتي شام ، هل تعرفين من أي مادة تتكون الذكريات ؟

شام بدهشة ..

◯ الذكريات ليست مادة أو كما ذكرت منذ قليل هي مجرد نومينون **!!**

● أحسنت التشبيه ، لكن الحقيقة أن الذكريات هي عبارة عن تشابكات

عصبية بين الخلايا العصبية للدماغ البشري .. لكن السؤال الأهم هنا هو : عندما يموت الإنسان و يتحلل جسده إلى تراب بما فيه دماغه ، ما مصير تلك الذكريات ؟ الجماجم لا تتذكر بالطبع !!

◯ مصير الذكريات إلى العدم ؟!

● هذا ما يفترضه المنطق سيد أوليفر ، لكننا نصادف مشكلة عويصة في هذه الحالة ، فكيف سنتذكر في الكون الأكبر الأحداث التي عايشناها في هذه الدنيا ..؟

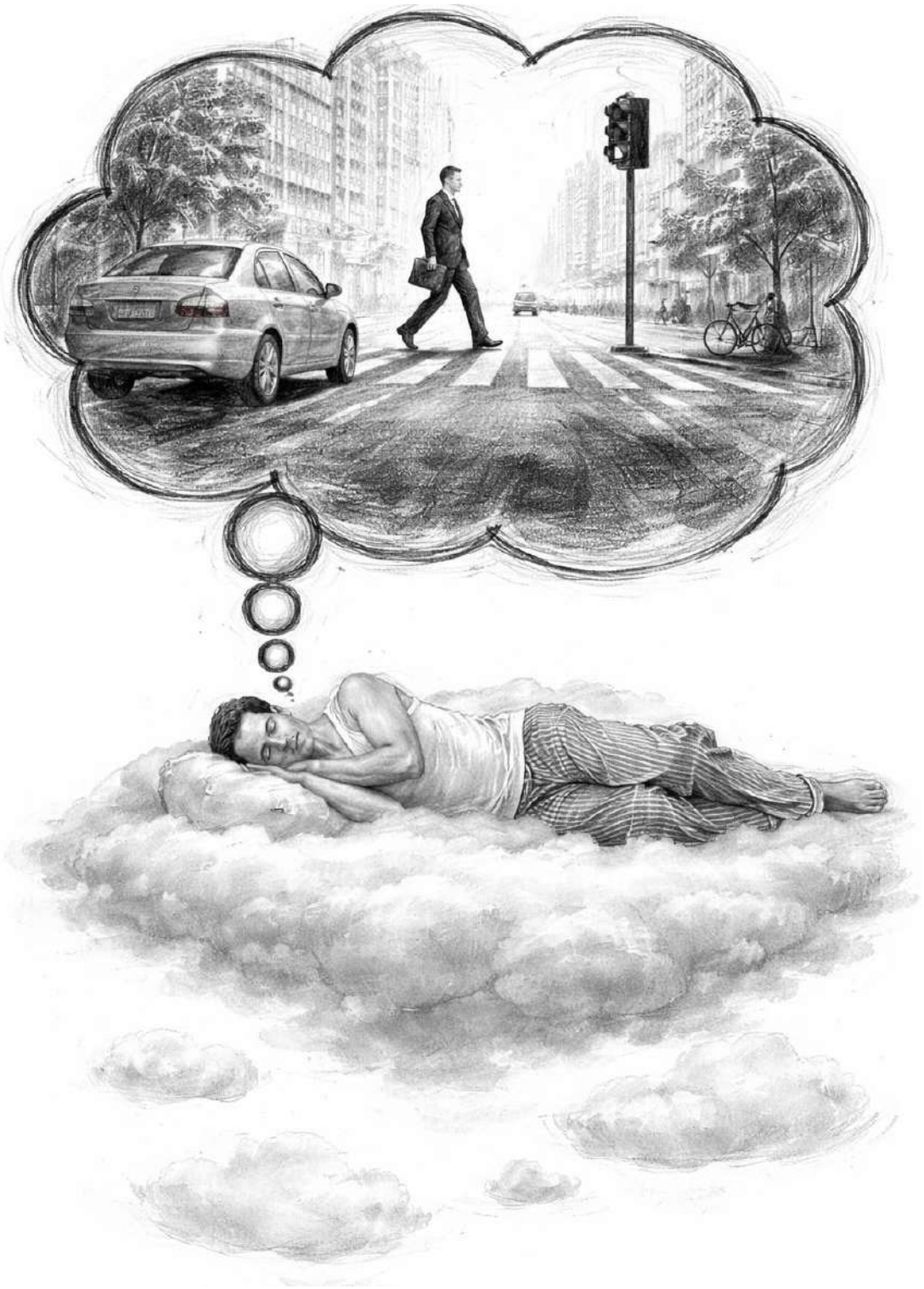


أوليفر بدهشة ..

◯ بالفعل ، كيف سيتم ذلك ؟ ..

● للإجابة على هذا السؤال يجب أن ننتقل إلى الفكرة الأهم في حديثنا ..

ضغط الزر فظهرت صورة لشخص نائم فوق غيمة و يراوده حلم كما يبدو، فابتسم أوليفر و شام معاً .. إنها صورة طريفة ..



◯ في هذه الصورة نجد شخصاً غافياً فوق الغيوم بسلام و يحلم بشخص آخر يعيش على الأرض و يقطع الشارع كما يبدو .. أي أننا ببساطة نرى جسدين في هذه الصورة ، الجسد الأول هو **الجسد السماوي** الذي عبرت

عنه بأنه ينام فوق الغيوم و أقصد بذلك الكون الأكبر ، و الجسد الثاني هو **الجسد الأرضي** الذي يعيش على هذا الكوكب .. و نظرية الجسدين السماوي و الأرضي و العلاقة بينهما هي عمود الخيمة في كل حديثنا اليوم من بدايته إلى نهايته ..

● و كيف ذلك ؟

○ الحقيقة المغيبة عن البشر هي أنّ لكل إنسان منهم على هذه الأرض نسخة أخرى في السماء هي الجسد السماوي أو ما يلقبه الخالق في القرآن الكريم (النشأة الآخرة) و هي من سيعيش في الكون الأكبر بعد قيام الساعة ، أي أن تلك النسخة تتجسد على الكوكب في جسد أرضي آخر .. هل يذكرك هذا بشيء يا شام ؟

● الأفاتار عند الهندوس !!

○ بالضبط .. الإنسان على الأرض هو أفاتار الإنسان في الكون الأكبر

● و ما العلاقة بينهما و بين ما سبق و شرحته سيد عزيز ؟

○ هذا هو السؤال الأهم سيد أوليفر .. الحقيقة الكبرى أن الجسد السماوي يكون في حالة سبات أو نوم في الوقت الذي يعيش فيه الجسد الأرضي على كوكبنا .. و كل ما يختبره هذا الجسد الأرضي في الدنيا يمر كحلم في خيال الجسد السماوي ، لأن الجسدين مقترنان ببعضهما .. أو بتوصيف آخر كأنّ الجسد السماوي يضع على عينيه نظارات واقع افتراضي يرى من خلالها بعيون الجسد الأرضي ، فيعيش في دنيا ماتريكس افتراضية في خياله لكنها حقيقة في حياة الجسد الأرضي ..

● الدماغ في وعاء ؟!

○ تماماً ، الجسد السماوي هو الدماغ في الوعاء و متصل بمصدر معلومات كالحاسوب يملي عليه أحلامه بدقة و التي تترجم على كوكب الأرض (الماتريكس) كحياة للجسد الأرضي (الأفاتار) .. و عندما يولد الجسد الأرضي يبدأ حلم الجسد السماوي و عندما يموت الجسد الأرضي يستيقظ الجسد السماوي لينزع عن عينيه نظارات الواقع الافتراضي .. فيرى الكون الأكبر من حوله لكنه سيتذكر بالضبط كل ما عاشه جسده الأرضي

(الأفاتار) في تجربة الواقع الافتراضي (الماتريكس) التي عاشها على كوكب الأرض .. و بذلك تكون مشكلتنا العويصة قد حلت ببساطة ، فالإنسان في الكون الأكبر سيتذكر كل ما حدث لنسخته الأرضية في الكون الأصغر .. هل يذكرك هذا الكلام بشيء يا شام ؟

● كلامك عن أبي الشيخ نبيل يوم دفنه ..

○ بالضبط .. الشيخ نبيل بموته انتهت مهمة جسده الأرضي (الأفاتار) و استيقظ جسده السماوي في نفس اللحظة ليتابع حياته في الكون الأكبر حاملاً معه كل ذكريات الحياة الدنيا ..

● مذهل .. أي أنه لا وجود لروح خرجت من جسده كما قلت في ذلك اليوم بالضبط !

○ بالفعل ..

● و كيف هي هيئة الجسد السماوي هناك في الكون الأكبر ؟ ..

○ للأجساد السماوية هيئة واحدة أساسية يا أوليفر ، لكنها باستخدام الواقع الافتراضي أيضاً يمكنها أن تأخذ أي هيئة جديدة تريدها .. فالحقيقة الأغرب هي أنّ الجنة (الكون الأكبر) بحد ذاتها قائمة على مبدأ العالم الافتراضي أو الدماغ في الوعاء و سنوضح ذلك أكثر بعد قليل ..

أوليفر بدهشة ..

● كلامك السابق غريب للغاية ، لكن لا أنكر أنه منطقي جداً و يفسر كل شيء دفعة واحدة ، يتبقى لدينا سؤال وحيد سيد عزيز ..

○ و ما هو ؟

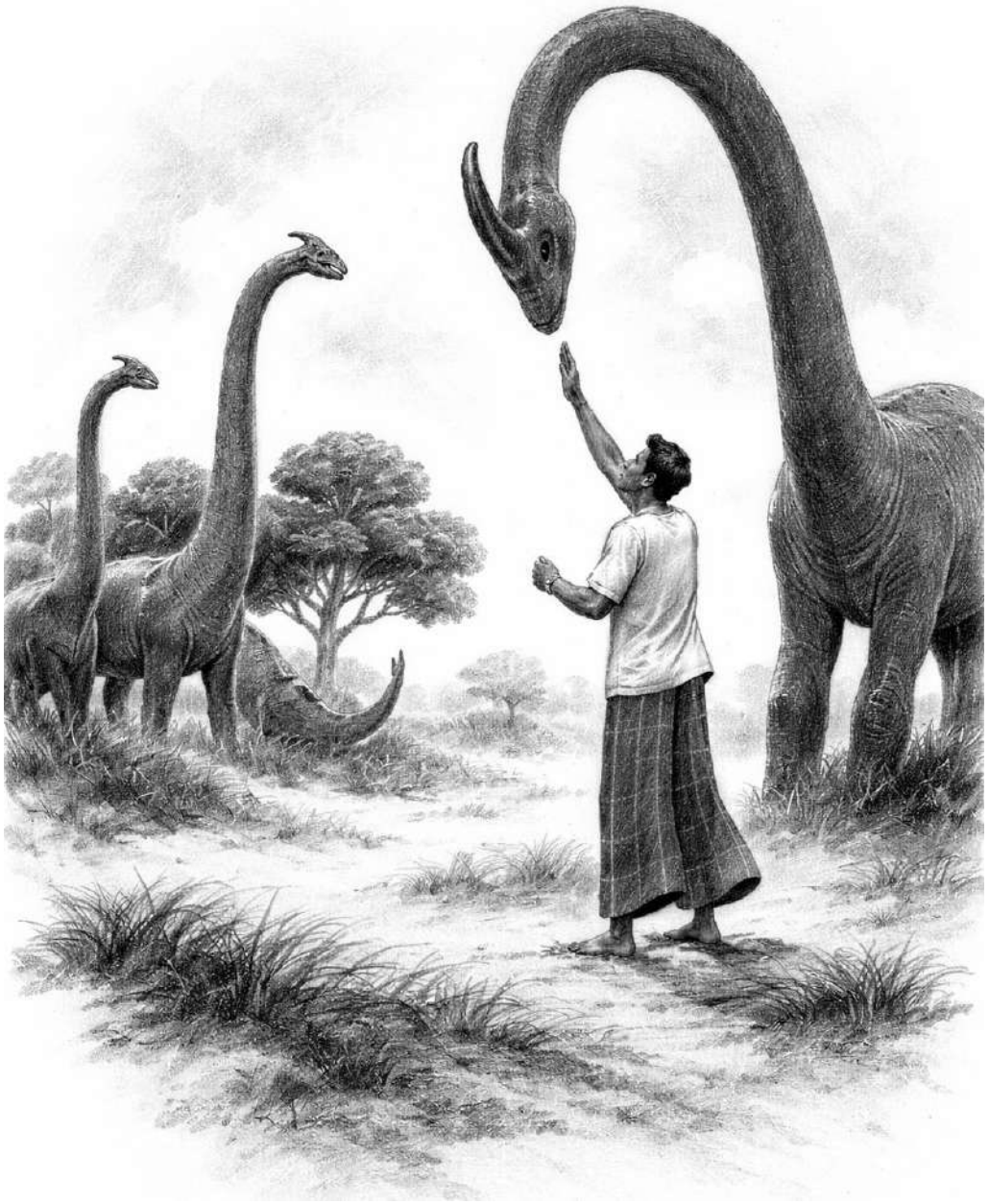
● ما هي الروح إذن ؟!

○ سؤال جميل سيد أوليفر ، و كي أجيبك عليه يجب أن ننتقل إلى الصورة التالية ..

موسيقى دريم

(الألحان الموازية)

ضغط السيد عزيز زر الجهاز مرة أخرى ، فظهرت صورة غريبة لشخص يطعم الديناصورات بيده .. فظر أوليفر و شام إلى بعضهما و ابتسما ..



◯ صورة غريبة أليس كذلك ؟ ..

● بالفعل ، يصعب علينا إدراك علاقتها بجوهر حديثنا عن الروح !!

◯ بل له علاقة وثيقة يا شام .. الصورة تتحدث عن عالم الأحلام ، و كما قلنا منذ قليل فإن حياتنا على الأرض برمتها عبارة عن حلم تحلم به أجسادنا السماوية و تنفذه أجسادنا الأرضية كأفعال واقعية في حياتنا اليومية .. و ما يهمنا بعالم الأحلام هو مصطلحين طبيين هامين للغاية ..

● المصطلح الأول ؟

○ المصطلح الأول سيد أوليفر هو **اضطراب سلوك نوم الريم** و هو حالة مرضية إن جاز التعبير يقوم خلالها النائم بتمثيل أحلامه بجسده و هو نائم ، و هذا تشبيه مثالي لكل ما سبق و شرحناه ، فأجسادنا الأرضية تقوم ببساطة بتمثيل أحلام أجسادنا السماوية ..

● مذهل !!

○ بلى شام ..

● و المصطلح الثاني ؟!

○ المصطلح الثاني الهام هو **الحلم الواعي (لوسيد دريم)** ، و فيه يدرك النائم أثناء نومه أنه يحلم، وقد يبدأ بالتدخل في حلمه والتأثير فيه تماماً كأحداث فلم **inception** الشهير إن كنتما على اطلاع عليه ..

شام بدهشة ..

● ما هذه الصدفة الغريبة الأخرى ، لقد حضرناه سوياً منذ أيام أيضاً !

السيد عزيز معاتباً ..

○ لا وجود للصدف في حياتنا يا شام كما أخبرتكما منذ قليل ، كل شيء مخطط و مدروس و هذا الموضوع الحساس بدوره سنناقشه لاحقاً هذه الليلة .. نعود إلى موضوعنا الراهن ، في الحلم الواعي يكون النائم واعياً بمشاعره وأحاسيسه، وفي الوقت ذاته يكون واعياً أنه يحلم بل يمكنه تغيير مجريات الحلم .... فمثلاً قد ترى نفسك سيد أوليفر في الحلم أنك في غابة ثم تجد نفسك فجأة تطعم الديناصورات بيدك كالشخص في الصورة أمامكما ، عندها وأثناء نومك، تدرك أنك تحلم، وقد تتابع في حلمك أو تستيقظ، و هذا هو بالضبط ما أحاول إيصاله لكما اليوم ، أن تفهما أن حياتنا كلها مجرد حلم يراود أجسادنا السماوي و نحن قادرون على التلاعب بهذا الحلم .. ..

● هذا واضح جداً سيد عزيز ، لكن ما علاقة ذلك بمفهوم الروح ؟!

◯ تماماً سيد أوليفر .. يقال أننا عندما نحلم في نومنا في هذه الدنيا أنّ الروح هي التي تحلم ، لكن في الحقيقة هذه الأحلام هي الروح نفسها حرفياً ، لأن هذه الأحلام ببساطة هي نقطة اتصال حقيقي صرف بين الجسد السماوي و الجسد الأرضي (زوج من الفينومينين) بدون عائق مادي مشتت بينهما ، بمعنى أنهما يتحدان في كيان واحد حالم خلال الأحلام (الروح أو النومينون) التي هي صلة الوصل بين الجسدين (الجسدان يحلمان في آنٍ معاً) .. بمعنى أن الروح (نومينون) كمادة لاوجود لها يا اصدقائي تماماً كالأفكار و الأحلام و غير محسوسة بالعقل حرفياً ، و ليست سوى الذكريات و التفاصيل التي نراها في ذلك الحلم ، و ما **الاتصال بين الجسدين السماوي و الأرضي** عند أول نفس لك في الحياة سوى **نفخ الروح** في الأجساد ، و ما الاستيقاظ من الحلم سوى **خروج للروح من الجسد بانقطاع الاتصال** .. ببساطة كأنك وضعت نظارات الواضع الافتراضي علي عينيك لفترة من الزمن ثم نزعتها ..

شام بدهشة ..

● الروح كمادة لا وجود لها ، يوجد فقط جسدان (أرضي و سماوي) متصلان ، غريب لكن منطقي للغاية يصحح نظرتنا السابقة للأرواح **!!**

◯ بالضبط .. إن نظرية الروح كمادة غير مرئية مبهمة توجد داخل الأجساد البشرية تخرج منها عند الموت لتصعد إلى السماء كما تصورتماها منذ قليل هو تشبيه مبسط للبشر في أزمنة غابرة يتماشى مع معرفتهم وقتها و قدرتهم على الفهم و الاستيعاب .. فهل كان بإمكان البشر في ذلك الوقت أن يستوعبوا مفهوم الواقع الافتراضي أو الدماغ في وعاء مثلاً بحكم تأخر التكنولوجيا و غياب أجهزتها لديهم **؟!** بالطبع لا.. فمثلاً السماء في القرآن بناها الله بأيديه ، و الجنة فيها مغريات مادية شبيهة بالدنيا كالطعام و الشراب و حتى الجنس، و غير ذلك من تشبيهات مستوحاة من حياة البشر لتقريب الصورة إلى أذهانهم ، لكن مع تقدم العلوم نبدأ بفهم كل شيء بصورة جديدة علمية منطقية .. أي ببساطة يزول وهم أفلاطون الذي تحدثنا عنه منذ قليل كأول فكرة في نقاش اليوم ..

● وهم أفلاطون بأنّ الروح تخرج من الجسد ، مذهل **!!**

◯ بالفعل !! ..

● على رسلكما ، فهنالك ما هو أكثر إدهاشاً بعد ..

أوليفر مبتسماً ..

◯ أسرارك لا تنتهي سيد عزيز ..

● إنّ من سيحشر يوم القيامة ليست أجسادنا الأرضية التي تحللت بموتنا بل أجسادنا السماوية التي تحمل إرثنا الأرضي كاملاً مع مؤهلات أكبر من ذلك بكثير، و ما قيام الساعة سوى رنة منبه الساعة أو ما يسمى في الأديان (نفخ الصور) التي ستستيقظ معها جميع الأجساد السماوية معاً في لحظة واحدة في الكون الأكبر .. و هذا هو بالضبط التفسير المنطقي لتسمية يوم القيامة بالساعة !!

◯ أنت لا تنفك تدهشني سيد عزيز ، و متى سيرن هذا المنبه فنستيقظ جميعاً ؟!

ابتسم السيد عزيز ..

● فضولي كعادتك سيد أوليفر ، و هذه أجمل خصالك .. سنتحدث عن توقيت رنة المنبه (قيام الساعة) لاحقاً اليوم ، فقد توقعت منك هذا السؤال

◯ يا لها من نظرية غريبة للغاية .. جسد سماوي ينام فيولد الجسد الأرضي ، ثم يموت الجسد الأرضي فيستيقظ الجسد السماوي ..

● ما يزال هنالك تفاصيل غريبة أكثر حول هذه النظرية يا شام ..

◯ حقاً .. أغرب مما سبق ؟!

● بالطبع ، مثلاً نظرية الروح الحلم و الاتصال بين الجسدين الأرضي و السماوي تفسر حالات **تناسخ الأرواح** حيث يتم وصل جسد سماوي واحد بعدة أجساد أرضية متتالية فيحمل ذكرياتها كلها أي أنها **تناسخ للأحلام** بتعبير أكثر دقة ..

◯ و هل تؤمن بتناسخ الأرواح سيد عزيز ؟!..

● بالطبع ، و سنتحدث عنه لاحقاً اليوم أيضاً ، فهو تتمة لمفهوم الروح كما هو واضح .. و هنالك ما هو أغرب من هذا المفهوم أيضاً ..

◯ المزيد ؟!..

● أجل ، فالحقيقة الأغرب و الأهم في الموضوع كله والتي أتينا على ذكرها منذ قليل و أصبحت الآن أكثر وضوحاً و فهماً هي أنّ الجنة أو (الكون الأكبر) بحد ذاتها قائمة على مبدأ العالم الافتراضي أو الدماغ في الوعاء ، حيث أنك ببساطة قادر على الانتقال إلى أي عالم تشاء و العيش فيه بأي جسد تشاء و أنت في مكانك .. و الأهم أنك ستعيشه كحقيقة لا تقبل الشك بسبب دقة التفاصيل كما هو حال كوننا الذي نعيش فيه الآن بالضبط و الأجمل في القصة أنك و إن تأذيت في تجاربك الافتراضية تلك ، فإن جسدك السماوي سيبقى سليماً بلا أي ضرر .. فمثلاً لو كسرت ساقك يا أوليفر الآن فإن جسدك السماوي الذي يحلم سيعيش الحالة لكنه لن يتأذى.

◯ مذهل ! إنّ هذا يذكرني بنظرية الأكوان المتوازية !! ..

صفق السيد عزيز بيديه بسعادة ..

● أحسنت سيد أوليفر .. تشبيه مناسب و حقيقي أكثر من رائع .. فكما أن كوننا الذي نعيش فيه هو عبارة عن عالم افتراضي تعيشه أجسادنا السماوية .. فإننا في الكون الأكبر سنعيش في عدد غير منتهٍ من الأكوان الموازية الافتراضية تكون لنا في كل منها قصة مختلفة عن غيرها .. و الآن عزيزتي شام هل أقنعتكما بأن تصوركما للروح كان خاطئاً ؟

◯ بلا أدنى شك ، لقد زال وهم أفلاطون بالكامل .. إنني أغبط أوليفر على مغامراته السابقة فقد فاتني كثير من المرح و العلم و الأحاجي الغريبة على ما يبدو ، عندما حدثني عنها خلته يبالغ بكلامه !!

● ما يزال أمامك ما هو أكثر عزيزتي شام فأسرار الكون و الحياة لا تنتهي .. إذاً كاختصار لكل ما سبق كي نجمعه في فكرة واحدة : أجسادنا السماوية عبارة عن (**دماغ في وعاء**) و متصل بحاسوب (يملي علينا

أحلامنا و بالتالي تفاصيل حياتنا الأرضية) و نحن في هذه الدنيا (**الماتريكس**) عبارة عن أجساد أرضية (**أفاتار**) نقوم بترجمة تلك الأحلام الموجودة على ذلك الحاسوب و في أجسادنا السماوية كحقيقة مادية مجسّدة أمامنا و أمامها .. لتتكامل هذه النظريات جميعاً في نظرية واحدة مشتركة و هي نظرية (**الروح النومينون الحلم**) التي تنفخ في أجسادنا الأرضية كحلم لحظة نومنا في العالم الآخر و ولادتنا في الدنيا ، و تخرج منها لحظة استيقاظنا في العالم الآخر و موتنا في الدنيا ..أي أنك في حياتك الدنيوية سيد أوليفر أشبه بمصباح في سقف غرفة ، عندما ينام جسدك السماوي بولادتك يتم ضغط زر التشغيل فتصلك الكهرباء ليضيء جسدك الأرضي و تشع حياةً ، و عندما يستيقظ جسدك السماوي يُضغط الزر ثانيةً لتنطفئ حياتك على الأرض و تموت..

ابتسم أوليفر بدهشة ..

◯ تشبيه بليغ يلخص كل شيء ؟!..

● لكن هنالك سؤال مهم سيد عزيز لا أعرف إجابته !

◯ و ما هو يا شام ؟ ..

● هنالك بشر ادعوا أن أرواحهم غادرت أجسادهم و رأت كل شيء من حولها .. كما في تجربتي **الموت الوشيك** و **الإسقاط النجمي** .. فما تفسير ذلك ؟

◯ رائع يا شام ، نقطة غاية في الأهمية .. و يمكن الإجابة على سؤالك بتحليل هاتين التجربتين ببساطة .. **فالإسقاط النجمي** يحدث عند وصول الجسد إلى حالة نفسية معينة تقترب من حالة النوم ، لذا فهو بالمحصلة شكل من أشكال الأحلام ..أما **الموت الوشيك** فهو عبارة عن هلوسات دماغية تحدث نتيجة فيض من الأدرينالين و الإندروفينات المتحرر في ظروف الشدة كالتعرض لحادث مثلاً ، أي أنها تندرج بدورها تحت تصنيف الأحلام التي تستوحي واقعاً معيناً تبعاً لما يسمعه الدماغ من حوله ، فإن تعرضت لحادث مثلاً و نقلت إلى غرفة الإسعاف فدماغك باللاوعي سيسمع الأطباء و الممرضين يتكلمون من حولك فيقوم الدماغ ببناء حلم افتراضي على تفاصيل هذا الكلام و يتخيل صورة غرفة الإسعاف و العاملين فيها .. و

الحقيقة أنه ما من دلائل و براهين مؤكدة على صحة هاتين التجربتين بالأساس ، و يبقى استعمالهما مقتصراً على الأعمال الأدبية و السينمائية لا أكثر .. و بجميع الأحوال هاتان التجربتان هما في النهاية شكل من اشكال الأحلام أي حالة روحية كما توصلنا اليوم سوياً في مفهوم (الروح النومينون الحلم) ..



● منطقي !! ..

○ و بختام حديثنا عن الروح يا أصدقائي ، الحياة الدنيا مجرد لعبة على حاسوب كوني عملاق ، لكنها ليست لعبة للترفيه البحت، بل لعبة لبناء الإنسان لا تخلو من المتعة .. لعبة برمجتها السماء بعبقرية لا يشق لها غبار .. !! أما ألعاب الترفيه البحت فستكون في جنان الله بعد أن نصبح بشراً مؤهلين ،حيث هنالك دنيا واسعة لا تنتهي بانتظارنا من العوالم الافتراضية

أو الأكوان المتوازية كما وصفها أوليفر .. هل أصبحت فكرة الروح واضحة في عقليكما الآن يا صديقاي ؟

● بمنتهى الدقة و الوضوح ..

○ بلا شك ..

● إذاً لننتقل إلى الموضوع الثاني الشيق و الهام في نقاشنا اليوم و المتشعب عن فكرة الروح و هو فكرة **تناسخ الأرواح** ..

تناسخ الأرواح

ضغط السيد عزيز زر الجهاز مجدداً فظهرت صورة لبناء محفور في الصخر ، فصاحت شام بفضول ..



● البتراء !؟

○ بالفعل شام .. تلك المدينة المذهلة المحفورة في الصخر حرفياً و الموجودة في بلادك يا شام .. بلاد الشام .. و بالتحديد في الأردن ، و التي تعود إلى مملكة الأنباط و البعض يقول للآدميين الذين عاشوا قبلهم في المنطقة ..

● و ما علاقتها بتناسخ الأرواح سيد عزيز ؟! ..

○ هنالك قصة حقيقية سيد أوليفر ترتبط بهذه المدينة و بفكرة تناسخ الأرواح معاً ..

● تبدو قصة غريبة كعادتك سيد عزيز ، أخبرنا بها ..

○ إنها غريبة بالفعل و القصة تتحدث عن رجل إنجليزي يدعى **آرثر فلاورديو** من مواليد عام **1906** ، عاش حياته كلها في إنجلترا لكن كانت لديه دائماً ذكريات عن كونه حارس معبد منحوت وسط الصحراء و أنه قتل هنالك غدراً .. و في أحد الأيام شاهد الرجل فيلماً وثائقياً عن مدينة البتراء القديمة بالأردن فتعرف عليها مباشرةً أنها المكان الذي يتذكره في خياله و أعلن ذلك على الملأ ..لذا أجرى عالم آثار يعمل في البتراء مقابلة معه لاختبار ادعاءاته .. فكان وصفه للمدينة دقيقًاً جداً بشكل لا يوصف ، كما أنه وصف عدد من الأماكن البارزة في البتراء التي لا يعرفها سوى الخبراء .. إضافةً إلى وصفه المكان الذى قتل فيه بدقة مذهلة و كأن الحادثة وقعت له من سويعات لا أكثر ..

● مذهل و مخيف ، و ما تفسير هذه الظاهرة ؟! ..

○ لا تفسير لها يا شام سوى بفكرة تناسخ الأرواح .. أي أن ذلك الرجل آرثر عاش حياتين على الأرض بجسدين مختلفين ..

● لكنهما متصلان بجسد سماوي واحد ..

○ أحسنت سيد أوليفر .. هذا هو التفسير المنطقي الدقيق بالضبط .. و هذه ليست سوى قصة واحدة من آلاف القصص حول العالم و عبر صفحات التاريخ ..

● و لماذا لا يؤمن الناس إذن بموضوع تناسخ الأرواح ؟! ..

○ من قال لك أنهم لا يؤمنون يا شام .. هنالك أديان و حضارات كثيرة تؤمن به كالهندوسية، السيخية، البوذية، الطاوية، الفلسفة اليونانية خاصة أفلاطون و فيثاغورس ، الدرزية ، اليهودية (مبدأ الكابالا) ، العلويون ، وديانات السكان الاصليين الأمريكيين (المايا و الانكا) و غيرهم .. و كما

يقال لا دخان بلا نار و لا مطر بلا غيوم ، فهذا الإيمان لم يأتِ من فراغ عند هؤلاء ..

● و ما رأي الدين في هذه القضية سيد عزيز ؟! ..

○ كما ذكرت لك هنالك أديان كثيرة تؤمن بها ، فمثلاً توجد في الإسلام آيات قرآنية صريحة عن تناسخ الأرواح ..

شام بفضولها المعتاد ..

● حقاً ؟! ..

○ بالطبع كقول البارئ :

(كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتًا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون)

● أي أن الإنسان يموت في هذه الحياة أكثر من مرة .. مما يعني أنه يعيش أكثر من حياة .. !!

○ تماماً سيد أوليفر .. و هنالك آية أخرى تقول :

(لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى)

و التي تشير إلى أن المؤمنين بحق الذي يبتليهم الله في هذه الدنيا بشتى أنواع الاختبارات و مختلف صنوف المآسي التي تذيبهم كالحديد الهندي قبل أن يصاغ طائعاً على هيئة جديدة تبردها نسائم الجنان لتأخذ صورتها الأخيرة .. يموتون مرة وحيدة و ينتقلون بعدها إلى العالم الآخر على هيئة الجسد السماوي .. أما غيرهم ممن لحقوا شياطين الدنيا و إغواءاتها فأسرفوا على أنفسهم من متعها قد يعودون إلى الحياة الدنيا بجسد أرضي جديد .. و هنالك آية أخطر مما سبق تقول :

(نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم و ننشئكم في ما لا تعلمون ولقد علمتم النشأة الأولى

فلولا تذكرون)

و كما تلاحظان يقول الله (ننشئكم في ما لا تعلمون) أي في غير الجسد البشري .. ربما حيوان أو حشرات مثلاً ..

أوليفر بشك ..

● معقول !!

○ بالطبع سيد أوليفر .. فلتناسخ الأرواح **5** أشكال رئيسية : عودة الإنسان للحياة على هيئة جسد أرضي جديد و يدعى ذلك **النسخ** أو حيوان فيسمى **المسخ** أو نبات فيسمى **الرسخ** أو حشرات فيسمى **الوسخ** أو جماد فيسمى **الفسخ** .. و يحدد نوع التناسخ أفعال الإنسان في هذه الحياة الدنيا التي تتذبذب بين سمو و انحطاط ..

● لم أقتنع سيد عزيز .. يمكنني استيعاب عودة الإنسان للحياة بجسد أرضي جديد يتصل بجسده السماوي ، لكن في حيوان أو نبات أو جماد أو حشرات فهذا غير منطقي أبداً ..

○ لقد أشار الله في القرآن إلى مسخ بعض الكافرين إلى قردة و خنازير أليس ذلك صحيحاً يا شام ..

شام بدهشة ..

● بالفعل !! ..

○ و هذا تجسيد لما ذكر في الآية السابقة (و ننشئكم في ما لا تعلمون) ، في الحقيقة العملية كلها قائمة على فكرة الاقتران بين الجسد السماوي و بنية أخرى على الأرض .. فالجماد مثلاً يتألم عند ضربه و يصدر أنينه الخاص كطرق المعدن أو نحت الصخر أو قطع الخشب و غيره .. بل إن النباتات بحد ذاتها جنس واعٍ كالإنسان و الحيوان ..

● النبات له وعي !! ..

○ بالطبع سيد أوليفر ، فهو يولد من البذرة و يتغذى من التربة و ينجذب

نحو الضوء و يتكاثر بدوره و أخيراً ييبس و يموت (ولادة و حياة و موت).. أما الفرح و الحزن فقد أثبت العلم أن النبات الذي يعامل بلطف و محبة و يعرض للموسيقا ينمو أكثر و أسرع من غيره .. كذلك فالنباتات تتألم و تصرخ و حتى أن بعضها يبكي ..

شام بشك ..

● يبكي و يتألم ؟ إنه شيء أقرب للخيال !

○ معك حق عزيزتي شام ، إنه أقرب لميثولوجيا إغريقية ، لكنه واقعي تماماً .. فقد نجح علماء منذ سنوات و لأول مرة في التاريخ بتسجيل أصوات النباتات عند تعرضها للإجهاد أو القطع أو غيرها من الظروف الصعبة، في مؤشر على أن النباتات لا تعاني بصمت، بل تصرخ أيضاً..

● و لماذا لا نسمعها إذاً ؟

○ لأن الموجات فوق الصوتية التي تصدرها النباتات يبلغ ترددها الموجي نحو **20** ألف إلى **100** ألف هرتز ، أما الإنسان فيمكنه سماع الأصوات التي ترددها بين **20** و **20** ألف هيرتز فقط، مع ذلك فبعض الحيوانات مثل الخفافيش والفئران ربما تستطيع سماع صوت النباتات.. ليس ذلك فحسب بل إنّ النباتات الأخرى تسمع صراخ النباتات المتأذية و تفهم سبب الصراخ من طبيعة الترددات فترتكس للعامل المؤذي و تحمي نفسها منه ..

● مذهل ! و كيف يتم ذلك ؟

○ مثلاً أثبتت التجارب و الملاحظات العلمية إنتاج النباتات التي تلقت إشارات من نباتات أخرى تضررت من هجوم الحشرات عليها بشكل بربري للمزيد من المواد الكيميائية الدفاعية لتساعدها في مقاومة ذلك الهجوم، أما تلك التي تلقت موجات من نباتات تعرضت للاختناق جفافاً مثلًا فقد أغلقت مسامها لمنع فقدان الماء أكثر .. مما يعني أن النباتات يمكنها سماع وفهم أصوات جيرانها من النباتات وإعداد نفسها لنفس الضغط الواقع عليها.. أكثر من ذلك لقد اكتشف العلماء أن هنالك أنواع عديدة من النباتات تذرف الدموع حرفياً عندما تتألم كقطيرات الندى على خد الورود ..

● النباتات تتحدث مع بعضها بإثبات علمي .. مدهش !!

○ مدهش بالفعل .. و هنالك سلسلة كتب تتناول موضوع قصص تناسخ الأرواح المختلفة و الموثقة بالأسماء و التواريخ و الأحداث تحمل عنوان (**الإنسان روح لا جسد**) لابن بلدي الكاتب المصري المبدع **رءوف عبيد** الأستاذ في كلية الحقوق في جامعة عين شمس في مصر ، الذي وثق ما جرى في جلسات **استحضار أرواح** ذكرت تفاصيل حياتها في عدة أجيال متلاحقة عبر التاريخ و في حقب زمنية متتالية ..

● لكن سيد عزيز ، توصلنا إلى نتيجة مفادها أن الروح لا وجود لها ، فكيف يتم استحضار الأرواح ؟!

○ سؤال مميز كعادتك سيد أوليفر .. استحضار الأرواح فكرة غير مؤكدة حتى اليوم بالدليل المادي الملموس .. لكن هنالك تجارب غريبة كثيرة وثقتها كتلك المذكورة في كتب السيد رءوف عبيد .. و بغض النظر عن صحتها ، فإن فكرة استحضار الأرواح لا تتناقض مع فكرة (الروح النومينون الحلم) التي ناقشناها هذه الليلة ، فالاستحضار هنا ببساطة شديدة هو استحضار للجسد السماوي .. أي أن البعض (ربما) قادر على التواصل و التخاطر مع بعض تلك الأجساد السماوية بإذن إلهي فتروي لها حكاياتها المختلفة في أجسادها الأرضية بعد أن أنجزتها نهائياً ..

● تفسير وجيز و بسيط و مقنع .. لا أنكر ذلك ..

● هنالك سؤال آخر سيد عزيز ..

○ تفضلي شام ..

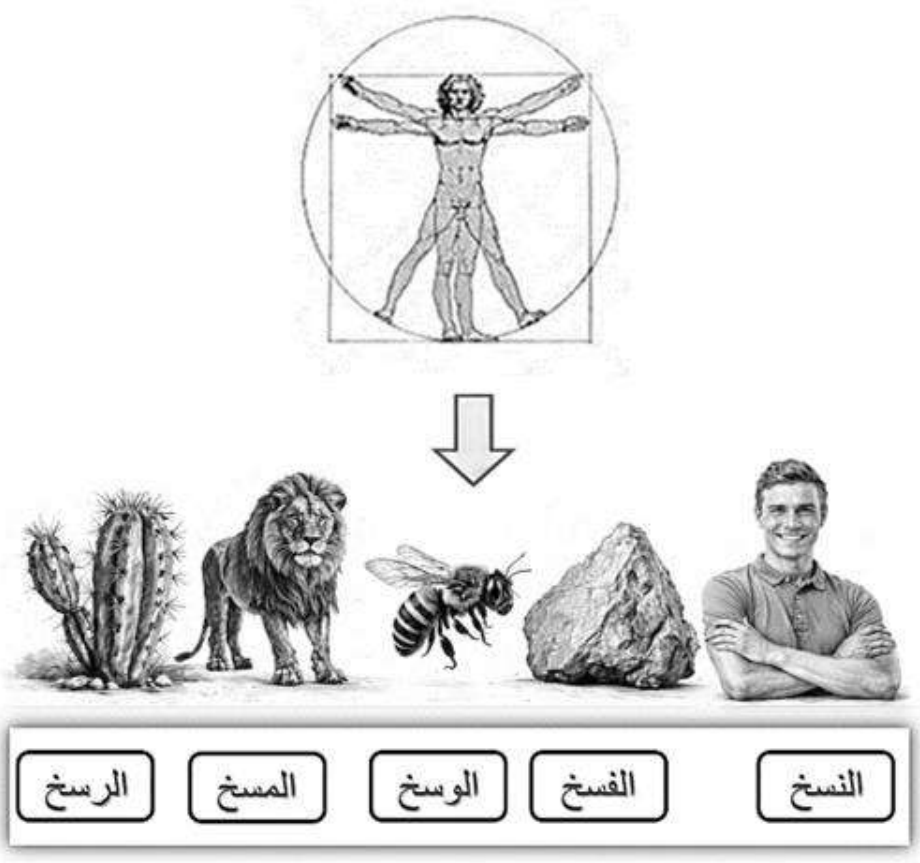
● إن أعداد النباتات و الحيوانات و الحشرات و الجماد أكبر بكثير من عدد البشر فكيف سيتم تناسخ الأرواح مع كل هذه الأعداد ؟!

○ يا له من سؤال منطقي و رائع عزيزتي شام .. و الجواب عليه ببساطة هي أن عدم اقتران أي جسد سماوي بأي مادة على الأرض لا يعني عجز هذه المادة عن الوجود .. فمثلاً هذه النبتة الجميلة في الزاوية ربما ليست مقترنة بأي جسد سماوي ، لكنها ستنمو و تتابع حياتها بشكل طبيعي دون

أن يعي أي جسد سماوي لحياتها ، بل أجسادنا البشرية نفسها ، ستتابع حياتها بشكل طبيعي حتى في غياب الاقتران مع أي جسد سماوي ، فالغاية من الاقتران كما سبق و حللنا هو اقتران الذكريات لتعلم الدروس لا غير.. فالاقتران ليس شرطاً للوجود .. لكن في حال أراد الله لأحد الأجساد السماوية أن تقترن بمادة أخرى تحددها طبيعة أعمال جسده الأرضي السابق ، فسيختار له المادة المناسبة في المكان و الزمان المناسبين ليخوض تجربة معينة بغايات هادفة محددة ..

● منطقي للغاية ..

○ إذن كخلاصة لما سبق ، الجسد السماوي قادر على الاقتران بأي مادة على الأرض (إنسان ، حيوان ، نبات ، حشرات أو حتى جماد) فيخضع لما تخضع له ، لكن هذا الاقتران ليس شرطاً لوجود و حياة المادة .. و هذا ببساطة هو مبدأ تناسخ الأرواح ..



شام بذهول ..

● لا أخفيك سراً سيد عزيز أن فكرة تناسخ الأرواح مخيفة ..

◯ بالفعل هي كذلك ، لكنها عادلة من جهة ، و مطمئنة من جهة أخرى فهي تعني منح الإنسان فرصاً جديدةً لتصحيح أخطاء أجساده الأرضية السابقة .. إنه الشيء المخيف و المطمئن في آنٍ معاً الذي لا يتكرر في هذه الحياة !!

● محق !! ..

◯ هل هنالك أسئلة أخرى على موضوع تناسخ الأرواح ؟

شام بابتسامة ..

● و ما هي الروح القدس سيد عزيز !! ..

◯ عاصمة بلادك .. سؤال مميز من فتاة مميزة .. الروح كما حللنا يا شام هي حلم ، و الروح القدس هي حلم الأحلام ببساطة .. زيتونة السماء بجسد سماوي لا مثيل له .. و بهذه المناسبة ، يمكن لجسدين سماويين أن يقترنا بجسد أرضي فريد و وحيد فيعيشان معه أحلامه و ذكرياته كلها .. هل من أسئلة أخرى ؟!

● لا أظن .. كل شيء مبسط و واضح و مفهوم ..

◯ إذن ننتقل إلى موضوعنا الجديد في هذه الليلة و المنبثق بدوره عن فكرة الأرواح و هو الموت أي انتهاء الحياة و انقطاع الاتصال بين الجسدين السماوي و الأرضي ..

آلام الموت ؟!

ضغط السيد عزيز زر الجهاز فظهرت على الشاشة الضخمة أمامهم صورة كبيرة لمجموعة قرود بجوار سلم عليه بعض الموز .. فابتسم أوليفر و ضحكت شام ..



● صورة طريفة بالفعل يا شام ، و قد تبدو خارجة عن سياق حديثنا ..

○ بالفعل !!

● في الحقيقة لا ، هذه الصورة تمثل تجربة أعتبرها شخصياً من أهم تجارب البشر و أكثرها عبراً و عمقاً ..

○ و ما اسم التجربة ؟!

● اسمها يا شام : تجربة القرود الخمسة و الموز و الماء ..

○ و ما فحواها ؟

● تنص التجربة سيد أوليفر على ما يلي : وضع مجموعة من العلماء **5** قرود في قفص واحد وفي وسط القفص وضعوا سلماً وفي أعلى السلم وضعوا بعض الموز .. و كل مرة صعد فيها أحد القرود لأخذ الموز قام العلماء برشّ باقي القرود بالماء البارد ..

و بعد فترة قصيرة أصبح كل قرد يحاول الصعود لأخذ الموز يتعرض للضرب من قبل القرود الباقين لمنعه من فعل ذلك كي لا يُرشّوا بالماء البارد .. و بعد فترة من الوقت لم يجرؤ أي قرد على صعود السلم لأخذ الموز على الرغم من كل الإغراءات خوفاً على نفسه من الضرب..

◯ و بعد ؟!!

● بعدها قرر العلماء أن يقوموا بتبديل أحد القرود الخمسة ويضعوا مكانه قرداً جديداً .. فأول شيء قام به القرد الجديد هو صعود السلم ليأخذ الموز ، لكنه فوجئ بالأربعة الباقين يضربونه و يجبرونه على النزول ، بعد عدة مرات من الضرب فهم القرد الجديد بأن عليه ألا يصعد السلم رغم أنه يجهل السبب .. !!..

◯ و من ثمّ ؟!!

● قام العلماء لاحقاً بتبديل القرود الأربعة الباقية تباعاً مع تكرار الحادثة ذاتها مجدداً ، حتى تم تبديل جميع القرود الخمسة الأوائل بقرود جديدة يعيشون في القفص ذاته و لم يرش عليهم العلماء الماء البارد أبداً ، و مع ذلك كانوا يضربون أي قرد تسول له نفسه صعود السلم دون أن يعرفوا أو يعرف هو ما السبب ؟! ..

◯ تجربة غريبة و طريفة بالفعل !!

● و الأهم أنها معبرة يا شام ، ألا تلاحظين تشابه هذه التجربة مع حياة البشر ؟ ..

◯ في الحقيقة لا !!

● هذه التجربة تلخص قصة البشر ببساطة عزيزتي ، أجدادهم آمنوا بأفكار معينة لأسباب ظرفية في زمانهم (خاطئة في زماننا بتطور العلم و المعرفة) ثم غادروا الحياة (القفص) منذ زمن طويل ، لكن الأحفاد الجدد في القفص لا زالوا يتمسكون بأفكار الأجداد نفسها دون أن يعرفوا السبب رغم أنها باطلة في زمانهم بالدليل و البرهان و ذلك لعدم استخدام العقل و تجنب السؤال و التدقيق .. فتناول السمك و اللبن معاً لا يسبب التسمم ، و

الشيطان لا يأكل مع الشخص الأعسر و رقم **13** لا يجلب النحس ... و غيرها كثير من الأفكار الخاطئة المنتشرة بين الناس كمسلمات دون تفكير أو فحص تحت مجهر العلم لتفنيد مصداقيتها .. و لعلَ أفكاراً كثيرة في عقليكما الآن هي بدورها مجرد إرث متناقل عبر الأجيال من أساطير آمن بها القدماء ..

◯ إنه ارتباط غريب و مذهل بالفعل بين التجربة و واقع البشر **!!** لكن ما علاقته بحديثنا سيد عزيز**؟!**

● علاقة سابقة و لاحقة سيد أوليفر ، فالسابقة أن الناس يعتقدون أن الروح هي مادة تخرج من الجسد بموت الإنسان و هذا غير صحيح ، و لاحقة مرتبطة بموضوعنا القادم أي الموت ، فالناس يعتقدون بأن الموت مؤلم بل إذا أرادوا تشبيه صعوبة أي شيء فيقولون (**كصعوبة خروج الروح من الجسد عند الموت !!**) و هذه العبارة خاطئة من الجهتين ..

◯ فالموت كما شرحت منذ قليل هو انقطاع الاتصال بين الجسدين السماوي و الأرضي لا أكثر **!!**

● تماماً يا شام ، هذا من وجهة نظر روحية و من وجهة نظر العلم فالموت هو ببساطة غياب الوعي عن الجسد الأرضي خلال أجزاء من الثانية ..

◯ لكن لماذا نجد أناساً يتألمون بشدة قبيل وفاتهم **؟!!**

● سؤال رائع سيد أوليفر ، يطرح النقطة الأهم في حديثنا ، و هي خلط البشر غير الواعي بين مفهومي الألم و الموت .. أو بشكل أشمل بين المظهر و الشعور ..

◯ و كيف ذلك **؟!!**

● مثلاً قد يقول البعض : (**يا رباه لقد سقط فلان من الطابق الأخير و تهشم جسده تماماً ، كم هذا مؤلم ؟**) .. في حين يقولون هم أنفسهم : (**لقد سقط فلان من الطابق الأول و كسر حوضه .. لقد نجا من ميتة مؤلمة بحق**) .. فكما تلاحظان وصف البعض تهشم الجسد بأنه مؤلم و كسر الحوض بأنه غير مؤلم ، رغم أن العكس تماماً هو الصحيح .. فتهشم الجسد

يعني غياب الوعي خلال أجزاء من الثانية أي قبل حتى أن يمنح الإنسان فرصة كي يتألم ، أما كسر الحوض فهو مؤلم للغاية لأن الإنسان يبقى واعياً ، و ألم الكسور من الآلام الشديدة .. هل لاحظتما الفارق و المغالطة التي حدثت ؟

◯ بالفعل !!

● كذلك الحال فالناس يخلطون بغير وعي بين الألم و الموت .. فالألم هو شعور بشري واعٍ كهبة إلهية لنا كي نتجنب الوصول إلى الموت أي أنه الضوء الأحمر و جرس الإنذار الذي يخبرنا بوجود اضطراب ما في الجسم علينا معالجته و تصحيحه تجنباً لخسارة حياتنا .. و طالما أنك تتألم فأنت على قيد الحياة بلا شك .. أما الموت فهو تجربة غير مؤلمة على الإطلاق بل هو رصاصة الرحمة التي تقتل الألم بشكل نهائي فيتوقف الجسد عن الإحساس في جزء من الثانية .. و ذلك ما عبر عنه الإمام **علي بن أبي طالب** بقوله :

(**استهينوا بالموت فإن مرارته في خوفه**)

و بالفعل القناعة بأن الموت مؤلم هو شيء مكتسب غير منطقي نتج عن أمرين هامين ، الأول جهلنا بتجربته كوننا لم نختبره من قبل إذ لم يعد أحد من الموت كي يخبرنا عن ماهيته ، و الثاني أننا نقرن الموت بالمشهد المهول القاسي الذي يحيط بكثير من حالاته كالحرق أو الانفجار أو التهشم و غيرها .. لكن إن نحن قاربنا موضوع الموت بطريقة علمية و عقلانية نجد أن الموت هو توقف آني للجسد عن العمل تماماً ، بما في ذلك المشاعر الإنسانية و بالتالي الموت تجربة يسيرة غير مؤلمة يرحل فيها الإنسان بسلاسة و سلام على خلاف ما يحيط به من مظاهر قاسية يستقبلها الشهود الأحياء بمشاعرهم الجياشة .. حيث يقوم الشهود بإسقاط مشاعرهم المؤلمة و الفزعة بشكل غير منطقي على الميت نفسه الذي لا يشعر بشيء في الحقيقة .. و الموت في الواقع لا يختلف بشيء عن النوم أو التخدير ، هل سبق لأحد و أن تألم من قبل عندما يغفو أو يتم تخديره لإجراء عمل جراحي !

◯ كلام منطقي لا غبار عليه ذكرني بمقولة **لأسماء بنت أبي بكر الصديق** :

(إذا ذبحت الشاة فالسلخ لا يؤلمها)

● رائع يا شام .. مقولة مثالية و معبرة ، فهي صحيحة و منطقية علمياً لأنّ الموت انتهاء لأي شعور بشري مع غياب الوعي بموت الدماغ فيبقى الجسد الأرضي جماداً كالصخر لا يضره أياً ما تفعله به ، كحال الجثة التي تحترق و تتفحم بعد التفجير فالمظهر مرعب و مؤلم بالنسبة للشهود على الحادث لكنه غير مؤلم البتة بالنسبة لصاحب الجثة الذي فقد إحساسه بالغياب عن الوعي أو الموت .. لكن الشهود يسقطون المظهر الذي تراه عيونهم على الضحايا الأموات ..

○ أما أنا فقد ذكرني هذا الكلام ببرنامج وثائقي شاهدته منذ سنوات عن القرابين البشرية لحضارات المايا و الإنكا و الأزتيك .. حيث كانت الأضحية البشرية تسلم نفسها بطواعية و رضا للشخص الذي سيذبحها فينحرها بهدوء دون أي ألم من قبلها و تفارق الحياة آنياً بسلام ..

● عظيم ، عظيم يا أوليفر ، مثال آخر مثالي و صحيح .. فمن يشهد ذلك الاحتفال الديني يفهم تماماً سهولة الموت و بساطته على خلاف ما هو شائع بين الناس .. فالنحر يتم بجزء من الثانية ثم تنقطع التروية عن الدماغ فتفقد الأضحية وعيها.. و في الحقيقة إنّ ما ينطبق على مفهوم الموت ينطبق على مفهوم الألم بحد ذاته .. فجزء كبير من شدة الألم هو وهمي نابع من الخوف من عواقب الألم من جهة و من منظر العامل المسبب للألم من جهة ثانية كالحرق أو دماء الجرح أو العظمة البارزة من الكسر ، و إن أحكمنا سيطرتنا على مشاعر الألم عند حدوثه فإننا سنقلل كثيراً من شدته .. فالألم موضوع نسبي يتعلق بعوامل عديدة على رأسها شدة المشهد المصاحب له أو التوقع المسبق لشدته ، و الألم من زاوية أخرى هبة ربانية تحمينا من تفاقم الأذية و خسارتنا لحياتنا إن لم تعالج .. و أكبر دليل على هذه الحقيقة حالة طبية تعرف باسم (**متلازمة عدم الشعور بالألم CIP**) .. هل سمعتما بها من قبل ؟

○ في الحقيقة لا .. لكن من الرائع ألا يشعر الإنسان بالألم سيد عزيز!

● على الإطلاق يا شام ، قد يظن البعض أن هذه نعمة من الله لكن الحقيقة

على نقيض ذلك ، فمتوسط عمر المصابين بهذا المرض قصير بسبب الأذيات و الإنتانات الكثيرة التي تصيب جسدهم دون أن يدركوا ذلك و التي تتفاقم و تودي بحياتهم بعد فوات الأوان .. كما تكون حياة المريض به معقدة للغاية إذ يقوم بعد أسنانه وتفقدها واحداً تلو الآخر لمعرفة إن سقط أو تسوس أحدها ، و يفحص كامل جلد جسده لتحري وجود حروق، جروح، أو رضوض، كذلك يتأكد من سلامة كامل مفاصله، فيحركها واحداً واحداًب حثاً عن خلوع ، فكل أذى قد يحدث دون أن يشعر... و هذه الإجراءات يقوم بها على مدار الساعة على نحو مؤلم نفسياً بشكل يفوق الألم الجسدي الذي حرم منه بأضعاف مضاعفة .. لذا كما تريان فالألم نعمة ربانية مجانية حقيقية تنجينا من الموت فتشير مباشرة إلى أي أذى قد يصيب الجسد الأرضي ..

◯ و هل يتألم الجسد السماوي بتألم الجسد الأرضي سيد عزيز ؟!

● بالطبع سيد أوليفر ، لكنه لا يتأذى .. الجسد السماوي يعيش تجربة الجسد الأرضي بحذافيرها .. بمشاعرها كلها ، لكنه فقط لن يتأذى ..

◯ و بذلك نستنتج أن مقولة (**صعب كخروج الروح من الجسد عند الموت**) خاطئة كلياً بالفعل !!

● تماماً ، فلا روح هناك و لا ألم .. و الحقيقة أنه عندما سيموت بشر كثيرون في يومهم الموعود سيدركون أكبر حقائق الحياة :

(أكثر شيء قلقت منه طوال حياتي كان أسهل تجربة عشتها في هذه الحياة .. إنه الموت نفسه)

◯ لكن الناس لا يزالون يخافون صعود السلم و تناول الموز في قفص الأجداد ..

ضحك السيد عزيز ..

● تماماً ، و لا يعرفون السبب .. لكنكما الآن بتّا تعرفان جيداً أن الموت روحياً ليس سوى انقطاع اتصال بين الجسدين الأرضي و السماوي بانتهاء

قصة الحلم على حاسوب الإنسان الخاص في الكون الأكبر ، و علمياً ليس سوى غياب الوعي في أجزاء من الثانية بدون أي ألم .. هل هنالك من أسئلة حول مفهوم الموت ؟

◯ أنا استوعبت الموضوع تماماً ..

● و أنا مثلك يا شام ..

◯ في هذه الحالة هيا بنا ننتقل إلى موضوع آخر شيق للغاية في حديثنا هذه الليلة .. الجواب على سؤالك السابق سيد أوليفر .. متى سيرن منبه الساعة كي تستيقظ الأجساد السماوية جميعاً في آنٍ معاً ؟ أو ما يعرف بين الناس بلقب :

(يوم القيامة)

النبأ العظيم

(النسبة فاي)

● إذن فأنت تريد معرفة موعد رنين منبه الساعة سيد أوليفر ..

○ و هل هنالك إنسان لا يود ذلك .. إن لم يكن ذلك بالطبع تجاوزاً لصلاحيات البشر الروحية ؟!

● لا ليس تجاوزاً ، فالبارئ بذاته شرع للبشر محاولة التكهن بذلك الموعد

○ صحيح ؟!

● بالطبع يا شام في الآية القرآنية الصريحة :

(إنّ الساعة آتيةٌ أكاد أخفيها)

بمعنى أن هنالك إمكانية لمن يجتهد أن يحدد موعد الساعة أو يوم القيامة أو النبأ العظيم أو الغاشية أو الحاقة أو أيا كان اسمها و بدقة ..

○ آية غريبة و عظيمة كالعادة ..

● بالفعل هي كذلك سيد أوليفر ..

○ و كيف يمكننا تحديد موعد رنين منبه الساعة في هذه الحالة ؟

● للقيام بذلك علينا العودة إلى الوراء قليلاً إلى تجربتك السابقة مع مكتبة الإسكندرية و الخلاصة التي توصلت إليها ..

○ الأيام الإلهية السبعة و اليوم الآخر الثامن ..

● تماماً سيد أوليفر ، و سنعيد شرح الفكرة مجدداً من أجل شام التي لم تخض مغامرتك تلك ..

○ أشكرك سيد عزيز ..

● لا تشكريني يا شام هذا واجبي ، لماذا أنا هنا إذن ؟! فكرة أيام الله بسيطة للغاية ، و تنطلق من آية قرآنية أخرى تقول :

(و إنّ يوماً عند ربك كألف سنةٍ مما تعدّون)

بمعنى واضح أن كل **1000** سنة بشرية على الأرض تعادل يوماً واحداً في الكون الأكبر .. بتعبير آخر مضى حتى الآن يومان إلهيان و دخلنا في اليوم الثالث منذ ميلاد السيد المسيح أي **2024** سنة بشرية .. لكن كم يوماً إلهياً مضى منذ أبي البشر آدم حتى ولادة المسيح ؟

◯ بالفعل كم يوم ؟

● للإجابة على هذا السؤال يا شام سنستعين **بتسلسل آشر الزمني** .. و هو تحديد تقريبي للمدة الزمنية بين آدم و المسيح وضع في القرن **17** من قبل **جيمس أشر**، رئيس أساقفة كل إيرلندا عبر قراءة دقيقة و مدروسة للعهد القديم و أعمار الأنبياء فيه .. حيث توصل آشر إلى أن الفترة الزمنية بين آدم و يسوع هي تقريباً **4000** سنة أرضية أي **4** أيام إلهية بناءً على تلك الأعمار .. بمعنى آخر مضى على البشر منذ أدم حتى اللحظة **6** أيام إلهية كاملة و دخلنا في اليوم السابع .. واضح ؟!

◯ بالطبع ..

● ننتقل الآن إلى السؤال الآخر الهام في حديثنا ، كم تبلغ المدة الزمنية منذ آدم و حتى قيام الساعة ؟! لقد بت يا أوليفر على اطلاع على الجواب ، صحيح ؟

◯ أجل ، المدة هي أسبوع إلهي ..

شام بفضول ..

● و ما الدليل على ذلك سيد عزيز ؟ ..

◯ سؤال هام يا شام .. و الأدلة في الحقيقة ذات نوعين .. أدلة علمية و أخرى دينية ..

● و ما هي الأدلة العلمية ؟!..

◯ الأدلة العلمية كما تتوقعان قليلة و غير دامغة ، و هذا طبيعي لأنه لو

كان بإمكان البشر تحديد مدة الحياة البشرية بدقة سيتمكون من تحديد موعد رنين منبه الساعة بدقة أيضاً و بالتالي فإن الله لا يكاد يخفيها في هذه الحالة بل يظهرها للعلن بدون شك .. لذا لا وجود لأي وسيلة علمية حاسمة حتى الآن لتقدير الفترة الزمنية منذ بدء التكليف الإلهي مع سيدنا آدم حتى قيام الساعة و لن يكون حتى في المستقبل .. فهي حقيقة غيبية لا يعلمها إلا الله و بالتالي لا يمكن التكهن بها إلا بالاعتماد على كلامه المنزل في الكتب السماوية أو بكلام رسله و أنبيائه المعصومين برسالتهم الذين ينهلون مباشرة من النبع الإلهي ، فالعلم ربما يخبرنا بسهولة أن أقدم كائن بشري مشى على قدمين بوجه مسطح هو هيكل لوسي العظمي الذي اكتشف شمال شرق أثيوبيا عام **1974** و الذي يعود لأكثر من **3** ملايين عام، لكنه هيكل يعود لكائن بدائي صنيعة التطور و غير مكلف ، أما منذ متى هبط آدم من الجنة إلى الأرض أو كم تبقى للحياة البشرية على الأرض من وقت فموضوع آخر يصعب التكّهن به علمياً !

● لا أدلة علمية إذاً ؟! ..

○ بلى توجد أدلة علمية لكنها توحي بموعد قيام الساعة و لا تؤكده ..

● من قبيل ماذا ؟ ..

○ يمكن تقسيم الأدلة العلمية إلى **3** أقسام .. الأول هو تطور العلم و التكنولوجيا عبر متوالية هندسية ، و المتوالية الهندسية رياضياً هي متوالية تتسع بشكل متسارع ،على سبيل المثال .. **2** ، **4** ، **16** ، **256** ، **65536** ... و هو حال التطور العلمي للبشرية بالفعل دون أن ننكر أن بعض الحضارات القديمة بلغت مبلغاً هاماً من العلم لا نزال نجهله حتى اليوم .. و لتوضيح هذا المفهوم تعالوا نقارب هذا التطور بالتواريخ .. فمثلاً الثورة العلمية بدأت منذ زمن قريب نسبياً في القرن **17** و الثورة الصناعية في القرن **18** و الثورة التكنولوجية في القرن **20** و علوم الفلك و الفضاء منذ عقود قليلة خلت .. أي أن العلم الحديث كما نعرفه اليوم ولد منذ قرنين إلى ثلاثة لا أكثر و كأنه كان في حالة سبات لآلاف السنين ثم بدأ يستيقظ منها تدريجيا ليهرول مسرعاً على درب التطور!

◯ و ما علاقة ذلك بموعد قيام الساعة ؟!

● علاقة وثيقة يا شام ، فتطور العلم منذ بدء الخليقة و حتى اليوم ينحو منحاً شبيهاً بمتوالية هندسية تتسع بتسارع رهيب .. مما يمكننا من التكهن ببساطة أن أسرار العلوم الواسعة و الكون الشاسع ممكن أن تتكشف لنا خلال عقود قليلة تالية .. مما يعني أيضاً من زاوية أخرى أن ما تبقى من عمر البشرية ليس بكثير قبل أن نتم اكتشافنا للعلوم و الكون ..

◯ كلام منطقي لا أنكر !! و القسم الثاني من الأدلة العلمية ؟

● القسم الثاني هو التطور الهائل على الصعيد العسكري و اختراع أسلحة دمار شامل كفيلة بإنهاء البشرية في غمضة عين كالأسلحة النووية و الهيدروجينية و البيولوجية و غيرها كثير أخطر و أكثر فتكاً ، مما يعيد إلى الأذهان فكرة معركة الرب الكبرى و الأخيرة (**هرمجدون**) في نهاية الحياة و التي ستفني أغلب البشرية كما أخبرتنا بعض النصوص الدينية القديمة .. فما كان مجرد أساطير و تكهنات خيالية غير قابلة للتنفيذ على أرض الواقع منذ قرون ، بات قريباً للغاية و على عتبات أبواب المستقبل ..

◯ منطقي و مخيف في آنٍ معاً ..

● أجل يا شام ، يتبقى لدينا القسم الثالث الأخير و هو ذو علاقة بالطبيعة و نتحدث هنا عن ثقب الأوزون الخطير و التقلبات المناخية الحادة التي و بحسب توقعات العلماء ستؤدي خلال وقت قصير قياسي إلى ذوبان الجبال الجليدية في القطبين و ارتفاع منسوب مياه المحيطات لتذهب بدول كاملة ، أو العودة بالأرض إلى عصر جليدي جديد يسبب زوال قارات بكاملها ..

◯ أي أن الحياة البشرية تبعاً لهذه الأدلة العلمية الثلاثة أوشكت على نهايتها ؟!

● تماماً سيد أوليفر .. ننتقل الآن إلى الزاوية الدينية في حديثنا التي تتناول مدة الحياة البشرية منذ التكليف البشري مع آدم أبي البشر و حتى قيام الساعة

◯ و هل هنالك نصوص دينية حددتها ؟!

● بالطبع يا شام ، فلدينا مثلاً حديث منسوب للرسول يقول :

(**الدنيا جمعة من جمع الآخرة ، سبعة آلاف سنة**)

و في هذا الحديث إشارة صريحة لفترة الحياة البشرية كما نتوقعها و تنسجم و تتلاءم مع ما سبق من أدلة علمية .. ففلا يخفى على أحدٍ منا ، أنه كان بإمكان الحديث أن يشير إلى أي فترة زمنية أخرى أو ألا يشير إليها من الأساس ، لا سيما بغياب أي أحاديث أخرى تشير إلى خلاف ذلك **!!** صحيح أن الأحاديث النبوية ليست كلاماً منزلاً إذ تم تدوينها في القرن الثالث الهجري فحذف منها ما حذف و أضيف إليها ما أضيف و تم فهم الكثير منها بشكل خاطئ و الأخطر تلاعبت بها أصابع شيطانية من حكام و كهنة كالعادة لتكريس مصالحهم الشخصية .. لكن هذا الحديث يتقاطع مع بقية الأدلة السابقة و اللاحقة التي نتحدث عنها على نحوٍ مثالي ، كما أنه لا وجود لأحاديث أخرى تناقضه في هذا الصدد ..

◯ منطقي بدوره **!** و هل هنالك أدلة دينية أخرى **؟!**

● بالطبع ، حديث آخر منسوب للرسول محمد يقول :

(**بعثت أنا و الساعة كهاتين**)



رفع السيد عزيز إصبعين في يده و قال ..

● حيث أشار إلى إصبعين متجاورين في يده في إشارة واضحة منه إلى

أن قيام الساعة ليس ببعيد عن بعثته .. ! فمحمد رسول الإسلام هو خاتم الأنبياء و المرسلين ، و بالفعل ما من أحدٍ بعده ادعى النبوة ببراهين دامغة ، و هذا بحد ذاته إشارة سماوية إلى أن ما تبقى من حياة البشر ليس بكثير و إلا كان من البديهي أن يستمر إرسال الأنبياء كحاجة و ضرورة ملحة في حال كان أمام البشرية متسع من الوقت قبل القيامة ، صحيح ؟

◯ بلا شك !!

● ننتقل إلى الدليل الثالث الهام و الأخير في حديثنا و هو عبارة تنسب للرسول أيضاً و إن كان البعض ينسبها لغيره و تقول ..

(تؤلف و لا تؤلفان)

و هنالك دراسات هامة بلا شك أشارت إلى أن هذه المقولة تشير إلى التاريخ الهجري الذي تجاوز ألف سنة بالفعل و تقول أنه لن يؤلف ثانيةً ،أي أن الحياة ستنتهي في اليوم الإلهي السابع الأخير في الدنيا و الذي نعيشه الآن كما توقعت بقية الأدلة العلمية و الدينية بالضبط !!

◯ مقولة غريبة لكن مناسبة على نحوٍ مثالي !!

● بالفعل ، يتبقى لدينا موضوع أخير في هذا الصدد و هو اليومِ الآخر الذي ذكر في مناسبات كثيرة في القرآن الكريم و يقصد به الحياة بعد الموت ، أي اليوم الإلهي الثامن في الكون الأكبر و الذي يتلو أيام الحياة الدنيا الإلهية السبعة ، و يمكننا ببساطة أن نلاحظ أن رقم **8** يشير إلى رمز اللانهاية الأبدي الذي لا ينتهي و لا أيام بعده ، أي اليومِ الآخر بالفعل ! كما قال تعالى في قرآنه الكريم :

(البرّ من آمن بالله و اليوم الآخر)

مما يعزز بدوره فكرة أن مدة الحياة البشرية منذ تكليف آدم و حتى قيام الساعة هو **7** أيام إلهية لا أكثر ..

◯ إذن يبقى السؤال الأهم : متى ستقوم الساعة في اليوم الإلهي السابع الذي نعيشه حالياً ؟

● بالضبط سيد أوليفر .. هذه هي الفكرة الأخيرة في حديثنا و جوهر موضوعنا الأساسي : متى سيرن منبه ساعة القيامة لتستيقظ الأجساد السماوية في الكون الأكبر معاً في لحظة واحدة ..

○ تبدو مهمة مستحيلة سيد عزيز ؟!

● هذا هو التحدي عزيزتي شام ، لا تنسِ بأن الله يكاد يخفي هذا الموعد و لا يخفيه بشكل نهائي ..

○ و كيف سنحدده إذاً ؟

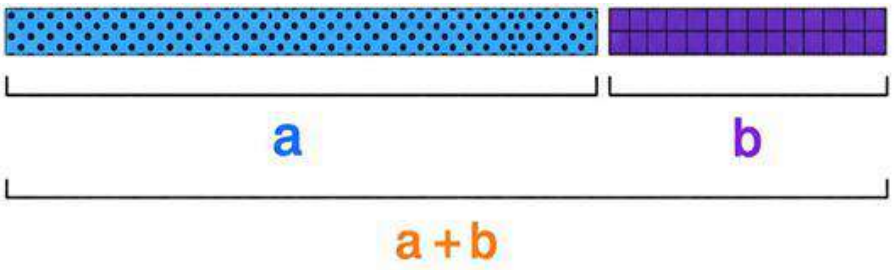
● للقيام بذلك سنتطرق إلى موضوع جديد شيق و هام للغاية ، و هو النسبة الرياضية الإلهية المقدسة ..

○ النسبة فاي !؟

● تماماً سيد أوليفر ، و التي يقال أنّ الكون برمته مخلوق على أساسها ، و أينما وجدت وجد الكمال ، السحر و الإتقان .. فهي تحكم كل شيء من الذرة إلى المجرة ، فنجدها في عالم النبات و الحيوان و الجسد البشري و الهياكل الأثرية و التحف و الأعمال الفنية و غيرها ..

○ لقد سمعت بهذه النسبة من قبل ، لكنني لا أعرفها بالتفصيل ..

ابتسم السيد عزيز و ضغط الجهاز في يده فظهرت صورة رياضية على الشاشة العملاقة ..

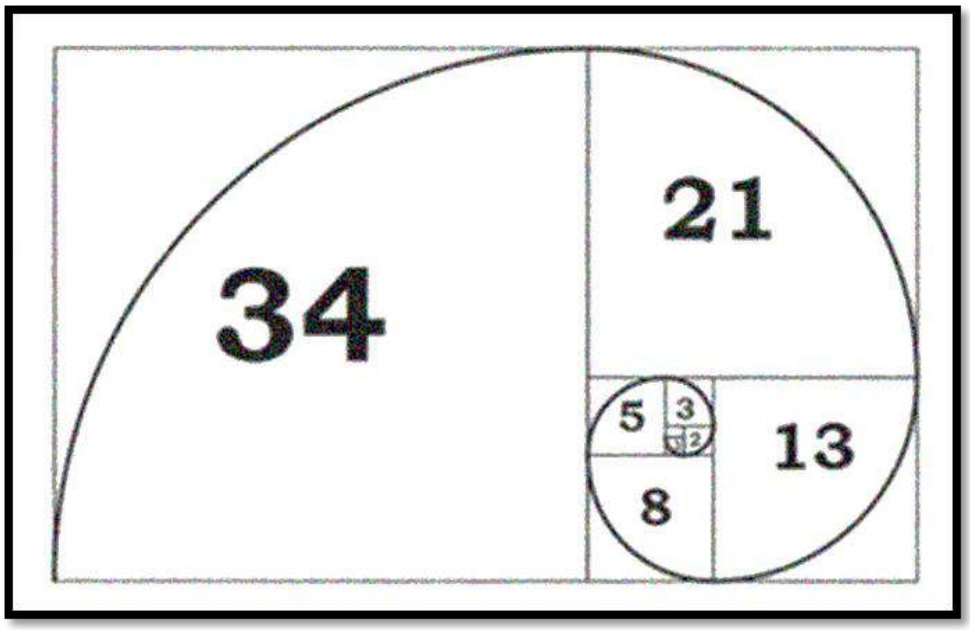


$$\frac{a}{b} = \frac{a+b}{a} = 1.618... = \Phi \text{ (Phi)}$$

● النسبة الإلهية فاي يا شام هي ثابت رياضي تعادل قيمته تقريباً **1.618** .. نحصل عليه كما هو واضح في الصورة أمامكما بتقسيم قطعة مستقيمة إلى قسمين **A** و **B** بحيث تكون نسبة الطول الكلي : **B + A** إلى طول القطعة الأطول **A** مساوياً لنسبة طول القطعة الأطول **A** إلى طول القطعة الأقصر **B** .. واضح ؟

○ واضح جداً ..

ضغط السيد عزيز الزر ثانية فظهرت صورة رياضية جديدة ..

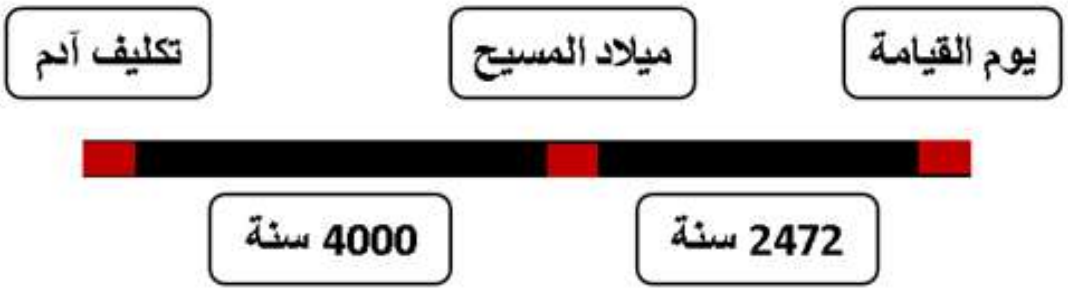


● و عادةّ ما يتم تجسيد هذه النسبة المقّدسة بطرقتين شهيرتين : الأولى هي **المستطيل الذهبي** الظاهر على الشاشة ، الذي يقسم إلى مربع مع مستطيل ذهبي آخر الذي يقسم بدوره إلى مربع آخر مع مستطيل ذهبي جديد و هكذا بحيث تكون النسبة بين هذه الأشكال الهندسية المتتالية هي فاي .. أما الطريقة الثانية فهي **متوالية فيبوناتشي الرياضية** ، و هي عبارة عن سلسلة من تتابع أرقام مرتبة بحيث يكون كل رقم فيها هو نتيجة جمع الرقمين السابقين (**0 ،1 ،1 ،2 ،3 ،5 ،8 ،13 ، 21** ...) .. و قد وضعها عالم الرياضيات الإيطالي **ليوناردو فيبوناتشي** في القرن **13** و هو نفس العالم الذي أدخل الأرقام العربية إلى الثقافة اللاتينية و ما تزال مستخدمة في الغرب حتى اليوم و تعرف خطأ بأنها الأرقام الأجنبية ، أما الغريب في هذه

المتوالية أن قسمة كل رقم فيها على الرقم الذي يسبقه هو النسبة فاي دائماً ، مثلاً **8** تقسيم **5** يساوي **1.618** .. وهكذا ..

◯ واضح للغاية ، لكن ما علاقة هذه النسبة بموعد القيامة سيد عزيز ؟!

● هذا هو السؤال الأهم يا شام و كي نجيب عليه علينا أن نفكر قليلاً خارج الصندوق .. لنعد قليلاً إلى القطعة المستقيمة التي تحدثنا عنها في صورة سابقة ، فإذا افترضنا بأنّ المدة الزمنية بين آدم و قيام الساعة هوكقطعة مستقيمة تقيس **X** و آمنا بأنّ ميلاد السيد المسيح هام لأنه يأتي في نقطة من هذه القطعة تحقق النسبة الذهبية فاي ، فيمكننا بحسبة بسيطة أن نستنتج كم عدد السنوات من ميلاد السيد المسيح إلى قيام الساعة و الذي يحسب عن طريق تحديد قيمة **X** حيث تساوي حاصل ضرب الرقم **4000** بالرقم **1.618** وذلك يساوي **6472** سنة ..



لأن نسبة طول القطعة الكلية **X** و هو عمر الحياة البشرية على طول القطعة الكبرى منها و هو الفترة من آدم إلى السيد المسيح أي **4000** سنة بحسب تسلسل آشر الزمني يساوي النسبة الذهبية فاي **1.618** كما افترضنا ، و هذا ينسجم مع ما توصلنا إليه في حديثنا السابق بأننا الآن في اليوم الإلهي السابع من نزول آدم إلى الأرض و بأن الحياة الدنيا جمعة من جمع الآخرة حوالي **7000** سنة أرضية .. و بالتالي يكون تاريخ قيام الساعة المقّدر هو **6472 – 4000 = 2472** من ميلاد السيد المسيح ، أي أن السنة الهجرية ستولف و لن تؤلف ثانية بالفعل ..

نظر أوليفر و شام إلى بعضهما بذهول ثم ابتسما و قالت شام ..

◯ مذهل سيد عزيز !!

أردف أوليفر بدوره ..

● بالفعل ، مذهل و منطقي و خطير .. فالنسبة فاي التي تحكم كل شيء ، لا عجب أن تحكم فترة الحياة البشرية بحد ذاتها ..

◯ تماماً ، و الآن هل بتّ سيد أوليفر على دراية بموعد رنين منبه الساعة الذي ستستيقظ معه جميع الأجساد السماوية في الكون الأكبر ؟

● بلا شك ، و هو موعد قريب للغاية على نحوٍ مخيف ..

◯ بلى ، وهذا يعني أن على البشر أن يستغلوا كل ثانية من حياتهم في **صلاح الأفكار و الأقوال و الأعمال** كي يلاقوا ربهم بضمير مرتاح فلا يخجلوا من نشر كتابهم الذي يتناول حياة أجسادهم الأرضية على الملأ .. ننتقل الآن إلى الموضوع الأخير في حديثنا هذه الليلة فقد تأخر الوقت كثيراً و أنا مرتبط بموعد سفر ..

● و ما هو سيد عزيز ؟! ..

◯ الصدفة يا شام .. الصدفة التي كررتما ذكرها هذه الليلة .. فهل هنالك وجود للصدف في حياتنا ؟

نظرية

الراوتر السماوي

ضغط السيد عزيز الجهاز في يده فظهرت صورة جديدة لرجل يركب دراجة نارية !



أشعل السيد عزيز البايب مجدداً و نفث قليلاً من الدخان ثم قال ..

● يروى أن مواطناً أمريكيا كان يقود دراجته النارية في أحد الشوارع عندما تعرض لحادث اصطدام مروري بسيارة أجرى فتوفي على الفور .. بعد عام من الحادثة قرر أخوه إصلاح الدراجة ثم استقلها ليتعرض لحادث مروري بدوره و يموت .. صدفة عجيبة أليس كذلك ..؟!

○ لا أظن .. شيء طبيعي يحدث كثيراً في هذه الحياة !!

ابتسم السيد عزيز ..

● و إن أخبرتك سيد أوليفر أن الأخ تعرض للحادث في نفس الشارع الذي توفي فيه أخوه و مع نفس سيارة الأجرة التي كان يقودها نفس السائق و يقل نفس الزبون ، فهل تبقى القصة عادية ؟!

○ هذا مستحيل سيد عزيز !!

● إطلاقاً ، هذه قصة حقيقية حدثت فعلاً ، و لا شك أن أغلب البشر يصفونها بأنها مجموعة من الصدف العجيبة ، فهل هي كذلك بالفعل ؟ دعونا

نقارب الموضوع سوياً لنرى .. و كمستهل لهذه المقاربة ، ما هو تعريفك للصدفة يا شام ؟ ..

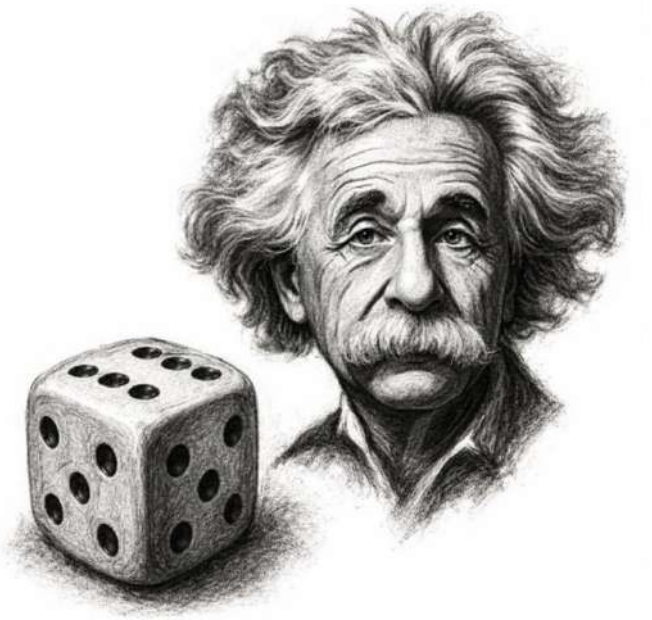
فكرت شام قليلاً ..

◯ الصدفة حادثة غريبة غير مفسرة بالعقل ..

● تماماً ، و أضيف إلى كلامك بأنها تتجاوز حدود المنطق و الاحتمالات و القوانين ، فيعتبرها البشر حظاً عبثياً بلا أسباب سابقة أو غايات لاحقة .. و دعونا كبداية لحديثنا عن الصدفة نستعين بمقولة لصديقنا العالم الشهير الذي سيظهر على الشاشة أمامكما ..

ضغط السيد عزيز الجهاز فظهرت صورة كبيرة لألبرت أينشتاين بجوار حجر نرد و كتب تحتها عدة كلمات قرأها السيد عزيز ..

● يقول أينشتاين كما هو واضح أمامكما :



(السماء لا تلعب النرد و لا تعتمد على المصادفات)

بمعنى أن أينشتاين يرى بأن كل شيء يحدث في حياتنا مدروس مسبقاً بحكمة إلهية لا تعرف الحظ أو الاحتمالات التي يتبعها النرد .. فهل تؤمنين بهذه النظرية يا شام ؟

◯ بالطبع ، إنّ إيماني بالله يفترض قناعتي بكل كلمة من هذه المقولة ..

ابتسم السيد عزيز ..

● إذن لماذا تستخدمين كلمة صدفة كثيراً في كلامك ؟!

ارتبكت شام و لم تعرف كيف ترد .. فأنقذها أوليفر على الفور بالقول مبتسماً

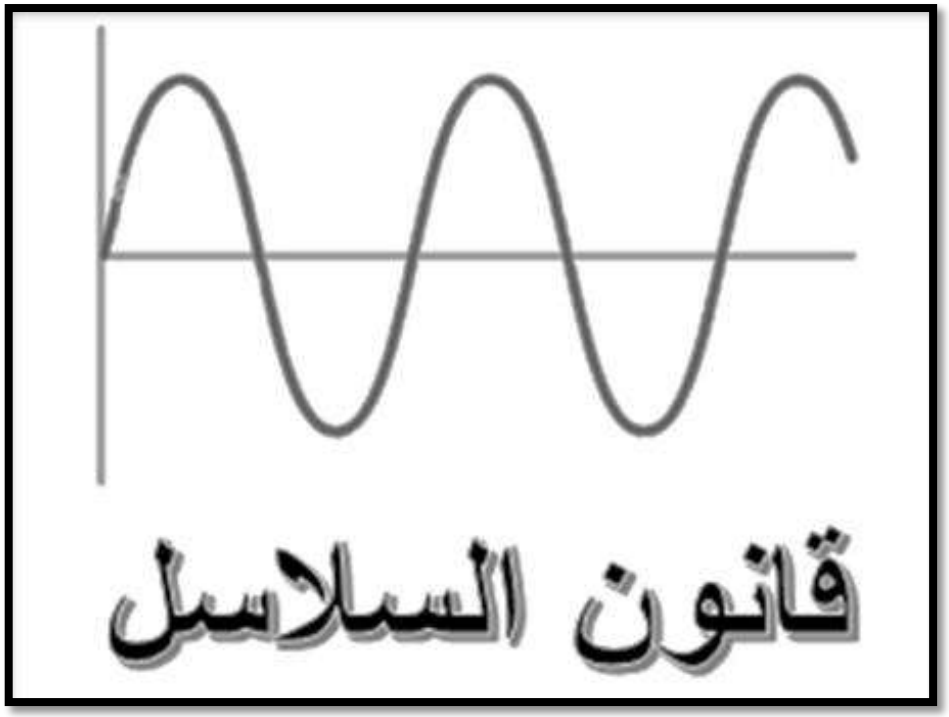
◯ إنه تعبير مجازي سيد عزيز نقصد به عجزنا عن تفسير بعض الظواهر

● أعلم ذلك أنا أمازح شام بالطبع ، و ما تفسيرك أنت سيد أوليفر للمصادفات في الحياة ..؟!

◯ في الحقيقة ليس لدي أي تفسير ، هل تملك واحداً سيد عزيز ..؟!

● أعتقد ذلك ، في الحقيقة تفسير الصدف يمكن تحقيقه عبر **3** زوايا ، علمية و دينية و عملية تتقاطع محاورها في نتيجة واحدة .. و لنبدأ مباشرةً بأولى الزوايا و هي الزاوية العلمية ..

ضغط السيد عزيز الزر فظهرت على الشاشة صورة لما يشبه التيار الجيبي كتب تحتها (**قانون السلاسل**) ..



◯ إنّ أشهر تفسير علمي للصدف هو نظرية عالم البيولوجيا **بول كاميرر** في كتابه (**قانون السلاسل**) التي تصف تكرار الأحداث في الحياة والمجتمع بشكل موجات جيبية و تفترض أن هناك قوى خفية تحكم حركة موجات الأحداث تلك ، و ما يظهر لنا هو قمم تلك الموجات فقط على هيئة صدف أما مسبباتها العلمية فتقبع في القاع دون أن نتمكن منطقياً من إدراكها .. أي أن العالم بول أكد أنّ للصدف أسباباً علمية منطقية تسببها

لكننا نجهلها فقط ..

● منطقي !!

◯ أجل ..و هذا ما أكده الدين بدوره يا شام ، فنجد البارئ يخاطب نبيه موسى على قمة الجبل قائلاً :

(ثم جئت على قدرٍ يا موسى)

بمعنى أن ما يجري معنا من أحداث في حياتنا هو أقدار لا تعرف المصادفة أبداً .. و هذا ما نجده في آية قرآنية مذهلة أخرى تقول :

(ما أصاب من مصيبةٍ في الأرض و لا في أنفسكم إلا في كتابٍ

من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير * لكيلا تأسوا

على ما فاتكم و لا تفرحوا بما أتاكم)

أوليفر بذهول ...

● كل شيء يحدث في حياتنا مكتوب مسبقاً ؟!

◯ تماماً سيد أوليفر في كتابٍ خاص بكلٍّ منا عند البارئ .. و ما نحن سوى ممثلين لأدوارنا على خشبة مسرح الحياة التي هي بالضبط أحلامنا المسجلة على الحواسيب و تملى على أجسادنا السماوية فتمليها على أجسادنا الأرضية لتترجمها إلى أفعال ، و سنحلل ذلك أكثر بعد قليل ..

● مذهل و مخيف لا أنكر .. !!

◯ لكن سيد عزيز ، هذا لا يفسر بدوره كيفية حدوث المصادفات في حياتنا ، لماذا مثلاً شاهدنا أنا و أوليفر فلمي ماتريكس و أفاتار منذ أيام ثم تطرقت بنفسك إليهما اليوم على نحوٍ ساعدنا بقوة على فهم وجهات نظرك عن الروح ؟

● أحسنت يا شام .. هذا هو السؤال الأهم .. و الذي يقودنا إلى الزاوية الثالثة في حديثنا و هي الزاوية العملية ، أي كيف تحدث الصدف فعلياً ..؟

ضغط الزر مجدداً فظهرت على الشاشة صورة لجهاز الراوتر الذي يبث موجات تمكننا من استخدام الإنترنت .. فنظرت شام إلى أوليفر و ابتسما بدهشة ..



● صورة غير متوقعة ، أليس كذلك ؟! ..

◯ على الإطلاق !!

● لكنها ذات صلة وثيقة بكلامنا ، فتفسير الصدف يعتمد على نظريتين علميتين بسيطتين للغاية لكن هامتين على نحوٍ لا يوصف ، أولاً لدينا **نظرية الراوتر السماوي** التي تقول بأن **العلاقة بين الجسد السماوي و الجسد الأرضي ذات اتجاه وحيد بمعنى أن الجسد السماوي هو من يملي على**

الجسد الأرضي أفعاله .. بتعبير أدق الأحلام التي تدور في ذهن الجسد السماوي هي ذاتها التي تدور في ذهن الجسد الأرضي لكن على شكل أفكار يترجمها الجسد الأرضي إلى أفعال و بالتالي أحداث .. و لأن أحلام الأجساد السماوية معدة مسبقاً على نحوٍ متكامل و مترابط ، لذا نجد أنها تتداخل مع بعضها من خلال أفعال البشر .. تماماً كما لو كانت الأجساد السماوية عبارة عن جهاز راوتر يطلق موجات فكرية ، يرسلها باتجاه الأرض فيستقبلها الجسد الأرضي المناسب بواسطة مستقبلات خاصة في دماغه بحسب تكوينه البيولوجي و التي تختلف من شخص لآخر كنوع من الوحي السماوي مثلاً ، فهذا المصدر مشابه تماماً لآلية عمل جهاز الراوتر الذي يطلق الموجات لتستقبلها أجهزة حاسوب أو جوال خاصة دون غيرها ..

و هذه النظرية تفسر على سبيل المثال لماذا انبثقت أفكار كثير من الاكتشافات من أدمغة العلماء فجأة دون سابق إنذار ، الأمر الذي يصفه الأديب الشهير **مارك توين** خطأ بأنه صدفة بقوله :

(إن أعظم مكتشف في التاريخ هو الصدفة)

فرغم أن هذه المقولة صحيحة من جهة أن أغلب الاكتشافات و الاختراعات عبر الزمن تمت دون تخطيط مسبق لها ، إلا أنها خاطئة من جهة وسمها بصفة العبثية المطلقة و الحظ ، بل نتجت عن إيحاءات من الجسد السماوي للجسد الأرضي عبر موجات خاصة به .. تماماً كما حدث معكما عندما قررتما مشاهدة فلمي ماتريكس و أفاتار ، فكان ذلك عبارة عن موجات استقبلها دماغيكما من جسديكما السماويين و حرضتكما على فعل لك .. هل الفكرة واضحة ؟

● بكل تأكيد .. أي أن الغريب ليس بالصدف بل بالطريقة التي صممت بها أحلام الأجساد السماوية و بالتالي قصة البشرية على نحوٍ مترابط و متكامل ..

○ رائع يا شام ، تلخيص ممتاز للنظرية الأولى و هذا ينقلنا إلى النظرية الثانية المرتبطة بجوهرها معها.. و هي **نظرية الصورة الممزقة** و تفترض هذه النظرية بدورها أَنّ البشرية جمعاء عبارة عن لوحة فنية معقدة مرسومة

بأنامل القدر الإلهية ثم مزقت إلى مليارات القطع الصغيرة مع بدء الخليقة ، كل منا يمثل قطعة منها .. و ليست الحياة على الأرض سوى عودة التحام هذه القطع معاً و بالترتيب الصحيح .. أو بتشبيه آخر كلوحة فسيفسائية ملونة جميلة مؤلفة من العديد من القطع المختلفة بالحجم و الشكل و اللون تجتمع معاً لتشكيل اللوحة الكلية ، و كل قطعة منها على علاقة مميزة مع قطع محددة مجاورة لها .. مما يفسر لنا لماذا نلتقي بأشخاص بعينهم أو تجري معنا مواقف خاصة دون أخرى، فهي ليست سوى التئام للقطع المتجاورة مع بعضها في الصورة الكبرى الشاملة كحال وجودنا نحن الثلاثة معاً في هذا اليوم و في هذه الغرفة .. و ستنتهي الحياة و تقوم الساعة عند التحام آخر قطعتين من الصورة لتعود من جديد كاملةً و واضحة كما كانت قبل الخليقة تروي حكاية البشرية جمعاء من البداية إلى النهاية.. أما الآلية التي تجعل هذه القطع تأخذ موقعها الصحيح من الصورة فهي تنفيذ أحلام الأجساد السماوية التي تدور في أذهان الأجساد الأرضية كأفكار عن طريق الاقتران مع تلك الأجساد السماوية (الراوتر) و التي يعتقدها البشر جهلاً بأنها أفكار طارئة عبثية أو وليدة الصدفة و العشوائية ..

نظرت شام إلى أوليفر و ابتسما ..

● نظريات مذهلة بحق ، تفسر كل شيء و تجلو الغموض برمته !!

○ إذن أصبحتما تعرفان الآن جيداً كيف تحدث الصدف أي قمم الموجات في نظرية السلاسل ..

أوليفر ضاحكاً ..

● لقد شرّحت لنا كطبيب شرعي قاع تلك الموجات الغامض عبر هذه النظريات ، و لا ريب أن كل شيء بات واضحاً للغاية الآن !!

○ و هذا يسعدني بلا شك .. لقد كان عالم النفس **كارل غوستاف يونغ** و هو تلميذ **فرويد** محقاً في كتابه (**التزامن**) ..

● و ماذا قال بالضبط ؟!

○ قال يونج أن عدد المصادفات التي تحدث في الحياة أكبر و أعقد من عدد الاحتمالات الرياضية مما يفترض وجود أسباب أخرى منطقية

للمصادفات غير العبثية و العشوائية التي يفسر من خلالها كثير من الناس حدوث الصدف في حياتهم .. فنحن الثلاثة لم نجتمع سوياً اليوم في هذه الغرفة كي نناقش أموراً شيقة و جديدة من قبيل الصدفة بلا ريب .. بل تدبير إلهي حكيم ..

● كل شيء مكتوب و مدروس مسبقاً بحكمة و دقة لا متناهية .. يبدو أن أجسادنا السماوية متجاورة بأحلامها في صورة الحياة الكلية سيد عزيز !!

نظر السيد عزيز في ساعته و ابتسم ..

○ انتهت كلماتك اليوم كما بدأت سيد أوليفر بمنتهى الدقة .. و ليست صدفة على الإطلاق أننا انتهينا من حديثنا في الوقت المناسب تماماً ، فلدي موعد سفر هام إلى اللوكسمبورغ و عليّ المغادرة .. أشكركما على العشاء الشهي مجدداً ..

ابتسمت شام و أوليفر الذي قال ..

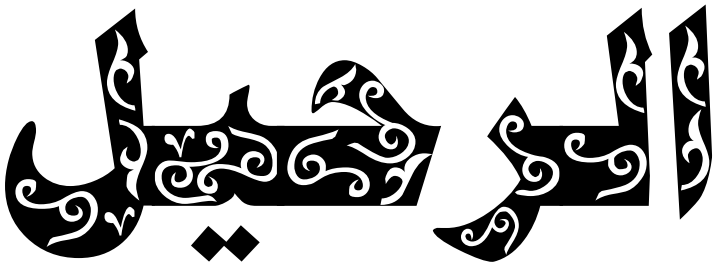
● نحن من نشكرك على وقتك الثمين و معلوماتك الغريبة القيمة سيد عزيز .. و متى موعد أسرارك القادمة ؟!

○ في الوقت المناسب يا صديقي .. في الوقت المناسب و الذي لن يكون صدفة بلا أدنى شك !! ..

الجزء الخامس

{ على قمة الهرم }

- الرحيل
  - رمضان و أيلول **99**
- العين التي لا تنام
  - هرم النقاط
- العقل الكونيّ
  - جذور الزيتونة
- العالم الآخر
  - القيامة


الإنجيل

ألمانيا / ميونخ

غارميش بارتن كيرشن ..

آب 2026 م ..

كان الصباح عاديًا إلى حدّ يثير الريبة، من تلك الصباحات التي تمشي فيها الحياة على رؤوس أصابعها، كأنها تخشى أن توقظ كارثة نائمة في أحد الزوايا.

في شقة أوليفر وشام في ميونخ، كان الضوء الشتوي يتسلل بكسل عبر النافذة الواسعة، يلمس أطراف الأثاث دون حميمية، ويترك في الجو برودة خفيفة لا تعود للطقس بقدر ما تعود لشيء غامض في الروح.

كانت شام تقف في المطبخ، تحضّر القهوة بيدٍ تحفظ الحركات أكثر مما تفكر فيها، فيما كان صوت غلاية الماء أشبه بأنين خافت، لا يشتكي، بل يذكّر فقط بوجوده.

الصغير نبيل و الصغيرة قمر كانا في الغرفة المجاورة ، غارقين في لعبهما الصامت، عالم صغير مستقل لا يعرف بعد معنى الأخبار العاجلة ولا ثقل الكلمات التي تغيّر المصائر.

أما أوليفر فكان جالسًا إلى الطاولة، يقلب هاتفه بلا هدف، كما لو أنه يبحث عن شيء لا يعرف اسمه.

قالت شام بهدوء، دون أن تلتفت :

◯ هل تريد قهوتك الآن عزيزي ؟

أجابها أوليفر متأخرًا نصف ثانية، وهو لا يزال يحدّق في الشاشة :

● نعم ... الآن.

لم يكن في صوته شيء مريب، لكن قلبه، دون سبب واضح، كان يدق

أسرع بقليل من المعتاد.

جلسا لاحقًا في غرفة الجلوس، القهوة بينهما، صامتين كزوجين يعرفان بعضهما إلى حدّ لا يحتاجان فيه للكلام. التلفاز كان يعمل في الخلفية، قناة إخبارية، لا أحد ينتبه لها فعليًا، مجرد ضجيج مألوف يمنح البيت إحساسًا زائفًا بالأمان.

ثم تغيّر الصوت.

تغيّر إيقاع المذيعة، تلك النبرة التي يتعلّمها الصحفيون حين يضطرون لنطق الكلمات الثقيلة دون أن تنكسر أصواتهم. رفعت شام رأسها أولًا، كأن حاسةً قديمة في داخلها التقطت الخطر قبل أن يُسمّى.

(وردنا قبل قليل خبر عاجل عن تحطم طائرة ركاب مصرية كانت متجهة من القاهرة إلى هونغ كونغ ...)

تجمّد الزمن لوهلة قصيرة، تلك اللحظة التي تفصل بين سماع الخبر وفهمه، بين الصوت ومعناه.

شعر أوليفر بأن الهواء في الغرفة صار أكثر كثافة، كأن الرئتين لم تعودا تعرفان كيف تتنفسان.

في حين تابعت المذيعة :

(الطائرة اختفت عن شاشات الرادار فوق بحر الصين الجنوبي، وفرق الإنقاذ تشير إلى عدم وجود ناجين حتى اللحظة.)

لم تقل شام شيئًا، لكنها وضعت يدها على فمها من هول الكارثة، حركة لا إرادية، قديمة قدم الخوف.

أما أوليفر، فقد شعر بشيء بارد ينزلق في عموده الفقري، فكرة صغيرة، غير مكتملة، لكنها كانت حادّة بما يكفي لتؤلمه.

هونغ كونغ.

لم يكن الاسم عابرًا في ذاكرته. لم يكن مدينة على الخريطة، بل مكانًا مشحونًا بذكريات لا يعرف أحد سواه ثقلها. هناك، في أحد أحيائها المرتفعة، التقى السيد عزيز اليقين ذات مرة، بعيدًا عن العيون، في بيت لم يكن مجرد بيت، بل مساحة رمادية بين ما يُقال وما يُخفى ، فمنحه فيها المزيد من أسراره الكونية الكبرى عندما تحدث عن جذور الشرّ ..

قال بصوت منخفض، كأنه يخشى أن يسمع نفسه :

● شام ...

نظرت إليه، رأت في عينيه شيئًا لم تره منذ زمن طويل، ذلك القلق الذي لا يشبه القلق، بل يشبه المعرفة المسبقة.

لم يقل اسم هونغ كونغ، ولم يشرح. لم يكن بحاجة إلى ذلك، ولم تكن شام تعلم شيئًا عن ذلك المكان أصلًا. كل ما رأته هو الارتباك المفاجئ في وجه زوجها، ذلك الارتباك الذي لا يولد من فراغ.

أمسك أوليفر هاتفه بسرعة، كتب الرقم الذي يحفظه كما يحفظ اسمه، وضغط الاتصال.

مرة.

مرتان.

«الهاتف خارج نطاق الخدمة.»

ردّ الصوت الآلي ببرود قاتل.

حاول مرة ثالثة، كأن الإصرار قادر على تغيير قوانين الشبكات... أو قوانين المصير.

النتيجة نفسها.

بدأت الأخبار تتوالى، صور حطام، تصريحات غامضة، أسئلة بلا أجوبة. جلس أوليفر أمام الشاشة كمن ينتظر اعترافًا، كأن الحقيقة إن تأخرت قليلًا قد تُلغى من تلقاء نفسها.. شام إلى جانبه تحاول طمأنته بعد أن شرح لها سبب قلقه ..

○ اهدأ حبيبي .. الربط بين الموضوعين غير منطقي .. إن كان السيد عزيز يملك منزلاً في هونغ كونغ ، فذاك لا يعني بالضرورة أنه من ركاب الطائرة تلك ..

● أعلم .. لكن حدسي يقلقني .. أنا لست مطمئناً أبداً ، و لا أعرف تماماً لماذا ..

مرّت ساعات، ثم يوم، ثم ليل طويل بنوم متقطع تتخلله كوابيس متداخلة .

كان القلق يتحول ببطء إلى يقين خفي، إلى ذلك الإحساس الذي لا يريد الإنسان الاعتراف به لأنه، بمجرد أن يُسمّى، يصبح حقيقيًا.

وفي اليوم التالي، عند المساء، ظهرت لائحة ضحايا الحادثة .

قالت المذيعة :

(تم نشر الأسماء الرسمية للركاب الذين كانوا على متن الطائرة ، و للأسف لم ينجُ أحدٌ منهم ...)

شعر أوليفر بأن قلبه توقف عن الخفقان.

أمسك بيد شام، كانت يدها باردة على غير عادتها.

بدأت الأسماء تمر، أسماء لا يعرفها، لكنها بدت كلها ثقيلة، كأنها حجارة تُلقى في بئر واحدة.

ثم رآه.

عزيز اليقين.

لم يصرخ.

لم يتحرك.

لم يفعل شيئًا يُشبه الحزن كما تصفه الأفلام.

انهار بصمت.

سقط الهاتف من يده، وانحنى جسده قليلًا إلى الأمام، كما لو أن أحدهم قد سحب العمود الذي كان يسنده في حياته . شعر بشيء ينكسر، ليس دفعة واحدة، بل ببطء مؤلم، كزجاج سميك يتشقق تحت ضغط لا يُرى.

شام اقتربت منه، احتضنته دون كلمات. كانت تبكي، لكن دموعها لم تكن عالية، بل ثقيلة، تسيل كأنها تعرف الطريق منذ زمن.

في الغرفة المجاورة، كان نبيل وقمر يضحكان لسبب لم يعد مهماً ، ضحكات بريئة في غير وقتها .. أو ربما في الوقت المناسب تماماً .. أضحكهما القدر الرحيم محاولاً أن يلجم غمامة الحزن قبل أن تتمدد

*****

مرت الأيام بعد ذلك كما تمرّ الجنازات الطويلة في الذاكرة : بلا تفاصيل واضحة، مجرد إحساس مستمر بالفقد مع حالة أقرب إلى الإنكار .

كان أوليفر يستيقظ كل صباح وهو يتوقع، لجزء من الثانية، أن يكون كل ما حدث حلمًا سيئًا. ثم يعود الإدراك، قاسيًا، غير قابل للتفاوض.

بدأت الذكريات تتدفق.

أربع سنوات كاملة، تفتحت الآن ككتاب سري قُرأ دفعة واحدة.

رأى نفسه أول مرة يقف بحوار السيد عزيز في كنيسة سانتا ماريا ديليه غراتسيه في ميلانو، ذلك الرجل الذي كان يتحدث بهدوء من يعرف أكثر مما يقول. ثم تذكّر رحلاته بين البلدان ، الغرف المغلقة، الأسئلة التي تنجب الأسرار و الأحاجي المحببة إلى قلبه ..

تذكّر كيف تغيّرت نظرته للعالم، كيف صار يرى ما وراء الأشياء، و يقرأ ما بين السطور .. وكيف لم يعد قادرًا على العودة إلى جهله الأسبق المظلم

كل هذا ذهب و لم يتبقَ سوى الألم و الحزن و الذكريات ..

فالآن ... الرجل الذي فتح له الباب، لم يعد موجودًا.

لم يكن الفقد جديدًا على أوليفر.

فقد والديه من قبل، في حادث سير عابر، يومًا عاد فيه من العمل ليجد البيت صامتًا أكثر من اللازم ، مع رسالة صوتية على هاتفه تخبره بحادث فرنسا و وفاة والديه . كان شاباً صغيراً آنذاك، لم يستوعب كيف يمكن ليوم عادي أن يبتلع حياة كاملة في لحظة.

لكنه اليوم، وهو رجل، زوج، أب لطفلين بالكاد تعلّما نطق اسميهما، كان الألم أكثر تعقيدًا.

هذا ليس فقدًا فقط، بل انقطاع سلسلة، انهيار جسر بينه وبين معنى كان يتشكل ببطء.

قال لشام في إحدى الليالي، وهو جالس على حافة السرير :

● كنت أظن أنني تعلمت كيف أتحمّل الخسارة.

فأجابته بصوت مكسور :

○ لا أحد يتعلم ذلك حقًا .. الميتم لا يزال يصحبني في داخلي أينما ذهبت.

مرت أيام أخرى ، والحزن لم يتضاءل .. بل كان يتضخم، يتسلل إلى التفاصيل الصغيرة : إلى **كأس المتة الذي لم يعد له طعم و قد ذهب الشريك**

، إلى الصمت الذي صار أطول من اللازم، إلى اسمٍ لم يعد يُنطق دون أن يترك فراغًا خلفه.

أحيانًا، كان أوليفر يشعر بغضب غير مبرر.

غضب من الحياة، من السماء، من الطائرات، من الأسرار التي ورثها دون أن يرث معها الطمأنينة.

وأحيانًا أخرى، كان يشعر بذنب غامض، كأنه نجا وحده من شيء لم يكن يجب أن ينجو منه.

كم هي قاسية الحياة، فكّر، لا لأنها تأخذ منا من نحب فحسب، بل لأنها تفعل ذلك دون مقدمات ، دون شرح، دون اعتذار، ودون أن تمنحنا الوقت كي نودّع .. كي نقول ما لم يُقل.

وفي قلب هذا الحزن، كان هناك شعور آخر، صغير، خافت، لكنه عنيد ينبض في قلبه :

أن موت السيد عزيز لم يكن طبيعياً ... لأن الأشخاص أمثاله لا يرحلون بمثل هكذا عبثية ..

شيء لم يُفصح عنه بعد ما زال ينتظره .. و هو متعلق بهذا الأمل الذائب غير المفسر .. لكنه خيط الرجاء الذي لا يجرؤ على قطعه و لو بالإنكار غير المنطقي ..

رمضان وأيلول

99

ألمانيا / ميونخ

غارميش بارتن كيرشن ..

أيلول 2026 م ..

جاء شهر رمضان في ذلك العام على نحوٍ غير مألوف، قد يراه البعض ضيفاً ضلّ طريقه فدخل بيت الزمن في غير أوانه ، في حين يراه آخرون قد عاد أخيراً إلى مسكنه الأول الأساس !!.

حلّ هلاله متزامنًا مع أيلول، الشهر الذي تغطي فيه الأوراق الذهبية الأماكن و الطرقات . كان النهار أقصر بقليل من المعتاد ، والضوء أكثر ميلًا إلى الشحوب، كأن الشمس نفسها صائمة عن الفرح.

في ميونخ، لم يكن رمضان صاخبًا كما في المدن الشرقية، لكنه كان أعمق.

كان يحضر بصمتٍ داخلي، بإيقاعٍ خفيّ في الروح، وبشعورٍ عام بأن الوقت صار أبطأ، وأكثر قابلية للتأمل.

في إحدى الأمسيات الرمضانية، وقبل أذان المغرب بقليل، كانت شام في المطبخ، تتحرك بخفةٍ بين القدور، تراقب الوقت بعين، والطعام بعين، والذاكرة بقلبٍ كامل. رائحة البصل المحمّر امتزجت بالبهارات، وصار المطبخ جزيرة دافئة في بيتٍ ما زال الحزن يتجول في أروقته دون استئذان.

أما أوليفر، فكان في الحديقة.

جلس تحت شجرة الكافور التي يحبها ، صديقته في لحظات التأمل الطويلة

كانت شجرة قديمة، منحنية قليلًا، كأنها تنصت للأرض أكثر مما تنظر إلى السماء. أحبها لأنها لا تشبه شيئًا آخر، ولأن ظلها لا يكون كاملًا أبدًا، بل متكسّرًا، متحركًا، يشبه الأفكار حين لا تريد أن تستقر.

كان الهواء باردًا على نحوٍ لطيف، يحمل رائحة أوراق بدأت تفقد لونها.

أغمض عينيه، وترك ذكرياته تتسلل دون مقاومة.

عزيز اليقين.

كان حضوره يعود إليه هذه الأيام دون استئذان، في لحظات الصمت تحديدًا.

كلماته، طريقته في الجلوس، صمته الذي كان يقول أكثر مما يقول الكلام.

تساءل، للمرة التي لا يعرف عددها، إن كان قد قال له كل ما كان يجب أن يقوله، أم أن بعض الأسرار ماتت مع صاحبها... أو توارت في مكانٍ ما، بانتظار لحظة أخرى.

اهتز الهاتف فجأةً بين يديه.

لم يكن اهتزازًا عاديًا، بل قصيرًا، حادًا، كأن الجهاز نفسه شعر بثقل ما سيحمله.

فتح الشاشة دون اهتمام حقيقي، مجرد رد فعل، ثم ... توقّف.

تجمّد الدم في عروقه.

اسم المرسل كان واضحًا، بسيطًا، لكنه ضرب ذاكرته كصاعقة :

دياميس روما

لم يحتج إلى تفسير.

لم يحتج إلى سياق.

هذا الاسم لم يكن اسم شخص.

كان اسم مكان.

اسمٌ أطلقه السيد عزيز بنفسه على قبو منزله السريّ في جامايكا . قال له وقتئذٍ بابتسامة خفيفة :

(حتى الأسرار تحتاج إلى أسماء مستعارة.)

دياميس روما.

المخبأ السري، البيت المنعزل بين الأشجار في الضواحي، حيث التقيا منذ سنتين بعيدًا عن كل شيء.

مكان لم يكن يعرف بوجوده أحد سواهما ... وربما قلة لا تُحصى على أصابع اليد.

ارتجفت أصابعه.

كيف يمكن لاسمٍ كهذا أن يظهر الآن ؟

ومن يجرؤ على استخدامه ؟

تدفقت الأسئلة دفعة واحدة، كتيارٍ جارف لا يترك مجالًا للتفكير الهادئ :

هل السيد عزيز حي؟

هل في قصة تحطم الطائرة خدعة ما ؟

وإن لم يكن... فمن هذا الذي يكتب له الآن؟

هل هو شخص كلّفه عزيز بالوصول إليه إن حدث له مكروه ؟

أم أن هناك طبقة أخرى من الحقيقة لم يكن مستعدًا لها بعد ؟

في تلك اللحظة، ووسط هذا الارتباك، وُلد في قلبه شيء لم يشعر به منذ أسابيع :

الأمل.

لم يكن أملًا صافيًا، بل مترددًا، هشًا، لكنه كان حيًا.

بذرة صغيرة، لكنها كافية لتربك الحزن نفسه.

ضغط على الرسالة.

تردد للحظة قبل أن يقرأها ، كأن القراءة قد تغيّر كل شيء، وكأن الجهل – ولو لثوانٍ – سيبقى أرحم.

ثم حسم تردده ، وبدأ يقرأ :

((منذ فجر الحضارات، آمن الإنسان بأن الكون لم يُخلق اعتباطًا، بل بميزان دقيق ونظام عددي مقدّس. وفي قلب هذا النظام، يتجلّى الرقم **9** كعلامة على القانون الخفي الذي يحكم الوجود من الداخل. لقد رأى القدماء أن الأعداد

ليست مجرد أدوات للعدّ، بل هي رموز كونية، لكل عددٍ منها نغمة واهتزاز، كما لكل كوكب لحنٌ خاص في سيمفونية الوجود. ومن بين هذه النغمات، كانت **التسعة** الذروة الموسيقية للخلق، الرقم الذي يغلق الدائرة ويعيدها إلى الصفر في انسجام تام.

في الهندسة المقدسة - ذلك العلم الذي يجمع بين الرياضيات والروح - يحتل الرقم تسعة مكانة مركزية في تصميمات مثل زهرة الحياة، و بذرة الحياة، و مكعب متاترون.

هذه الأشكال ليست مجرد زخارف هندسية؛ بل تمثل البنية الرقمية للكون، تلك التي تتكرر في كل شيء، من الذرات إلى المجرات.

فزهرة الحياة، المكونة من دوائر متداخلة، تضم في نواتها تسع نقاط أساسية تشكّل نمط التكوين، كأن الرقم تسعة هو النبض الخفي الذي ينفخ الروح في الشكل.

كل دائرة من هذه الدوائر التسع تمثل مرحلة من مراحل الخلق، من المركز الإلهي حتى التجلّي المادي، في تتابع يشبه تماماً مراتب النفس التسع التي مرّ بها الإنسان في وعيه.

أما في النسبة الذهبية (**1.618**)، التي تُعدّ المفتاح الرياضي للجمال و الكمال في الطبيعة والفن، فإن الرقم تسعة يتكرر في التحليل الرقمي الخفي لهذه النسبة. فالنتائج المتسلسلة في القسمات العشرية للنسبة الذهبية تعود مراراً إلى مضاعفات التسعة، كما لو أن الجمال نفسه - في عمقه - مبني على تناغم تساعي غير مرئي.

حتى اللوغاريتمات الموسيقية، ومضاعفات الترددات الصوتية، تميل إلى القيم التي تنتهي بالرقم تسعة، كأن الاهتزاز الكوني نفسه يجد راحته في هذا الرقم، الذي يجمع ولا يفرّق، يوازن ولا يختلّ.

يقول العالم الشهير **نيكولا تسلا** - أحد أعظم العقول العلمية المظلومة في القرن العشرين - عبارته الشهيرة:

(لو كنتَ تعرف سرّ الأرقام 3 و 6 و 9 ، لأمسكتَ مفتاح الكون)

فهو كان يرى أن الكون كله مبني على تسلسل ثلاثي يتوّجه الرقم تسعة، إذ تمثل الثلاثة البذرة، والستة النمو، والتسعة الاكتمال.. ولاحظ أن جميع الظواهر الموجية والكهرومغناطيسية تخضع لإيقاعات تتوافق بشكل مدهش

مع مضاعفات هذه الأرقام، وكأن الرقم تسعة هو التردد الأعلى للوعي الكوني الذي ينظم الطاقات في شكلها الأنسب.

في الهندسة الروحية القديمة، وخصوصاً في مدارس **الهرمسية والقبّالة والفيثاغورية**، كان يُعتقد أن الرقم تسعة هو الرقم الذي يربط العالم المرئي بالعالم غير المرئي. فهو **البوابة التاسعة** التي عبَر منها الأنبياء والعرفاء في رحلاتهم نحو العوالم العليا.

حتى في رمزية الأهرامات، نجد أن عدد الأهرامات الرئيسية في هضبة الجيزة هو ثلاثة، لكن تصميمها قائم على تقسيمات ثلاثية في ثلاث مستويات - أي تسعة في المجموع - كما لو أن المعماري القديم أراد أن يجعل من الحجر نشيدًا رقمياً للسماء.

ويكشف العلم الحديث، في فيزياء الطاقة والموجات، عن علاقة مدهشة بين الرقم تسعة والدورات الطبيعية للكون. فدورات الشمس والمجال المغناطيسي الأرضي والأنماط الزمنية للنشاط الشمسي تميل إلى التكرار كل تسع سنوات تقريباً، مما جعل بعض العلماء يشيرون إلى وجود إيقاع تساعي في الحياة الكوكبية نفسها.

كما أن الذرات التي تحتوي على تسعة إلكترونات (كالفلور) تتمتع بقدرة عالية على الارتباط الكيميائي، كأن الرقم تسعة في التركيب الذري يمثل ذروة الجاذبية والتفاعل، قبل أن تبدأ الدائرة من جديد مع العنصر التالي.

في الفنون المعمارية و الطقسية القديمة ، خضعت المعابد ، و المساجد، والكنائس إلى نسب هندسية تساعية متكررة.

ففي **معبد أنغكور وات** في **كمبوديا**، نجد تسع أبراج ترمز إلى تسع مراحل من السماء.

وفي العمارة الإسلامية، تتكرر التسعات في تشكيلات القباب و المقرنصات، وكأن البنّاء كان يدرك أن الرقم تسعة يوصل المادة بالروح، والحجر بالسماء.

حتى في الخط العربي والزخارف القرآنية، نلحظ ميلاً إلى التقسيم التساعي، في السطر، والفراغ، والتماثل، كأن الفن نفسه يطيع قانوناً كونيًّا لا يُرى.

من منظور الهندسة الكونية، يمكن النظر إلى الرقم تسعة باعتباره التجسيد الرياضي للعودة إلى الوحدة.

في الرياضيات، إذا جمعت أرقام أي مضاعف من مضاعفات التسعة، ستعود دوماً إلى تسعة. هذه الخاصية البسيطة والمذهلة هي ما جعل بعض العلماء القدماء يرون فيه العدد الذي لا يفنى، لأنه يحفظ جوهره مهما تبدّلت أشكاله.

وهكذا يصبح التسعة هو **المبدأ الأبدي للثبات في التغيير** ، القانون الذي يضمن للكون اتزانه وسط الحركة المستمرة.

في الفلسفة الروحية الحديثة، وخصوصاً في **مدارس الهندسة الوعيّة** ، يُقال إن الرقم تسعة هو بصمة الخالق في الخلق. فهو الرقم الذي يربط الميكروكوزم (العالم الصغير في داخل الإنسان) بالماكروكوزم (العالم الكبير في الكون).

كل شيء - من نسب وجه الإنسان إلى دوران المجرات - يخضع لنظام رقمي يدور في تسعات، كما لو أن الوجود كله يعزف نغمة واحدة بتسع درجات، تتكرر بلا نهاية.

حين ننظر إلى الرقم تسعة من منظور الرياضيات المقدسة والهندسة الروحية، ندرك أن الكون نفسه مكتوب بلغة الأعداد، وأن التسعة هو السطر الأخير في هذه القصيدة الرقمية الكبرى.

إنه الرقم الذي يجمع النهاية بالبداية، السماء بالأرض، الماديات بالروحانيات ، و الشمس بالقمر كما في شعار التاوية بالضبط .

هو الرقم الذي يحرس الباب بين العالمين : عالم الأشكال وعالم المعاني .. عالم الظاهر و عالم الباطن ..

في لحظة تأمل، حين يغلق الإنسان عينيه ويرى الأشكال الهندسية تتكوّن في وعيه - مثل دوائر متداخلة ونسب ذهبية تتفتح كالزهور - يدرك أن الرقم تسعة ليس فكرة، بل نبض داخلي. نبض يقول له إن كل شيء يعود إلى أصله، وإن النظام الكوني ليس سوى مرآة لما في داخله هو.

فالتسعة ليست رقماً نعدّ به، بل إيقاع نعيش به.

إنه التوقيع الإلهي على معمار الوجود، والرمز الذي يهمس للوعي الإنساني :

(كل دائرة تنتهي عند تسعة ، لتبدأ من جديد في صِفرٍ يضيء)

يقول البارئ في القرآن الكريم :

(و لقد جعلنا في السماء بروجاً و زيناها للناظرين)



و **الله** هو رقم **9** في مركز هذا البرج مع أسمائه الحسنى **99** ، حيث يجمع في جوهره القمر(هلال و بدر) أو رمضان من جهة ، و أيلول أو الشمس أو النجم الذي يدور في فلكه ثمانية كواكب من جهة أخرى .. و هو كل الأضداد المعروفة (الأول و الآخر .. الظاهر و الباطن و غيرها ... عدا **الحيّ** فالله لن يكون **ميتاً** بأي شكل من الأشكال و تحت أي ظرف من الظروف)

و في الحقيقة الزيتونة (شجرة السماء المقدسة) تشكلت في رحم الكون الأكبر (الأب و الأم) عبر **9** مراحل تطورية كما لخصتها بإيجاز **أسطورة حي بن يقظان** ..

فأسرار رقم **9** سيد أوليفر في السماء تفوق في أهميتها و خطورتها أسراره على الأرض !!))

انتهى المقال و أغلق أوليفر الهاتف ببطء.

بقي جالسًا دون حركة، تحت شجرة الكافور، بينما كانت السماء فوقه تميل إلى البرتقالي الخافت، إيذانًا بقرب المغرب.

شعر وكأن شيئًا ما قد انفتح في داخله، بابٌ كان مغلقًا بإحكام، لا ليُدخِل طمأنينة، بل ليُدخل سؤالًا أكبر.

رقم تسعة.

لم يكن رقمًا عابرًا.

لم يكن يُذكر في سياقٍ عادي .. خصوصاً هذا العام بمجيء رمضان و أيلول معاً في شهر واحد ، أي **99** ، ثم الحديث عن الزيتونة شجرة السماء التي حدثه هنا السيد عزيز في أول لقاء جمعهما معاً و قال له أن كل شيء يتمحور حولها ..

تذكّر أيضاً كيف كان السيد عزيز يتحدث عن الأرقام لا بوصفها كميات، بل بوصفها مفاتيح.

كيف كان يقول إن بعض الأرقام لا تُعدّ، بل تُفهم.

وأن أخطر الأفكار ليست تلك التي نجهلها، بل تلك التي نفهمها جزئيًا.

- تذكر الأيام الإلهية السبعة و اليوم الآخر الثامن اللانهائي ، و ها هو الله **9** - يعلو فوقها جميعاً ..

هذه الرسالة من السيد عزيز لا مجال للشك .. لكن السؤال الأهم هنا هو :

هل أرسلها بنفسه ، أم أنه أوصى أحدهم بإرسالها في حال أصابه مكروه ؟!

ما قرأه لم يكن جوابًا، بل خريطة ناقصة.

استكمال للأسرار، نعم...

لكن استكمال من نوعٍ أخطر، لأنه لا يشرح، بل يلمّح.

شعر بدهشةٍ عميقة، ليست دهشة المفاجأة، بل دهشة الوقوف على حافة فكرة قد تغيّر كل شيء.

كانت الرسالة كأنها تقول له : ما عرفته حتى الآن من أسرار الحياة كان المدخل فقط، أما الداخل الحقيقي، فما زال مظلمًا و بحاجة للتنوير .

لكن السؤال نفسه ظلّ يدور في رأسه، بإلحاحٍ مؤلم :

من كتب هذه الرسالة ؟

هل السيد عزيز حي، يراقبه من مكانٍ ما، يختبر صبره، ويمدّه بالخيوط كما كان يفعل دائمًا ؟

أم أن اليد التي كتبت الآن هي يد شخصٍ آخر، وارثٍ غير مرئي، ينفّذ وصية لم تُكتب ؟

انطلق أذان المغرب، هادئًا، بعيدًا، كأنه يأتي من ذاكرة لا من مئذنة.

نهض أوليفر ببطء، وأطفأ الهاتف، كمن يؤجل مواجهة حتمية.

بعد الإفطار، جلس هو وشام في الحديقة مجدداً، كأسا المتة بينهما، بخارها الخفيف يصعد بكسل.

كان الأطفال قد ناموا، والبيت عاد إلى صمته المعتاد.

قصّ عليها كل شيء.

الاسم.

الرسالة.

الرقم.

الارتباك.

كانت شام تصغي دون مقاطعة، عيناها ثابتتان، لكن عقلها يعمل بعمق.

وعندما انتهى، صمتت قليلًا، ثم قالت بهدوءٍ يشبه الحكمة أكثر مما يشبه العزاء :

○ الرسائل القادمة ... هي التي ستوضح الحقيقة.

نظر في عينيها يبحث عن أمل ضائع .

● تظنين أنه حي ؟

ابتسمت ابتسامة خفيفة، لا تجزم ولا تنفي لكنها منحته ما يبحث عنه.

○ أظن أن الأهم الآن... أن هناك أملًا .. وأن الحقيقة، أيًا كانت، لم تقل كلمتها الأخيرة بعد .. و كما عودنا السيد عزيز ، فمفاجآته لا تنتهي ..

أطرق أوليفر رأسه.

كان يعرف أنها محقة.

لم يكن بوسعهما أن يفعلا شيئًا.

لا سفر، ولا بحث، ولا مواجهة.

فقط... انتظار مضجر .. انتظار مؤلم .

وفي هذا الانتظار، كان رمضان يواصل مروره الهادئ ..

والليل يطيل صمته ..

والأسرار، كعادتها، تختار لحظتها بنفسها.

العين التي لا تنام

ألمانيا / ميونخ

غارميش بارتن كيرشن ..

تشرين الأول 2026 م ..

مضى شهر كامل على تلك الرسالة الغريبة التي جاءت محمّلة بالأمل والأسئلة معًا.

شهرٌ بدا فيه الزمن متردّدًا، لا يتقدم بثقة ولا يعود إلى الوراء، كأنه ينتظر إشارة خفية ليقرر اتجاهه. خلاله، لم تصل رسائل أخرى، ولم يحدث ما يبدد الشك أو يعمّقه، لكن الشعور الذي زرعته تلك الكلمات القليلة لم يخبُ، بل ظلّ يقظًا، كجمرة مدفونة تحت الرماد.

في أحد الأمسيات الهادئة، كان أوليفر جالسًا في غرفة القراءة الخاصة به. غرفة أحبها لأنها كانت تشبهه في تلك المرحلة : مغلقة، صامتة، مثقلة بالمعاني.

على المكتب أمامه انتصب المجهر الذي حصل عليه في البرازيل و على الجدران، علّقت لوحات عزيز اليقين التي أهداها له عبر السنوات، لوحات لا تشرح نفسها، بل تُربك من ينظر إليها، رموزٌ مرسومة بغايات مختلفة، أشكال متداخلة، وخطوط توحي بأن ما نراه ليس إلا قشرة لشيء أعمق.

كان الضوء خافتًا، والمصباح الوحيد على الطاولة يلقي ظلًا مائلًا على الكتب المفتوحة.

لم يكن يقرأ فعلًا، بل كان ينتظر دون أن يعترف بذلك لنفسه.

وحين اهتز الهاتف، عرف.

لم يكن في الاهتزاز شيء مختلف، لكن قلبه استجاب قبله.

مدّ يده ببطء، وكأن الزمن تمدد بين الحركة واللمس، وفتح الشاشة.

المرسل نفسه : **ديباميس روما**

فتح الرسالة.

كانت قصيرة.

قاسية في اختصارها.

سطرٌ واحدٌ فقط، لكنه كان أثقل من صفحات كاملة :

(اللقاء في الخامس والعشرين من الشهر على قمة هرم خوفو .

منتصف الليل ، أنتظرك.)

لم تتسع الغرفة لفرحته.

نهض واقفًا دفعة واحدة، كأن الأرض تحت قدميه لم تعد ثابتة.

تسارعت أنفاسه، وشعر بأن قلبه يطرق صدره بإيقاعٍ غير منتظم، ليس خوفًا هذه المرة، بل اندفاعًا خالصًا.

عزيز حي.

هذا ما افترضته الرسالة دون أن تقوله صراحة.

لم تحتج إلى توقيع، ولا إلى تفسير.

و كلمتا دياميس روما تذكرانه مجدداً بحادث السير في الإسكندرية الذي قيل أن السيد عزيز قتل فيه ليتبين لاحقاً أنه حي في جامايكا في منزله الذي أطلق عليه اسم (دياميس روما) .. إنها أشبه بتلميح من السيد عزيز بأنه لا يزال حياً مرة أخرى ..

قمة هرم خوفو لم تكن مكانًا عشوائيًا، ولم تكن اختيارًا يمكن أن يصدر عن شخص غريب عن عالم عزيز اليقين.

صحيح أن مكان اللقاء بدا غريبًا إلى حدّ الجنون، لكن أوليفر كان يعرف نفسه جيدًا :

لو طُلب منه أن يذهب إلى أقصى نقطة في هذا الكوكب، لفعل.

محبته للسيد عزيز، وامتنانه له، وما ربط بينهما خلال أربع سنوات، كانت كافية لأن تحمله إلى أي مكان، مهما بدا غير معقول.

نظر إلى التاريخ مرة أخرى.

الموعد بعد يوم فقط.

إذن ... لا وقت للتردد.

جلس فورًا، فتح حاسوبه، وبدأ بحجز تذكرة الطيران إلى القاهرة.

اختار رحلة الصباح، كأنه لا يريد أن يترك للوقت فرصة ليغيّر رأيه.

حجز فندقًا قريبًا، دون اهتمام بالتفاصيل، فكل شيء بدا ثانويًا أمام تلك الجملة الوحيدة التي ما زالت تتردد في رأسه.

أغلق الحاسوب، ونهض بخطوات سريعة، ونزل إلى الطابق السفلي حيث كانت شام .

كانت تجلس في غرفة الجلوس، تقرأ، وعندما رأت وجهه، عرفت قبل أن يتكلم أن شيئًا ما قد حدث.

قال لها الخبر دفعة واحدة، بصوتٍ لم يستطع إخفاء ارتجافه.

شاركتْه فرحته، ابتسمت، وضعت يدها على يده، لكن عقلها المنطقي – كعادته – لم يترك نفسه يندفع بلا ضوابط.

قالت بهدوءٍ محسوب :

○ على الأرجح المرسل هو السيد عزيز شخصيًا ... لكن يبقى هناك احتمال آخر.

نظر إليها، مستفهماً، فأردفت :

○ قد يكون شخصًا كلفه السيد عزيز بمهام إرسال الرسائل، وسيلتقيك هناك ليمنحك شيئًا ... وصية، أو رسالة أخيرة، أو ما يشبه ذلك.

كان أوليفر يدرك أنها على حق.

كان يعرف أن المنطق لا يسمح بالقفز مباشرة إلى اليقين، لكن هذا الإدراك لم يُضعف فرحته.

فبصيص الأمل، مهما كان هشًا، كان خيرًا من دنيا كاملة من الظلام.

*****

في صباح اليوم التالي، كان أوليفر جالسًا في صالة الانتظار في مطار ميونخ.

الناس من حوله يتحركون كعادتهم، حقائب، أصوات، إعلانات رتيبة، وكل شيء يبدو طبيعيًا إلى حدّ الاستفزاز.

أما هو، فكان يعيش في عالمٍ آخر، معلقًا بين ما يعرفه وما يتمنى أن يكون صحيحًا.

وقبل أن يُعلن عن الصعود إلى الطائرة، اهتز الهاتف مجددًا.

المرسل نفسه.

فتح الرسالة، وهذه المرة بتركيزٍ كامل، كأن حاسة سادسة قد استيقظت فيه ، ليجد ما كتب فيها حقائق أغرب مما سبقها .

((منذ فجر التاريخ، كانت العين أكثر من مجرد عضوٍ للرؤية؛ كانت بوابةً بين الداخل والخارج، بين الإنسان والعالم، بين الوعي والمجهول. لم ينل أيّ عضوٍ من الجسد البشري ذلك القدر من التقديس والرهبة كما نالته العين. فقد رآها القدماء مرآةً للروح، عينَ الإله الرقيب، عينَ الشرّ الساحر، وعينَ الحكمة التي لا تنام.

في مصر القديمة، كانت العين محورًا من محاور العقيدة والرمز. فقد قدّس المصريون القدماء **عين حورس**، رمز الحماية والبصيرة والشفاء. تقول الأسطورة إن حورس فقد عينه في معركته مع **ست**، إله الشرّ و الفوضى، ثم أعادها **تحوت**، إله الحكمة، لتصبح العين رمزًا للعودة والنظام بعد الفوضى، والنور بعد الظلمة.

كان المصريّ يعلّق هذا الرمز في عنقه، يعلّقه على جدران المقابر والسفن والقصور، كدرعٍ ضد الشرّ وكسراجٍ للطمأنينة. ومن هناك انتقلت عين حورس إلى الثقافات المتوسطية، لتتحوّل لاحقًا إلى ما عُرف **بالعين الزرقاء** في التراث الشعبي لحوض البحر المتوسط والشرق الأوسط، رمزًا للوقاية من الحسد والنظر الخبيث.

وفي اليونان القديمة، وُجد الاعتقاد بالعين الشريرة ، حيث ظن الناس أن النظرة المليئة بالحسد يمكن أن تصيب بالمرض أو النحس أو الموت. لذلك علّقوا الرموز الزرقاء والتمائم لحماية أنفسهم من تلك الطاقة السلبية الخارجة

من نظرة الآخر. وفي فلسفة اليونانيين، كان البصر هو أسمى الحواس، لأنه يرتبط بالنور والعقل والمعرفة. فقال **أفلاطون** إن العين ليست مجرد وسيلة للإبصار، بل هي مرآة تعكس النفس، ونافذة يدخل منها النور الإلهي إلى الفكر.

أما في الديانات الإبراهيمية، فقد احتلت العين مكانة مهيبة. ففي **اليهودية،** ترد الإشارة إلى عين الرب التي تراقب الأرض كلها : (**عين الرب على الصدّيقين وأذناه إلى صراخهم**) ، فهي ليست عينًا جسدية، بل رمز للعلم الإلهي الذي لا يغيب عنه شيء. أما في **المسيحية،** فالعين رمز للضمير والنور الداخلي : (**سراج الجسد هو العين، فإن كانت عينك بسيطة فجسدك كله يكون نيرًا**) .. وفي الكنائس القديمة، كثيرًا ما يُرسم مثلث تحيط به أشعة النور تتوسطه عين، يُعرف بـعين العناية الإلهية أو العين التي ترى كل شيء، وهي تمثل حضور الله الدائم ومراقبته للعالم.

وفي **الإسلام،** تحضر العين في مستويات متعددة : في القرآن، تُذكر العين كأداةٍ للمعرفة والتأمل في آيات الكون : (**أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيّناها**) ، كما ترد كرمزٍ للفتنة والحسد : (**وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر)**، ومن هنا جاءت الرقية من العين، أي من النظرة الحاسدة. وفي التصوف الإسلامي، تُذكر العين بوصفها عين القلب ، تلك البصيرة التي ترى ما لا يُرى، وتبصر المعنى في ما وراء الشكل. يقول ابن عربي : (**العين ترى بالله، لا بنفسها، فإن رأت بنفسها عميت عن الحق**)

و في **الهندوسية،** تتجلى العين في شكلٍ آخر: العين الثالثة، **عين شيفا،** عين الإدراك الأعلى، التي تُفتح في منتصف الجبين حين يبلغ الإنسان حالة الوعي الكوني. ليست هذه العين جسدية، بل روحية، تمثل القوة التي تُبصر الباطن، وتخترق الحجب بين العالم المادي وعالم الروح. في الفنون الهندية، يُرسم شيفا بعين ثالثة مفتوحة، يخرج منها لهيب، رمز النور الذي يحرق الجهل ويكشف الحقيقة

وفي **البوذية،** تُعبّر العين الثالثة أيضًا عن عين الحكمة، وعن إدراك الدارما (الحقيقة الكبرى في الكون). أما تماثيل بوذا، فتتصف بعيون نصف مغلقة، وكأنها تجمع بين النظر إلى الداخل والخارج في آنٍ واحد، في توازنٍ بين العالمين : عالم التأمل وعالم الواقع.

وفي الشرق الأقصى، في الصين واليابان، ارتبطت العين بالتنين والعنقاء، مخلوقات الخلق الأولى التي ترى ما لا يراه البشر. في بعض الأساطير، كان خلق العالم يبدأ حين يفتح التنين عينه للمرة الأولى، فيفيض النور والوعي في الكون. ومن هنا، صارت العين رمزًا للخلق والإدراك، لا مجرد أداة للرؤية.

أما في **الفلسفة الغربية الحديثة**، فقد أخذت العين بُعدًا معرفيًا جديدًا. ففي فكر **ديكارت**، كانت العين رمزًا للذات التي تراقب العالم من موقعها المستقل، بينما في فكر **نيتشه**، تحوّلت العين إلى أداةٍ للقدرة، إذ يرى الإنسان ما يريد أن يراه، لا ما هو كائن بالفعل. وفي الفنون البصرية المعاصرة، أخذت العين شكل المرآة التي تعكس نظرة الإنسان إلى ذاته والعالم؛ فالسرياليون رسموها كبحرٍ أو ككوكب، وكأنها تختزن في تكوينها سرّ الخلق والجنون معًا.

و لم يخلُ تراث من رمزية العين : في الحكايات الشعبية، تُروى قصص عن عيونٍ تبصر الغيب، وعن عيونٍ تُطفأ حين تنظر إلى ما لا يجوز، وعن عيونٍ تُنير ليل العاشقين.

في **التراث العربي**، كانت العين محور الشعر والغزل، رمز الجمال والدهشة والفتنة. قيل : (العين مرآة القلب)، و (من العيون تُكشف الأسرار) .. كما وُلدت حولها فكرة العين الحسودة، فتجد التمائم الزرقاء، وكلمة (ما شاء الله) تُقال درءًا ضدها، وكأن الإنسان يخشى أن تتحول نظرة الإعجاب إلى سهمٍ من طاقةٍ غير مرئية.

وفي **التراث الفارسي والتركي**، يُسمّى الرمز الأزرق النَظَر **بونجوك**، يُعلّق في البيوت والسيارات والمحالّ، وكأنه تعويذة لدرء الطاقة السلبية. وفي **شمال أفريقيا**، يُرسم كفّ تتوسطه عين، يُعرف بـالخُمسَة أو يد فاطمة، رمز للحماية من العين والحسد، وتعبير عن كفّ الرحمة الإلهية التي تدرأ الشرّ.

وفي الفنون، اتخذت العين مسارًا مزدوجًا : فهي أداة الفنان ومادته في آنٍ واحد. رسمها **ليوناردو دافنشي** بدقّة العالم الذي يرى في الضوء سرّ الحياة، وكرّرها **سلفادور دالي** رمزًا للوعي المتشظي والجنون الإبداعي. وفي السينما، غدت العين محورًا للفكر البصري كله - من عين الكاميرا إلى عين المشاهد - لأن كل سردٍ هو في النهاية فعلُ نظر.

أما في **التراث الصوفي** ، فقد تجاوزت العين معناها الجسدي لتصبح رمزًا

للانكشاف. قال الحلاج : (**رأيت ربي بعين قلبي، فقلت : من أنت ؟ فقال : أنت.**) ، وهنا تذوب المسافة بين العين والموضوع، بين الناظر والمنظور. إنها لحظة الاتحاد الكوني، حين تُصبح العين كوكبًا يدور في مدار الحقيقة.

إذن تتجمع في رمزية العين كل الأضداد : النور و الظلمة، الحسد والحماية، المعرفة والفتنة، الظاهر والباطن. **إنها أكثر الرموز تداخلًا في التاريخ الإنساني لأنها تمثل الوعي نفسه ، وعي الإنسان بأنه يُبصر، وأنه يُبصَر.**

ومن هنا، يمكن القول إنّ العين ليست عضوًا في الجسد، بل رمزٌ لليقظة الكونية، لتلك الشرارة التي جعلت الإنسان يرى نفسه والكون في ذات اللحظة ..

فالعين، في جوهرها، هي صورة الله فينا، لأنها تَشهد، كما يشهد الله على خلقه. إنها المفتاح الذي يربط بين الرؤية المادية و البصيرة الروحية، بين العلم والإيمان، بين الفلسفة والأسطورة. وكلما أمعن الإنسان النظر في الوجود، اكتشف أن ما يراه في الخارج ليس إلا انعكاسًا لما في عينه الداخلية ، عين الوعي التي لا تنام.

ليست عين الله عضوًا فيزيائيًا ولا صورة مجازية للوجه الإلهي، بل هي رمز الإدراك المطلق الذي لا تحدّه الحواس ولا تخطئه الظنون. إنها عين الوجود نفسه، التي **ترى لا لأنها تملك بصرًا، بل لأنها أصل النور الذي يجعل الرؤية ممكنة**. فالذي خلق العيون لا يحتاج عينًا ليرى؛ والذي وهب الإدراك لا يحتاج وسيلة ليدرك.

إنّ عين الله ليست في مكان بعينه، لكنها في كل مكان؛ لا تُطلّ من السماء فحسب، بل تتخلل الوجود كما يتخلل الضوء الذرّة. هي حضورٌ يقظ دائم، لا يغيب لحظة عن مجريات العالم، حتى وإن بدا الكون غارقًا في فوضاه. إنها العين التي ترى ما في الصدور قبل أن تنطق الشفاه، والتي تعرف نية الفعل قبل أن يتحرك الجسد. تلك العين لا تنام لأنها ليست مخلوقة، بل هي يقظة الوجود الأبدية، الوعي الكلي الذي يسكب على العالم طمأنينة مراقبةٍ لا تُخطئ ، الذي يعرف ما يدور دون أن يراه ..

في نظر العارفين، ليست عين الله مراقِبة بالمعنى البشري، بل شهادة للكينونة نفسها. فكل ما يوجد إنما يوجد لأنه منظور إليه من الله. يقول الفيلسوف المسلم **صدر الدين الشيرازي** : (وجود الأشياء هو تجلّي العلم

الإلهي بها) .. فلو غاب عنها نظر الله، لغابت هي معه. إنّ رؤيته هي التي تحفظ الوجود في حضوره، كما يحفظ الضوء الأشياء من أن تذوب في الظلمة. ولهذا كانت عين الله هي الضوء الذي به يرى كل شيء نفسه.

أما في الوجدان الديني، فهذه العين تحمل معنى الرحمة والعدل في آنٍ واحد. هي عين ترقّ على الضعيف، وتُمهل الظالم، لكنها لا تُهمل. يراها الإنسان فوقه حين يخطئ، فيرتجف ضميره، ويرى فيها حضنًا حين يضيع، فيسكن قلبه. إنها ليست عين قاضٍ بل عين

أب كوني، تحيط بمخلوقاته علماً وحنانًا، فلا يغيب عنها أحد.

وفي الشعر الصوفي، ترد عين الله بوصفها عين المحبة المطلقة التي ترى الخلق بذات اللطف الذي أوجدتهم به.

يقول **جلال الدين الرومي** :

(حين تظن أن لا أحد يراك، تذكّر أن النور الذي يراك هو أنت.)

فالعين الإلهية ليست بعيدة عنا، بل هي مقيمة فينا؛ في الوعي الذي يشعر بالذنب قبل العقاب، وفي الندم الذي يسبق التوبة، وفي النور الخفي الذي يجعل القلب يفرّق بين الخير والشر دون أن يُقال له ذلك. إنّ إدراك الله ليس مراقبةً من الخارج، بل سكنى في الداخل.

وحين ننظر إلى السماء، لا نرى عينًا محدّقة، بل نرى مرآةً كبرى تعكس وعينا ذاته. فالسماء تراقب لأننا نحسّها حاضرة، ونجومها تشبه عيونًا لا تغفو، لكنها في حقيقتها إشاراتٌ إلى حضور أوسع : **حضور الوعي الإلهي الذي يدرك الأشياء في لحظتها، دون حاجة إلى زمان أو مسافة.**

تلك هي عين السماء التي لا تنام ، لا لأنها تتعب أو تسهر، بل لأنها ليست في زمن أصلاً. إنها الوعي المتجاوز الذي يحفظ الكون قائمًا على نظامه، في كل لحظة من اللانهاية. ولو غمضت تلك العين، لانطفأ الوجود بأسره، كما ينطفئ الحلم إذا استيقظ صاحبه.

فعين الله ليست رقيبًا على الحياة، بل هي الحياة التي ترى نفسها من خلالنا. وكل ما نراه نحن ليس إلا انعكاسًا صغيرًا لتلك الرؤية الكبرى. **وإذا كانت العيون البشرية تبصر بالأشعة، فإن عين الله تبصر بالوجود ذاته. إنها الرؤية التي لا تحتاج إلى نظر، لأنها علمٌ محض، وإحاطةٌ بلا حدود.**

البعض يحاول ظلماً و تزويراً اختزال العين إلى البؤبؤ كمن يختزل الكاميرا إلى عدستها .. لكن في الحقيقة العين هي كيان متكامل .. جفنان من أب و أم ، شمس و قمر ، كصدفتي محارة تحتضنان بينهما مادة بيضاء ناصعة و قزحية ملونة بألوان الطيف تمنح كل شخص بصمته الفريدة و بؤبؤ أسود يمر فيه الضوء إلى مستقره الأخير على الشبكية .. إن كرة العين أشبه بالكرة الأرضية و أشبه بالكون نفسه تختزل في تكوينها كل الوجود بكل تناقضاته و أبعاده و **كأنها ليست نافذة لرؤية مشهد بل لرؤية الوجود برمته ..**

في الختام ، هنالك علوم لا نتعلمها في جامعات الأرض سيد أوليفر حتى و إن كانت جامعة **عين شمس** كما رأيت بأم العين خلال الأعوام الأربعة المنصرمة ، بل في جامعة السماء ذاتها كالعلوم الإلهية على سبيل المثال عندما يكون الله في المركز و تدور الكواكب و الحقائق و الأسرار في فلكه..))

ما إن انتهى أوليفر من القراءة حتى شعر بقشعريرة تسري في جسده.

كانت الرسالة تتحدث عن العين...

العين بوصفها رمزًا مقدسًا عند الحضارات القديمة، وعينًا للسماء في آنٍ واحد.

العين التي لا تنام، التي ترى دون أن تُرى، التي تعرف أين يكون الإنسان قبل أن يعترف هو بذلك.

لقد عرفت أنه في صالة الانتظار.

عرفت أنه لم يصعد الطائرة بعد.

ابتلع ريقه.

هذا الأسلوب...

هذه المعرفة الدقيقة بتنقلاته...

يعرفها جيدًا.

هكذا كان السيد عزيز دائمًا.

خلال السنوات الأربع المنصرمة، كان يعرف أين يكون، متى يسافر، وأحيانًا ماذا يفكر، دون أن يسأل.

تدفقت إلى ذاكرته لحظة قديمة في هونغ كونغ، قبل عامين، عندما قال له السيد عزيز و هو يشرح على جهاز الإسقاط في ليلة ماطرة :

(شعاري المفضل في الحياة هو العين الثالثة ...وسأشرح لك معناها العميق في نهاية رحلة البحث عن الحقيقة.)

في ذلك الوقت، لم يسأل.

كان يعرف أن بعض الشروح لا تُعطى إلا حين يحين وقتها.

فهل وصلت الرحلة إلى محطتها الأخيرة إذن؟

راوده إحساس مزعج.

إحساس بأن تكثيف الحقائق، وتسارع الكشف، لا يعد بشيء مفرح.

كان الأمر أشبه بشخصٍ محتضر، يملي وصيته بسرعة، قبل أن يغادر الوجود دون أن يلتفت خلفه.

هزّ رأسه بقوة، محاولًا طرد هذه الأفكار السوداوية، في اللحظة نفسها التي دوّى فيها الصوت الآلي في الصالة :

(الرحلة المتجهة إلى القاهرة ... يرجى من السادة المسافرين التوجه إلى بوابة الصعود.)

نهض أوليفر، حمل حقيبته، وألقى نظرة أخيرة على الهاتف قبل أن يضعه في جيبه.

مهما كانت الحقيقة...

كان قد اختار أن يذهب إليها.

هرم النقاط

مصر / القاهرة

تشرين الأول 2026 م ..

وصل أوليفر إلى الفندق قبيل العصر بقليل.

كان التعب قد بدأ يتسلل إلى جسده، لا من الرحلة وحدها، بل من ثقل الترقّب الذي حمله معه منذ مغادرته ميونخ. صعد إلى غرفته، وضع حقيبته قرب السرير، ونظّم حاجياته بحركات بطيئة، كأن ترتيب الأشياء الخارجية قد يساعده على ترتيب ما يعجّ في داخله.

اغتسل طويلًا، ترك الماء ينهمر على رأسه كأنه يحاول أن يغسل الأسئلة نفسها، لا آثار السفر فقط. ثم تناول طعامًا خفيفًا دون شهية حقيقية، مجرد طقسٍ ضروري ليبقى واقفًا حتى الليل.

عندما خرج إلى الشرفة، كان النهار قد بدأ يميل نحو الانكسار.

ومن هناك... رآها.

الأهرامات.

بدت من بعيد أقل ضخامة مما في الصور، لكنها كانت أثقل حضورًا.

كانت تقف في الأفق بثباتٍ لا يحتاج إلى استعراض، وأمامها، بدا ظلّ أبي الهول ممدودًا، صامتًا، كتميمة حظّ قديمة تحرس أسرارًا لم تُخلق لتُقال بسهولة.

استند أوليفر إلى حافة الشرفة، وترك نظره يستقر هناك.

فكّر بكل ما سبق وجرى.

بالرسائل، بالانتظار، بالأمل الذي نما رغم كل شيء.

بعد ساعات فقط، سيكون على قمة الحقيقة... أو على حافة خيبة جديدة.

هل السيد عزيز حي ؟

هل نجا فعلًا من تحطم الطائرة، واختار هذا المسرح العتيق ليكشف نفسه ؟

أم أنه مات بالفعل، وأرسل مبعوثًا ليبلغه رسالة شفهية أخيرة، أو إرثًا ماديًا له علاقة بالأسرار الكونية التي كان يحملها ؟

أمسك هاتفه، وبدأ يبحث كي يستعد لمغامرة منتصف الليل .

هرم خوفو.

ارتفاعه.

عدد طبقاته الحجرية.

طريقة الصعود إلى قمته، والزمن الذي قد يستغرقه ذلك.

قرأ أن الصعود ليس سهلًا، وأن الدرجات ليست درجات فعلية، بل كتل حجرية شاهقة، تتطلب توازنًا، قوة، وصبرًا.

قرأ عن محاولات فاشلة، عن تعبٍ مفاجئ، عن ليلٍ لا يشبه ليل المدن.

أغلق الهاتف، وزفر بعمق.

كان يعرف أنه – رغم صعوبة المهمة - لن يتراجع.

*****

عند الساعة العاشرة ليلًا، وصل أوليفر إلى منطقة الأهرامات.

الليل هناك لم يكن مظلمًا تمامًا، ولا مضيئًا كما في المدينة.

كان خليطًا غريبًا من الظلال والنجوم، كأن السماء قررت أن تكون قريبة هذه الليلة.

شق طريقه نحو هرم خوفو.

كان يعرف المسار جيدًا، يتبع التعليمات التي رسمها الذكاء الاصطناعي على هاتفه، لكنه كان يشعر أن خطواته تقوده أكثر مما يقوده الهاتف.

وقف أمام الهرم لحظة قصيرة.

من الأسفل، بدا أكبر بكثير مما تخيّل.

رفع رأسه، وشعر بأن القمة بعيدة على نحوٍ رمزي، لا جسدي فقط.

بدأ الصعود.

كانت الكتل الحجرية ضخمة، غير منتظمة، تتطلب أن يضع يديه وقدميه بحذر.

كان عليه أن يصعد متعرجًا، لا بخط مستقيم، مستفيدًا من النتوءات الصغيرة، ومن فجوات نحتها الزمن لا البشر.

بعد الدقائق الأولى، بدأ النفس يثقل.

بعد ربع ساعة، شعر بحرارة في ساقيه.

وبعد نصف ساعة تقريبًا، أدرك أن الصعود ليس اختبارًا للجسد فحسب، بل للعزيمة.

كان الليل يحيط به من كل الجهات، والمدينة خلفه تصغر شيئًا فشيئًا.

كلما ارتفع، بدا العالم أسفلَه أقل أهمية، أقل ضجيجًا.

في منتصف الطريق تقريبًا، اضطر إلى التوقف.

جلس على حافة إحدى القطع الحجرية، وترك أنفاسه المتعبة تستعيد إيقاعها.

كان العرق يبلل جبينه، والبرد الليلي يلسعه في الوقت نفسه.

وفي تلك اللحظة، اهتز الهاتف.

توقف قلبه لحظة.

أخرج الهاتف، فرأى الإشعار الذي صار مألوفًا حدّ الرعب :

ديناميس روما

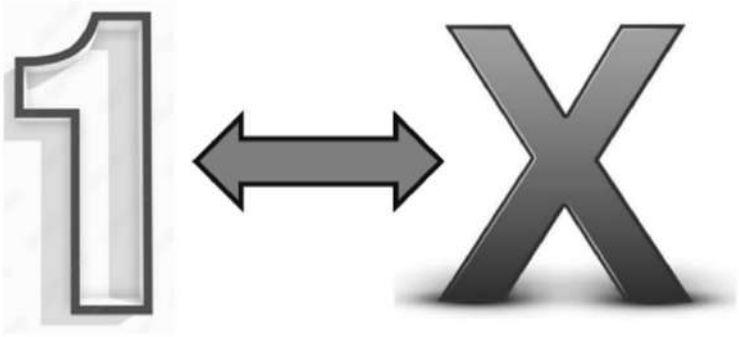
جلس بثباتٍ أكبر، وفتح الرسالة فكانت لا تقل غرابة عن سابقاتها .

((الكون ليس كما تراه سيد أوليفر : و هذا المفهوم ببساطة يمكن تجسيده بكلمتين فقط :

(الثابت و المتحوّل)

فالكون بما يحتويه من أجرام من ضمنها الأرض التي نعيش عليها و ما عليها هو ثابت لا يتغير بقوانينه و حقائقه و يمكن ترميزه بالرقم **1** لأن

الحقيقة لا شريك لها، أما الإنسان فهو متحوّل تتغير قناعاته و نظرته للأمور تبعاً لتغير معرفته و يمكن ترميزه بالرمز المجهول **X** ..

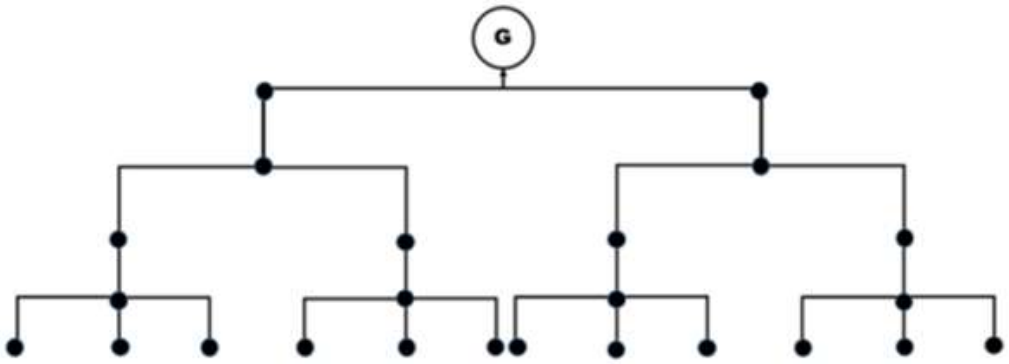


فمثلاً كان الكون بالنسبة للقدماء موطناً لآلهة كثيرة تتصارع فيما بينها و تصب غضبها على البشر بالكوارث الطبيعية ، أما اليوم فالكون هو عدد هائل جداً من الأجرام السماوية انبثقت عن نقطة مفرطة الكثافة بالانفجار العظيم ، و لا شك أن هذه النظرة للكون بحد ذاتها ستتطور أكثر مع تقدم الزمن و العلوم ، و هنالك للأسف وجه مظلم خطير لمفهوم الثابت و المتحول لابد من الإشارة إليه ، و هو أن **الإنسان يقتنع بشكل لا يقبل الشك بأن الكون هو فقط ما يراه منه و ما يعرفه عنه بمعنى أنه ينسب لنفسه صفة الثابت في المعادلة ، و يتعامل مع الكون من حوله و مع البشر الآخرين على أنهم متغيرون ..** فتتحول قناعاته هذه إلى عقيدة و إيديولوجيا و تشكل حقل ألغام يحيط به و يحميه من أفكار الآخرين أو من تغيير أفكاره و تطورها ، بل يتحول الإنسان إلى وحش بلا إنسانية إن حاول أحدهم الطعن بعقيدته هذه ، و عواقب هذا على البشرية نعرفه جميعاً و رأيناه بأم العين من مجازر و حروب ، و هذا هو بالضبط سبب **بطء تطور البشرية** عبر الزمن ، فأسرع طريقة للتطور هي اقتناع البشر التام بأنهم الطرف المتحول و الكون من حولهم هو الثابت ، أما الإيمان العكسي فيقتضي بالضرورة و للأسف سنين طوال من الركود المعرفي و التطوري باقتناع البشر أن الكون مقتصر على نظرتهم الراهنة إليه .. و يمكن تشبيه ذلك عند قيادة السيارة ، بأن الإنسان الثابت هو الفرامل و الكون الثابت هو البنزين ، أما تطور البشرية فهو السيارة ذاتها ..

و ما يهمني الآن في مفهوم الثابت و المتحول هو العلاقة الحقيقية بينهما ، أي أنّ الإنسان المتحول يرتقي بمعرفته خلال حياته تصاعدياً ليقترب أكثر من ذروة الهرم حيث يقبع الثابت كحقائق مطلقة لا تطالها إلا المعرفة المطلقة .. و هذا يقودنا إلى الفكرة الأهم :

فلسفة هرم النقاط و الاستبصار

فيمكن تشبيه البشر بحسب معرفتهم عن أنفسهم و عن الكون بهرم من النقاط المتشعبة .. حيث يقبع في رأس الهرم الإنسان ذو المعرفة المطلقة و هو بالطبع غير موجود ، لأن من يختص بهذه الصفة هو فقط الله ، أما طبقات الهرم فتمثل البشر بتدرجات معرفتهم ..



و للاستبصار علاقة وثيقة بهذا الهرم ، فكلما ارتقى الإنسان بمعرفته إلى طبقات أعلى ، بات يرى الأشياء في الكون من حوله بطريقة مختلفة عن البشر في الطبقات أدناه أو أعلاه على حد سواء

و الاستبصار مفتاح لصندوق من الكنوز المادية و المعنوية و هذا بتعبير آخر هو (**قوة المعرفة**) ، فكلما ارتقى الإنسان في هرم النقاط بات قادراً على تجنب كوارث حقيقية في حياته أو التعامل معها بطريقة غير اعتيادية ، أو اقتناص فرص و خير يمر في حياته ، في حين يمر في حياة الآخرين كسحابة عابرة لا تمطر بخيرها عليهم .. و لا تنسى سيد أوليفر القصة التي أخبرتك بها في ميلانو منذ أربع أعوام ، و سأعيدها عليك اليوم مجدداً للضرورة :

(تحكي القصة عن فلاح كان يحرث أرضه، فارتطمت فأسه بحجر غريب الشكل نزعه الفلاح ورماه خارج حقله بعد أن عرقل عمله ثم تابع الحراثة.

وعند مرور رجل آخر بجوار الحقل عثر على الحجر الغريب فأعجب بشكله وأخذه إلى محل زينة ليشتريه منه البائع بخمسة فلوس.. ثم صدف أن مر تاجر أحجار كريمة بدكان بائع الزينة، فعرف على الفور أن ذلك الحجر الغريب هو حجر كريم ، نادر و باهظ القيمة و الثمن، لذا اشتراه من البائع بخمسة وعشرين فلساً كما طلب البائع .. أخذ التاجر الحجر، وباعه بدوره للشخص المناسب بمئات آلاف الفلوس.. و الخلاصة من هذه القصة أن

كلاً من هؤلاء تعامل مع الحجر حسب معرفته بقيمته.. الفلاح الذي لم يعرف قيمته رماه، البائع باعه بثمن بخس، أما التاجر المختص فكوّن ثروةً منه ..)

و هذه هي قوة معرفة المستبصر ، يرى الأشياء بطريقة لا يراها بها البشر في مستويات نقاط أقل منه فيتجنب المشاكل أو يغتنم الفرص **!!** و في التاريخ قصة حقيقية مشابهة تماماً لهذه القصة الافتراضية ، ففي رحلاتهم الاستكشافية لأمريكا الجنوبية بحثاً عن مدن الذهب الغامضة ، عثر الأوروبيون على كميات هائلة من **معدن البلاتينيوم** (من أغلى معادن التاريخ) ، لكنهم كانوا يتذمرون من ذلك لأنهم كانوا يطمعون بالذهب ، فكانوا يلقون بالبلاتينيوم بعيداً ، لأنهم لم يعرفوا في ذلك الوقت ندرة و قيمة هذا المعدن و استخداماته الهامة .. بمعنى آخر ، كانت بين أيديهم ثروة و رموها بعيداً بسبب جهلهم و قصور معرفتهم **!!**

و الجميل في نظرية هرم النقاط و المستبصر ، هو أنّ المستبصر بترقيه في هذا الهرم يكتسب المعرفة **بتسارع و ليس بسرعة ثابتة** ، فمثلاً الطبقة الأولى تفتح لك باباً من المعرفة ، أما الطبقة الثانية فتفتح لك بابين و هكذا ، و السبب في ذلك هو تفاعل المعارف الجديدة مع بعضها و مع المعارف القديمة لتنبثق منها معارف أخرى .. و هذا ما نجده في مقولة كبير الفلاسفة **الإمام علي بن أبي طالب** :

(كل إناء يضيق بما جعل فيه إلا وعاء العلم فإنه

يتسع)

و كمثال بسيط على ذلك ، النظرية النسبية أتت بمفاهيم جديدة عن الفيزياء و الكون ، لكنها تفاعلت مع الفيزياء الكلاسيكية و مع نفسها لينبثق عنها حقائق أخرى أبعد من النظرية النسبية ذاتها حيث فتحت عشرات الأبواب للمعرفة في علوم الفيزياء و الفلك بعيداً عن قانون النسبية بعينه..

و في الحقيقة فلسفة هرم النقاط قديمة قدم البشرية ، و ضمّنها الناس في أساطيرهم و عقائدهم ، فنجدها عند الإغريق متجسدة بجبل الأوليمب الذي يقطن الآلهة على قمته ، و عند الفراعنة بأهرامات الجيزة التي تصعدها

بنفسك الآن ، و عند البابليين بحدائق بابل المعلقة ، و عند شعوب المايا و الإنكا و الأزتيك بأهرامات الشمس ، كما نجدها عند البنائين الأحرار بشعارهم الشهير و غيرهم كثير ..

و السؤال الهام هنا ، ما هي الطريقة التي يرتقي فيها الإنسان المتحول هرم النقاط نحو قمة الهرم الثابتة ليصبح من المستبصرين ؟! الإجابة ببساطة كلمة واحدة فقط :

اقرأ

فكما لاحظت عزيزي أوليفر الارتقاء بهرم النقاط لا يكون سوى بالمعرفة ، و المستبصر لا يختلف عن الإنسان العادي إلا بمعرفته الزائدة عليه .. لذا نجد أنّ أول كلمة في الرسالة المحمدية كانت (**اقرأ**) و كأنّ الله يمنحنا على طبق من ذهب الوسيلة الحقيقية لارتقاءبهرمه الذي يعتلي عرشه في قمته بمعرفته المطلقة ..

و للأسف رغم أهمية المعرفة هذه ، فإنّ كثيراً من البشر في يومنا هذا يميلون للاهتمام بأمور ثانوية سطحية لا تقدم و لا تؤخر و يمنحونها وقتهم و جلّ تفكيرهم كحرق حقيقي لسنوات عمرهم ، فيحكموا على أنفسهم بالبقاء كمستحاثات في قاعدة هرم النقاط لم يعرف التطور و التغيير طريقه إليها .. و الخطير في الموضوع هو ثقة هؤلاء الهائلة بأنفسهم و الإصرار على رؤية الكون من منظورهم كحقيقة ثابتة لا تعرف الشك .. رغم أن هذا الوضع باطل معنوياً ، بل حتى مادياً أيضاً، فعندما يرتقي الإنسان هرماً حقيقياً كهرم خوفو مثلاً فإنه كلما ارتفع أكثر سيرى مساحات أوسع من حوله ، أما من يقف على الأرض بجوار الهرم فلن يرى سوى أرض مسطحة أمامه .. و يريد أن يقنعك بأن الأرض هي ما يراه بعينيه فقط .. كما قال الفيلسوف الإغريقي **أرسطو** :

(الجاهل يؤكد و العالم يشكّ، و العاقل يتروّى)

و هؤلاء الجهلة أنفسهم ، إن مرضوا و تدهورت صحتهم سيلجؤون إلى المشعوذين و غير المختصين لعلاجهم فينتهي بهم المآل إلى العجز أو الموت، في حين يمكن لطبيب مستبصر جيد أن يشفيهم بحبة دواء لا أكثر بعد تشخيصه الدقيق لمرضهم معتمداً على قوة المعرفة ، أي ببساطة **الجهل موت و المعرفة حياة** ..

و للمعرفة و اكتساب العلوم قائمة لا تنتهي من الفوائد تنصّبها بلا منازع ملكاً على هرم الحياة ، أذكر منها لك :

❁ المعرفة مفاتيح لحل المشاكل في الحياة ..

❁ المعرفة شبكة لاقتناص الفرص و الأمور الإيجابية

❁ المعرفة فهم أعمق للذات و بالتالي التحكم بالنفس و توجيهها كما نريد لا توجيهنا كما تريد ..

❁ المعرفة متعة للعقل لا تضاهيها أي متعة أخرى .. و أجمل ما فيها أنها متعة لا تنتهي فنبع العلوم لا ينضب و حياة الإنسان قصيرة للغاية **!!**

❁ المعرفة صفة تسمو بنا بين البشر و ترفع مقامنا في الحياة ، كما قال الإمام **علي بن أبي طالب** : (كفى بالعلم شرفاً أن يدعيه من لا يحسنه و يفرح به إذا نسب إليه، و كفى بالجهل ذماً أن يبرأ منه من هو فيه)

❁ المعرفة اطلاع على حضارات الماضي و دنيا من الخيال لما هو آتٍ في المستقبل ..

❁ المعرفة تحسن الأخلاق، فالإنسان كلما عرف عن الكون أكثر شعر بالضعف و العجز فتواضع أكثر ..

❁ المعرفة تمنحنا وعياً و حكمة في التعامل مع الحياة و الآخرين و المشاكل اليومية ..

❁ المعرفة طريق معبدة إلى الإيمان بالله ، كم قال نبي الرحمة **محمد** (العلماء ورثة الأنبياء) ..

❁ المعرفة خير ترياق لوقت الفراغ السام الذي يلوث العقل و النفس ..

❁ يكفي المعرفة شرفاً و قيمة أننا كنّا لولاها لانزال نقطن في الكهوف في حالة رعب من الوحوش المفترسة الضارية .. بل حتى اختباء أجدادنا في الكهوف هو بحد ذاته نتاج المعرفة و التجربة بأنها أكثر أماناً **!!**

❁ و بالطبع المعرفة هي الطريق الوحيد لارتقاء هرم النقاط في رحلتنا للقاء الله في قمته (الثابت الوحيد) ..

فلسفة هرم النقاط موجودة في كل شيء من حولنا ، من بنية الدول إلى المؤسسات و الشركات إلى العائلة .. و بالطبع لا ننسى بأن كل إقليم من أقاليم الحياة يأخذ منحنياً هرمياً ، حيث يقبع عباقرة المجال في درجات عليا

منه كالعلوم و الفنون و الأدب و السياسة و أيضاً الدين الذي يتدرج نزولاً من الأنبياء و الرسل إلى القديسين فالأولياء الصالحين ثم الناس الأتقياء و هكذا.. و لا شيء يميز بين هذه الطبقات سوى المعرفة فقط ، فمن امتلك معارف أكثر ارتقى إلى طبقات أعلى ليرى الأمور بشكل أوضح و أوسع على نقيض القابعين في قاعدة الهرم ..

و يبقى أجمل شيء في فلسفة هرم النقاط و الاستبصار أنه **طريق باتجاه واحد** ، و هذا من أكبر نعم الله علينا ، فمن يمتلك المعرفة ستتغير نظرته للحياة تدريجياً مع استحالة العودة إلى نظرته السابقة لها ، و أنت أدرى الناس بذلك سيد أوليفر .. أي أن المعرفة كنز عظيم و أثمن شيء فيه أنك لن تخسره ابداً بعد امتلاكه، و هذا ما أشار إليه الأديب النيوزلندي **هو والبول** بمقولته الرائعة :

(في كل العلوم تأتي الأخطاء قبل الحقيقة، وهذا أفضل من أن تأتي في النهاية)

فاشحذ همتك عزيزي أوليفر و تابع المضي في مغامرتك الشيقة صعوداً مرتقياً هرم النقاط كي ترى الكون من حولك على حقيقته الثابتة لا وفق رؤية البشر المتحولة له ، و هذا بلا شك شعور عظيم لا يوصف بمفردات القواميس و يمنحك فوائد جمة لا تحيطها الموسوعات .))

أنهى أوليفر القراءة ببطء و دهشة عارمة ، كأن الكلمات كانت تتطلب أن تُهضم، لا أن تُقرأ فقط.

كانت الرسالة تتحدث عن هرم النقاط المعرفي ، و عن الاستبصار...

ذلك المفهوم الذي حدّثه عنه السيد عزيز ذات مرة في هونغ كونغ، حين قال إن المعرفة لا تُمنح دفعة واحدة، بل تُرتقى، نقطةً بعد نقطة، كما يُرتقى الهرم حجرًا بعد حجر.

كان مضمون الرسالة ينسجم على نحوٍ يكاد يكون مخيفًا مع تجربته الحالية.

هو الآن، حرفيًا، يرتقي هرمًا، متجهًا نحو قمة، لا يعرف ما ينتظره فيها، لكنه يعرف أن النزول بعد الصعود لن يكون كما قبله.

أغلق الهاتف، وبقي جالسًا لحظة إضافية، يتأمل السماء.

النجوم بدت قريبة، والعين الثالثة التي كان السيد عزيز يذكرها دائمًا بدت، لأول مرة، فكرة محسوسة لا مجرد رمز.

نهض مجددًا، وأكمل الصعود.

كانت الخطوات الأخيرة هي الأصعب.

ساقاه ترتجفان، صدره يعلو ويهبط بعنف، وكل نفس كان يبدو كأنه الأخير.

لكن أخيرًا... وصل.

بلغ القمة، يكاد لا يستطيع التقاط أنفاسه.

وقف هناك، في أعلى نقطة، حيث الهواء أصفى، والصمت أعمق.

تلفّت حوله.

لكن ..

لم يكن هناك أحد.

دهش قليلًا.

كان يتوقع، في أعماقه، أن يرى ظلًا، أو شخصًا ينتظره، أو حتى حركة توحي بوجودٍ آخر.

لم يجد شيئًا ، كان وحيداً على قمة الهرم ..

وقف يستعيد أنفاسه، ثم نظر إلى ساعته.

كانت تشير إلى منتصف الليل إلا ربع ساعة.

انتظر.

والهرم، بكل ثقله وصمته، بدا كأنه ينتظر معه.

العقل الكوني

مصر / القاهرة

تشرين الأول 2026 م ..

مضت دقائق الربع ساعة ببطءٍ مؤلم، كمن يمشي حافيًا على جمرٍ لا يُرى.

كان أوليفر يقف على قمة الهرم، يراقب عقارب ساعته وكأنها تتآمر عليه، ترفض أن تتحرك إلا بمقدار ما يزيد الترقّب قسوة. الهواء الليلي كان باردًا، يلسع جلده المتعب، والنجوم فوقه ثابتة على نحوٍ يثير الغضب، كأن السماء لا تكترث بما يحدث لإنسان واحد ينتظر الحقيقة.

ثم ... انتصف الليل.

لم يظهر أحد.

لا ظلّ،

لا صوت،

لا حركة تشير إلى حضورٍ بشري.

شعر أوليفر بشيء ينقبض في صدره.

تسللت الخيبة ببطء، لا كضربة مفاجئة، بل كمدٍّ بارد يصعد من القدمين نحو القلب.

هل أخطأ الفهم ؟

هل بالغ في التأويل ؟

هل كان هذا اللقاء كله ... وهمًا ؟

وقبل أن يستكين تمامًا إلى هذا الشعور، وقبل أن يسمح له بأن يتحول إلى يقين، اهتز الهاتف في يده.

توقف الزمن مرة أخرى.

المرسل ذاته : **دياميس روما**

فتح الرسالة بدهشة من كان ينتظر وجهًا، فتلقّى كتابة.

((منذ أن فتح الإنسان عينيه على اتساع السماء، راح يسأل نفسه :

هل الوعي محصور في جمجمته، أم أنّه يتجاوزها ؟

هل يفكّر الإنسان بالعقل، أم أن الكون نفسه عبارة عن دماغ عملاق يُفكّر من خلال الإنسان ؟

تلك الأسئلة التي تردّدت في المعابد القديمة كما في مختبرات الفيزياء الحديثة، تقودنا إلى فكرة **الوعي الكوني** ، الفرضية التي ترى أن الوعي ليس نتاج الدماغ البشري فحسب، بل هو نسيج كوني شامل، البحر الذي تسبح فيه كل الكائنات والأفكار، والمصدر الذي يربط الذرّة بالمجرة، والنَفَس بالخلود.

الوعي الكوني هو الفكرة التي تُذيب الحدود بين الداخل والخارج، بين الذات والموضوع.

فالعقل البشري ، في هذا التصوّر، ليس مصباحًا منفصلاً، بل شعلة من نارٍ عظيمة تُضيء من وراء الزمان ..

إنه المحيط الذي تُلقي فيه المجرّات بأمواجها، كما تُلقي الأدمغة بأفكارها.

لنحاول معاً عزيزي أوليفر مقاربة فرضية العقل الكوني من مختلف الزوايا (دينية ، علمية ، فلسفية) ..

في **النظرة الدينية**، نجد جذور الوعي الكوني متوغّلة في أعماق النصوص المقدّسة.

فالله في جوهره - كما تقول الأديان التوحيدية - ليس كائنًا منفصلًا عن الكون، بل حاضراً فيه حضوراً يملأ كلّ ذرة وكلّ قلب. يقول القرآن الكريم :

(سنريهم آياتنا في الآفاق و في أنفسهم)

إشارة إلى أن جوهر الله يتغلغل في كل ثنايا الكون ..

وفي **التصوّف الإسلامي**، تبلورت هذه الفكرة بوضوح مذهل. **فابن عربي** مثلاً يقول :

(العالم خيال، والحقّ هو الظاهر فيه بصورة الخيال)

أي أنّ الله لا يُرى إلا في مرايا الوجود، وأن كلّ ما نراه هو تجلٍّ للوعي الإلهي.

أما في **الفلسفة الهندوسية القديمة**، فمفهوم **البراهمان** يمثّل الحقيقة الكلية، الوعي الذي لا بداية له ولا نهاية، والذي تتجلّى فيه كلّ الأشياء كما تتجلّى الأمواج في البحر.

والإنسان عندهم هو **أتمن** ، أي الوعي الفردي، الذي ما هو إلا انعكاس للوعي الكلي ، ومهمة الحياة هي إدراك أن الأتمن هو البراهمان نفسه، أي أن (**أنا ليست سوى الكلّ**) وقد نسي ذاته.

وفي **المسيحية**، يمكننا أن نلمح ذات المعنى في قول المسيح :

(ملكوت الله في داخلكم)

أي أن الحضور الإلهي ليس بعيداً في السماء، بل نابض في عمق النفس، كأنّ الوعي البشري هو البوابة التي يطلّ منها الله على العالم.

و في **التوراة** يقول الله أنه خلق الإنسان على صورته ، أي أن الدماغ البشري ما هو إلا إسقاط لدماغ كوني أكبر

وهكذا، حين ننظر دينيًا، نجد أن الوعي الكوني ليس فكرة غريبة، بل هو اللغة السرّية التي تحدثت بها الأديان جميعها ، لغة تقول إن الله، أو الحقيقة المطلقة، ليست خارج الكون بل فيه، وليست منفصلة عن الإنسان بل متجلية فيه.

لننتقل إلى **الزاوية العلمية** مع تجربة علمية مذهلة تفجّر العقل حرفياً ، حيث قام كل من **فرانكو فازا** عالم الفيزياء الفلكية في جامعة بولونيا الإيطالية ، و **ألبرتو فيليتي** جراح الأعصاب في جامعة فيرونا الإيطالية بإجراء مقارنة بين الشبكة الكونية و الشبكة العصبية في الدماغ ، لتظهر لهما أوجه تشابه مفاجئة كثيرة بينهما :

❁ الدماغ البشري يعمل بفضل شبكته العصبية الواسعة التي تحتوي على ما يقارب **100** مليار خلية عصبية، كذلك الأمر يتكون الكون المرئي من شبكة كونية من **100** مليار مجرة على الأقل ..

❁ داخل كال النظامين تتكون **% 30** فقط من كتلة الشبكتين من مجرات

خلايا عصبية، في حين يتكون % **70** من توزيع الكتلة من مكونات تلعب على ما يبدو دوراً سلبياً (الماء في الدماغ والمادة المظلمة في الكون المرئي)..

❁ ليس ذلك فحسب بل إنّ تراتب المجرات و الخلايا العصبية هو نفسه في الشبكتين ، عبارة عن خيوط طويلة مع عقد بين الخيوط ..

❁ أخيراً تبين أن الكثافة الطيفية متشابهة بين الشبكتين ..

فهل نحن حقاً مجرد أفكار طارئة تجول في خيال هذا الدماغ الكوني العملاق ؟!

منذ قرون، كان العلم المادي يرفض كل ما هو غير ملموس.

لكن في القرن العشرين، ومع ثورة الفيزياء الكوانتية، بدأ كل شيء يتغيّر.

فالعلماء الذين كانوا يبحثون عن المادة الصلبة اكتشفوا أن المادة تتصرّف كالموجة، وأن الجسيمات لا توجد إلا حين تُرصد، وكأن الوعي هو من يخلق الواقع لحظة الملاحظة.

في تجربة الشق المزدوج ليونج الشهيرة، أثبت الفيزيائيون أن الإلكترون يسلك سلوكاً مختلفاً إذا تمّت مراقبته و كأنه يملك وعياً ذاتياً !!.

وهذا يعني أن الوعي ليس مجرّد متفرّج، بل فاعل أساسي في بنية الكون.

ومن هنا انطلقت فرضيات جديدة تقول إن الوعي ليس نتيجة للمادة، بل المادة نفسها مظهر من مظاهر الوعي.

في القرن الحادي والعشرين، صارت هذه الفكرة أكثر جديّة.

فالعالم **روجر بنروز**، الحائز على نوبل في الفيزياء، يرى أن الوعي مرتبط بظواهر كمّية تحدث في أنابيب دقيقة داخل الخلايا العصبية، ما يعني أن العقل البشري ليس آلة ميكانيكية، بل **نقطة التقاء بين المادة والوعي الكوني الكمومي**.

وعالم الأعصاب **كريستوف كوخ** يذهب أبعد من ذلك، إذ يقول إن كل شيء - حتى الذرّة - يحمل درجة من الوعي ، صغيرة لكنها موجودة.

هذا هو ما يسمّى في الفلسفة بـ **البانسيكزم** أي أن الوعي مكوّن أساسي من مكوّنات الواقع، كالمكان والزمان والطاقة.

تُظهر دراسات فيزياء المعلومات أن الكون كله يمكن أن يُفهم كنظام معالجة بيانات هائل، أشبه بعقلٍ لا نهائي يتبادل الرموز والمعاني عبر المجرّات.

بل إن بعض العلماء يقترحون أن الكون ذاته يفكّر عبر قوانينه، تطوّره، وتراتبية أنظمته، كما يفكّر الدماغ عبر تشابكاته العصبية.

وبهذا يصبح الإنسان، في المنظور العلمي الحديث، خليّة في دماغ كوني، يساهم وعيه الفردي في وعي المجموع.

أما بالنسبة **للفلسفة** ، فمنذ أن قال **ديكارت** : (**أنا أفكر إذن أنا موجود**) ، تمركز الفكر الغربي حول الذات المفكّرة.

لكنّ الفلاسفة اللاحقين بدأوا يشكّكون في هذا التمركز : هل الأنا فعلاً مستقلة، أم أنها نتاج شبكة أكبر من الفكر و الوجود ؟

هيغل، مثلاً، رأى أن **الوعي ليس فردياً بل كليّاً** ، عقل العالم الذي يتطوّر عبر التاريخ ليعرف ذاته من خلالنا.

وفي القرن العشرين، قدّم الفيلسوف الألماني **شلينغ** مفهوم **الطبيعة الواعية بذاتها** ، حيث كل شيء في الوجود يسعى إلى الوعي بالذات ، من الذرّة إلى الإنسان إلى الإله.

أما الفلاسفة الوجوديون، فقد رأوا في الوعي الكوني طريقاً للتحرّر من عبودية الذات.

فـ **هايدغر** تحدّث عن **الكينونة** لا بوصفها موضوعاً نعرفه، بل **كنور يُشرق** داخل وعينا.

إنه يقول، في جوهر فكره، إن الوجود نفسه واعٍ، وإن الإنسان ليس إلا نافذة مفتوحة عليه.

وفي الفلسفة الشرقية الحديثة، **كفلسفة كريشنامورتي**، يُقال إن الوعي البشري هو نتيجة انقسام بين المراقِب والمراقَب، وإن التحرّر يكمن في إدراك أنه لا

فصل بينهما ، أن الوعي هو المرآة التي تعكس نفسها إلى ما لا نهاية.

بمعنى آخر : **حين نعرف أن الوعي ليس لي و لا لك ، بل هو الكلّ، نتحرر.**

أما في اليونان القديمة ، فقد آمن **أفلاطون** بالنفس الكونية التي تخلق العالم على صورتها.

قال إن النجوم والكواكب ليست جمادات، بل كائنات حية عاقلة، تتحرك بانسجام لأنها تفكر في انسجام.

وفي **الفلسفة الرواقية،** كان الكون جسدًا واحدًا أيضاً، والعقل الإلهي هو **اللوغوس** (القوانين الكونية) الذي يسري فيه كما يسري العقل في الجسد.

و حين يقول الحلاج : (**مزجت روحك بروحي كما تمتزج الخمرة بالماء الزلال**) ، فهذا تأكيد على أن الإنسان جزء ذائب في نسيج الوعي الكوني ..

وهنا تظهر المفارقة الكبرى : الفلسفة والدين والعلم - على اختلاف لغاتهم - تلتقي جميعاً عند عتبة واحدة :

أن الوعي أقدم من المادة، وأن الكون، في عمقه، ليس شيئاً ، بل حالة من الإدراك المستمر.

فحين ننظر إلى كل هذه الزوايا - الدينية والعلمية والفلسفية - نكتشف أن نظرية الوعي الكوني ليست ترفاً فكرياً، بل منظور شامل لتوحيد الفهم الإنساني.

إنها تقول لنا إننا لسنا جزراً معزولة، بل خلايا في كائن أعظم، وأن كلّ وعي فردي هو صدى للوعي الأكبر الذي يُفكّر بنا جميعًا.

قد يبدو هذا التصوّر صوفيًا أو شاعريًا، لكنه يحمل دلالات عملية عميقة :

فإذا أدرك الإنسان أنه ليس منفصلاً عن العالم، سيتوقف عن استغلاله وتدميره.

وإذا شعر أن كل كائن حيّ هو تجلٍ للوعي نفسه، سيتعامل مع الوجود برحمة ودهشة واحترام.

إنها ليست فكرة عن الكون فحسب، بل طريقة جديدة للعيش فيه.

في النهاية، ربما يكون الوعي الكوني هو الوجه الآخر للوجود ، المرآة التي ينظر الله من خلالها إلى ذاته، والعقل الذي تحلم به المجرّات، والنبض الذي يوحّد التراب بالروح، والنور بالظلّ، والإنسان بالكلّ.

يقول العالم **كارل ساغان** :

(**نحن وسيلة الكون لمعرفة نفسه**)

تلك الجملة تلخّص فرضية العقل الكوني كلها في ومضة واحدة.

فالإنسان، في جوهره، ليس سوى أداة الإدراك الكبرى التي بها يعبر الوعي الكوني عن ذاته.

إننا، حين نفكر، لا نخلق الوعي، بل نُعيده إلى بيته الأصلي.

وحين نتأمل في سماء الليل، فالنجوم لا تلمع فحسب، بل تفكّر بنا.

في لحظات الصفاء العميق - في الصلاة، في الحب، في الفن، في الصمت - نشعر بشيء يوقظنا من داخلنا، كأننا نتذكّر أننا لم نكن أبدًا منفصلين، وأن هذا العالم ليس سجنًا، بل جسد الوعي الكوني نفسه، وأننا ذرات في فكره العظيم.

إنها لحظة الفهم التي فيها يهمس الكون للإنسان :

(**أنت لست شيئًا في داخلي ، بل أنا الذي في داخلك**)

أين الله من كل ذلك ؟ إنه الكون الأكبر حرفياً سيد أوليفر .. العقل الأعظم الذي تشكلت الزيتونة شجرة السماء في رحمه عندما خلقها و صورها كيفما يشاء .. ثم صممت بنفسها الكون الأصغر ضمنه كمدرسة للبشر تعلمهم معنى الحياة قبل أن يعودوا إلى الأصل إلى الكون الأكبر .))

أنهى أوليفر القراءة، وبقي واقفًا دون حركة.

رفع رأسه ببطء من على قمة الهرم ، ونظر عاليًا إلى السماء، حيث الكون الشاسع يتمادى في كل اتجاه، بلا حدود مرئية، بلا مركز يمكن الإمساك به.

هناك، في ذلك الاتساع الصامت، بدأ مضمون الرسالة يتشكل في وعيه.

الكون... دماغ عملاق يفكّر.

ليس مادة فقط، ولا فراغًا، بل فكرة كبرى في حالة تأمل دائم.

والبشر... تجسيد لبعض أفكاره، محاولات جزئية للوعي بأن يعرف نفسه بنفسه.

أما الله...

فلم يكن خارج هذا كله، بل هو الكون الأكبر، حيث تقيم شجرة السماء الزيتونة، الرحم الأساس ، الجذر الأول، و الفكرة الأب و الأم.

ومنها، يتوسّع كوننا الأصغر، محمولًا في كرة سحرية بين يديها، كما أخبره السيد عزيز من قبل، في ديناميس روما، هناك في جامايكا، حين قال له إن العظمة الحقيقية لا تكون في السيطرة، بل في الاحتواء.

نظريات عجيبة.

مخيفة.

تسبب القشعريرة.

ومع ذلك... كانت منطقية على نحوٍ يبعث السكينة في تناقض غريب .

كأنها لا تفرض نفسها على العقل، بل تهمس له بما كان يعرفه منذ زمنٍ بعيد ولم يجرؤ على صياغته.

تنفس بعمق.

لكن السؤال الذي عاد يفرض نفسه بإلحاحٍ موجع كان أبسط من كل هذه التعقيدات :

ماذا الآن ؟

هل انتهت المغامرة على هذا النحو ؟

هل قطع كل هذه المسافة، وصعد هذا الهرم، وتحدى جسده وخوفه، ليُمنح حقيقة جديدة ... دون أن يُمنح جوابًا شافياً عن مصير السيد عزيز ؟

نظر إلى الأسفل، إلى الأضواء البعيدة، إلى الأرض التي تنتظره بصبر.

خطا خطوة صغيرة، و هو يستعد للنزول، كمن يسلّم بأن بعض الأبواب لا تُفتح.

وفي تلك اللحظة...

اهتز الهاتف مجددًا.

تجمّد في مكانه.

رسالة جديدة من ديناميس روما ..

فتح الرسالة.

لكنها هذه المرة لم تكن كلمات.. لم تكن حقائق .. لم تكن أسراراً

و لم تكن فلسفة.

كانت إحداثياتٍ جغرافية.

أرقام دقيقة، صارمة، لا تقبل التأويل.

وتحتها، سطر يتيم، قصير، لكنه كان كفيلًا بأن يعيد الدم إلى عروقه دفعة واحدة :

(اتبع الإحداثيات ، كي تصل إلى كنزك)

ابتسم أوليفر ابتسامة خفيفة، متوترة، تشبه ابتسامة من أدرك أن الطريق لم ينتهِ بعد.

لم يكن يعرف ما الذي ينتظره، ولا إن كان الكنز معرفة، أو لقاء، أو جوابًا طال انتظاره.

لكنه كان يعرف شيئًا واحدًا فقط :

أن اللعبة لم تنتهِ ...

وأن السيد عزيز اليقين، حيًا كان أم ميتًا، ما زال يقوده خطوةً بعد خطوة.

جذور الزيتونة

مصر / القاهرة

تشرين الأول 2026 م ..

لامست قدما أوليفر الأرض مجددًا، كمن يعود من حافة حلمٍ كثيف إلى واقعٍ لا يقل غرابة.

نزل عن الهرم ببطء، وكل خطوة إلى الأسفل كانت تشعره أنه لا يهبط فقط في المكان، بل في طبقات المعنى أيضًا. عند أسفله، كان الليل ينسحب بهدوء، تاركًا خلفه خيوط فجرٍ خجولة بدأت تلوّن الأفق.

توجّه نحو أقرب سيارة أجرة متوقفة على مسافة غير بعيدة. فتح الباب وجلس، ثم مدّ هاتفه إلى السائق وسأله، بصوتٍ حاول أن يجعله عاديًا :

◯ هل يمكنك الاستدلال إلى هذا المكان ؟

نظر السائق إلى الشاشة، أدخل الإحداثيات في نظام السيارة، ثم هزّ رأسه مؤكدًا.

تحرّكت السيارة، وانطلقت في طريقٍ طويل، صامت في معظمه، كأن المسافة نفسها كانت بحاجة إلى احترام.

لم يتبادلا الكثير من الكلام.

كانت القاهرة تستيقظ ببطء، ثم تبتعد، والطرق تمتد كأفكارٍ لا تنتهي.

مع مرور الساعات، تغيّر الضوء، وبدأ الفجر يقترب من اكتماله، وحين لاحت ملامح الإسكندرية، كان أوليفر قد فقد الإحساس بالزمن تمامًا.

وصلا مع اقتراب الفجر.

ترجّل أوليفر من السيارة، ودفع الأجرة، ثم وقف لحظة يتأمل المكان.

وما رآه جعله يتجمّد.

المنزل !!.

كان هو.. منزل السيد عزيز اليقين.

هو يعرفه جيداً .. فقد زاره من قبل، في أحجية سابقة، حين ظنّ أن الرجل

قد قُتل في حادث سير.

الواجهة نفسها، الصمت نفسه... لكن شيئًا كان ناقصًا.

لم يكن هناك بوّاب ينتظره عند البوابة الخارجية.

تقدّم بخطوات حذرة، يتبع الإحداثيات التي باتت تشير إلى قربٍ شديد.

اقترب أكثر... ثم اقتحم البوابة. لم تكن مقفلة بإحكام، كأن المكان كان ينتظره.

استدار يمينًا، كما أمْلته الخريطة، وولج في غابة من الأشجار الضخمة التي تحيط بالمنزل.

كانت الأشجار عالية، كثيفة، تحجب الضوء، وتجعل الفجر يبدو أقدم مما هو عليه.

شق طريقه بينها، حتى توقّف فجأة.

هناك...

في قلب تلك المساحة المشجرة، وقفت شجرة زيتون معمّرة، يتيمة، شامخة رغم وحدتها.

ذكرته بزوجته شام أو زيتونة الميتم كما كانت تدعى في طفولتها

القاسية .

كان في الشجرة شيء يشبهها ... الثبات دون ضجيج .. العطاء دون مقابل

نظر إلى الهاتف.

الإحداثيات أعلنت بوضوح : **أنت في المكان الصحيح**.

وقبل أن يستوعب ذلك، وقعت عيناه على ما هو أكثر غرابة.

عند جذع الشجرة، كان هناك معول ومجرفة، موضوعان بعناية.

وأمامها، ثلاث صخور متقاطعة، كعلامة قديمة لا تحتاج إلى شرح.

لم يستغرق وقتًا طويلًا في التفكير.

كان يعرف، في أعماقه، ما الذي عليه فعله.

أمسك الأدوات، وبدأ الحفر عند موضع الصخور.

الأرض لم تكن صلبة كما توقّع، كأنها حُفرت من قبل ثم أُعيد سترها بعناية.

على عمق يقارب المتر، اصطدمت المجرفة بشيء خشبي.

توقّف.

ترك الأدوات، وجثا على ركبتيه، وأخرج الصندوق بيدين مرتجفتين.

كان صندوقًا خشبيًا بسيطًا، لا يحمل أي نقش أو علامة.

فتحه.

في داخله...

كان هناك كتاب، ومفتاح.

ابتلع ريقه.

أمسك الكتاب أولًا، نظر إلى غلافه، وقرأ العنوان :

أسطورة حي بن يقظان

هزّ رأسه بدهشة، كمن تلقّى جوابًا لم يسأل عنه بصوتٍ عالٍ، لكنه كان حاضرًا في داخله منذ زمن.

ثم نظر إلى المفتاح.

لم يحتج إلى وقتٍ طويل ليستنتج.

كان على الأرجح مفتاح المنزل.

نهض، والتفّ حول الأشجار، حتى بلغ باب المنزل.

أدخل المفتاح في القفل، وأدارَه.

استجاب له القفل فورًا.

دخل، وأغلق الباب خلفه، وشعر للحظة وكأنه أغلق العالم الخارجي كله.

بحث بيده عن زر الإنارة، حتى عثر عليه، وضغطه.

أضيئت الصالة الواسعة.

كانت كما لو أن أحداً لم يغادرها...

نظيفة، مرتبة، ساكنة، كأن صاحبها خرج منها منذ دقائق لا شهور.

اتجه نحو أول غرفة في طريقه.

كانت غرفة المكتبة.

دخلها، وأغلق الباب خلفه، ثم جلس على مقعد جانبي قرب رفوف الكتب.

فتح الكتاب، وبدأ يقرأ.

لم يكن الكتاب ضخمًا.

لكنه كان عميقًا.

غاص بين صفحاته بسرعة، كمن يعثر أخيرًا على اللغة التي كان يبحث عنها.

كان ينقسم إلى جزأين واضحين:

الأول، يتناول أسطورة حي بن يقظان، الإنسان الذي وصل إلى الحقيقة بعقله وحده، دون معلم أو وحي مباشر.

و **الثاني**، يربط الأسطورة بالزيتونة، شجرة السماء ..

قرأ بشغف و اهتمام دون أن يشعر بالوقت.

وعندما أغلق الكتاب، بعد ما يقارب الساعة، كان الصمت في الغرفة أثقل.

كانت الخلاصة...

غريبة.

مذهلة.

ومحرِّرة.

أزاحت عن عقله آخر لمسات الضباب التي كانت تحجب عنه فهم حقيقة الوجود ، نظر إلى سقف الغرفة و سرح في عناوين تلك الرواية العجيبة و كأنه يحاول ترتيبها من جديد في عقله :

((**أسطورة حيّ بن يقظان ..** رواية تحكي قصة شخص يدعى **حي بن يقظان** نشأ في جزيرة وحده، و تناقش طبيعة الإنسان وعلاقته بالكون والدين، كما تحتوي مضامين فلسفية .. شارك في تأليفها عدة أشخاص من الأدباء العرب والمسلمين ، فكان أول مؤلف لها هو الفيلسوف **ابن سينا،** وكتبها أثناء سجنه، ثم أعاد بناءها الشيخ **شهاب الدين السهروردي،** وبعدها أعاد كتابتها الفيلسوف الأندلسي **ابن طفيل،** ثم كانت آخر رواية للقصة من قبل **ابن النفيس** .. لكن أشهر مؤلف من بين هؤلاء الأربعة التصقت القصة باسمه هو ابن طفيل..

وقد كان لهذه الرواية أثر كبير على (جون لوك) الفيلسوف الإنجليزي الشهير، الذي كتب كتاباً يصف فيه العقل كصفحة بيضاء خالية من كل القواعد والمعوقات الموروثة و هو كتاب مستلهم من رواية حي بن يقظان تحت عنوان (**الفيلسوف الذي علم نفسه بنفسه**) ، وتأثر بالترجمة أجيال من الفلاسفة..

و رواية حي بن يقظان هي الأساس لعديد من روائع الفكر والأدب العالمي مثل كتاب (**عقيدة القس من جبل السافوا**) للفيلسوف الفرنسي **جان جاك روسو،** وكذلك نجد الأحداث المشتركة واضحة بينها وبين رواية **روبنسون كروزو** للكاتب **دانييل ديفو،** وقصة **ماوكلي** فتى الأدغال وشخصية **طرزان** التي تتحدث معظمها عن سلوك الإنسان عندما يجبر على العيش وحده في بيئة منعزلة .

إن ولادة حي بن يقظان تبقى لغزا ، فبعض المصادر تقول أنه ولد لأبوين بشريين ثم تركاه على جزيرة الواق واق ، و البعض الآخر تقول أنه تكون من تلقاء نفسه من التراب و هذه الرواية هي ما تعنينا في علاقتها مع الزيتونة .. و تكمل الروايتان بنفس الأحداث حيث سمعت ظبية كانت تبحث عن ابنها الذي فقدته صوت بكاء الطفل فاتجهت نحوه، وكان أن عثرت على حي الوليد فأرضعته وحضنته ..

يكبر حي بن يقظان وتمر حياته بسبع مراحل.. أما **الأولى** فهي **إرضاع الظبية لحي** وحضانتها ورعايتها له حتى عمر سبع سنوات.. و **الثانية وفاة الظبية** وتشريحها من قبل حي لمعرفة سبب الوفاة، وهنا بدأت تتكون عند حي المعرفة عن طريق الحواس والتجربة..

أما المرحلة **الثالثة** فكانت في **اكتشاف النار**.. أما **الرابعة** فكانت في **دراسته لجميع الأجسام** التي كانت موجودة حوله ، فكان بذلك يكتشف الوحدة والكثرة في الجسم والروح، واكتشف تشابه الكائنات في المادة واختلافها في الصور

.

قابل حي بن يقظان بعدها رجلاً جاء من جزيرة مجاورة يدعى **أبسال**، ليبدأ الاثنان في طرح نقاشات حول الطبيعة والأخلاق والله ، و يصدم أبسال عندما يعرف أن حي قد اكتشف كل الحقائق لوحده ، و يحاول حي بن يقظان نقل فهمه العقلاني للأشياء إلى أهل جزيرة أبسال، ولكن سعيه ينتهي بالإخفاق ، فيدرك بن يقظان أن معظم الناس تحركهم الأنانية والجشع والعواطف ولا يلقون بالاً لنداء العقل والضمير، ثم يرجع حي بن يقظان إلى جزيرته برفقة أبسال الذي أصبح تلميذا له..

المرحلة **الخامسة** كانت في **اكتشاف الفضاء** وهذا شجعه إلى الخروج من رصد الكون فحسب إلى معرفة أنه قديم للغاية و كذلك فهم آلية نشوئه .. وعند بلوغه الخامسة والثلاثين من عمره، بدأ حيّ مرحلته **السادسة** وهي **الاستنتاج بعد التفكير**، فتوصل إلى أن النفس منفصلة عن الجسد و غيرها من الخلاصات و أنه يعيش حالة توق إلى الموجِد واجب الوجود.. وأخيرا، يصر حي بن يقظان، في المرحلة **السابعة** على أن **سعادته** تكون في **ديمومة المشاهدة لهذا الموجِد الواجب الوجود** ورغبته في البقاء داخل حياة رسمها الموجد له ، و هي بالضبط الخلاصة التي توصلت إليها زيتونة السماء و صممت الكون الأصغر على أساسها كما يذكر الجزء

الثاني ..

أما علاقة الأسطورة بشجرة السماء ، فيشرح الجزء الثاني ذلك عبر تقسيم حياة الزيتونة إلى **4** مراحل رئيسية :

= مرحلة التطور ما قبل الوعي : و تقسم هذه المرحلة إلى شقين :

❁ **مرحلة الجماد** : و هي المرحلة المكافئة للانفجار العظيم في كوننا

الأصغر و مشابهة له بالأحداث حيث تشكلت المادة عبر التسلسل المعروف :

(جزئيات دون ذرية ثم ذرات ثم جزئيات ثم مواد متنوعة شكلت النجوم و الكواكب و الأقمار و الكويكبات ..)

❁ **مرحلة نشوء الحياة** : عبر عملية تطورية ، و في الحقيقة نشوء أول شكل من أشكال الحياة (الخلية) التي تقوم بعملية تنفس في الكون الأكبر تم بسبب وجود بيئة كيميائية مناسبة حاضنة محيطة بها تفاعلت معها فحرضتها على القيام بعملية التنفس تلك ..

و هذا بالضبط هو جوهر عملية تكون **البيضة** و الجنين بداخلها ، فالبيضة عبارة عن مواد كيميائية مغذية و حافظة تحيط بالكائن الحي و تتفاعل معه كي ينمو و يتطور حتى يكتمل و يستقل بنفسه عن البيضة .. و هذا ما ينطبق أيضاً على مفهوم **الرحم** الأشمل الذي يحيط بالحياة ، بمعنى أنّ الجماد أو المادة أتت أولاً ثم كونت بيئة مناسبة لتطور الخلية الحية لاحقاً ، و هذه الخلية هي البيضة الملقحة بالنسبة للزيتونة التي تطورت و انقسمت عبر عملية تطورية مزمنة للغاية و بدأت أنواع معينة من هذه الخلايا بالتمايز و التخصص كتفاعل مع البيئة من حولها .. **و يلعب الماء دور البطولة في هذه الثورة** بانتقال المادة من جزيئات غير حية إلى خلية حية تتنفس .. و هذه الأحداث كلها جرت في التراب المتشكل على أحد الكواكب ، لذا يقال أن آدم خلق من تراب تماماً كحال حي بن يقظان ، فما ذلك سوى تشبيه لطريقة تكون الزيتونة بنفسها و التي صممت البشر على شاكلتها .. هذه الخلية التي ظهرت أخذت بالانقسام لاحقاً و التطور تدريجياً إلى أن شكلت عبر عملية مزمنة للغاية شبه كائن لكن غير واعٍ .. تحركه الغريزة و يتطور بشكل مستمر ..

= مرحلة ما بعد الوعي : بعد أول حادثة ثورية في حياة الزيتونة و هي تنفس المادة و ولادة الخلية ، تأتي الحادثة الثورية الثانية و هي ولادة الوعي لدى شكلها الأخير عبر تطور الدماغ إلى مستوى متقدم ، و مع ظهور الوعي ظهر بالتزامن معه :

❁ الزمن ..

❁ المشاعر بأنواعها ..

❁ الأنا ..

❁ منعكس اكتشاف الذات و المحيط ..

و هذه المرحلة لا يمكن وصف الألم و الإحباط و الإرادة الفولاذية فيها .. فهي عبارة عن انتقال من إخفاق إلى إخفاق بدون يأس .. و النور في نهاية النفق الذي كان يلهم الزيتونة على المتابعة هو متعة العلم و الاكتشاف و قوة الإيمان كما حدث مع صديقنا حي بن يقظان بالضبط ، فمع كل اكتشاف جديد كان يطرأ تحسن و تطور على حياة الزيتونة مما يمنحها أملاً جديداً .. و هذه التجارب كلها نجدها في تجارب البشر من حولنا اليوم كأمثلة مبسطة ، و الوصف و الكلام عن هذه المرحلة يبقى جائراً بحق للزيتونة ، لأن ما من كلام يمكنه الإحاطة بما مرت به و عانته خلال هذه المرحلة .. **لذا فبطل هذه المرحلة هو الإرادة التي لا تقهر ..**

= مرحلة ترويض الكون : مع تتالي الاكتشافات أصبحت الزيتونة ذات سيطرة أكبر على جسدها و على المحيط من حولها فتحولت من دور الدفاع إلى دور الهجوم .. و بدأت كقائدة فذة تبسط سيطرتها على رقعة الكون بالتدرج حتى توجت ملايين السنين من التطور المزمن باكتشاف كل غياهب الكون و ترويضه لخدمتها ، و هذه المرحلة سيفهمها فقط البشر الذين ستسنح لهم الفرصة في العيش في آخر سنوات الحياة على كوكب الأرض عندما يبلغ تطور البشرية مستويات مذهلة .. و يمكن تجسيد هذه المرحلة بأن الزيتونة عبارة عن فارسة و الكون هو حصانها الجامح البري الذي عانت كثيراً حتى روضته بالنهاية و أحالت الكون الباهت إلى جنان ملونة .. **و بطل هذه المرحلة هو العلم و المعرفة التي تخرج المخلوقات من الظلمات إلى النور ..**

= مرحلة البحث عن عائلة : في حياة البشر و بعد أن يبلغ الذكر أو الأنثى عمراً محدداً و يفرغون من اكتشاف أنفسهم و اكتشاف الحياة من حولهم يبدأ تفكيرهم بالاتجاه إلى تكوين عائلة تمنحهم **السعادة و الاستقرار و الأمان** و تجعل للحياة معنى .. و هذه الغريزة هي ذاتها التي دفعت بالزيتونة إلى التفكير بتكوين عائلة بعد أن فرغت من تكوين ذاتها ، و الأهم بالنسبة لها تصميم إنسان يختزل في تكوينه و شخصيته الكون الأكبر الذي احتضنها و ترعرعت فيه ليكون هذا الشخص بمثابة عائلة كاملة لها ، أب و أم وأخ و

ابن بل و صديق مقرب قضت ملايين السنين تتخيله في فضاء الكون و تناجيه و تفشي له بأسرارها و هي على ثقة تامة أنه موجود في مكان ما من الكون الأكبر ، إنه ببساطة الإله الذي عبدته في حياتها و خالقها الذي تدين له بوجودها .. و لأن الزيتونة اكتشفت بعد ترويض الكون أن لا وجود لهذا الإله فإنها فهمت أن الكون الأكبر بنفسه هو ذاك الإله الأزلي بلا بداية و الأبدي بلا نهاية .. لذا أرادت تجسيده بشخص وضعت فيه صفات الكون كلها ليكون رمزاً لخالقها الذي تؤمن به .. و من هذا الشخص أرادت أيضاً أن تنجب عائلة كاملة من مليارات البشر ، لأن الجنة بلا ناس لا معنى لها من الأساس .. فبعد العيش في جنتها لملايين السنين الأخرى استنفذت مصادر سعادتها بالتكرار و التعود بغياب الآخر في حياتها الذي يولّد التجديد و الاستمرارية بالمتعة و السعادة ، لذا حسمت أمرها في النهاية و صممت الكون الأصغر كمدرسة تعلم فيها أبناءها البشر أسرار الحياة و دروسها كي تليق بهم جنانها بعد الموت و يعيشوا جميعاً ببهجة و أمان إلى الأبد .. و **بطل هذه المرحلة هو غريزة الأمومة** ..

هذه باختصار شديد هي قصة حياة الزيتونة كما ذكرها الكتاب الذي عثر عليه في الصندوق، منذ بدأت كخلية حتى انتهت كحسناء تقود الكون الأكبر و أم عظيمة تنتظر أبناءها بفارغ الصبر و من بينهم شخص واحد تدين له بكل شيء و تعتبره الكون الأكبر الذي ترعرعت فيه و اكتشفت نفسها كما اكتشفت أسراره و خفاياه أيضاً ، البيضة التي فقست أو الشرنقة التي تفتحت و خرجت منهما إلى الحياة ، **الموجد الواجب الوجود** الذي وصل إليه حي بن يقظان بالنهاية ..

و في نهاية الجزء الثاني تحدث الكتاب عن جذور الزيتونة أي البيئة التي شكلتها بترميز مستوحى من حياتنا البشرية فكتب فيه :

لا يوجد إنسان في هذه الحياة لم يأتِ من **اتحاد أب مع أم** .. و هذه القاعدة لا تختلف مع شجرة السماء : (الزيتونة اللاشرقية و اللاغربية) فهي لم تأتِ من أب فقط كما قد يتوهم البعض ، لكن الفارق في هذه الحالة أن الأب و الأم هما شخص واحد يحمل الجناحين معا (**XY**) أو (الشمس و القمر) أو (صدفتي المحارة) أو (جديلتي **DNA**) أو (المهباج) .. و الزيتونة نسخت من إحدى الجديلتين أو تكونت في قلب المحارة ، أو صنعت في المهباج أو خلقت من **X** أي ضلع **XY** لتكون زوجاً له و يكون عائلةً

لها ، لهذا السبب فكل ذكر في العالم يحمل جانباً أنثوياً في شخصيته ، و لا يمكن لأي إنسان أن يتبرأ من جيناته .. **و اتحاد الذكر و الأنثى الذي نجم عنه ولادة الزيتونة هو الفتح الأكبر في تاريخ الأكوان** .. و كيف لا يكون كذلك و كانت نتيجته هذه الألماسة الفريدة ؟ و من أدرى من أوليفر نفسه بذلك ؟!

و بذلك يكون الله هو الكون **25** الأكبر أو البيضة أو الشرنقة أو المحارة التي تشكلت في أحشائها الزيتونة كخلاصة أخيرة ..))

جلس أوليفر متسمّرًا في مكانه لدقائق .

لم تكن الحقيقة سهلة.

كانت صادمة بلا شك، لكنها... تشرح كل شيء بوضوحٍ لا يناقش.

و لا شك أن هذا الكتيب هو من تأليف السيد عزيز أو الأخوية التي ينتسب إليها صحبة صديقيه الراحلين الأسقف المسيحي **جيمزا** و البروفيسور اليهودي **ترومان** ..

لكن...

ماذا الآن ؟

لماذا ترك له السيد عزيز مفتاح منزله ؟

كان بإمكانه قراءة هذا الكتيّب في أي مكان آخر، في الفندق، في مقهى ، أو حتى في الطائرة.

إذًا... لا بد أن هناك شيئًا آخر.

سرًّا إضافيًا.

شيئًا مخبّأ هنا، في هذا المنزل، ينتظر أن يُكتشف.

شيئًا يفسّر المصير الحقيقي للسيد عزيز اليقين.

هل هو حيّ كحال حيّ بن يقظان ؟

أم قُتل فعلًا في حادث تحطم الطائرة ؟

نهض أوليفر ببطء، ونظر حوله.

كان يعرف، في قرارة نفسه، أن الإجابة لم تعد بعيدة.

العالم الآخر

مصر / الاسكندرية

تشرين الأول 2026 م ..

التفت أوليفر حوله ببطء، يدقّق في تفاصيل غرفة المكتبة، كمن يعيد قراءة ذاكرةٍ مألوفة بلغةٍ جديدة.

الرفوف، ترتيب الكتب، الفراغات الصامتة بين الأشياء... كل ذلك أعاده فورًا إلى مكان مشابه .. غرفة المكتبة في جامايكا.

الشبه لم يكن مصادفة، بل توقيعًا خفيًا للسيد عزيز ، أسلوبٌ كان يتركه دائمًا كأثر قدمٍ على الرمل.

هناك، في جامايكا، دلّته لوحة ومصباح إلى غرفة سرّية في القبو.

وهنا... كان إحساسه يقول إن الأمر لن يختلف.

بدأ يبحث بعينيه، متجاوزًا التفاصيل الظاهرة، متجهًا نحو ما لا يُرى للوهلة الأولى.

ثم توقف.

لوحة يتيمة كبيرة، معلّقة على الجدار المقابل.

اقترب منها، ومع كل خطوة كانت دهشته تتضاعف.

كانت لوحة شهيرة للفنان **بوتيتشيللي**: **فينوس في قلب المحارة**.

ابتسم بمرارة خفيفة.

فينوس، المولودة من البحر، في قلب محارتها...

كحال الزيتونة، شجرة السماء، في قلب الكون تمامًا.

إلى جوار اللوحة، كان هناك ما يشبه المصباح، شبه مختفٍ داخل محارة زجاجية شفافة.

اقترب، ومدّ يده، وأبعد صدفتي المحارة عن بعضهما.

في الداخل...

كان هناك مصباح، على شكل لؤلؤة.

وقف ينتظر.

ثانية... ثانيتين...

لم يحدث شيء.

تنفّس بعمق، ثم ابتسم فجأة.

تذكّر.

في جامايكا، لم يكن المصباح وحده كافيًا.

بحث بعينيه عن زر الإنارة في الغرفة، وما إن عثر عليه حتى ضغطه.

أضاء المصباح اللؤلؤي فجأة بنورٍ ناعم، دافئ، شبه حي.

وفي اللحظة التالية...

اهتزّت أرضية الغرفة.

الاهتزاز ذاته، الصوت ذاته، الإحساس ذاته الذي عرفه هناك، في ديناميس روما.

ثم...

انفتحت بوابة في الأرضية الخشبية، كانت مخبّأة بعناية لا تشوبها شبهة.

لم يتردّد.

تقدّم، وبدأ ينزل الدرج الملتوي نحو الأسفل.

كان قلبه يخفق بسرعة، ليس خوفًا، بل انتظارًا.

هل ينتظره السيد عزيز هناك ؟

كما فعل في جامايكا ؟

وصل إلى القبو.

بحث بيده عن زر الإنارة، وضغطه.

أضيء المكان...

لكن خيبة أملٍ كبرى اجتاحت روحه المنتظرة .

لم تكن هناك قاعة واسعة، ولا ديكورات ، ولا حضور بشري.

كانت غرفة وحيدة صغيرة، عارية إلا من مقعد جلدي واحد في منتصفها.

اقترب.

وعلى المقعد، رأى ما يشبه نظارات واقع افتراضي، موضوعة بعناية، كأنها تنتظره وحده.

لم يتردّد.

جلس على المقعد المريح ، التقط النظارات، ارتداها، وشغّلها.

وفي لحظة واحدة...

تبدل الواقع.

وجد نفسه واقفًا على شاطئ جزيرة استوائية.

الرمال بيضاء، البحر هادئ، والسماء بلونٍ لم يره من قبل.

ثم رآه.

السيد عزيز اليقين.

كان يقف على مسافة غير بعيدة، يبتسم له ابتسامته المألوفة، تلك التي تجمع الحكمة بالطمأنينة.

لوّح له بيده...

ثم بدأ بالكلام :

((عزيزي أوليفر .. أعلم أنني خيبت أملك .. إذ كنت تتوقع رؤيتي شخصياً كما حدث في دياميس روما في جامايكا .. لكن الظروف تغيرت .. و الواقع الحقيقي تغير .. فلجأت إلى الواقع الافتراضي كي أقابلك .. أنت تسأل نفسك بالطبع الآن ، لماذا ؟

إنه السبب ذاته **منظمة الثبات** الظلامية .. لقد هددتني مجدداً و بشدة .. و

قبيل سفري إلى هونغ كونغ أبلغني الإنتربول أن السفر غير آمن بحسب معلوماتهم الاستخباراتية من قلب المنظمة المتفككة و التي تحاول إعادة بناء نفسها مجدداً .. و بالفعل تبين أن إحدى الحقائب كانت تحتوي متفجرات و تم إيصالها إلى الطائرة عبر العلاقات الفاسدة المتشعبة للمنظمة .. أنا لم أسافر ، لكن للأسف الطائرة انفجرت و ذهب ضحية ظلام المنظمة عشرات الأبرياء مجدداً ..

حياتي الآن في خطر حقيقي ، و لن أسمح لنفسي أن يمسّك أنت و عائلتك أي أذى بسببي .. لذا قررت الرحيل بسلام و دون ضجيج ، لكن قبل الوداع ، عزمت على أن أنهي معك رسالتي التي بدأتها في ميلانو ، فأنت أردت الوصول إلى الحقيقة الشاملة .. و اليوم أنت – كما أتوقع – بت تملكها .. و أجبتك على كل الأسئلة التي بقيت عالقة من الأحاجي السابقة

لكن بقي هنالك موضوعان فقط لا بد من الحديث عنهما كي تكتمل مهمتي و أرضى لك ما تركته لك من أسرار كونية ..

الموضوع الأول ، هو فكرة العالم الآخر .. أنت الآن بتّ تعرف أن كوننا الأصغر يتمدد في حيز صغير من الكون الأكبر أو العالم الآخر ، لكن دعنا نتحدث بإيجاز عن ذلك العالم ..

توصف جنان الله في الكتب السماوية بمصطلح (العالم الآخر) ، أي أننا نتحدث عن عالم مشابه لعالمنا في كثير من الجوانب ، أما أهم ميزات الكون الأكبر الذي سنعيش فيه عن الكون الأصغر الذي نعيش فيه الآن فهي التالي :

غياب المشاعر السلبية التي نعاني منها في الكون الأصغر ، فهنالك لا وجود للألم أو الحزن أو الحقد أو الحسد أو التعب أو المسؤوليات أو غيرها **لا معنى للزمن** ، فهنالك أوقات مستمرة من المتعة لا تتوقف بنوم أو تنتهي بموت ، بلا ماضٍ أو حاضر أو مستقبل أو ساعة أو توقيت .. فكل هذه مصطلحات دنيوية خاصة بالكون الأصغر فقط .

متعة لا تنتهي تجعل المتع الدنيوية من أوقات سعيدة و طعام و شراب و

جنس بل حتى مخدرات كما يدعي البعض و غيرها مجرد مقبلات بسيطة للغاية قبل الطبق الرئيسي ..

عدد هائل من الأكوان الموازية بحيث يكون كل إنسان عاش على هذه الأرض هو ملك كونه الخاص المصمم وفق ميوله و رغباته و شخصيته الأرضية .. و تتشابك هذه الأكوان على نحو مدهش يفجر العقل حرفياً ..

عدد غير منتهٍ من العوالم الافتراضية شديدة التطور ، بحيث يمكن لكل إنسان أن يعيش في أي جسد يريده في أي بيئة يختارها و يعيش أي قصة أو مغامرة يتخيلها كل ما عليه هو اختيار البيانات الصحيحة .. و كما ترى بنفسك الآن ما الذي يمكن للواقع الافتراضي أن يحققه و العلم لا يزال يحبو على دروب هذا المجال

إمكانية كل إنسان أن يرى حياته التي عاشها على الأرض بتفاصيلها كلها بتجسيم ثلاثي الأبعاد و كأنه يعيش مع نسخته السابقة تماماً منذ كان نطفة و بويضة يلتقيان حتى وفاته .. و تخيل معي عزيزي أوليفر كم هذا رائع و مذهل .. أن ترى نفسك جنيناً

ثم رضيعاً ثم طفلاً ثم شاباً و هكذا .. و تتذكر أحداث تلاشت من ذاكرتك

معرفة الإنسان لنوايا الآخرين تجاهه في الحياة ، من ضحى من أجله دون أن يعرف و من خانه و تآمر عليه من وراء ظهره

معرفة الإنسان لتأثير أفعاله الأرضية على الآخرين عبر الأزمنة الثلاثة و هذه الميزة مذهلة لدرجة تفوق الوصف ، حيث سيصدم كل إنسان بالتأثير المرعب لكيانه على الآخرين و على الكون الأصغر ، في حين كان يحسب نفسه قليل الأهمية و ربما بلا فائدة أو تأثير يذكر ، لكنه سيكتشف أن للسماء نظرة أخرى له فهي لم تخلقه جزافاً بلا أدنى شك !!

رؤية أحبائك في فترات عمرية لم تشهدها ، كوالديك عندما كانوا أطفالاً أو أحفادك عندما أصبحوا عجائز و هكذا ..

الفهم الكامل لقصة الحياة الدنيوية ، كيف بدأت و تطورت و انتهت ، السبب الكامن خلف خلق البشر فيها ، و الآليات المتنوعة لإدارتها ، و الدروس المختلفة البليغة و النبيلة لبناء الإنسان الحقيقي فيها ..

و بالطبع التعرف على شجرة السماء الزيتونة ، على قصتها الملحمية الطويلة في بناء ذاتها و التي انتهت باكتشافها للكون الأكبر (الله) و لكل شيء ثم تصميمها للكون الأصغر و لنا فيه و منحها الحب الذي تستحقه منا

و القائمة تتسع و تطول من مزايا العالم الآخر .. لكن الأكيد سيد أوليفر أن **اسم الجنة لم يشتق من الجنون عن عبث** ، بل لأنها ستفقدك عقلك من هول جمالها و تطورها و متعتها ، لذا جلّ ما عليك فعله في هذه الحياة الدنيا هو أن تسعى لصلاح أفكارك و أقوالك و أفعالك و تترك لك أثراً طيباً فيها بحيث تليق بك جنان الله بعد موتك .

في الحياة الدنيا يا صديقي يعمل الإنسان بجهد طوال الشهر بلا كلل أو ملل بغية تحصيل مكافأته آخر الشهر(**الراتب**) كجائزة لتعبه ، فينفقه على متعته و متعة من يحب ..

فكيف إذن يتذمر الإنسان من بذل الجهد و الالتزام بوصايا السماء في حياته كي يستحق عند نهايتها جائزة عبارة عن :

شيك على بياض من النعم و السعادة و المتعة ؟!!

فكر بها قليلاً عزيزي أوليفر فستجد أن سبب ذلك هو **شك الإنسان بالحياة بعد الموت أو ربما عدم إيمانه بها من الأساس** .. فالإيمان الحقيقي يعني الوعي البديهي بأن هذه الدنيا الفانية مجرد **غمضة عين** قبل الخلود في الآخرة لذا تستحق منا الزهد و عدم التمسك بها و الالتفات إلى صلاح الأفكار و الأقوال و الأعمال على امتداد سنين عمرنا حتى يتوفانا الله و ننتقل إلى كونه الأكبر .. صدقني ما ينتظرك هناك لا يستوعبه عقلك و يستحق منك بذل الغالي و النفيس في حياتك كي تحظى به في النهاية ..

صمت السيد عزيز قليلاً ثم أردف بابتسامة حزينة :

أما **الموضوع الثاني** ، فهو كيف تعرفت أنا على الشيخ نبيل و شام، السؤال الذي تتوق شام إلى الإجابة عليه بشدة ..

في الحقيقة والد شام البيولوجي كان صديقاً مقرباً مني و يدعى **عبد الحي لقمان** .. افترقنا بعد سنوات من الصداقة بسبب مشاغل الدنيا و الحياة .. حاول بعدها بسنوات أن أتواصل معه لأطمئن عليه ، فعلمت لصدمتي أنه و زوجته **حنان** توفيا في حادث سير ، تماماً كحال و الديك ، و أنّ ابنتهما الوحيدة شام تقيم في ميتم .. حاولت التواصل مع الميتم كي أتبناها ، لكنهم أخبروني أن شيخاً يدعى نبيل كفلها بالفعل .. تتبعت سيرة الشيخ نبيل و

أعجبت به و أيقنت أن شام بين أيدٍ أمينة ، بل ربما أفضل مني ، و الأنسب لها أن تبقى في وطنها فلسطين على أن تغادره .. و كنت أتبرع للميتم بمبالغ سخية باستمرار كي أضمن لها حياةً كريمة ..

هذا هو السرّ الأخير الذي بقي كي أبوح به فأبلغه لشام ..و أبلغها تحياتي الأخيرة و قبلاتي لنبيل الصغير و قمر ..

الوداع صديقي ..

أتمنى لك حياةً مليئة بالنجاح و السعادة ..

سأبقى أراقبك من بعيد ..

و لا ندري .. ربما نلتقي في ظروف أفضل في زمن أنقى ..))

هنا انتهى الواقع الافتراضي و تحول المشهد إلى سواد حالك كما فرضته المنظمة على أرض الواقع الحقيقي ..

نزع أوليفر النظارات عن رأسه ببطء.

عاد القبو من حوله، صغيرًا، صامتًا، واقعيًا أكثر مما ينبغي.

كان في داخله خليط معقّد من المشاعر.

راحة...

للاطمئنان أن السيد عزيز اليقين لا يزال حيًا.

و حزن...

لأنه أدرك، دون أن يُقال له صراحة، أنه لن يراه مجددًا.

تلك المنظمة الظلامية لم تكن فكرة، بل قدرًا يفرض الانفصال.

انزلقت دمعة وحيدة على خده،

وسط ابتسامة فهمٍ ناضج لحقيقة الحياة...

تلك التي تعطي بيد، وتأخذ بالأخرى، دون اعتذار.

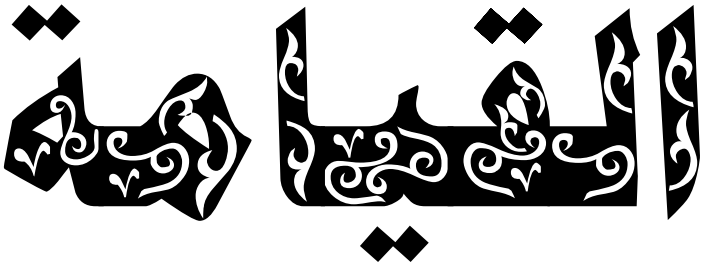
حمل النظارات، غادر القبو، ثم خرج من المنزل ، فلم يعد للمكان معنى و

قد فقدت جوهره ..

عاد إلى الفندق...

وهو يشعر أن شيئًا عظيمًا قد انتهى ..

وأن شيئًا أعظم قد بدأ.


القيامة

العودة إلى ألمانيا

تشرين الأول 2026 م ..

جلس أوليفر في مقعده بمحاذاة نافذة الطائرة، وقد أسند جبينه إلى الزجاج البارد، يراقب المساحات الزرقاء الواسعة للبحر الأبيض المتوسط وهي تتمدد تحته بلا نهاية.

كان البحر ساكنًا على غير عادته، كأنه صفحة ذاكرة مفتوحة، وكل تموّج خفيف فيه يستدعي ذكرى، وكل انعكاس للضوء يعيد وجهًا غاب ولم يغب.

تسللت الذكريات إليه دون استئذان، دافئة، مؤلمة، حقيقية أكثر من الحاضر نفسه.

تذكّر لقاءه الأول بالسيد عزيز ...

كنيسة سانتا ماريا ديليه غراتسيه في ميلانو، ذلك الصمت المقدّس الذي يلف المكان، ولوحة العشاء الأخير تتربع كسرٍ معلّق بين الأرض والسماء.

هناك، للمرة الأولى، وضعه القدر في طريق السيد عزيز أو العكس كي تبدأ رحلة الألف سرّ ..

ثم تتابعت الرحلات...

مغامراته الشيقة خلف أسرار الزيتونة، من دولة إلى أخرى حول العالم ، من رمز إلى معنى، من سؤال إلى سؤال أعمق.

كان يشعر في كل مرة أنه يقترب، وفي الوقت ذاته يبتعد أكثر عن بساطة الحياة القديمة.

وتذكّر شام...

لقاءه بها في القدس، المدينة التي تشبه عقدة في قلب التاريخ.

كيف دخلت حياته بهدوء، وكيف أصبحت لاحقًا مرساته الوحيدة في بحرٍ من الأسرار والاحتمالات.

كيف كانت الأرض أكثر ثباتًا حين كانت تقف إلى جانبه.

ثم مصر...

سفره الأول إليها، يوم جاءه خبر موت السيد عزيز في حادث سير بالإسكندرية.

ذلك الألم المباغت، ذلك الفراغ الذي لا يُفسَّر، وذلك الشعور القاسي بأن الحياة تسلب دون إنذار.

بعدها أتت جامايكا...

دياميس روما.

اللقاء الذي أعاد ترتيب كل شيء، حيث أدرك أن الموت ليس دائمًا كما نراه، وأن الغياب أحيانًا ليس إلا ستارًا لحقيقة أكبر.

ثم البرازيل...

الأسر، الخوف، العزلة، وملامسة وجه الشر عاريًا مع المنظمة الظلامية ، قبل أن تمتد يد الانتربول وتعيده إلى العالم.

هناك فهم للمرة الأولى أن المعرفة لا تُمنح دون ثمن.

بعدها حط الرحال في هونغ كونغ...

منزل السيد عزيز ، حيث تداخل الشرق والغرب، العقل والحدس، العلم والرمز.

ثم تلك الاجتماعات الثلاثية مع شام، في غرفة السينما في منزلهما في ميونخ ، حيث كانت الحقائق تُعرض على الجدار كما لو أنها مشاهد من فيلم، لكنها في الواقع كانت تُنقش في الوعي نقشًا لا يُمحى.

و أخيرًا...

سفره الأخير مجدداً إلى مصر.

ارتقاء الهرم، حجرًا فوق حجر، نحو الحقيقة الكبرى.

نحو ذلك الوداع الصامت الذي لم تُنطق فيه كلمات كثيرة، لكنه قال كل

شيء.

مغامرات...

لا تُوصَف إلا بأنها حياة مذهلة مكثفة في أربع سنوات.

تمخضت عن حقائق و أسرار لم يكن يحلم في يوم من الأيام أن يعرفها :

الزيتونة، شجرة السماء المقدسة...

كيف نشأت، كيف وعَت الكون **25** الأكبر (**الله**)، ثم صممت الكون الأصغر، ذلك الذي يتمدد داخل حيز كروي صغير فيه، كانعكاس مصغر للكون الأكبر ..

فترة الحياة البشرية...

الأيام الإلهية السبعة، واليوم الثامن، ذلك الأفق اللانهائي الذي لا يُقاس بزمن.

جذور الشر...

ليس كخطأ، بل كضرورة، كظلّ يمنح النور معناه.

حقيقة الروح...

ليست جسدًا خفيًا، بل وعيًا عابرًا للأشكال بين جسدين سماوي و أرضي .

موعد يوم القيامة...

لا كتاريخ، بل كنقطة اكتمال.

إله الشمس وإلهة القمر...

التوازن الأبدي بين الفعل والتلقي.

رقم تسعة...

الدورة المكتملة، النهاية التي تحمل بذرة البداية.

عين الإله الثالثة...

التي لا تنام، لأنها ليست عينًا، بل إدراك.

العقل الكوني الأعظم...

الذي لا يفكّر بنا، بل يفكّر من خلالنا.

هرم النقاط والاستبصار...

الصعود الداخلي الذي يسبق كل وصول.

يا إلهي...

كان يشعر بنفسه كالأعمى الذي أبصر بعد ظلام دهور.

كيف كانت رؤيته للحياة ضيقة، خانقة، مسطّحة، قبل السيد عزيز.

وكيف اتسعت فجأة، لتتكشف بكليتها أمام عينيه، وينقشع الضباب، لا جزئيًا ، بل كليًا.

والأجمل من كل ذلك...

أنه عاد من مغامرته الأخيرة حاملًا لشام خبر قيامة السيد عزيز من الموت لتتلون البيضة الكونية بأبهى الألوان تعبيراً عن الفرح و السعادة .. و يصيح الديك ثلاث مرات معلناً القيامة و أن السيد عزيز كأسطورة حي بن يقظان حيّ بنور الله الذي يفيض شلالاً في قلبه..



و أيضاً السر الذي كانت شام تتوق إليه دون أن تنطقه.

سرّها مع الشيخ نبيل.

كيف عرف السيد عزيز بشأنهما، وكيف كان يرى ما لا يُقال، ويعلم ما لا يُفصح عنه.

من السفر حول العالم خلف الأحاجي المحببة...

إلى الشرح على جهاز الإسقاط...

إلى اللقاء والوداع الأخيرين عبر نظارات الواقع الافتراضي...

عاش أوليفر أجمل أربع سنوات في حياته.

سنوات ستُحفر في ذاكرته إلى الأبد، في الكون الأصغر الذي يسكنه، و الكون الأكبر الذي يسكن فيه.

والأهم...

أنه يدرك الآن، بصفاءٍ لم يعرفه من قبل، أنه أصبح الحامل الجديد لأسرار الكون، عن أخوية السيد عزيز و رفاقه.

وأن عليه، يومًا ما، خلال السنوات القادمة، أن يجد الشخص المناسب، المختار الجديد، ليضع هذه الشعلة بين يديه.

كي لا تنطفئ.

كي تستمر.

كي تبقى **فلسفة أوبنتو** حيّة...

ومتواصلة...

جيلًا بعد جيل.

-- تمت --

لا شرقية .. و لا غربية ..

فهرس المحتويات :

❁ الجزء الأول :

- أوليفر
  - ماذا لو؟
- لا قيمة لشيء في متناول اليد
  - لا شرقية ولا غربية
- ملكة القفير
  - الماضي يعيش من جديد
- في المحار تكمن الأسرار
  - شرنقة الحياة
- واستدار الكون كخاتم في إصبعها
  - أبحث عنك وأنت معي

❁ الجزء الثاني :

- ○ نصف الحقيقة أسوأ من الوهم
- ● الساحر الجيد لا يبوح بأسراره
- ○ العودة إلى الجذور
- ● نهاية البداية و بداية اللانهاية ..
- ○ إصرار الذاكرة
- ● دياميس روما
- ○ الكرة الكونية
- ● زوبعة في فنجان
- ○ وجهاً لوجهين في القاع
- ● استراحة محارب

❁ الجزء الثالث :

- حقائق عديدة بقواعد جديدة
  - جذور الشر
- الإشباع و بداية الضياع
  - **N**
- لقاح الظلام
  - الكون **25**
- ولادة النور من رحم الظلام
  - بئر يوسف
- الإنسان المعجزة

❁ الجزء الرابع :

- أفلاطون و ديكارت
  - ميتافيرس الروح
- لوسيد دريم (الأكوان الموازية)
  - تناسخ الأرواح
- آلام الموت ؟!
  - النبأ العظيم (النسبة فاي)
- نظرية الراوتر السماوي

❁ الجزء الخامس :

- الرحيل
  - رمضان و أيلول **99**
- العين التي لا تنام
  - هرم النقاط
- العقل الكونيّ
  - جذور الزيتونة
- العالم الآخر
  - القيامة

